

مطبوعات المجمع العلمي العراقي

الجامع الكبير

في

صناعة المنظوم من الكلام والمنثور

تأليف

ضياء الدين بن الأثير النجدي

قام بتحقيقه والتعليق عليه

الدكتور مصطفى جواد و الدكتور جميل سعيد

مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٩٥٦ م - ١٣٧٥ هـ

مطبوعات المجمع العلمي العراقي

al-Jāmi' al-Kabir

الجامع الكبير

في

صناعة المنظوم من الكلام والمنثور

تأليف

ضياء الدين بن الاثير الجزري

شبكة كتب الشيعة

قام بتحقيقه والتعليق عليه

الدكتور مصطفى جواد و الدكتور جميل

مطبعة المجمع العلمي العراقي

shiaabooks.net ١٩٥٦م - ١٣٧٥ هـ

رابط يدیل < mktba.net

تصدير

عصر نصر الله بن الأثير

كلُّ أدبٍ هو نتيجة لثقافته وموهبته وبيئته وعصره ، ولاختلاف هذه المؤثرات الاربعة تختلف درجات الأدب وتختلف أحياناً ضروبه وأنواعه ، وعصر نصر الله بن الأثير هو النصف الثاني من القرن السادس من الهجرة ، والنصف الأول من القرن السابع ، وهذا العصر يتميز بالتفاني الحربي بين الدول الاسلامية والامارات الافرنجية بالشام المعروفة بمستعمرات الصليبيين ، وبانتعاش الدولة العربية العباسية واستعادتها استقلالها منذ عهد الخليفة المقتفي لأمر الله سنة « ٥٤٧ » ونهوض دولة الأدب في حكم العرب ، فالحروب الصليبية منذ نشوبها أخذت تلهب العواطف ، ونفيض القرائح ، وتحرق القلوب ، وتهيج النفوس ، فأخذ النثر منها سبيلاً سياسياً حماسياً رائعاً ، وأخذ الشعر منها طريقةً حماسية لاذعة ، وكثرت المراسلات المستنفرة والأناشيد الحافزة وأقبل الناس على القصيد يلبون داعيه ، وحفدوا الى المستغيث بالنصر المؤزر .

وانتهاض الدولة العربية من كبوتها أقام للأدب سوقاً دارة ، واستفاض القرائح ، وبعث جماعات كثيرة من الأدباء على خدمة دولة العرب ، بعد أن كانوا لا يصدقون بانتعاشها ، ويستعجزون القدر في انتياشها ، وألف جماعة من الأدباء كتباً في البلاغة والبيان .

وذكر نصر الله بن الأثير نفسه من المؤلفين في البلاغة ممن سبق عصرهم عصره « ابن أفلح البغدادي قال : « ووقفت على كتاب يقال له « مقدمة ابن أفلح ^(١) البغدادي » وقد قصرها على

(١) هو جمال الملك أبو القاسم علي بن أفلح الحلي البغدادي الكاتب الشاعر المتوفى سنة « ٥٣٥ » في أشهر الأقوال ، كان ذا فضل وأدب وله شعر مليح ونثر جيد بليغ إلا أنه كان كثير الهجاء ، لقبه السرتشد جمال الملك ثم نعم عليه لخماسته « ديبس بن صدقة المزدي عليه ، ترجمه ابن الجوزي وذكره في المنتظم « ٢٤٣ : ٩ » و « ١٠ : ٨٠ » والعماد الأصفهاني في خريدة القصر « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٣٣٢٦ =

تفصيل أقسام علم الفصاحة والبلاغة ، وللعراقيين بها عناية وهم واصفون لها ومكبون عليها ولما تأملتها وجدتها قشوراً لالب تحتهما لأن غاية ما عند الرجل أن يقول : وأما الفصاحة فأنها كقول النابغة مثلاً أو كقول الأعشى أو غيرهما . ثم يذكر بيتاً من الشعر أو أبياتاً ، وما بهذا تعرف حقيقة الفصاحة حتى إذا وردت في كلام عرفنا من حقيقتها الموجودة فيه وكذلك يقول في غير الفصاحة ... »

وذكر منهم الكافي محمد بن الحسن بن حمدون البغدادي مؤلف التذكرة كما في « ص ١٥٦ ، ٢٢٢ » من المثل السائر قال : « ورأيت ابن حمدون البغدادي صاحب التذكرة قد أورد هذين البيتين في كتابه ... » ثم قال : « ووجدت في كتاب التذكرة لابن حمدون البغدادي وكان مشاراً إليه عندهم بفضيلة ومعرفة لاسيما فن الكتابة فوجدت في كتابه ذلك باباً مقصوداً على ذكر السكناية والتعريض ... » . فقدمة ابن أفلح وكتاب التذكرة العظيم من كتب البلاغة والأدب إذ ذاك ، وقد ألف فيها بعد ذلك أبو المعالي الحظيري المتوفى سنة « ٥٦٨ هـ » .

وبعد هذه الحقبة ظهرت براعة نصر الله بن الأثير في الترسل والتأليف في البيان فألف كتاب « الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور » الذي فاق ما تقدمه في الزمان من التأليف الخاصة بهذا الفن ثم ألف على غرار « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » وسارت بفضله الركبان ، وعكف على درسه طلاب الأدب في مختلف البلدان ، ولما وصل الى بغداد تصدى له عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد ، المدائني فألف نقداً له ، ولكنه لم يستطع الخط من قيمته قط فقد سار كالمثل السائر ، والبدر الباهر في فلك البلاغة والبيان . وسنشير إلى ذلك أيضاً في أثناء الكلام على سيرة نصر الله الأدبية .

== الورقة ٢٤ » . وابن النجار « المستفاد في الورقة ٥٣ من نسخة دار الكتب المصرية » وابن خلكان « ١ : ٢٤٩ ، ٣٩٦ ، ٤٥٨ » من طبعة بلاد العجم ، وله ترجمة وذكر في الكامل في حوادث سنة ٥١٧ وسنة ٥٣٥ وسمرة الزمان « ٨ : ١٦٩ ، ٢٩٧ » وصيد الخاطر لأبي الفرج بن الجوزي « ص ٣٠٨ » وعيون الأنباء في طبقات الأطباء « ١ : ٢٧٤ - ٥ » ومختصر الدول « ص ٣٦٥ » وتجارب الساف « ص ٢٩٧ » والنجوم الزاهرة « ٥ : ٢٦٤ » ونصرة الفترة للعماد السكاك « نسخة دار الكتب بباريس ٢١٤٥ الورقة ٩٧ ، ١١١ » والقسم الأول من الجزء الأول من خريدة العراق « ص ١٤٢ » .

ترجمة مؤلف الكتاب

هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري المعروف بأبن الأثير .

والجزري نسبة الى « جزيرة ابن عمر » قال ياقوت الحموي : « جزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل بينها ثلاثة أيام ولها رستاق ^(١) مخصب واسع الخيرات ، وأحسب أن أول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي وكانت له إمرة بالجزيرة وذكر قرابة سنة (٢٥٠) ^(٢) . وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال ثم عمل هناك خندق أجرى فيه الماء ، ونصبت عليه رعى ، فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق . وينسب اليها جماعة كثيرة منهم .. وبنو الأثير العلماء الأدباء وهم مجد الدين المبارك ^(٣) وضياء الدين نصر الله وعز الدين أبو الحسن علي بنو محمد بن عبد الكريم الجزري ، كل منهم إمام . مات مجد الدين والآخرون حيان سنة ٦٢٦ » .

وقال ابن خلكان : « الجزيرة المذكورة أكثر الناس يقولون : جزيرة ابن عمر . ولا أدري من ابن عمر ؟ وقيل إنها منسوبة الى يوسف بن عمر الثقفي أمير المراقين ، وسيأتي ذكره إن شاء الله - تعالى - ورأيت في بعض التواريخ أنها جزيرة ابني عمر أوس وكامل ، ولا أدري أيضاً من ها ؟ ثم رأيت تاريخ ابن المستوفي في ترجمة أبي السعادات المبارك بن محمد ...

(١) الرستاق والرزداق : القرى وما يحيط بها من الأرضين .

(٢) في الطبعة الأوربية والطبعة المصرية بعدها من معجم البلدان « وكانت له امرأة بالجزيرة وذكر قرابة سنة ٢٥٠ » وهو تصحيف شنيع لما قومناه .

(٣) ترجمه ياقوت في معجم الأدباء « ج ٦ ص ٢٣٨ - ٢٤١ » طبعة مرغليوث ، ولم يترجم أخاه علياً لأنه لم يعد من الأدباء ، ولا نشك في أنه ترجم أخاهما نصر الله وضاعت ترجمته من الجزء السابع .

أنها جزيرة أوس وكامل ابني عمر بن أوس التغلبي والله أعلم » ، ثم إني ظفرت بالصواب في ذلك ، وهو أن رجلاً من أهل برقعيد من أعمال الموصل بناها وهو عبد العزيز بن عمر ، فأضيفت إليه^(١) » والجزيرة اليوم من بلاد تركية .

وقال جمال الدين أبو حامد محمد بن علي بن الصابوني في كتابه « تكملة إكمال السكال » في مشتبته النسب : « وذكر في باب الأثير : بفتح الهمزة وكسر الراء المثلثة وبعدها ياء معجمة بائنتين من تحتها وآخره راء مهملة جماعة ، منهم الأخوان الفاضلان أبو السعادات المبارك وأبو الحسن علي ابنا محمد بن عبد الكريم الجزري وأغفل ذكر أخيها الوزير الفاضل أبي الفتح نصر الله^(٢) ... »

وقال زكي الدين عبد العظيم المنذري : « الأثير : بفتح الهمزة وكسر الراء المثلثة وسكون الياء آخر الخروف وبعدها راء مهملة^(٣) » .

قال ياقوت الحموي : « والأثير هو أبوه محمد بن محمد بن عبد الكريم^(٤) » .
والأثير في اللغة : الخليص والمكرم ، وقد جاء في الأخبار أن روح بن زنباع الجذامي كان يقرى الأضياف وكان مسامراً لعبد الملك بن مروان أثيراً عنده^(٥) . ومؤثته « الأثيرة » قال أبو الفرج الاصفهاني في أخبار « فريدة » صاحبة الواثق بالله « وكانت فريدة أثيرة عند الواثق وحظية لديه جداً^(٦) » .

وإذ كان كل من الإخوة الثلاثة ابناً للأثير لزم أن يكون « الأثير » لقب أبيهم « محمد بن

(١) وفيات الأعيان في « ترجمة » علي بن محمد بن الأثير « ج ١ ص ٣٧٩ » من طبعة بلاد العجم .

(٢) نسخة المجمع العلمي العراقي المصورة في « الأثير » .

(٣) « التكملة لوفيات النقلة » نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية « تحت الأرقام ١٩٨٢ ج ٢

ص ١٣٢ » .

(٤) معجم الأدباء « ج ٦ ص ٢٣٨ » من الطبعة المذكورة .

(٥) الكامل للمبرد « ج ٣ ص ٩٤ » طبعة الدجوني الأزهرى وقد صحت الجملة في شرح ابن أبي

الحديد ١ : ٤٥١ الى « كان مسامراً ... أميراً » .

(٦) الأغاني « ج ٤ ص ١١٤ » طبعة دار الكتب المصرية .

محمد » وقد قاله ياقوت ، فعند من كان أثيراً ؟ يظهر لنا أنه كان أثيراً عند الوزير جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الاصفهاني الملقب بالجواد وزير عماد الدين زنكي بن آقسنقر ملك الموصل في آخر عهده ، ووزير ابنه سيف الدين غازي الأول ابن زنكي وقطب الدين مودود ابن زنكي ، وقد توفي الجواد سنة ٥٥٩ هـ^(١) . استدللنا على ذلك بما ذكره ابن الأثير عز الدين في سيرة الجواد قال : « حكى لي والذي عنه قال : كثيراً ما كنت أرى جمال الدين إذا قدم اليه الطعام يأخذ منه ومن الحلوى ويتركه في خبز بين يديه فكنت أنا ومن يراه نظنُّ أنه يحمله الى أم ولده عني فاتفق أنه في بعض السنين جاء الى الجزيرة مع قطب الدين وكنت أتولّى ديوانها وحمل جاريته أم ولده الى داري لتدخل الحمام فبقيت في الدار أياماً فبينما أنا عنده في الخيام وقد أكل الطعام فعل كما كان يفعل ثم تفرّق الناس ، فقامت فقال : اقعد . فقعدت فلما خلا المكان قال لي : قد آثرتك اليوم على نفسي فاني في الخيام ما يمكنني أن أفعل ما كنت أفعله ، خذ هذا الخبز واحمله أنت في كمك في هذا المنديل ، وارك الحفاة من رأسك ، وعد الى بيتك فاذا رأيت في طريقك فقيراً يقع في نفسك أنه مستحق فاقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام . قال : ففعلت ذلك ، وكان معي جمع كثير ففرقتهم في الطريق لئلا يروني أفعل ذلك ، وبقيت في غلmani ، فرأيت في موضع إنساناً أعمى وعنده أولاده وزوجته وهم من الفقر في حال شديد ، فنزلت عن دابتي اليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم أياه وقلت للرجل : تجيء غداً بكرة الى دار فلان — أعني داري ولم أعرفه نفسي — فاني آخذ لك من صدقة جمال الدين شيئاً . ثم ركبت اليه العصر فلما رآني قال : ما الذي فعلت في الذي قلت لك ؟ فأخذت أذكر شيئاً يتعلق بدولتهم . فقال : ليس عن هذا أسألك ، إنما أسألك عن الطعام الذي سلمته اليك . فذكرت له الحال . ففرح ثم قال : بقي أنك لو قلت للرجل يجيء إليك هو وأهله فتكسوهم وتعطيهم دنائير وتجري لهم كل شهر دنائير . قال : فقلت له قد قلت للرجل حتى يجيء إليّ . فازداد فرحاً . وفعلت بالرجل ما قال . ولم يزل يصل اليه رسماً حتى قبض^(٢) .

(١) الوفيات « ج ٢ ص ١٨٦ » من الطبعة المذكورة . والكمال في حوادث سنة « ٥٥٩ هـ » .

(٢) الكمال في حوادث سنة « ٥٥٩ هـ » .

وهذه الحكاية تدل على أن الرجل كان أثيراً جداً عند جمال الدين الوزير الجواد وأنه تولى له ديوان جزيرة ابن عمر ، ويؤكد هذه الولاية ما قاله ابن الأثير أيضاً في حوادث سنة ٥٦٥ قال : « حدثني والدي — رحمه الله — قال : كنت أنولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمت فلما كان قبل ^(١) موته ييسير أتاناً كتاب من الديوان بالموصل يأمرهم بمساحة جميع بساتين العقيمة ، وهذه العقيمة هي قرية تحاذي الجزيرة بينهما دجلة ولها بساتين كثيرة بعضها يمسح فيؤخذ منه على كل جريب شيء معلوم وبعضها مطلق عن الجميع . قال : وكان لي فيها ملك كثير فكنت أقول : إن المصلحة أن لا يغير على الناس شيء وما أقول هذا لأجل ملكي فاني أمسح ملكي ، وإنما أريد أن يدوم الدعاء من الناس للدولة . فجاءني كتاب النائب يقول : لا بد من المساحة . فظهرت الأمر وكان بالعقيمة قوم صالحون لي بهم أنس وبيننا مودة ، فجاءني الناس كلهم وأولئك معهم يطلبون المراجعة فأعلمتهم أنني راجعت وما أحببت إلى ذلك . فجاءني منهم رجلان أعرف صلاحهما وطلباً مني المعاودة والمخاطبة ثانية . ففعلت . فأصروا على المساحة ، فعرفتهما الحال . فما مضى إلا عدة أيام وإذ قد جاءني الرجلان فلما رأيتهما ظننت أنهما جاءا يطلبان المعاودة ، فمجبت منهما وأخذت أعتذر إليهما ، فقالا : ما جئنا إليك في هذا وإنما جئنا نعرفك أن حاجتنا قضيت . فظننت أنهما قد أرسلا إلى الموصل من يشفع لهما . فقلت : من الذي خاطب في هذا بالموصل ؟ فقالا : إن حاجتنا قد قضيت من السماء ولكافة أهل العقيمة . فظننت أن هذا مما قد حدثنا به نفوسهما . ثم قاما عني . فلم يمض عشرة أيام وإذا قد جانا كتاب من الموصل يأمرهم بإطلاق المساجين والمحبوسين والمكسوس ويأمرهم بالصدقة ويقال : إن السلطان — يعني قطب الدين — مريض على حالة شديدة ثم بعد يومين أو ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته ، فمجبت من قولهما وأعتقدته كرامة لهما .

قال ابن الأثير : فصار والدي بعد ذلك يكثر إكرامهما واحترامهما ويزورها ^(٢) .
وبهذه القصة نعلم أن الأثير والد بني الأثير كان حسن السيرة غنياً وأنه بقي إلى ما بعد
(١) توفي سنة « ٥٦٥ » . (٢) الكامل في حوادث سنة « ٥٦٥ » هـ .

سنة ٥٦٥ هـ وهي سنة وفاة قطب الدين مودود بن زنكي ، ولم يذكر ابن الأثير المؤرخ وفاة والده ، ولكنه ذكر وفاة أخيه مجد الدين المبارك في حوادث سنة « ٦٠٦ » هـ قال : « وفيها في سلخ ذي الحجة توفي أخي مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الكاتب . مولده في أحد الربيعين سنة أربع وأربعين [وخمسمائة] وكان عالماً في عدة علوم منها الفقه والأصولان والنحو والحديث واللغة وله تصانيف مشهورة في التفسير والحديث والنحو والحساب وغريب الحديث وله رسائل مدونة وكان كاتباً مفلحاً يضرب به المثل ، ذا دين متين ولزوم طريق مستقيم — رحمه الله ورضي عنه — فله قد كان من محاسن الزمان . ولعل من يقف على ما ذكرته يتهمني في قولي ومن عرفه من أهل عصرنا يعلم أنني مقصّر ^(١) » .

ويفهم من خبر أورده ياقوت الحموي أنّ « الأثير » كان حياً في بعض عهد نور الدين أرسلان شاه الأول ابن مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر « ٥٨٩ — ٦٠٧ » ^(٢) . ويثبت ذلك إن لم يكن في الخبر تصحيف .

وكانت ولادة ابنه نصر الله مؤلف هذا الكتاب في العشرين من شعبان سنة « ٥٥٨ » ^(٣) بالجزيرة وبها نشأ ثم انتقل إلى الموصل مع والده في رجب سنة « ٥٧٩ » ودرس بها الأدب والنحو واللغة وعلم البيان ، وحفظ القرآن وكثيراً من الأحاديث النبوية ، واشتغل بالعلوم ، وتزوج قبل سنة « ٥٨٥ » ، وقد عرفنا في التاريخ له من الولد شرف الدين أبا عبد الله محمد بن نصر الله ، وكانت ولادته في شهر رمضان سنة « ٥٨٥ » ووفاته في سنة « ٦٢٢ » قبل وفاة أبيه . والظاهر أنه درس على أبيه وأتقن علم الأدب . وألف كتباً منها « غرّة الصباح في أوصاف الاصطباح » وكتاب « الأنوار في نعت الفواكه والثمار » ^(٤) وكتاب « روضة النديم » قال الصفدي :

(١) الكامل في حوادث سنة « ٦٠٦ » هـ . (٢) معجم الأدباء « ٦ : ٢٣٩ » .

(٣) يفهم من الكامل أن أخاه علياً كان بجزيرة ابن عمر سنة « ٥٧١ » ثم كان بالموصل سنة « ٥٧٦ » فهل كان قدومه إليها حاجة ؟

(٤) قال الصلاح الصفدي : هو عندي بخطه .

« له اليد الطولى فى الترسل والشعر ومن نظمه يصف الخمر... » (١) وقال ابن خلكان : رأيت له مجموعاً جمعه الملك الأشرف أحسن فيه وذكر فيه جملة من نظمه ونثره ورسائل أبيه (٢) . والظاهر لنا أن نصر الله بن الأثير درس علوم الأدب على أساتذة أخويه ثم عليهما ولا سيما المبارك الكاتب الأديب المحدث الاصولي ، ولما كملت له آلات الكتابة وأدوات الخدمة قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب فى شهر ربيع الأول سنة « ٥٨٧ » وتوسل الى ذلك بالقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ، فوصله الفاضل بخدمة الملك فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وهو شهر تكثر فيه الحوادث الجسام ، وقلمما يخلو أمر ابتدئ به فيه من سوء خاتمة . وجعل صلاح الدين له معلوماً أي جناية مالية ، فأقام عنده الى شوال من السنة فطلبه منه ابنه نور الدين علي الملقب بالملك الأفضل ، فخيره صلاح الدين بين الإقامة فى خدمته والانتقال الى ابنه المذكور ، وتكون الجناية المالية التى قررها له باقية على صلاح الدين ، فاختار نصر الله نور الدين ومضى إليه فاستوزره وحسنت حاله عنده .

ولما توفي صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩ واستقل ابنه الملك الأفضل نور الدين بمملكة دمشق استقل نصر الله بن الأثير بالوزارة وردت الأمور اليه ، وصار الاعتماد عليه فى الأحوال (٣) ، وكان نصر الله جاهلاً بالسياسة ، قليل الحظ من الكياسة ، فحسن للملك الأفضل إبعاد أمراء أبيه عنه وأكابر أصحابه ، وأن يستخدم أمراء غيرهم ، ففارقته جماعة منهم الأمير نحر الدين جهار كس وفارس الدين ميمون القصري وشمس الدين سنقر الكبير وسيف الدين سنقر المشطوب وكانوا عطاء الدولة وأهل القول المسموع فيها ، وصاروا الى أخيه الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين بالقاهرة وهو ملك مصر فأحسن لقاءهم وأكرمهم وجاد عليهم بمئات دنانير ، وولى نحر الدين أستاذية داره وفوض إليه أموره وجعل فارس الدين وشمس الدين على صيدا

(١) تاريخ الصفدي على السنين نسخة مكتبة الأوقاف بحاج برقم ١٢١٦ ،

(٢) الوفيات « ج ٢ ص ٢٩٠ » من طبعة بلاد العجم .

(٣) الوفيات « ٢ : ٢٨٨ » من الطبعة المذكورة والسلوك لمعرفة دول الملوك « ١ : ١١٠ » .

وأعمالها وكان ذلك لها وزادها نابلس وأعمالها ، ولم يقابل ضياء الدين بن الأثير إحسان القاضي
الفاضل بالاحسان ، فان الفاضل ترك دمشق أيضاً وعاف مملكة نور الدين الأفضل ولحق
بالقاهرة فخرج الملك العزيز الى لقائه وأجلّ قدومه إجلالاً ، وأكرمه إكراماً .

وكانت مدينة القدس مضافة للملك الأفضل ، فحمله ضياء الدين بن الأثير على أن يتخلى
عنها لأخيه العزيز ملك مصر ، تنصلاً من النهوض بأعباء ولايتها ، لأنها كانت تحتاج حينئذ
الى أموال ورجال لمداغمة الفرنج عنها ، فكتب الأفضل الى أخيه العزيز بذلك أخذاً برأي
الضياء ابن الأثير ، فمسرّ العزيز بذلك وجهّز عشرة آلاف دينار الى عز الدين جرديك النوري
متمولي القدس لينفقها في عسكر القدس ، فخطب جرديك بها للملك العزيز وقطع اسم الملك
الأفضل . وخشي العزيز من أن ينقض الفرنج الهدنة التي عقدها معهم أبوه صلاح الدين ،
فأرسل جنداً الى القدس احترازاً من الفرنج ، ثم بدا للأفضل أن يسترد ما وهب لأخيه وهو
القدس ، ورجع عن ذلك التخلي ، فتغير العزيز من هذا ، وأخذ الأمراء في التحريش والتضريب
بينهما وحسّنوا للعزيز الاستبداد بالملك ، والقيام مقام أبيه ودفع أخيه الأكبر وهو الملك الأفضل
عن الملك ، فبلغ ذلك أخاه فساءه .

وكانت نابلس وأعمالها قد وقف السلطان صلاح الدين ثلثها على مصالح القدس وباقيها على
ابن الأمير علي بن أحمد المشطوب فشاركه فيه أحد الأمراء الأكراد فدوا أيديهم الى الوقف
وساءت سيرتهم وتخوفوا من إنكار الملك العزيز عليهم فلجئوا الى الملك الأفضل ، فأفضل عليهم
وسكن اليهم ، فتأثر الملك العزيز بذلك ، وكان من جملة الأسباب الداعية الى الاضطراب أن
الفرنج تسلموا ثغر جبيل من مستحفظيه بيعاً ، وضعف الملك الأفضل عن استخلاصه ، فقبل
للعزيز : إن توانيت استولت الفرنج على البلاد فخرج العزيز بمسكركه من الصلاحية والأسدية
والاكراد ، وبلغ خبره أخاه الأفضل فضاق صدره واجتمع مع من في خدمته من الأمراء
بموضع يعرف برأس الماء وأراد أن يستعطف أميراً اسمه صارم الدين قايماز النجمي أحد أبناء
الأمراء عند صلاح الدين وكان مقيماً في إقطاعه وكان بينه وبين الأفضل شقاق وعناد ، فارسل

اليه الأفضّل في ذلك فلم يجب واستوحش من الأفضّل وخرج من إقطاعه ورحل الى عسكر
العزير وأظهر العزير أنه يُريد قتال الفرنج وفي الباطن كان يريد الاستيلاء على دمشق وانتزاعها
من أخيه . ورأى الأفضّل أن يكتب الى أخيه بكل ما يجب من إعلاء كلمته والاجتماع عليه ،
ويكون هو من القائم بين يديه ، طلباً منه لتسكين الفتن ورغبة في ذهاب الإحن ، فأشير عليه
بغير الصواب قال المقرزي : « منعه من ذلك وزيره ابن الأثير وعدة من أصحابه وحسنوا له
محاربة أخيه فالإلهم » . وقيل له : أنت الكبير ، وإليك التدبير ، فجدّ واجتهد ولا تعلم
أصحابك بهذا الخور الذي داخلك ، والجبن الذي نازلك ، ونحن بين يديك ، وكلنا عاقدون الخناصر
عليك . فبعث الأفضّل يستنجد عمه العادل بالبلاد الجزرية وأخاه الظاهر بحلب والملك المنصور
ب حماة والأبجد صاحب بعلبك والمجاهد شيركوه ب حمص .

ووصل في جمادى الآخرة من سنة (٥٩٠) هـ رسول الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين
الى الملك الأفضّل ، ووصلت كتب جماعة من الملوك الأكارب بالإنجاد المتظاهر للأفضّل . وسير
الأفضّل الى عمه العادل وهو بخرّان والرها من الجزيرة رسلاً يستنجد به ، فلما أبطأ عليه سير
اليه أميراً اسمه عز الدين عثمان الزنجبيلي على نجيب ليسرع ويأتي به عن قريب ، وكانت كتب
الملك العادل قد وصلت تحمل نبأ عزمه على نجدة الأفضّل ونصرته .

ووصل العزير في جيشه الى ظاهر دمشق وجاء العادل في عساكره نجدة للأفضّل فنزل
بمرج عذراء^(١) من الغوطة وأرسل اليه العزير يريد الاجتماع معه ، فاجتمعوا على ظهور افراسهما
وتفاوضا فقال له العادل فيما قال :

« لا تحرب البيت - يعني البيت الأيوبي - ولا تدخل عليه الآفة ، والعُدو وراءنا - يعني
الافرنج - من كل جانب وقد أخذوا جبيلاً فارجع الى مصر واحفظ عهد أبيك ، وأيضاً فلا

(١) جاء في النجوم الزاهرة « ٦ : ١٢١ » طبعة دار الكتب « مرجع عدواء » وقال المصححون
المصريون في الحاشية « كذا في الأصل وفي ابن الأثير (بمرج الريمان) وقد بحثنا عن كلاهما في الكتب التي
تحت أيدينا فلم نوفق اليهما » . قلنا : عدواء هو تصحيف « عذراء » قال ياقوت في معجم البلدان .
« عذراء ... وهي قرية بغوطة دمشق من اقليم خولان معروفة واليهما ينسب مرج ... » .

تَكْسِر حَرَمَةَ دِمَشْقٍ وَتَطْمَع فِيهَا كُل أَحَد^(١)». وَتَحَدَّثَ مَعَهُ فِي الصَّلَاحِ وَأَنْ يَنْفُسَ الْخَنَاقَ عَنْ دِمَشْقٍ وَكَانَ قَدْ اشْتَدَّ الْحَصَارُ وَقَطَعَتْ الْأَنْهَارُ وَنَهَبَتِ الثَّمَارُ ، فَوَافَقَ الْعَزِيزُ عَمَّهُ الْعَادِلَ عَلَى فُضِّ النَّزَاعِ وَتَرَاجَعَ إِلَى قَرْيَةِ دَارِيَا مِنْ قَرْيَةِ غُوْطَةِ دِمَشْقٍ وَنَزَلَ عَلَى الْأَعْوَجِ ، وَأَرْسَلَ الْأَمِيرَ نَخْرَ الدِّينِ جِهَارَكَسَ أَسْتَازَ الدَّارِ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَجَلَ الْأَمْهَاءِ الصَّلَاحِيَّةِ - إِلَى الْعَادِلِ فَقَرَّرُوا الصَّلَاحَ عَلَى شُرُوطٍ ، وَعَادَ إِلَى الْعَزِيزِ فَرَحِلَ الْعَزِيزُ وَنَزَلَ مَرَجَ الصَّفَرِ ، فَحَدَّثَ لَهُ مَرَضٌ شَدِيدٌ وَأَرْجَفَ بِمَوْتِهِ مِنْهُ وَأَيْسَ مِنْهُ ثُمَّ أَفْرَقَ وَأَبْلَ مِنْهَا وَأَفَاقَ ، وَقِيلَ إِنَّ الْعَادِلَ بَعَثَ إِلَيْهِ يَقُولُ : ارْحَلْ إِلَى مَرَجِ الصَّفَرِ . فَرَحِلَ وَهُوَ مَرِيضٌ ، وَكَانَ قَصْدُ الْعَادِلِ أَنْ يُبْعِدَهُ عَنْ دِمَشْقٍ . وَوَصَلَ الْمُلُوكُ الْمَقْدَمَ ذَكَرَهُمْ فِي جَنُودِهِمْ نَجْدَةُ الْأَفْضَلِ ، فَقَتَلَ لَهُمُ الْعَادِلُ : قَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الْعَزِيزَ يَرْحَلُ إِلَى مِصْرَ ، قَالَ ابْنُ تَغْرِي بَرْدِي : وَاشْتَدَّ مَرَضُ الْعَزِيزِ فَاحْتِاجَ إِلَى الْمَصَالِحَةِ وَلَوْلَا الْمَرَضُ مَا صَالَحَ . وَأَمَرَ الْعَزِيزُ بِعَمَلِ نَسْخَةِ الْيَمِينِ أَيْ الْمَعَاهِدَةِ وَهِيَ جَامِعَةٌ لِمَقْتَرَحَاتِ جَمِيعِ الْمُلُوكِ وَحَسَمَ مَوَادَّ الْخِلَافِ ، وَأَنَّ الْمَلِكَ الْأَجْبَدَ بِهَرَامِشَاهُ بْنُ عَزِ الدِّينِ فَرَخْشَاهُ الْأَيُّوبِيَّ صَاحِبَ بَعْلَبَكِ وَالْمَلِكَ الْمُجَاهِدَ شِيرَكُوهُ الصَّغِيرَ صَاحِبَ حَمَصٍ يَكُونَانِ مَوْازِرِينَ لِلْمَلِكِ الْأَفْضَلِ وَتَابِعِينَ لَهُ ، وَأَنَّ الْمَلِكَ النَّصُورَ صَاحِبَ حِمَاةٍ يَكُونُ فِي حَيْزِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ غَازِي صَاحِبَ حَلَبٍ وَمَوْازِرًا لَهُ . وَبَعَثَ كُلٌّ مِنَ الْمُلُوكِ أَمِيرًا مِنْ أَمْهَائِهِ لِيَحْضُرَ الْحَلْفَ وَالتَّحَالِفَ ، فَاجْتَمَعُوا يَوْمَ السَّبْتِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ رَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ « ٥٩٠ هـ » الْمَذْكُورَةِ ، وَجَرَتْ أُمُورٌ آتَتْ إِلَى الْحَلْفِ عَلَى دُخْنٍ ، وَطَلَبَ الْعَزِيزُ إِلَى عَمِّهِ أَنْ يَزُوجَهُ إِحْدَى بَنَاتِهِ فَزَوَّجَهُ إِيَّاهَا ، وَكَتَبَ الْعَادِلُ الْأُصْفَهَانِيَّ كِتَابَ الْعَقْدِ فِي ثَوْبٍ أَطْلَسَ ، وَقَرَأَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَعُقِدَ الْعَقْدُ عِنْدَهُ .

وَخَرَجَ الْمُلُوكُ لِتَوْدِيْعِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ وَاحِدًا وَاحِدًا ، وَأَوَّلُ مَنْ خَرَجَ إِلَيْهِ أَخُوهُ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ غَازِي وَالتَّمِيمَا فِي أَوَّلِ شَعْبَانَ بِمَرَجِ الصَّفَرِ وَبَاتَ عِنْدَهُ لَيْلَةً وَعَادَ بَعْدَ أَنْ أَهْدَى كُلَّ إِلَى أَخِيهِ هَدِيَّةً ، وَخَرَجَ بَعْدَهُ عَمَّهُ الْعَادِلُ فِي خَوَاصِهِ ثُمَّ أَخُوهُ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ ، فَتَلَقَّاهُ وَاعْتَنَقَا وَبَكِيَا ، وَكَانَ قَدْ فَارَقَهُ مِنْذُ تِسْعِ سَنِينَ ثُمَّ إِنَّ الْأَفْضَلَ نَظَّمَ أُبَيَاتًا فِي اسْتِعْطَافِ أَخِيهِ وَاسْتِمَاتِهِ وَبَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ ،

(١) قَابَلَ هَذَا السِّكَّامَ الَّذِي نَقَلَهُ ابْنُ تَغْرِي بَرْدِي فِي النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ « ٦ : ١٢١ » بِمَا اتَّهَمَ بِهِ ابْنَ الْأَثِيرِ الْمَلِكَ الْعَادِلَ مِنْ سَعْيِهِ فِي فُسَادِ الْبَيْتِ الْأَيُّوبِيِّ .

ورحل العزيز من مرج الصفر في ثالث شعبان يُريد مصر ، فلما كان ثالث عشره عمل الأفضل لعمه وسائر الملوك دعوة عظيمة وودعهم ، ثم رحلوا من الغد الى بلادهم إلا العادل فانه أقام الى تاسع شهر رمضان ثم رحل إلى بلاده بالجزيرة .

وهم الأفضل بمكاتبة العزيز بما يؤكد أسباب الصلح فأماله عن ذلك خواصه وأغروه بأخيه ورموا جماعته من أمرائه بأنهم يكتبون العزيز ، فأستوحش منهم وفطنوا لذلك فتفرقوا عنه ، فالأمير عز الدين سامة صاحب كوكب وعجلون ترك الأفضل والتحق بالعزيز بمصر فأكرمه غاية الاكرام ، وأخذ يحرضه على الأفضل ويحثه على المسير الى دمشق وانتزاعها منه ويقول له : « إن الأفضل قد غلب على اختياره وحكم عليه وزيره ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزري وقد أفسد أحوال دولته برأيه الفاسد وهو يحمل أخاك على مقاطعتك ويحسن له نقض اليمين ، فإن من شرطها صفو الوداد وصحة النية — ولم يوجد ذلك ، فحنثهم في اليمين قد تحقق وبرئت أنت من العهدة ، فاقصد البلاد فانها في يدك قبل أن يحصل في الدولة من الفساد ما لا يمكن تلافيه ، إن الله يسألك عن الرعية وهذا الرجل — يعني الأفضل — قد غرق في اللهو وشربه واستولى عليه الجزري وابن العجمي » .

وكان الأفضل لما انفصلت العساكر عن دمشق شرع ، على عادته ، يلهو ويلعب وتظاهروا بلذاته واحتجب عن الرعية فسموه « الملك النوام » وفوض الأمر الى وزيره ضياء الدين نصر الله ابن الأثير وحاجبه جمال الدين محاسن بن العجمي فأفسدا الأحوال وكانا السبب في زوال دولته .

وبينما كان الأمر على ذلك فارق الأفضل شمس الدين أيدير بن السلار أحد أمرائه ووصل الى العزيز فساعد الأمير سامة على قصده ، ثم وصل الى العزيز أيضاً القاضي محيي الدين أبو حامد محمد بن عبد الله بن أبي عصرون فاحترمه وولاه قضاء الديار المصرية وضم اليه النظر في الأوقاف ، وحرّضه القاضي ^(١) أيضاً وقال له : أنت لا تسلم يوم القيامة — يعني من الحساب

(١) ظنه مصححو النجوم الزاهرة « ٦ : ١٢٢ » شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون ، بدلالة إدخاله في الفهرست مع موارد اسمه ، والصحيح أنه ابنه لأن شرف الدين كان قد توفي سنة ٥٨٥ هـ .

والمعقاب - وبلغ الأفضل ما قال سامة ومحيي الدين ابن أبي عسرون للعزیز فأقلع عما كان عليه وتاب وندم على تفریطه وعاشر العلماء والصلحاء وشرع يكتب مصحفاً بخطه ولبس الخشن من الثياب واتخذ لنفسه مسجداً يخلو فيه بمعبادة ربّه وواظب على الصيام وبالغ في التقشف حتى صار يصوم النهار ويقوم الليل .

وأما العزیز فانه قطع خبز الفقيه الكمال الكردي من مصر ، فأفسد الكمال عليه جماعةه وخرج الى العرب فجمع ونهب الاسكندرية ، فسار اليه المسكر فلم يظفروا به ، وقطع العزیز أيضاً خبز جماعة من الأمراء والفقهاء ، فتركوه الى دمشق والتجؤوا الى الأفضل فأقطعهم إقطاعات . وتجدد الخلاف بين العزیز والأفضل . وفي سنة « ٥٩١ » عزم العزیز على السير الى دمشق والاستيلاء عليها ، فاستشار الأفضل أصحابه فيما يجب أن يفعله ، فنههم من أشار عليه بمكاتبة أخيه العزیز واسترضائه . وأشار الوزير ضياء الدين نصر الله الأثير عليه بأن يعتمر بمعه العادل ويمتصم بقوته ويستنجده على أخيه . فأصغى اليه الأفضل وخرج من دمشق في رابع عشر جمادى الأولى وسار جريدة الى عمه العادل فلقيه بصقّين ، فلما نزلا ألحف الأفضل في السؤال له أن ينزل عنده بدمشق ليجيرهُ من أخيه العزیز ، فأجابه وأنزله بقلمه جعبر ثم سار الى دمشق أول جمادى الآخرة فوصل اليها في تاسعه . وكان قد دخل الأفضل حلب على البرية مستصرخاً أخاه الملك الظاهر غازياً ، فتلقيه وحلف له على المساعدة . وقيل إنه لما اجتاز بحلب اتفق مع أخيه الظاهر غازي وتحالفا ، ثم رحل عنها الى حماة فتلقيه ابن عمه الملك المنصور محمد بن المظفر وحلف له على المساعدة ، ثم سار عنه الى دمشق فدخلها في ثالث عشر جمادى الآخرة وبها العادل ، فأفضى اليه بأسراره وعلم العادل احوال الأفضل وسوء تدبيره وقبح سيرته فانحرف عنه ونهاه فلم ينته ، وأشار عليه بعزل ضياء الدين ابن الأثير عن الوزارة وقال له : هذا يخرب بيتك . فصار لا يلتفت إليه ، فحنق عليه ، ثم إن العادل سأل الظاهر غازياً في شيء فلم يجبه اليه ، فغضب لذلك العادل وانفرد عنهم .

وكان الملك الأفضل مع اختلافه في الرأي مع عمه العادل يباليغ في اكرامه وإزاحة علته

حتى ترك له سنجقه وصار يركب في خدمته . وضايق صدر أخيه الظاهر غازي بهذه الحال ، وكان الظاهر قد نفر منه جماعة من الملوك والأمراء ومن هم في طاعته ، منهم صاحب حماة الملك المنصور ، وصاحب بارين عز الدين بن المقدم ، فراسلا الملك العادل في الاعتصام به ، وكان من جماعتهم بدر الدين دلدرد بن بهاء الدولة بن ياروق صاحب « تل باشر » فاعتقله الظاهر هو وبني عمه وطلب منه تسليم حصنه ، فشفع العادل فيهم وكفل بأن يكف أذاهم واستصحبهم الى دمشق فطلب منه الظاهر الوفاء بكفالاته فتمعدّر عليه ردّهم ، وتيسّر له ودّهم ، فغضب الظاهر لذلك وراسل العزيز يحثه على الاسراع في القدوم ، فأقبل العزيز وخيم بالفوار .

وشرع العادل في تدبير أمور الأفضل وكاتب الأمراء الأسدية من أصحاب العزيز سرّاً يحثهم على تركه والانتقطاع الى حزب الأفضل واستمالهم ووعدهم الأموال والاقطاعات الصلاحية ، وكان الأمراء الصلاحيّون قد وقع بينهم وبين الأمراء الأسديين تمافس لتقدم الصلاحية على الأسدية ، وكان الملك العزيز قد قدم الصلاحية ممالك أبيه على الأسدية ممالك عمه أسد الدين شيركوه وحواشيه الأكراد ، ثم دسّ العادل الأموال الى الأسدية وكان مقدم الأسدية وأمير أمراء الأكراد حسام الدين أبا الهيجاء السمين ، وكان العزيز قد عزله عن ولاية القدس ، فاجتمعت الأكراد اليه وراسل العادل الملك العزيز يخوفه من الأسدية ، ويعرفه ما انطوت عليه قلوبهم من الغل إتماماً للحيلة ، فكانوا إذا لقيهم عرفوا في وجهه التغير عليهم ، فرغبوا عنه وحسّنوا للأكراد موافقتهم في الانصراف عنه . ودارت الأكراد حول أبي الهيجاء السمين كما قدمنا ذكره وقالوا له : لا نأمن عليك من الناصرية . فآرموا أمرهم وعجلوا رحيلهم ، فرحل أبو الهيجاء والمهرانية والأسدية عشية الاثنين رابع شوال من السنة ، ومعه « أزكش » وقصدوا دمشق ولحقوا بالملك العادل وهم في لأمة الحرب ، فسرّ بهم لأنهم معظم الجيش ، فأصبح العزيز فلم ير في الخيام من الأسدية أحداً ، وقيل : بل علم العزيز برحيلهم فما بالي بانصرافهم وقال « صفونا من أكرادهم » ولم يأمر أصحابه باتباعهم وردّهم ، وبقي في خواصه مقيماً في تلك الليلة ثم رحل عائداً الى مصر ، فجاء رسول أبي الهيجاء السمين الى العادل يعلمه برحيل العزيز خائفاً ويدعوه الى

القدوم ليلحقوا العزيز ويأخذوه ويتسلموا ملك الديار المصرية ، وكان الأسدية يكرهون العادل وإنما دعهم الضرورة الى اتباعه . واتفق العادل مع ابن أخيه الأفضل على انتزاع مصر من العزيز ، على أن يكون للعادل الثلث وللأفضل الثلثان ، ورحلا من دمشق في جنودها وخرج معها الملك المنصور صاحب حماة وعز الدين بن المقدم وسابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وانضم اليهم عز الدين جرديك النوري نائب القدس ، وأعيد أبو الهيجا السمين الى نيابة القدس . وأما الملك العزيز فانه سار على طريق اللجون والرملة وخاف من الأسدية الذين بقوا بالقاهرة أن يفعلوا فعل إخوانهم فيمنعوه من دخول القاهرة ، وكان مقدمهم الأمير بهاء الدين قراقوش نائباً عنه في الديار المصرية فلم يتغير ، وأقام على الطاعة والصفاء والمودة ، ودخل العزيز القاهرة واستقر في سلطنة مصر ، ولما وصل العادل والأفضل ومن معها الى تل العجول خلع الأفضل على جميع الأسدية ، وعلى الأكراد الأفضلية وأعطاهم الصنوج المعروفة باسم الكوسات وساروا حتى نزلوا بلبيس ، وبها جموع من الصلاحية والعززية ومقدم الصلاحية نجر الدين جهاركس ، والأمير هكدرى بن يعلى الحميدي على طائفة الأكراد ، فنازلهم جيش العادل وجيش الأفضل ، واشتد الحصار على بلبيس حتى كادت تؤخذ وضاق العزيز بالقاهرة وقلت الأموال عنده . وكان محبباً الى الرعية لما فيه من حسن السيرة وكثرة الكرم والرفق ، واحتاج الى استخدام الرجال فلم يجد مالا فبذل له الأغنياء جملة أموال فلم يقبلها .

وتوقف الملك العادل عن القتال ولم ير انتزاع مصر من يد العزيز صواباً ، وظهرت منه قرائن تدل على أنه لا يؤثر سلطنة الأفضل على سلطنة العزيز فأرسل الى العزيز يطلب منه أن يبعث القاضي الفاضل ، وكان الفاضل قد تنزه عن ملابسة الدولة ومخالطة أهلها واعتزل في داره لما رأى من اختلال الأحوال ، فأرسل اليه العزيز يسأله السعي في الأمر فأبى وامتنع ، فنصرع اليه العزيز وأقسم عليه ، فخرج حينئذ الى العادل ، فاحترمه العادل وأكرمه وتحدث معه في الأمر وعاد الى العزيز وتحدث معه فيه . فأرسل العزيز ابنيه الصغيرين مع مملوك له برسالة ظاهرة الى العادل مضمونها « البلاد بلادك وأنت السلطان ونحن رعيتك ، لا تقاتلوا المسلمين ولا تسفكوا

دماءهم وقد أنفذت ولديّ يكونان تحت كفالة عمي العادل ، وأنا أنزل لكم عن البلاد وأمضي الى الغرب » . وكان ذلك بمشهد من الأمراء ، فرق العادل له وبكى الحاضرون وقل العادل متأثراً « معاذ الله ، وصل الأمر الى هذا الحد ! » .

وكان العادل قد قرّر مع القاضي الفاضل رد خبز^(١) الأسدية والأكراد وإقطاعاتهم وأملاكمهم وأن يقيم العادل بمصر عند العزيز ليقرّر قواعد مملكة وأن يصطلمح الأفضل والعزيز ، وأن يبقى أبو الهيثجاء على ولاية القدس ، ثم قال العادل للأفضل . « المصلحة أن تمضي الى أخيك العزيز وتصلحه ، ما عذرنا عند الله وعند الناس إذا فعلنا بآبن أخينا ما لا يليق ؟ » ففهم الأفضل أن العادل ندم على يمينه ورجع عنها ، وأنه اتفق مع العزيز على أخذ البلاد منه لكنه لم يمكنه إذ ذاك الكلام ومضى الى أخيه العزيز فاصطلمحا ، وخرج العزيز من القاهرة الى بلبيس فالتقاء عمه العادل وأخوه الأفضل ووقع الصالح .

ثم دخل العزيز والعادل والأسدية الى القاهرة يوم الخميس رابع ذي الحجة من السنة وأنزل العزيز عمه العادل في القصر وأخذ العادل في اصلاح أمور مصر والنظر في ضياعها ورباعها وأظهر من محبة العزيز شيئاً زائداً ، وصار اليه الأمر والنهي والحكم والتعرف في سائر أمور الدولة جليلها وحقيرها .

وسلطن العادل ابن أخيه العزيز ومشى بين يديه بالفاشية وهي سرج من أديم مخروز بالذهب يحاها الناظر مصنوعة كلها من الذهب تحمل بين يدي السلطان في الاحتفالات . ولو أراد العادل مصر هذه المرة لأخذها وأعما كان قصده الاصلاح بين الإخوة . وضبط العادل أمور مملكة مصر وغير الاقطاعات ووفّر الارتفاعات أي الواردات وتمسك الأموال وقرب الى العزيز عز الدين سامية فصار صاحب سره وحاجبه .

ورحل الأفضل يريد الشام ومعه أبو الهيثجاء السمين فوصل اليها في أول سنة ٥٩٢ وصار

(١) في النجوم الزاهرة « ٦ : ١٢٤ » طبعة القاهرة « رد خبر الأسدية » . والمصطلح للمعاش والراتب إذ ذاك « الحبز » والجمع « الأخباز » .

الساحل جميعه مع الأفضل وفي حكمه ، ولزم هو العبادة وأقبل على الزهد ، وصارت أمور الدولة بأسرها مفوضة الى وزيره ضياء الدين بن الاثير فاختلفت به الأحوال غاية الاختلال وقبحت أفعاله وكثر شاكوه . ولم ينتفع بالتجارب .

ثم حدث اختلاف ثالث بين العزيز والأفضل وهو أنه لما عاد الأفضل الى دمشق ازداد وزيره ضياء الدين الجزري من الأفعال القبيحة كما ذكرنا وأذى الأكراب من الدولة وبلي الناس منه بيلايا والأفضل في غفلة عن تلك القضايا ، ونفر منه العباد الأصفهاني فارتحل الى مصر ، وكان الأفضل يقبل منه ولا يخالفه ولا يمدي أحداً عليه فكتب قياز النجمي وأعيان الدولة الى العادل يشكونه ، فarsل العادل الى الأفضل يقول له : « ارفع يد هذا الأحمق السيء التدبير ، القليل التوفيق » فلم يلتفت الى قول عمه ، فاتفق العادل وابن أخيه العزيز على السير الى الشام لازالة الوزير ضياء الدين بن الاثير من الوزارة وتدبير حكم الشام ووقع الرحيل من بركة الحبثاء من شهر ربيع الآخر من سنة ٥٩٢ بعد أن لم يسكن العزيز يريد السفر ، ولكن عمه أشار عليه بأن يوافقه على السير ويرافقه فيه ، فرآه عين التدبير وكان معها جميع الأسدية والمماليك .

ووصل العادل والعزيز الى الداروم^(١) وأمر العادل باخواب حصنها فتقسم بين الجاندارية والأمراء ، فشقق على الناس إخراجه لما كان به من المرفق للسافرين وانتهى الملكان الى دمشق . وكان الملك الزاهر مجير الدين داود بن صلاح الدين قدم رسولا من حلب الى أخيه العزيز من قبل أخيه الظاهر غازي لتسكين هذا الراج الثائر ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر والقاضي بهاء الدين يوسف ابن شداد ثم انصرفوا من مصر بما طلبوا ففروا بدمشق فأعلموا الملك الأفضل بما أبرم من الأمر ، فصاق صدره وطال فكره واستشار أصحابه فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل عمه وأخاه ويسلم لهما حكمهما وأشار عليه وزيره ضياء الدين بن الاثير وأصحابه بالتصميم على المخالفة ، وترك المجاملة والملاطفة ، ثم دخل عليه أخوه الملك الظاهر خضر ، فشجعه وصبره وتولى أسباب الدفاع ،

(١) في معجم البلدان أن الداروم قلعة بعد غزة للقاصد الى مصر خربها صلاح الدين لما ملك الساحل سنة ٥٨٤ والخبر يدل على أنها عمرت ثم أخرب حصنها .

ثم حلفوا الأمراء والمقدمين ، وأعدوا مواضع الدفاع وابتعوا رجالاً حوالي دمشق يتناوبون حراستها بكرة وأصيلاً ، وتفرق الأمراء على الأسوار والأبراج وجاءت رسل الملك الظاهر لظهور مظاهره الأفضل ، وندب الأفضل فلك الدين أخا العادل إليه منه رسولا فوصل فلك الدين الى المعسكر العزيزي بالداروم وغزة فلم يلق عند العزيز غير الالباء والامتناع ، فبقي فلك الدين هناك أياماً لا صلاح ذات البين ، ولا شك أنهم اشتروا على الأفضل شروطاً وأعادوا الرسول الى صاحبه ، وأقاموا ينتظرون الجواب ، فجاءهم من أنبأهم بامتناع الأفضل من الاجابة إلى ما اشتروا .

ولما رأى الأكابر وشيوخ الدولة أن الأفضل لا يسمع من رأيهم وأنه عازم على المحاربة ولا يعدل عن رأي وزيره ضياء الدين بن الأثير مع ما قد عرفه وألفه من شؤم تدبيره شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن ، فراسلوا العادل والعزيز ، واستظهروا كل لنفسه ، واتفق العادل مع عز الدين بن الحمصي على فتح الباب الشرقي من دمشق وكان مسلماً إليه ، فلما كان يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب ركب العادل والعزيز وجاءا إلى الباب الشرقي ففتحه ابن الحمصي فدخل دمشق من غير قتال وقال العماد الأصفهاني الكاتب : « فكتب الأولياء من البلد الى العزيز والعادل بانتهاز الفرصة فركبوا وتأهبوا يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب فما صدّهم عن قصد البلد أحد ، وما كان في طريقهم إلا الملك الظاهر ومعه عسكر حلب فقاتل على ظن قتال الجماعة ، وما عنده علم بما دبروه من المخامرة ، فجادوا ولم يسكتوا ، ووصل العزيز الى الميدان الأخضر ووصل العادل الى باب توما وكان الأمير الأمين به قد استنهضه اليه بكتبه ، ففتحه له فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي ، وبات العادل في الدار الاسدية ، ودخل العزيز من باب الفرج وبات في دار عمته الحسامية » وقال ابن تغري بردي : « فنزل العزيز دار عمته ست الشام ونزل العادل دار العقيقي ، ونزل الأفضل اليها وها بدار العقيقي فدخل عليها وبكى بكاءً شديداً ، فأمره العزيز بالانتقال من دمشق الى صرخد ، فأخرج وزيره ضياء الدين ابن الأثير بالليل في جملة الصناديق خوفاً عليه من القتل ، فأخذ ضياء الدين أموالاً عظيمة وهرب الى بلاده . » وقال العماد الأصفهاني « وخرج الأفضل الى العزيز ولقيه ، وتجرع من

ثم زوال ملكه مأسقته ، فلما ملك العزيز دمشق أقام بالميدان الأخضر الكبير الى أن انتقل الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه ، وأخرج وزيره الجزري مخفياً في صناديقه ، إشفافاً عليه من قتله وتحريقه ، وتحول الأفضل تلك الأيام الى مسجد خاتون وما يجاوره ، ومعه وزيره فهرب ليلاً الى بلاده وقد أدرج فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين .

وقال المقرئ : « فلما أخذ العادل والعزيز دمشق نزل الأفضل من القلعة اليها فاستحيا العادل منه . لانه (هو) الذي حمل العزيز على ذلك ليوطيء لنفسه ، كما يأتي ، وأمره أن يعود الى القلعة فلم يزل بها أربعة أيام حتى بعث اليه العزيز أيبك فطيس أمير جاندار وصارم الدين خطلخ أستاذ الدار ، فأخرجه وأخرج عياله وعيال أبيه وأنزل في مكان ، وأوفى ما كان عليه من دين وما للحواشي من الجوامك ، فبلغ ذلك نيفاً وعشرين ألف دينار ، فبيع بركة ^(١) وجماله وبغاله وكتبه ومما يليه وسائر ماله ، فلم توف بما عليه ، وقسا عليه أخوه وعمه لسوء خطه ، ثم بعث اليه عمه العادل يأمره أن يسير الى صرخد فلم يجد عنده من يسيره بأهله حتى بعث اليه جمال الدين محاسن عشرة أوصوله الى صرخد ، وأخذت من الملك الظافر مظفر الدين خضر « بُصرى » وأعطيت للملك العادل ، وأمر الظافر أن يسير الى حلب فلحق بأخيه الظاهر . وفي هذه الحادثة يقول ابن خلكان في ترجمة الملك الأفضل علي بن صلاح الدين « ولأفضل شعر فن المنسوب أنه كتب الى الامام الناصر يشكو من عمه العادل وأخيه العزيز لما أخذاه منه دمشق : مولاي إنَّ أبا بكر وصاحبه ^(٢) ...

وهي أبيات ولدت عليه وولد جوابها على الخليفة الناصر لدين الله ، قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : « ومما يعزى اليه من الشعر أنه كتب الى الخليفة لما أخرج من دمشق واتفق عليه العادل والعزيز : مولاي إنَّ أبا بكر وصاحبه ... وبلغني أنه كان يفكر هذا الشعر أنه له ^(٣) » .

(١) البرك : المتاع الخاس من ثياب وقماش .

(٢) تراجع الأبيات في الوفيات ١ : ٤٠٨ ، من طبعة بلاد العجم .

(٣) المرأة « مختصر ج ٨ ص ٦٣٨ » من طبعة حيدر آباد الدكن .

قال المقرئزي : ويقال إن العادل كان قد قرّر مع الملك العزيز وهو بالقاهرة أن الملك العزيز إذا غلب أخاه الأفضل على دمشق وأخذها منه أن يقيم بها ويعود العادل الى مصر نائباً عن العزيز ، فلما ملك العزيز دمشق وأخرج أخاه الأفضل منها انكشفت مستورات مكايده معه فندم على ما قرّره معه وبعث الى أخيه الأفضل سرّاً يعتذر اليه ويقول له : لا تنزل عن ملك دمشق « فظنَّ الأفضل هذا من أخيه خديعة وأعلم العادل به فقامت قيامته وعتب العزيز وأنبهه ، فأنكر أن يكون صدر منه هذا وحنق على أخيه الأفضل وأخرجه الى صرخد على أقبح صورة . واختفى الوزير ضياء الدين الجزري خوفاً من القتل ثم لحق بالموصل ^(١) » .

وبما قدمنا من أخبار مفصلة يظهر أن نصر الله بن الأثير كان عقيم السياسة ، عنيداً خالياً من الحكمة ، وأنه أفسد على مخدومه الملك الأفضل مملكته واحتجج أموالها وهرب بها الى الموصل ، ومن هنا يظهر نوع من نفسية الكتاب الذين إذا تولوا أمراً من أمور الدولة وشأناً من شؤونها ، فعلوا الأفاعيل المنكرة ، هذا وإن أعظم أسباب انحراف العادل عن ابن أخيه الأفضل هو إقراره لابن الأثير على الوزارة مع شدة رغبة العادل وأكثر الأئراء في عزله عنها ، وإنما كان العادل يبغي نصر الله بن الأثير لفساد رأيه وشدة قلمه في مراسلته ، فمن ذلك كتاب كتبه عن الأفضل الى عمّه العادل وفيه يظهر أسلوبه الجليل ، ونصه :

« ندمت على أمر مضى لم يُشر به نصيح ولم يجمع قواه نظامٌ

ربّ وثوق يقود الى الندم ، وتودّد يدعو الى التهم ، وقد يدلّ الحلم على صاحبه ، ويُطمع في جانبه ، ولولا ذلك لما استلّين عودي فعُجِم ، واستضعف ركني فهُدم ، ولا اشكو ما أشكوه إلا الى عمي ، وصنو أبي الذي نفره نفري ، وهو الذي قلب فُواقِي على وتري ، وعلمي التظلم من الأيام ، وأراني ضوء النهار بعين الاظلام ، ولقد أضاع في إحسانه ، وخالف في قطع رحمي

(١) راجع في جميع هذه الأخبار « الروضتين ٢ : ٢٢٨ — ٢٣١ » والساوك « ١ : ١١٦ — ١٣٥ » والنجوم الزاهرة « ٦ : ١٢٠ — ٥ » والمرآة « ٨ : ٤٣٥ ، ٤٤١ » . ولم تنقل من السكامل لعز الدين بن الأثير لأنه طوى ذكر أخيه نصر الله تعصباً له مع أنه رأس الفتنة .

سنة الله وكتابه ، وجعل أيامي منه كيوم البعث الذي يتناكر الناس في انسابه واسبابه . هذا وقد علم أنني اتخذته أباً أرجو برّه ، ومولىً أطيع أمره ، وكنت له كنانة لا يطيش لها سهم ، ولا يؤسى منها كلم ، ولم أزل ساعياً في تقديم أوده ، وإعلاء كلمته وبده ، وانتهى بي الجدّ في ذلك إلى أنني شاققت بني أبي لمواصلته ، وقابحتهم لجسامته ، وشققت في توخي إيثاره عصاهم ، وجملت أدناهم إلى أقصاهم ، حتى أصبحت من إياهم عرباً ، وكنت تميمياً فصرت بكربياً ، هذا ولم يزل يحذرنى منه النصّاح ذوو السرائر ، وأولو الأبصار والبصائر ، ويقولون : هذا يخذلك بكيده ، ويجملك حباً لشبكة صيده ، فما فتحت لأقوالهم سمّاً ، ولا وجدت لها مني موقماً ولا وقماً ، بل مضيت على ما أنا عليه من شدّ يدي بمالاته ، وعقد قلبي على موالاته ، وقات : هذا العضد وهذا الساعد ، وهذا العم الذي إذا مضى الوالد فهو الوالد ، وقد بدّأته بالاحسان الذي أظن أنه أهله ، وليس جزاؤه عند الأحرار مثله ، ولم أعلم أنه خمر بواديه ، ونصب لي أشراك عواديّه ، فلهذا ما نبذ ذمة الرحم خلفه ظهرياً ، واتخذ العهد الذي في عنقه شيئاً قريباً ، وانقلب ما كان يظهره من طيب الاقوال ، إلى ما كان يضمّره من خبيث الأفعال ، فلقيت منه ما لقي مجير أم عامر ، وكافأني مكافأة التمساح للطائر ، وأنا راج أن يقاتله إحساني الذي كفره وما شكره ، ونسيه متعمداً وما ذكره ، فإن بالاحسان جنوداً ترمي في غير سهام ، وتقاتل في كل معترك بحسام ، وتؤيد بالنصر في كل مقام ، ومن شأنها أنها تناضل ولا يشمر بفضالها ، وتسري فتحول بين الظلمة وآمالها ، فكم ثنت من يد قبضت على سيفها ، ودعت إلى حيفها ، وما أمسكت يد جود ، وعنان جحود ، إلا غدا صاحبها صريعاً ، ولم يجد له من دون الله تبيعاً ، فينبغي له أن يراجع نظره فيما أتاه ، وأن يجتنب قول موسى لفتهاه ، ولا يكن ممن اطمأن إلى مسألة زمانه ، واطراد أمر سلطانه ، فانها الأيام التي ما سالت الا حاريب ، ولا واصات إلا جانب ، ولا تأتي همومها إلا من جهة أفراسها ، كما لا تأتي ظلمة ليلها إلا من مطلع صباحها ، ولطالما أعجزت قديراً ، وزعزعت سريراً ، وأذهبت نعمياً وملكاً كبيراً « وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً » فان كان بُعِدَ العهد بهؤلاء أنساه الاعتبار ، وأوجب له

الاغترار فليُنظر الى ما رآه عياناً ، وكان له سلطاناً ، وهو أخوه الذي خفقت في الآفاق ذؤابة علمه ، واستجابت الدول لأمر سيفه وقلمه ، وكان أثبت منه ملكاً ، وأوسع بلاداً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، فمشت الأيام على دولته فمفت آثارها ، واختفت أخبارها . هذا ولم يزل يجبل قلوب الناس على الحسنى ، ويفرس فيها ما يرجو منه طيب المجنى ، وقد رأيت ما فعلوه ببنيه وما بالعهد من قدم ، وما بالقوم عن ذلك الاحسان عى ولا صمم ، فكيف ترجو أنت مع الاساءة أن يستمسكوا بسببك ، أو يحسنوا الخلافة عنك في عقبك ، هيهات تلك أما في النفس المائنة ، ودواعي الهوى الخائنة ، وأنا أعظُك أن تكون ممن تولى فقطع رحمه ، وخفر ذممه ، فإن كل دنيا ستنصرم ، وكل من حكم عليه ظالماً سيحتكم . « والذين أصابهم البغي هم ينتصرون » . وقد بلغني أنه يتوعدني بنكره ، ويوقد علي أحناء صدره ، وأنه تألى على الله ليأخذني على يدي ، وليلبسنَّ يومي بغدي ، ويوشك أنه أخذ من الله موثقاً بالخلود ، وتابعته الاقدار على اقتسار الجدود ، ومع اليوم وغد ، وما من يد إلا والله فوقها يد ، وكم بغى في هذه الأرض من باغ ففوجيء بالتدفيع والتدمير ، وحالت الأيام بينه وبين ما يقدّره من المقادير « وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليَّ المصير » واثن هزرتي منه هذه النبوة التي طاشت لها الأحلام ، وزلزلت فيها الأقدام ، فاخف لها الآن جبلي ، ولا تصرف فيها بحولي ولا بحيلي ، لكنني قد مددت الحبل معه الى آخره ، وارتقت ما تصير اليه عقبي مصايره ، وأنا أدعوه الى كلمة سواء بيني وبينه أن يبينني أحدنا على صاحبه ، ولا يذهب غير مذاهبه .

فان تدعني للشرّ أسرع وإن تُهب بصلحي فقد أبقيت للصلح موضعاً

ويمز عليّ أن أعضد شجرة أنا من أصلها ، أو أقفر داراً أنا من أهلها ، فأكون في ذلك كمن فدى بمهجته الدامية عن يده الرامية ، ولولا ذلك لا تُرثها فتنة تخشى مراكبها ، وتحمر غواربها ، وتقبح عواقبها ، وتكون دخاناً يفسى الناس منه عذاب أليم ، ولا ينجو منه بر ولا أئيم ، ولا بريء ولا سقيم ، ولكنني وضعت له جنبي ، وكففت عنه غربي ، وفارقت الاحداث وطلقتها ولزمت الدعة وتعلقتها ، فلا يبعثني على مراجعة الحال المطلقة ، ولا يحملني بعد سبيل الطاعة

على السبل المتفرقة ، فلقد أيسح المضطر أن يركب كل محذور محذور ، ويستخلص حقه بالحق والزور ، ويدفع ظلامته بما وجد من السبيل وهو معذور ، وإذا أخرج الحليم خرج من شيمه ، وانتضيت النار من وارق سلمه ، فلا يظن أن قد حي لباريه ، ولا ليلي لساريه ، وقد طالما بُلي عزمي فوجد نفاذاً في الأسداد ، طلاءً للانجناد ، فما قدح إلا أسرج ، ولا كوى ^(١) إلا أنضج ، ولا جهز بمئماً من بعموئه إلا غنيت آراؤه عن جنود شهّد ، أو عصفت سيوف من رؤوس ركد ، وذلك العزم باق لم يين ولم يهن ، ومتى استطارت ناره ملأت الاقطار ، وسبقت الحذار ، وقلبت القلوب والأبصار ، والتجربة تنصحك ^(٢) أن توقظ شراً قد استدّام مكانه ومنامه ، وكره الله والناس أن تستعاد أيامه . فإنّ ذلك السيف في يد القاتل ، وربما زاد الآجل على ما تقدم من العاجل والسلام ^(٣) .

وبمثل هذا الكتاب الملائن من السبب ، المحشو بزخرف القول ألّب نصر الله بن الأثير الناس على الملك الأفضل وخصوصاً عمّه ، فإن مثل هذا الكلام لا يخاطب به رجل كان المعصد الأيمن للدولة الأيوبية والسيف الحسام لصلاح الدين الأيوبي ، الذي خاض الحروب وكابد الكروب في المعارك الإسلامية والوقائع الصليبية ، حتى شاب فيها ، وليست الأفعال تسطير السطور ، ولا تهويلاً بأمانى الغرور كما في هذا الكتاب .

أجل هرب نصر الله بن الأثير بالأموال التي احتجتها من مملكة الأفضل الى الموصل ، ولما توصل الأفضل الى الانابكية أي الوصاية التربوية على الملك المنصور محمد ابن العزيز عثمان بمصر بعد وفاة العزيز سنة ٥٩٥ بقليل التحق به نصر الله بن الأثير وقيل : بل صار اليه قبل ذلك وصحبه الى مصر . وينقض هذا القول ما ذكره هو في المثل السائر « ص ١٠٧ » من أنه كتب الى الأفضل سنة ٥٩٥ كتاباً يهنئه فيه بملك مصر ، ولحقه شؤمه أيضاً فإن الملك العادل الذي ناله من

(١) ليته قال « وما شوى إلا انضج » فأما السكي فيستعمل معه « الاحراق » .

(٢) أي تمنعك .

(٣) الجزء الثاني من رسائل ضياء الدين بن الأثير « نسخة الجامعة الأمريكية ببيروت P ٦٢ T. A

W. S. ٨٩٢. ٧٦ ص ٣٩ — ٤٧ » .

قوارص ابن الأثير ما ناله انتزع مصر من الملك الأفضل لاستحكام العداوة بينهما ، وعوضه منها بلاداً من بلدان الجزيرة ، ولم يبق بيده منها إلا سيماسط ^(١) . وكيف جرؤ على كتب هذا الكتاب من كان يمتدّر إلى عمه بمثل قوله في كتاب آخر يستعطفه ويتصل إليه : « من شيمة الأقدار أن تذهب ببصائر ذوي الألباب ، ويمثل لهم الخطأ في مثال الصواب ، ولولا ذلك لما زل الحكيم ، واعوج المستقيم . والملوك تقبل اليد الكريمة المولوية الملكية العادلية لا زال عرفها مأمولاً ، واحسانها عند الله مقبولاً ، وفعلها في المكرمات مبتدعاً ، إذا كان فعل الأيادي مفعولاً ، وتستغيث الى عفوها ، الذي يكفي فيه لفظة الاعتذار ، ولا ينفذ بمواظبة الآصار ، ولو عرف ذنبه باديا لقرع له سنّ الندامة ، وعاد على نفسه باللاماة ، ولما كان عجيباً أن يكون مليعاً ، وأن يكون مولانا كريماً ، لكنه حمل إصره الذنب وهو بريء من حملها ، وخاف أن تكون هذه كأخواتها التي سلفت من قبلها ، والأموال المتشابهة يقاس البعض منها على البعض ، والممسوع لا يستطيع أن يرى بحر جبل على الأرض ، ولم يجترم المملوك الآن جريمة سوى أن فر الى الاعتصام ، وألقى بيده الى أقوام لم يكونوا له بأقوام ، وإذا ضاق على المرء أقربه كان الأبعد له من ذوي الأرحام ، وليس بأول من ذهب هذا المذهب ، ولا بأول من حمل نفسه على ركوب هذا المركب ، ولئن قال بعض الناس إنه عجل في اعتصامه وفراره وأنه لو صبر لحمد مغبة اصطباره فهذا قول من لم يعرف حال المملوك فيقيم له عذراً ، ولا ابتلي بما ابتلي به من قوارص مولانا مرة بعد أخرى ، ولقد تكاثرت عليه هذه الأقوال المؤنبه حتى ملأت طرفه كحل السهاد ، وجنبه شوك القتاد ، وأصبح وهو يرى أنه زلق في خطيئته زلقاً ، وغصّ بنومه من أجلها شرقاً ، وبدت له سوائه حتى طفق يخصف عليها ورقاً ، ومع هذا فانه واثق أن حلم مولانا لا يؤتى من الزلل ، وأن حصاة الذنوب لا تحف بوزن ذلك الجبل ، وها هو قد جاء نازعاً وللنازع العتي ، وعاد مستشفعاً ولا شفيغ اكرم من القربى ^(٢) ... »

(١) مدينة كانت على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم أي تركيا الحديثة غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن قال ياقوت : ومالكها في هذا الزمان الملك الأفضل علي ابن الملك الناصر يوسف ابن أيوب صلاح الدين .

(٢) المثل السائر « ص ٧ » طبعة المطبعة البهية بمصر سنة ١٣١٢ .

وخرج الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين من مصر ولم يخرج نصر الله بن الأثير في خدمته لأنه خاف على نفسه من جماعة كانوا يريدون الفتك به ، فخرج منها مستتراً . وله في كيفية خروجه مستتراً رسالة طويلة شرح فيها حاله وهي في ديوان رسائله ، وغاب عن خدمته الأفضل برهة قصيرة ولما استقر الأفضل في سيمساط عاد نصر الله الى خدمته وأقام عنده مدة ثم فارقه في ذي القعدة سنة ٦٠٧ واتصل بخدمته أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب فلم يطل مقامه عنده ولا انتظم أمره ، وخرج من حلب مغاضباً وعاد الى بلده الموصل فلم تستقم حاله فيها ، فذهب الى إربل فدخلها في شهر ربيع الأول سنة « ٦١١ » فلم يجد فيها مغنى ، فسافر الى سنجار ولم يجد لها قراراً ثم عاد الى الموصل وصمم الإقامة فيها وصار كاتب الانشاء للملكها القاهر عز الدين مسعود الثاني وابنه ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني بن نور الدين ارسلان شاه وأتابكة يومئذ بدر الدين لؤلؤ النوري وذلك في سنة « ٦١٨ » قال ابن خلكان : « ولقد ترددت من إربل الى الموصل أكثر من عشر مرات ونصر الله بن الأثير مقيم بها وكنت أود الاجتماع به ، لآخذ عنه شيئاً لما كان بينه وبين الوالد - رحمه الله تعالى - من المودة فلم يتفق لي ذلك ، ثم فارقت بلاد المشرق وانتقلت الى الشام وأقت به مقدار عشر سنين ثم انتقلت الى الديار المصرية وهو في قيد الحياة ، ثم بلغني بعد ذلك خبر وفاته وأنا بالقاهرة ... وتوفي في إحدى الجماديين سنة سبع وثلاثين وستمائة ببغداد وقد توجه اليها رسولاً من جهة صاحب الموصل ، وصلي عليه من الغد بجامع القصر ^(١) ودفن بمقابر قریش ^(٢) في مشهد موسى ابن جعفر - سلام الله عليهما - قال أبو عبد الله محمد بن النجار البغدادي في تاريخ بغداد : توفي نصر الله بن الأثير يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة . وهو أخبر لأنه صاحب هذا الفن وكان عندهم » . ونقل القول الثاني جمال الدين محمد بن علي

(١) من بقايا جامع سوق الغزل الجديد المشيد أيام الحكم العثماني بالعراق وكان جامع القصر يسمى أيضاً « جامع الخليفة » ثم سمي في العهد العثماني « جامع الخلفاء » وكان يصلى فيه على جنازة كل كبير من أرباب الدولة والعلماء والفضلاء والفقهاء ، وهو تشرىف رسمي للتوفى ، ويصدر الأمر أو الاجازة من ديوان الخلافة .
(٢) أى السكاظية الحالية .

المعروف بابن الصابوني في كتابه المؤلف في الانساب المعروف بتكملة إكمال السكال وقد قدمنا نقلاً منه .

وقال مؤرخ آخر « دفن في صحن مشهد موسى بن جعفر - عليه السلام ^(١) - » . وجاء في ذيل الروضتين لأبي شامة أنه « توفي بالمورقة من بغداد وهو مرسل إليها » هكذا جاء الاسم في نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٥٨٥٢ ورقة ١٨٦ والنسخة المطبوعة على يد عزت العطار الحسيني وهي مشوهة « ص ١٦٩ » ولعل الأصل « المزرفة » وكانت على دجلة فوق بغداد .
وقد جاء في المثل السائر كتب لمؤلفه كتبها عن الملك الأفضل تفيد في تعيين مواضع من سيرته السياسية ففي « ص ٤٦ » يقول : « ومن ذلك ما كتبه عن الملك الأفضل علي بن يوسف الى الديوان العزيز القبوي ببغداد ... »

وفي « ص ٤٧ » منه يقول : « ومن ذلك ما كتبه عنه الى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب من كتاب يتضمن استعطافه والتوصل اليه . » وقد نقلناه من قبل ، وقال « ص ٢٦٦ » : « وأما ما أتيت فيه بالحسن من المعاني ولكنه غير مخترع فمن ذلك مطلع كتاب كتبه عن الملك نور الدين أرسلان بن مسعود صاحب الموصل الى الملك الأفضل علي بن يوسف يتضمن تعزيته وتهنئته ، أما التمزية فب وفاة أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر ، وأما التهنئة فب وراثة الملك من بعده ... »

أوصاف المؤرخين والأدباء له

قال جمال الدين أبو حامد محمد بن علي المعروف بابن الصابوني في الاستدراك على مؤلف إكمال السكال : « وذكر في باب الاثير جماعة منهم الأخوان الفضلان أبو السعادات المبارك وأبو الحسن علي ابنا محمد بن عبد الكريم الجزري وأغفل ذكر أخيها الوزير الفاضل أبي الفتح نصر الله فانه كان فريد دهره ، ووجه عصره ، في صناعة الكتابة والانشاء وله التصانيف البديعة

(١) التأريخ الذي سميناه « الحوادث الجامعة ص ١٣٦ » .

والرسائل الصنيعة ، ختم به هذا الشأن ، وسار ذكره في جميع الأقطار والبلدان ... وأجاز لي مسموعه ومنثوره ومنظومه (١) .

وقال ياقوت الحموي في « جزيرة ابن عمر » وقد نقلنا قوله آنفاً من معجم البلدان : « وبنو الأثير العلماء والأدباء وهم مجدد الدين المبارك وضياء الدين نصر الله وعز الدين أبو الحسن علي ... كل منهم إمام ، مات مجد الدين والآخرون حيان في سنة ٦٢٦ » . وقال زكي الدين المنذري : « وفي إحدى الجاديين توفي القاضي (٢) الأجل الفاضل أبو الفتح نصر الله بن محمد ... المنعوت بالضياء المعروف بابن الأثير ببغداد وله تصانيف مشهورة في النظم والنثر منها المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر وغير ذلك (٣) ... » .

وقال ابن خلكان : « ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله وتحقيق نبيله كتابه الذي سماه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) وهو في مجلدين جمع فيه فأوعى ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره ... وله كل معنى مليح في الترسل وكان يعارض القاضي الفاضل في رسائله فاذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها ، وكان بينها مكاتبات ومجاوبات ولم يكن له في النظم شيء حسن (٤) ... » .

وقال مؤلف كتاب الحوادث الذي وسماه بالحوادث الجامعة « ص ١٣٦ » : « كان كاتباً عالماً فاضلاً متفنناً في علم الكتابة ، مقتدرًا على الانشاء ، ورد الى بغداد مراراً في رسائل من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ... » .

(١) « تكملة أكمال السالك ، نسخة الأوقاف ببغداد ٨٥٢ الورقة ٧٧ » .

(٢) اعتاد المصريون أن يطلقوا لقب « القاضي » على غير القضاة من الكتاب والفضلاء كالقاضي الفاضل ومن ذلك تلقب المنذري نصر الله بن الأثير بهذا اللقب .

(٣) التكملة لوفيات النقلة « نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية ١٩٨٢ د ج ٢ » ص ٢٥٥ .

(٤) الوفيات ٢ : ٢٨٧ — ٢٩١ « طبعة بلاد العجم ونقل أكثر ما في الوفيات قطب الدين اليونيني من ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٦٤ » طبعة حيدر أباد الدكن .

وقال جمال الدين أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي في تاريخه « المسجد المسبوك » :
« كان بارعاً في فنون الأدب ، كاتباً بليغاً وصدرأً نبيلاً ، عالماً متفهنأً في علم الكتابة ، مصدرأً
على الانشاء وكتابة الرسائل [رأساً] في المعاني المخترة واليه انتهى علم الكتابة في زمانه وبه ختم
فن البلاغة وله عدة تصانيف حسنة مفيدة وله رسائل مدونه (١) » .

(١) المسجد المسبوك « الورقة ١٥٧ » من نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

سيرته الأدبية

وبعد ، فقد مرَّ بك ان ابن الأثير ، عاش في عصر الحروب الصليبية ؛ عصر الفتن والحروب والقتل وعصر التنازع بين الدويلات الاسلامية ، ولم يكن الرجل بمعزل عن الحياة الصاخبة ، كان وزيراً مباشراً للسياسة والملك ، متنقلاً من بلد الى بلد ومن أمير الى أمير ، كتب لصالح الدين بمصر والشام ، ووزر لابنه الأفضل بالشام ، والتحق بصاحب حلب غازي ابن صلاح الدين ، والتحق بصاحب الموصل واتصل بأولي الأمر وافداً ورسولاً في بغداد . وحياته قبل أن يتصل بصلاح الدين ليست بذات خطر ، ولذلك لاتكاد تجد المؤرخين يتحدثون عنها حين يتحدثون عنه ، ولكنهما تبدأ بصلمته بصلاح الدين ، وقد اتصل به بعد أن كملت أداته ونضج ؛ يقول ابن خلكان ^(١) « وقد ذكرنا قوله من قبل » ولما كملت لضياء الدين الأدوات قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين ... في شهر ربيع الأول سنة سبع ثمانين وخمسمائة فوصله القاضي الفاضل بخدمة صلاح الدين في جمادى الآخرة من السنة .. » واذا ما علمت أنه توفي سنة ٦٣٧ وأنه توفي وافداً الى بغداد ، وكان قد توجه اليها رسولاً من صاحب ^(٢) الموصل ، اذا ما علمت هذا رأيت أن ابن الأثير قضى خمسين عاماً ، بعد إكمال أدواته كما يقول ابن خلكان ، وكان حركة لا تهدأ في السياسة والعلم ؛ كان يتنقل في البلدان وافداً على الملوك والأمراء ، وكان على معرفة بلغات عصره على ما يبدو لنا يقول : « وكنت سافرت الى بلاد الروم في سنة ستمائة ، فلما دخلت مدينة ملطية اخبرت عن خطيبها ان عنده أدباً ، وأنه يقول الشعر ، فقصدت لقائه وألفيته كما

(١) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٥ طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٩ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٣٢ .

(٣) الوشي المرقوم ص ٧١ — ٧٢ ، طبعة ثمرات الفنون سنة ١٢٩٨ .

أخبرت عنه . وعرض عليّ قصيداً من شعره ، وهي مائة بيت ؛ كل عشرين منها على لغة ، فكان متضمناً خمس لغات : العربية والفارسية والتركية والرومية والأرمنية ، فالجميع على وزن واحد ، وقافية واحدة ، إلا أنه كان في غير اللغة العربية أربع منه في اللغة العربية ، وهذا من أغرب ما شاهدته ... » وترى من هذا ان ابن الأثير كان — لا يفتأ يقصد أهل العلم ، ويتحدث اليهم ، وترى انه عارف بهذه اللغات معرفة يستطيع أن يفرق فيها بين الجيد والريء من الشعر، حتى يرى شعر خطيب ملطية في غير العربية أحسن منه بالعربية ، وتراه في غير ما مكان من كتبه يشير الى معرفته باللغات وقراءته فيها ، يقول وهو يتحدث عن الكناية والتعريض « في كتابه المثل السائر » واعلم^(١) أن هذين القسمين من الكناية والتعريض ، قد وردا في غير اللغة العربية ، ووجدتها كثيراً في اللغة السريانية ، فإن الإنجيل الذي في أيدي النصارى قد أتى منها بالكثير . ومما وجدته من الكناية في لغة الفرس أنه كان رجل من أساورة كسرى وخواصه ، فقليل له : إن الملك يختلف الى أمرأتك فهجرها لذلك ... » .

ويقول في موضع آخر من كتابه : وهذا الكتاب على لغة اليونان^(٢) وأول كتاب الفصول لأبقراط في الطب قوله : العمر قصير ، والصناعة طويلة . وربما لا نعجب أن نرى الرجل يعرف هذه اللغات ، لأن عصره عصر اختلطت فيه الأمم المختلفة والحضارات المختلفة ، وكان يحسن به وهو الوزير ، أن يعرف هذه اللغات التي قد يحتاج الى أن يقرأ بها وأن يكتب بها في بعض الأحيان .

ولم يكن ابن الأثير بالرجل الجبان الذي يحسن الكتابة ، ولا يشهد الحروب ؛ كان يرافق صلاح الدين ، ويشهد الحرب معه ويدوق حلاوة النصر وخيبة الهزيمة ، يعرض للحديث عن هذا في رسائله يقول : « وكنت^(٣) في سنة ثمان وثمانين وخمسة مائة بأرض فلسطين في الجيش الذي كان قبالة العدو الكافر من الفرنج ، لعنهم الله ، وتقابل الفريقان على مدينة يافا ، وكان الى

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٢١٥ .

(٢) المثل السائر ج ٢ ص ٢٨١ .

(٣) المثل السائر « ج ١ ص ٥٥ » .

جانبى ثلاثة فرسان من المسلمين ، فتعاقدوا على الحملة الى نحو العدو ، فلما حملوا صدق منهم اثنان وتلكأ واحد ...» وتراه فى غير ما موضع من كتبه ورسائله يفيض فى وصف الحرب وآلاتها ، ويتحدث عن القتال فيقول ^(١) :

« وسبق ألم الموت ألم الجراح ، ونفذت غير مخفية لسرعتها أسنة الرماح ، وحصل القوم فى القبضه ، وذموا عقبي النهضة ، وجيء بالأسرى مقرنين بالأصفاد ، موقنين أن رؤوسهم عواري عن تلك الأجساد ، ولو استطاع رأس أحدهم أن ينكر عنقه لأنكره ، ولا يودُّ - وهو المعظم - أن يقال ما أعظمه بل يقال : ما أحقره ، وتصرفت أيدي المسلمين فى القتل والنهب ، وكان للسيف رقاب وللسي رقاب ... » .

وقد يعمد الى وصف بعض آلات الحرب ويقول فى المفجئيق ^(٢) ... ونصب المفجئيق ، فجثم بين يدي السور مناصباً ، وبسط كفه اليه مواتياً ، ثم تولى عقوبته بعصاه التي تفتك بأحجاره ، واذا عصى عليها بلد أخذت فى تأديب أسواره ، فما كان الا أن استمرت عقوبتها عليه ، حتى صار قائمة حصيداً ، وعاصيه مستقيداً ... » .

هذه الحياة الصاخبة التي تقلب فيها ابن الاثير هيأت له مادة الوصف ، ومادة الكتابة الانشائية ، ويبدو لنا أن رسائله الكثيرة التي لم تنشر بعد ستكون سجلاً حافلاً بحياة الحرب وحياة العلم والسياسة فى عصره ، ولعلك ترى أن هذه المواقف ، أعني مواقف الحروب أولى أن يقال فيها الشعر لأنه أعمق فى التعبير عن المواطن من النثر ، وابن الاثير ينظم الشعر ولكن الرجل كاتباً أحسن منه شاعراً ...

ولم يقتصر الرجل على الحياة الصاخبة وحدها يستمد منها مادة حديثة بل نراه يدقق النظر فى كل ما حوله ، وقد يستخلص الحكمة من أنفه الامور وأيسرها وهو يوصي الاديب أن يتنبه الى هذا ، ويلتفت اليه ويقول : « اعلم أن الكاتب يحتاج الى التشبث بكل فن والنظر فى كل علم وإرصاد السمع لمحاورات الناس ، فانه لا يعدم من ذلك فائدة فإن كلمة الحكمة ضالة المؤمن ،

(٢) المثل السائر جـ ١ ص ١٣٩ .

(١) المثل السائر جـ ١ ص ٨٩ .

فحيث وجدها فهو أحق بها ، وقد تتبعت أقوال الناس في محاوراتهم ، فاستفدت بذلك فوائد كثيرة ، حتى من أكار وفلاح ، وأعجمى من الأعجام الأغنام ، ومن يجري مجراهم ، وقد تصدر كلمة الحكمة من الجاهل بمكانها ، ورب رمية من غير رام ... » .

وزاد على هذا حتى رأى لزماً على الكاتب ^(١) ... أن يعلم ما تقوله النادبة في المآثم ، وما تقوله الماشطة عند جلوة العروس ، وما يقوله المنادي في السوق على السلعة ... » .

وعمد الى الكتب يقرأها ويتدبرها ، وقد صرَّ بك حديثه عن الأنجيل ، أما القرآن فقد أولع به ، وابتدع الكثير من موضوعات البيان بتدبره وإنعام النظر فيه حتى عده آلة من آلات التأليف ، ^(٢) وأوصى بحفظه ، والممارسة لغرائبه والخوض في بحور عجائبه .

وقال في مقدمة كتابه الجامع الكبير في الحديث عن علم البيان ^(٣) : « لحت في أثناء القرآن الكريم من هذا النحو أشياء طريفة ، ووجدت في مطاويه من هذا النوع نكتاً دقيقة لطيفة ، فمرضتها عند ذلك على الأقسام التي ذكرها هؤلاء العلماء وشرحوها ، والأصناف التي بينوها في تصانيفهم وأوضحوها ، فألفيتهم قد غفلوا عنها ، ولم ينهوا على شيء منها ، وكان ذلك باعثاً لي على تصفح آيات القرآن العزيز ، والكشف عن سره المكنون ، فأستخرجت منه حينئذ ثلاثين ضرباً من علم البيان ، لم يأت بها أحد من العلماء الأعيان ، وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن وعمدته ، وخلاصة هذا العلم وزبدته . فحيث أحرزت هذه الفضيلة ، وحصلت عندي هذه العقيلة أحببت أن أفرد لها كتاباً ، وأفصلها فيه أقساماً وأبواباً » وهكذا تراه يتعلق بالقرآن الكريم ، ويشرع بعد ذلك يعقد باباً في تفضيل النثر على الشعر ويجعل أول أسبابه في هذا التفضيل أن القرآن الكريم ورد نثراً ^(٤) .

وكذلك فعل في حيث الرسول الكريم وجعله أحد الأدوات التي تلزم المترشح لصناعة الكتابة ، وحسبك منه ان جعل كتاب الوشي المرقوم مبنياً على مقدمة ^(٥) وثلاثة فصول جعل

(١) الوشي المرقوم ص ٤-٥ . (٢) انظر ص ٧ من هذا الكتاب .

(٣) أنظر ص ٧ من هذا الكتاب . (٤) انظر ص ٧٣ من هذا الكتاب .

(٥) أنظر ص ٤ من الوشي المرقوم طبعة ثمرات الفنون سنة ١٢٩٨ هـ .

الفصل الأول في حل الشعر ، وجعل الثاني في حل آيات القرآن ، والثالث في حل الأخبار النبوية .

ولم تقتصر ثقافته على هذا بل عمد الى الشعر حتى قال في كتابه الوشي المرقوم «^(١) وكنت حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة ، ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين حبيب بن أوس وأبي عبادة البحتري ، وشعر أبي الطيب المتنبي ، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين حتى تمسكنت من صوغ المعاني ، وصار الإدمان لي خلقاً وطبعاً ، فلا تقنع أيها الخائض في هذا البحر الذي لا ساحل له إلا بأن تفعل ما فعلته ، ونسلك ما سلكته » .

ونظرة واحدة إلى مؤلفات ابن الأثير تريك سمة باعه وحذقه في شتى صنوف المعرفة الشائعة في عصره . كتب الوشي المرقوم في حل الآيات القرآنية الكريمة وحل حديث الرسول الكريم وحل الشعر . وكتب كتاب «^(٢) المفتاح للنشا في حديقة الإنشا » وقد تحدث به عن صناعة الكتابة ، وله « مؤنس الوحدة » وقد جمع به مختارات من الشعر ونسخة منه محفوظة بمكتبة كوبرلو بالاستانة ، و « كتاب الأخبار النبوية » ، يقول عنه «^(٣) وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر ، كلها تدخل في الاستعمال ، وما زلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت أنهى مطالعته في كل أسبوع مرة ، حتى دار على ناظري وخطري ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظاً لا يشذ عني منه شيء . » وله كتاب أدعية يقول فيه «^(٤) وكنت ألفت كتاباً في ذكر أدعية مخصوصة ضمنته مائة دعاء ، مما يوضع في الكتب السلطانية والاخوانيات ... » وله كتاب في « السرقات الشعرية »

(١) انظر ص ٩ — ١٠ من طبعة ثمار الفنون سنة ١٢٩٨ هـ .

(٢) مصور بدارالكتب المصرية (برقم ٥٠٧٠ أدب) والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد أحمد بدوي مطبعة نهضة مصر ص ٣٣٧ .

(٣) في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد أحمد بدوي ص ٣٨ . والمثل السائر ج ١ ص ١٢٨ .

(٤) الوشي المرقوم ص ٧٠ .

يشير اليه في كتابه المثل السائر إذ يقول « ... واعلم أن علماء البيان قد تكلموا في السرقات الشعرية فأكثرُوا ، وكنت ألفت فيه كتاباً ، وقسمته ثلاثة أقسام : نسخاً ، وساخاً ، ومسخاً^(١) . وله « مجموع » اختار^(٢) فيه شعر أبي تمام والبحري وديك الجن والتمني وهو في مجلد واحد كبير . وله كتاب « المرصع في الأدبيات » وقد طبع في القسطنطينية سنة ١٣٠٤ هـ وطبع في المانيا سنة ١٨٩٦ وله « المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء » يقول فيه ابن خلسكان^(٣) إنه نهاية في بابه . وله « البرهان في علم البيان » وجاء في تأريخ آداب اللغة العربية لرجي^(٤) زيدان أنه مخزون في برلين ، وذكر له أيضاً « رسالة في الأزهار » ، وقال إنها محفوظة في^(٥) باريس . وفي كتاب هداية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي طبعة استانبول سنة ١٩٥٥ المجلد الثاني ص ٤٩٣ أنه صنف من الكتب « الاستدراكات » . ورسالة في الضاد والطاء و « رسالة في أوصاف مصر » وله ديوان « ترسل » في عدة مجلدات .

ولعل أشهر هذه الكتب كتابه المثل السائر ، وهو كتاب شهر به ابن الأثير وأحدث ضجة في حياة الرجل وبعد مماته وألفت الكتب في التمعب له والتمعص عليه ، قال صاحب كشف^(٦) الظنون : « وصنف بعضهم كتاباً سماه « الروض الزاهر في محاسن المثل السائر » وصنف عز الدين بن أبي الحديد كتاباً سماه الفلك الدائر على المثل السائر » ، وصنف أبو القاسم محمود بن الحسين الركن السنجاري المتوفى في عام ٦٤٠ هـ كتاباً يرد فيه عليه وسماه : « نشر المثل السائر وطبي الفلك الدائر » وصنف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفى في عام ٧٦٤ كتاباً سماه : « نصره السائر على المثل السائر » وصنف عبد العزيز بن عيسى كتاباً سماه : « قطع الدابر عن الفلك الدائر ... » ولعلك ترى معنا أن عناوين هذه الكتب وحدها كافية في أن

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٨ طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٤٩ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٧ . (٤) هداية العارفين ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٥) تأريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٥١ . (٦) كشف الظنون ج ٢ ص ٨٧٦ . وانظر

(٢) — ٢٢٢ بولاق مصر) وانظر ص (يط) من مقدمة المثل السائر .

تعلمن معركة حامية بين مؤلفيها .

وهكذا ترى هذه الحركة الكبيرة التي أحدثها هذا الكتاب في علم البيان العربي ، و ترى الناس يتعصبون له ويتعصبون عليه تعصبهم المذاهب السياسية والدينية .

قلنا : أَلَّفَ عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن أبي الحديد هبة الله المدائني الكتاب الشاعر كتباً في الرد على نصر الله في المثل السائر سماه « الفلك الدائر على المثل السائر » ، ولما وقف عليه أخوه موفق الدين أبو المعالي القاسم بن أبي الحديد كتب الى أخيه المؤاف :

المثل السائر ياسيدي صنفت فيه الفلك الدائرا
لكن هذا فلك دائر تصوير فيه المثل السائر^(١)

ومن البين أن إطرأ الكاتب لذي قرابته على أثر له أدبي كما فعل القاسم بن أبي الحديد لا يقام له وزن إلا إذا حققه النظر والاعتبار وثبت استحقاق الأثر لذلك الاطراء .

واتفق أن عز الدين بن أبي الحديد تزوج بعد تأليفه « الفلك الدائر على المثل السائر » امرأة أرملة ، وكان زوجها الأول جندياً وله ابن منها اسمه غازي ويلقب بفلك الدين فقال فيه الشيخ موفق الدين عبد القاهر بن الفوطي البغدادي الأديب الشاعر :

لقد أتانا مثل سائر ألفت فيه فلماً دائراً
لكن هذا فلك دائر أصبحت فيه مثلاً سائراً^(٢)

وكان عامل الغيرة مائلاً في تأليف « الفلك الدائر » لأن نصر الله بن الأثير استهزأ بالكتاب العرافيين ، وانتقد عليهم أقوالاً ، قال ابن أبي الحديد في مقدمته بعد الحمد لله والاشارة الى رضي الانسان عن نفسه وذم عجبها والصلاة على نبيه وآله وأصحابه .

« وبعد فقد وقفت على كتاب نصر الله^(٣) بن محمد الموصلي المعروف بابن الأثير الجزري

(١) الوفيات « ٢ : ٢٨٨ - ٩ » . وفوات الوفيات « ١ : ٥١٩ » طبعة مطبعة السعادة وفيه « أصبحت » مكان « تصوير » .

(٢) تلخيص معجم الألقاب لابن الفوطي « ج ١ ص ٢٩٢ » من نسخة مصطفى جواد الحطية الأولى .

(٣) في المطبوع « نصير الدين » وذلك خطأ وكان الطبع سنة ١٣٠٩ بعناية محمد الشيرازي وهو رديء جداً ، يصعب علينا التنبيه على مواضع رداءته لطوله وكثرته .

المسمى « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » فوجدت فيه الحمود والمقبول ،
 والمردود والمردول . أما الحمود منه فانشاؤه وصناعته ، فانه لا بأس بذلك إلا في الأقل النادر ،
 وأما المردود فيه فنظره وجدله واحتجاجه واعتراضه ، فانه لم يأت في ذلك في الأكثر الأغاب ،
 بما يلتفت إليه ، ولا بما يعتمد عليه ، فخداني على تتبعه ومناقضته ، في هذه المواضع النظرية
 أمور منها إزراؤه على الفضلاء ، وغضه منهم ، وعييه لهم وطعنه عليهم ، فز في ذلك ما يدعو إلى
 الغيرة عليهم والانتصار لهم ، ومنها إفراطه في الإعجاب بنفسه والتبجح برأيه والتقريط لعرفته
 وصناعته ، وهذا عيب قبيح يُحبط عمل الانسان والاجتهاد ، ويوجب المقت من الله والعباد ،
 ومنها أنه قد أوماً مراراً في كتابه الى عتاب دهره إذ لم يعطه على قدر استحقاقه ، فأردنا أن
 نعرفه أن الرزق مقسوم ، لا يجلبه الفضل ولا يردده النقص ، ومنها أن جماعة من أكابر الموصل^(١)
 قد حسن ظنهم في هذا الكتاب جداً ، وتمصبوا له حتى فضلوه على أكثر الكتب المصنفة في
 هذا الفن وأوصلوا منه نسخاً معدودة الى مدينة السلام وأشاعوه وتداوله كثير من أهليها ،
 فاعترضت عليه بهذا الكتاب وتقربت به الى الخزانة الشريفة المقدسة النبوية الامامية المستنصرية
 — عمر الله تعالى بمهارتها أندية الفضل ورباعه ، وأطال بطول بقاء مالِكها يد العلم وباعه .

ولم يكتف ابن أبي الحديد بالتعقيب على نصر الله بن الأثير في « الفلك الدائر على المثل السائر »
 بل زاد عليه نقده إياه في شرح نهج البلاغة وقد ابتدأ به غرة رجب من سنة « ٦٤٤ » وأتمه
 سلخ صفر من سنة ٦٤٩^(٢) ، ومن ذلك ما ذكره في الكلام على « المقابلة » قال : « وقال
 ابن الأثير في كتابه المسمى بالمثل السائر : إن هذا النوع من المقابلة غير مختص بلغة العرب
 فانه لما مات قباز أحد ملوك الفرس قال وزيره : حركنا بسكونه . وفي أول كتاب الفصول
 لبقرط : العمر قصير والصناعة طويلة ، وهذا الكتاب على لغة اليونان . قات : وأي حاجة به
 الى هذا التكلف وهل هذه الدعوى من الامور التي يجوز أن يمتري الشك والشبهة فيها ايأتي

(١) كانت الموصل يومئذ عاصمة الدولة الأتابكية خارجة عن الحكم الفعلي للعباسيين .

(٢) شرح نهج البلاغة « مج ٤ ص ٥٧٤ » طبعة مصطفى البابي بحصر .

بحكاية من غير كلام العرب يحتاج بها ؟! .

وربما كان كتاب « الفلك الدائر على المثل السائر » أشهر هذه الكتب ولعلك ترى أن أبن الأثير قد اشتهر بكتابه هذا شهرةً طغت على شهرته السياسية ، ولقد وزر للملوك وبأمر الأمور خمسين سنة ، ومع ذلك فشهرته مؤلفاً بعلوم البلاغة أكثر من شهرته وزيراً أو كاتباً ، ولا عجب فقد صرف همه لهذا العلم ، وقرأ ما كتبه السابقون فيه . يقول في فاتحة المثل ^(١) السائر « وقد ألف الناس فيه -- في علم البيان -- كتباً ، وجلبوا ذهباً وحطباً ، وما من تأليف إلا قد تصفحت شينه وسينه ، وعلمت غنه وسمينه ... » ثم أعمل رأيي فيما قرأ مما كتبه الناس وابتدع مسائل في علم البيان لم يسبقه إليها أحد ، حتى قال عن نفسه : « ... وهادني الله لابتداع أشياء لم تكن من قبلي مبتدعة ، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابسة ، وإنما هي متبعة ... » ومع كثرة ما كتب لا تراه يفخر بشيء فخره باطلاعه على علم البيان وإحرازه قصب السبق فيه .

وهذا الكتاب الذي بين يدي القارىء « كتاب الجامع الكبير في صناعة المنظوم والنثور » قد ألفه ابن الأثير على ما يبدو لما قبل كتاب المثل السائر ، وربما كان أول كتاب يؤلفه في علم البيان ، يقول في مقدمته وقد نقلنا أكثر ذلك « ^(٢) ... لحت في أثناء القرآن الكريم من هذا النحو - أي من موضوعات علم البيان - أشياء طريفة ، ووجدت في مطاويه من هذا النوع نكتاً دقيقة لطيفة .. لم يأت بها أحد من أولئك العلماء الأعيان ، وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن ، وعمدته ، وخلاصة هذا العلم وزبدته ، فحيث أحرزت هذه الفضيلة ، وحصت عندي هذه العقيلة ، أحببت أن أفرد لها كتاباً ، وأفصلها فيه أقساماً وأبواباً ، ليكون مقصوداً على شوارد هذا العلم وغرائب ، ورموزه الخفية وعجائبه ، وليجعله مؤلف الكلام رأس بضاعته ويعلم به مواقع الصواب في صناعته ... » .

واسلوب ابن الأثير هادى في هذا الكتاب ، ينقل عن تقدمه من علماء البيان ويشير

(٢) انظر ص ٣ من هذا الكتاب .

(١) « ج ١ ص ٣ » .

الى مواطن النقل في أكثر الأحيان ، وقد يجادل في الرأي جدالاً هادئاً ، وهذا ما لا نراه له في كتاب المثل السائر ؛ إذ قلما تراه يشير الى رأي وهو لا يحاول تفنيده والنيل من صاحبه ، وهذا ما ألب عليه الذين تصدوا لتقديده كتابه وتفنيده آرائه كعز الدين أبي الحديد المار ذكره .

وقد تفضل المجمع العلمي العراقي ، فصور هذا الكتاب على نسخة خطية بدار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ ، نسخت بنفقة المكتبة وأضيفت في ٢٤ مارت سنة ١٨٩٧ برقم : ٢٧٠ بلاغة و ٣٠٠٦٤ عمومية ، وكتب في صدرها « كتاب الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمشور ، تأليف الشيخ الامام العالم العلامة ، لسان الأدب ، وترجمان العرب ، أبي الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزائري ، الشهير بابن الأثير رحمه الله تعالى وعفا عنه » وكان عدد أوراقها ١٦٥ ورقة . وتفضل المجمع العلمي العراقي فعهد إلينا بتحقيقها ، وكان خطها واضحاً لم نتعب في قراءته ، ولكنها كانت — مع وضوحها في الكتابة — كثيرة التصحيف ، وقد أجهدنا أنفسنا في الرجوع الى كتب البلاغة وكان أجداها نفعاً وأكثرها معونة لنا ، كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، للمؤلف نفسه ، وقد رأيناه في غير ما موطن يذكر هناك ما ذكره هنا ، وقد يفيض في أحد الكتابين على حين يختصر ويحمل في الكتاب الآخر ، حتى يبدو للقارئ في كثير من الأحيان أن أحد الكتابين كان بمثابة مسودة للكتاب الآخر ، وكنا نوازن بين ما ورد هنا وورد في المثل السائر ، وقد رأينا كثيراً من الأخطاء جاءت في المثل السائر وكان من الممكن أن تصلح بالرجوع الى هذا المخطوط ، وقد نهينا الى بعض ذلك في حواشي هذا الكتاب .

وقد أحببنا شخصية ابن الأثير الأدبية بعد إنفاقنا هذه المدة الطويلة في كتابه هذا ، ورأينا أن نوالي تحقيق آثاره ، فطلبنا الى المجمع العلمي العراقي أن يصور رسائل ابن الأثير المؤلفة في جزءين من معهد إحياء المخطوطات العربية في الادارة الثقافية في الجامعة العربية ، ومن مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت ، ومن غيرها ورجونا أن يهدهم إلينا بنشر رسائله هذه ، وعسانا نوفق لهذا ، والله الموفق للخير .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مبدي النعم ، أولاً وآخراً ، مُسدي الولاء باطناً وظاهراً ، الذي فطر الانسان بحكمته ولطفه ، وركب فيه آلة النطق فبلغ به كمال وصفه ، فكان ذلك عليه من أتم الاحسان ، الذي تميز به عن جميع أصناف الحيوان ، ولولا فضله لما ورد في القرآن المجيد ، مقروناً بالاخراج من العدم الى الوجود ، فقال تعالى : « الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان » نحمده على ترادف آلائه وتهاديها ، والتحاق رائحتها بغايتها ، حمداً يكون بالزيادة ضميماً ، وبإيلاء الخيرات قيناً ، ونصلي على رسوله محمد الصادع بأمره ، القائم بدينه في سره وجهره ، وعلى آله مصابيح الايمان وزُهره ، وأصحابه ملاذ الاسلام وذُخره .

أما بمسندُ فلما كان تأليف الكلام ، مما لا يوقف على غوره ، ولا يُعرف كنهه أمره ، إلا بالاطلاع على علم البيان ، الذي هو لهذه الصناعة بمنزلة الميزان ، احتجت حين شدت^(١) بُنْدة . من الكلام المنثور ، الى معرفة هذا المذكور ، فشرعت عند ذلك في تطلُّبه ، والبحث عن تصانيفه وكتبه ، فلم أترك في تحصيله سبيلاً الا نهجته ، ولا غادرت في إدراكه باباً الا ولجته ،

(١) كذا ورد في الأصل . وشدن الغزال يشدن شدوناً : إذا قوي وطلع قرناه واستغنى عن أمه وربما قالوا شدن المهر « الصحاح » قال ذو الرمة :

ذكرتك أن مررت بنا أم شادن أمام المطايا تمسرتب وتسنع

قال البرد في الكامل « ج ٢ ص ٢٣١ » من طبعة المطبعة الأزهرية « الشادن : الذي قد شدن أي تحرك » .

وقال بعض الشعراء المولدين :

ياما أميلج غزلاناً شدن لنا من هؤاليانكن الضال والسر

فالقول « شدن » لازم ولا يوائم السياق ولعل الأصل « شدوت بُنْدة » قال الجوهري في الصحاح « الشادي : الذي يشدو من الأدب شيئاً أي يأخذ طرفاً منه كأنه ساقه وجمعه » .

حتى اتضح عندي بادية وخافيه ، وانكشفت لي أقوال الأئمة المشهورين فيه ، كأبي الحسن علي بن عيسى الرماني^(١) ، وأبي القاسم الحسن^(٢) بن بشر الآمدي ، وأبي عثمان الجاحظ ، وقدامة^(٣) بن جعفر الكاتب ، وأبي هلال^(٤) العسكري ، وأبي العلاء محمد^(٥) بن غانم المعروف بالغانمي ، وأبي

(١) في الأصل « الرمالي » والصواب ما أثبتناه في المتن ، وهو أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني ، وكان يعرف أيضاً بالآخشيدي وبالوراق ، وهو بالرماني أشهر « ٢٧٦-٣٨٤ هـ » . كان إماماً في العربية ، علامة في الأدب ، وكان يمزج النحو بالمنطق ، وله عدة تأليف منها كتاب « إنجاز القرآن » و « معاني الحروف » ومنه نسخة في مخطوطات خزائن المتحف العراقي برقم ٧٧٨ (معجم الأدباء ج ١٤ ص ٧٣) من طعة دار المأمون ، و « فوات الوفيات ج ٢ ص ٦٦ » والبقية « ص ٣٤٤ » .

(٢) كان أبو القاسم الآمدي أديباً فاضلاً ، وناقداً بارعاً ، وراويّاً ماهراً ، وشاعراً مجيداً له تأليف حسنة ذكر ياقوت منها « فرق ما بين الحاس والمشارك من معاني الشعر » و « الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري » وهو الذي أراد المؤلف « أنظر كتاب المثل السائر ج ١ ص ٤ طبعة مطبعة البابي الحلبي بمصر » ، و « ما في عيار الشعر من الخطأ » وعيار الشعر لابن طباطبا و « تفضيل شعر امرئ القيس على شعر الجاهليين » و « تبين غلط قدامة بن جعفر في نقد الشعر » توفي سنة ٣٧٠ هـ (معجم الأدباء ج ٨ ص ٧٥) وبغية الوعاة « ص ٢١٨ » .

(٣) كان قدامة أحد البلغاء العظماء والفلاسفة الفضلاء ومن يشار اليه في علم المنطق ، ألف كتاباً في « الحراج وصناعة الكتابة » وكتاب « نقد الشعر » وكتاب « الرد على ابن المعتز » فيما عاب به أبا تمام وكتاب « صناعة الجدل » وقد أدرك أواسط القرن الرابع للهجرة . (معجم الأدباء ج ١٨ ص ١٣) .

(٤) هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكري من كتبه كتاب « الصناعتين » « وديوان الغاني » و « جهرة الأمثال » و « العجم في بقية الأشياء » وكلها مطبوع مشهور ، وذكر له السيوطي مؤلفات أخرى ، كان حياً سنة « ٣٩٥ » (بغية الوعاة ص ٢٢١) (معجم الأدباء ج ٨ ص ٢٥٨) .

(٥) قال السمعاني في الأنساب :

« الغانمي ... هذه النسبة إلى غانم وهو اسم لجد المنتسب اليه وهو الأديب محمد بن ... غانم الغانمي ، من أفاضل عصره ، وديوان شعره سائر في الآفاق وهو من مداحي نظام الملك ، وروي لي عنه من شعره صاحبه أبو بكر الأسفزازي . وابنه أبو المحاسن مسعود بن محمد بن غانم ابن أبي الحسين بن أحمد بن علي بن ابراهيم الغانمي الهروي ... » .

وذكره عز الدين بن الأثير في الباب « مختصر الأنساب » بما يقرب من ذلك « ج ٢ ص ١٦٦ » وأورد ذكره البخارزي في الدمية - ص ١٧٦ - قال : الغانمي الهروي شاب فاضل ، اختلف إلي بنيسابور وحصل ديوان شعري وانتسخه من جمعي وأمره على سمعي ، وله شعر حسن ووراء لازيادة مواعد ، وله في مناهل الآداب بعد موارد ، وارتبط لخدمة التأديب في الدار العالية النظامية فانساب رونق الاقبال في متصرفات أحواله ، ولاجت آثار السعادة على صفحات جاهه وماله ، فلما أنشدني نفسه قوله في خدمة نظامية من قصيدة :

ضياء الشمس جزء من جبينك وناصية الليالي في يمينك

إذا قيس بك الوزراء يوماً فأسد هم ثعالب في عرينك

وأورد له مقطوعتين أخريين .

محمد عبد^(١) الله بن سنان الحفاجي ، وغيرهم ممن له كتاب يشار اليه ، وقول تعقد الخناصر عليه^(٢) ، ثم لما مضى على ذلك مائة^(٣) من الدهر ، وانقضى دونه برهة من العمر ، لحت في أثناء القرآن الكريم ، من هذا النحو أشياء طريفة^(٤) ، ووجدت في مطاويه من هذا النوع نكتاً دقيقة لطيفة ، فعرضتها عند ذلك ، على الأقسام التي ذكرها هولاء العلماء وشرحوها ، والأصناف التي بينوها في تصانيفهم وأوضحوها ، فألفيتهم قد غفلوا عنها ، ولم ينبهوا على شيء منها ، وكان ذلك باعثاً لي على تصفح آيات القرآن العزيز ، والكشف عن سره المكنون ، فاستخرجت منه حينئذ ثلاثين ضرباً من علم البيان ، لم يأت بها أحد من أولئك العلماء الأعيان ، وكان ما ظفرت به أصل هذا الفن وعُمدته ، وخُلاصة هذا العلم وزُبدته ، فحيث أحرزت هذه الفضيلة ، وحصلت عندي هذه العقيلة ، أحببت أن أفرِّدَ لها كتاباً ، وأفصلها فيه أقساماً وأبواباً ، ليكون مقصوراً على شوارد هذا العلم وغرائبها ، ورموزه الخفية وعجائبه ، وليجمله مؤلف الكلام رأس بضاعته ، ويعلم به مواقع الصواب في صناعته ، فلما شرعت في تليفقه ، وبدأت بإيضاح القول فيه وتحقيقه ، عاودت النظر في تصانيف العلماء المذكورين ، والتبصر في أقوال أئمة هذه الصناعة المشهورين ، فسنح لي عند ذلك لطائف رائعة ، ونوادر حسنة فائقة ، هي كالشاهدة لما بينوه ، والمشيّدة لما نصّبوا عليه وعيّنوه ، وقلماً تركت قولاً من أقوالهم بحاله ، من غير زيادة أو دعه^(٥) في خلاله . فصار هذا الكتاب لغوامض علم البيان مبيّناً ، ولما ذكره أرباب هذه الصناعة ، ومالم

(١) قال المؤلف في كتابه « المثل السائر » وهو يتحدث عن علم البيان « وقد ألف الناس فيه كتباً وجلبوا ذهباً وخطباً ... فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي وكتاب سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الحفاجي » ج ١ ص ٤ من الطبعة المشار إليها في ص ٤ من هذا الكتاب « قال ابن شاكر الكتبي بعد ذكر اسمه ونسبه « الحفاجي » : « شاعر أدب » وأورد شيئاً من شعره ، وكانت وفاته سنة « ٤٦٦ هـ » (فوات الوفيات ج ١ ص ٤٨٩ - ٤٩٣) .

(٢) كناية عن قوة الاعتماد عليه والوثوق به .

(٣) مائة من الدهر (مثله) : برهة منه (القاموس) . والبرهة قطعة من الزمان طويلة ، أو الزمان عموماً .

(٤) في الأصل « طريفة » .

(٥) الفصيحة تعدي « أودع » إلى مفعوليته بنفسه فيقال « أودعها خلاله » .

يذكره متضمناً ، فأوردت في صدره ما يجب على مؤلف الكلام علمه ، وينبغي له معرفته وفهمه . ثم شفعت ذلك بذكر الفصاحة والبلاغة ، وصنعت الكلام فيها أحسن الصياغة ، فأوضحت ما أشكل من طريقتهما ، وبيّنت أقوال العلماء في حقيقتهما ، مع ما أضفته إلى ذلك من زيادات مناسبة ، واحترازات واجبة .

ثم شرحت بعد ذلك جميع أنواع علم البيان ، وشفيت القول فيها بحسب الامكان ، وسميته بكتاب : « الجامع الكبير ، في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور » . وجعلت مدار الكتاب على قطبين : (القطب الأول) في الأشياء العامة . (القطب الثاني) في الأشياء الخاصة . وينقسم القطب الأول إلى فئتين : الفن الأول فيما يجب على مؤلف الكلام الابتداء به ، وهو أربعة أبواب : (الباب الأول) في آلات التأليف (الباب الثاني) في أدواته (الباب الثالث) في الطريق إلى صناعة النثر والنظم (الباب الرابع) في الحقيقة والمجاز .

الفن الثاني في الكلام على الألفاظ والمعاني ، وتفضيل الكلام المنثور على المنظوم ، وهو ثلاثة أبواب : (الباب الأول) في الألفاظ المفردة والمركبة وهو قسمان (الباب الثاني) في الكلام على المعاني . (الباب الثالث) في تفضيل الكلام المنثور على المنظوم .

(القطب الثاني) وفيه فئتان : (الفن الأول) في الفصاحة والبلاغة . (الفن الثاني) في ذكر أصناف البيان وانقساماتها ، وهو بابان : (الباب الأول) في الصناعة المعنوية . (الباب الثاني) في الصناعة اللفظية .

وينقسم الباب الأول الى تسعة وعشرين نوعاً : « الأول » في الاستعارة . « الثاني » في التشبيه . « الثالث » في شجاعة العريضة ، وهو أربعة أقسام . « الرابع » في الإيجاز وهو قسمان . « الخامس » في الاطناب . « السادس » في توكيد الضمير المتصل بالمنفصل . « السابع » في الكناية والتعريض « الثامن » في استعمال العام في النفي ، والخاص في الإثبات . « التاسع » في التفسير بعد الإبهام . « العاشر » في التعقيب المصدري . « الحادي عشر » في التقديم والتأخير . « الثاني عشر » في عطف الظاهر على ضميره . « الثالث عشر » في التخلص

والاقتضاب . « الرابع عشر » في المبادئ والافتتاحات . « الخامس عشر » في قوة اللفظ لقوة المعنى « السادس عشر » في خذلان المخاطب . « السابع عشر » [في الاشتقاق . النوع « الثامن عشر » في الحروف العاطفة والجارة . النوع « التاسع عشر »] في التكرير^(١) . « العشرون » في تناسب المعاني من المقابلة والتقسيم والتفسير . « الحادي والعشرون » في الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية . « الثاني والعشرون » في لام التأكيـد . « الثالث والعشرون » في الاقتصاد والافراط والتفريط . « الرابع والعشرون » في المعاطلة . « الخامس والعشرون » في التضمنين . « السادس والعشرون » في الاستدراج . « السابع والعشرون » في الارصاد . « الثامن والعشرون » في التوشيح . « التاسع والعشرون » في الأخذ والسرقة . وينقسم الباب الثاني الى سبعة أنواع : « الأول » في السجع والازدواج . « الثاني » في التجنيس « الثالث » في الترصيع . « الرابع » في لزوم ما لا يلزم . « الخامس » في الموازنة . « السادس » في اختلاف صيغ الألفاظ . « السابع » في تكرير الحروف . وسندكر ترجمة الأبواب والأنواع عند ذكرها إن شاء الله تعالى .

(١) ما بين العضادين نقصان في الأصل وقد أكملناه بالرجوع الى صلب الكتاب .

الباب الأول

من الفن الأول من القطب الأول

آلات التأليف

اعلم أن صناعة تأليف الكلام ، من المنشور والمنظوم ، تحتاج الى أسباب كثيرة ، وآلات حجة ، وذلك بعد أن يركب الله تعالى في الانسان الطبع القابل لذلك ، المحيى اليه ، فانه متى لم يكن ثمّ طبع لم تفد تلك الآلات شيئاً البتة . فممثلُ الطبع كمثل النار السامنة في الزناد ، وممثلُ الآلات كمثل الحراق^(١) والحديدية التي يقدح بها ، ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا يفيد ذلك الحراق ولا تلك الحديدية شيئاً ، إلا أن الطباع القابلة للعلوم مختلفة الأنحاء ؛ فمنها ما يكون قابلاً لعلم الأدب كالنحو والتصريف وغيرها ، ومنها ما يكون قابلاً للعلوم الدينية كأصول الفقه وأصول الدين وما جرى هذا المجرى ، ومنها ما يكون قابلاً لغير ذلك كالعلم الرياضي ؛ كالنحو والحساب والهندسة ، ومنها ما يكون قابلاً لغير ذلك ، كالصنائع والحرف . وقد يوجد في الطباع ما يكون قابلاً لجميع العلوم . ومن أدلّ دليل على اختلاف الطباع وتباينها أنا نرى مؤلف الكلام يكون تارة مؤلفاً مطلقاً ، ونعني بالطلق أن يكون عارفاً بصناعة المنظوم من الكلام والمنشور ؛ ويكون مؤلفاً غير مطلق ، ونعني بغير المطلق أنه يكون عارفاً بأحد هذين القسمين دون الآخر ، وهو مع ذلك عالم بجميع آلات التأليف نظاماً ونثراً ، كما هو المؤلف المطلق ولا فرق . فاذا ركب الله في الانسان الطبع القابل لمعرفة تأليف الكلام على الاطلاق فيحتاج حينئذ الى تحصيل الآلات التي يخرج بها ما في القوة إلى الفعل . وتندحصر آلات التأليف في قسمين :

(١) الحراق والحرقاة ما تقع فيه النار عند القدح ، والعامّة تقول بالتشديد « شتار الصحاح » .

« الأول » يشترك فيه النظم والنثر . وهو سبعة أنواع : « الأول » معرفة علم العربية من النحو والتصريف والادغام . « الثاني » معرفة ما يحتاج اليه من اللغة . « الثالث » معرفة أمثال العرب وأيامهم . « الرابع » الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة ، المظوم منها والمنثور ، والتحفظ للكثير ^(١) من ذلك . « الخامس » معرفة الأحكام السلطانية في الامامة والامارة والقضاء وغير ذلك . « السادس » حفظ القرآن الكريم والممارسة لغرائبه ، والخوض في بحور عجائبه . « السابع » حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وأما القسم الثاني فإنه يخص النظم دون النثر ، وذلك علم العروض والقوافي ، الذي يقام به ميزان الشعر . ولندكر بعد ذلك فائدة كل نوع من هذه الأنواع فنقول :

أما (علم النحو) فهو الذي يستقيم به معاني الكلام ، وُصَانُ عُرَى تَأْلِيْفِهِ عَنِ الْإِنْحِلَالِ ^(٢) والانقسام ، ولولا ذلك لفسدت معانيه واختلت مبانيه . وَلِنَصْرِبْ لِهَذَا مِثَالاً يَوْضِحُهُ فنقول : لو قال لنا قائل : « مَا أَحْسَنَ زَيْدٌ » . ولم يبين الاعراب لما فهمنا غرضه من هذا القول ، إذ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ التَّعْجِبَ مِنْ حَسَنِهِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ الاسْتِفْهَامَ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ فِيهِ أَحْسَنُ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ الْأَخْبَارَ بَنِي الْإِحْسَانِ عَنْهُ . وَلَوْ بَيَّنَّ الْأَعْرَابُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : مَا أَحْسَنَ زَيْدًا ! وَمَا أَحْسَنُ زَيْدٍ ؟ وَمَا أَحْسَنُ زَيْدٌ ، عَلِمْنَا غَرَضَهُ وَفَهَمْنَا مَغْزَى كَلَامِهِ ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ بِمَا يَعْرِفُ بِهِ مِنَ الْأَعْرَابِ ، فَوْجِبَ ، حِينَئِذٍ عَلَى الْمُؤَلِّفِ ، بِهَذَا الدَّلِيلِ ، مَعْرِفَةَ النَّحْوِ إِذْ ^(٣) كَانَ ضَابِطًا لِمَعَانِي كَلَامِهِ ، حَافِظًا لَهَا مِنَ الْإِخْتِلَالَاتِ . فَانْ قِيلَ : أَمَا عِلْمُ النَّحْوِ فَسَلِمَ إِلَيْكَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى مُؤَلِّفِ الْكَلَامِ مَعْرِفَتُهُ ، لَكِنْ التَّصْرِيفُ وَالْإِدْغَامُ

(١) في الأصل « والتحفظ الكثير » وتحفظ الكتاب : استظهره شيئاً بعد شيء فاستعمال المؤلف للتحفظ بمعنى الحفظ هو استعمال مولد ، واللام في « الكثير » لام التقوية .

(٢) في الأصل « الحلال » وهو غير مستقيم .

(٣) في الأصل « إذا » . قابل هذا بما ورد في المثل السائر « ج ١ ص ١١ » من الطبعة المشار إليها في ص ٤ من هذا الكتاب .

لا حاجة به إليهما ، لأن التصريف إنما هو معرفة أصل الكلمة وزيادتها . وهذا لا يضر مؤلف الكلام جهله ، ولا ينفعه معرفته . وَلِنَضْرِبْ لذلك مثلاً كيف اتفق ، فنقول : إذا قال القائل : رأيت سرداحاً ^(١) ، لا يلزمه أن يعرف أن الألف في هذه اللفظة زائدة هي أم أصل ، لأن العرب لم تنطق بها إلا كذلك ، ولو قالت « سرّ دح » بغير ألف ، لما جاز لأحد أن يزيد الألف من عنده ، فيقول « سرداح » فعلم بهذا أن مؤلف الكلام إنما ينطق بالالفاظ كما سمعها عن العرب ، من غير زيادة فيها ، ولا نقصان ، وليس عليه بعد ذلك أن يعرف أصلها ، ولا زيادتها ، لأن ذلك أمر خارج عما تقتضيه صناعته . وكذلك الادغام ، فانه إذا قال القائل « مررت برجل ضفّ ^(٢) الحال » لا يلزمه أن يعلم أن الأصل في « ضفّ » ضفف وأن هذه الكلمة إنما أدغمت لكونها مثلين عينا ولاما ، أو لأجل أنها على وزن الفعل ، لأن ذلك لا يجب عليه علمه ، ولا يضطر الى معرفته البتة ، وذلك أنه إنما ينتقل هذا وأمثاله عن العرب . فالذي يسمع أنهم قد تكلموا به يحذو حذوهم فيه ، من غير أن يتصرف بشيء من عنده ، فان [كان] مؤلف الكلام لم يسمع أن العرب قالوا « رجل ضفّ الحال » فقال هو « ضفّ الحال » ولاسمع أنهم قالوا : « ضفّف الحال » فقال هو « ضفّف ^(٣) الحال » فإنما تكلم بما سمعه عن العرب من غير زيادة فيه ولا نقصان منه . الجواب عن ذلك إنا نقول : أعلم أنا لم نجعل معرفة التصريف والادغام ، ضرورة على مؤلف الكلام ، كمعرفة النحو . لأن المؤلف اذا كان عارفاً بالمعاني ، محتاباً لها ، قادراً على الألفاظ ، مجيداً فيها ، ولم يكن عارفاً بعلم النحو فانه يفسد ما يصوغه من الكلام ، ويختل عليه ما يقصده من المعاني ، كما أريناك ^(٤) في ذلك المثال المتقدم . وأما التصريف والادغام فان المؤلف إذا لم يكن عارفاً بهما لم يفسد عليه معاني كلامه ، وإنما تفسد على ^(٥) الأوضاع ، وان كانت المعاني صحيحة مفهومة . وسيأتي بيان ذلك في تحرير الجواب . فنقول :

(١) السرداح : الناقة الطويلة أو الكريمة أو العظيمة أو السمينة أو القوية الشديدة التامة كالسرداحة

« القاموس » .

(٢) رجل ضف الحال : رقيقها « القاموس » .

(٣) في الأصل « ضفف » بكسر الفاء الأولى والسياق يقتضي ما أثبتناه مع الابهام الظاهر في عبارة المؤلف .

(٤) في الأصل « أريناك » . (٥) لعل الأصل « عليه » .

أما قولك أيها المترخص ^(١) إن التصريف والادغام لا حاجة لمؤلف الكلام اليهما ، واستدلالك على هذا بما ذكرته من هذين المثالين اللذين ضربتهما ، فإن ذلك لا يستمر لك الكلام فيه ألبتة . أما التصريف وتمثيلك إياه بلفظة « سرداح » وقولك إن المؤلف لا يحتاج الى معرفة أن الألف التي فيها زائدة هي أم أصل ؛ لأنه ينقلها عن العرب على ما هي عليه من غير زيادة ولا نقصان ، فإن ذلك لا يطرِد إلا فيما هذا سبيله من نقل الالفاظ على هيئتها ، من غير تصرف فيها ، بحال من الأحوال ، فأما إذا أراد المؤلف تصغيرها ، أو جمعها ، أو النسبة إليها ، فإنه إذا لم يعرف الأصل في حروف الكلمة ^(٢) وزيادتها وحذفها وإبدالها ، يضل عن السبيل ويصير عليه مجال للطاعن والعائب ^(٣) ألا ترى أنه إذا قيل للنحوي ، وكان جاهلاً بعلم التصريف : كيف تصغر « اضطراب » ؟ فإنه يقول « ضطيريب » لا يلام على جهله بذلك لأن الذي تقتضيه صناعة النحو قد أتى به ، وذلك أن النحاة يقولون في كتبهم « إذا كانت الكلمة على خمسة أحرف ، وفيها حرف زائد ، ولم تكن حذفته [حذفته] ^(٤) نحو قولهم في منطلق « مطليق » وفي جحمرش « جحيمر » ^(٥) فلفظه منطلق على خمسة أحرف ، وفيها حرفان زائدان ، هما الميم والنون ، إلا أن الميم زيدت فيها لمعنى ، فلذلك لم تحذف ، وحذفت النون .

وأما لفظة « جحمرش » فخماسية لا زيادة فيها ، وحذف منها حرف أيضاً ، ولم يعلم النحوي أن علماء النحو إنما قالوا ذلك مهملاً ، اتكلاً منهم على تحقيقه من علم التصريف ، لأنه لا يلزمهم أن يقولوا ، في كتب النحو ، أكثر مما قالوا ، وليس عليهم أن يذكروا في باب من أبواب النحو شيئاً من التصريف ، لأن كلاً من النحو والتصريف علم منفرد برأسه ، غير أن أحدهما مرتبط بالآخر ، ويحتاج إليه . وإنما قلت : إن النحوي ، إذا سئل عن تصغير « اضطراب » يقول « ضطيريب » لأنه لا يخلو : إما أن يحذف من لفظة « اضطراب » الألف ، أو الضاد ، أو

(١) المترخص : المتساهل . (٢) كان أخرى بأن يقول « في أحرفها » بجمع القلة .

(٣) في الأصل « الغائب » وهو من تحريف السناخ . (٤) زيادة يقتضيها السياق .

(٥) في الأصل « جحيمر » وهو غير صحيح لوجوب حذف الحرف الأخير . قال ابن الحاجب في

الشافعية ١ : ٢٠٢ « وإذا صغر الحماصي على ضعفه فالأولى حذف الخامس وقيل : ما أشبه الزائد » .

الطاء ، أو الراء ، أو الباء ، هذه الحروف المذكورة غير الألف ليست من حروف الزيادة ، فلا تحذف ، بل الأولى أن يحذف الحرف الزائد ، ويترك الحرف الذي ليس بزائد ، فلاجل ذلك قلنا : إن النحوي يصغر لفظة « اضطراب » على « ضطرب » فيحذف الألف ، التي هي حرف زائد دون غيرها ، مما ليس من حرف الزيادة . وأما أن يعلم النحوي أن الطاء في « اضطراب » مبدلة من تاء ، وأنه إذا أريد تصغيرها يعاد الى الأصل الذي كانت عليه ، وهو التاء ، فيقول « ضُتْرِيب » فإن هذا لا يعلمه الا التصريفي . وتكليف النحوي الجاهل بعلم التصريف معرفة ذلك كتكليفه معرفة علم الذيب ، فثبت بهذا الدليل ، الذي ذكرناه ، أن مؤلف الكلام يحتاج إلى علم التصريف ، لئلا يملط في مثل هذه الأخطاء ، فيستوجب عند ذلك المذمة والعيب .

ومن العجب أن يقال إن مؤلف الكلام لا يحتاج الى التصريف . ألم تعلم أن نافع بن أبي نعيم ، وهو أكبر القراء السبعة قدراً ، وأفهمهم شأنًا ، قال في « معاش » « معاش » بالهمز ، ولم يعلم بالأصل في ذلك ، فأخذ عليه وعيب من أجله . ومن جملة من عابه على ذلك أبو عثمان ^(١) المازني ، فقال في كتابه في التصريف « إن نافعاً لم يدر ما العربية » . وكثيراً ما يقع أولو العلم في مثل هذه المواضع ، فكيف الجاهل الانغمار ، الذين لا خبرة لهم بها ، ولا اطلاع لهم عليها ؟

واذا كان المؤلف عارفاً بحقيقة الأمر في ذلك لا يقع في ورطة تؤخذ عليه ، وهذه لفظة معاش لا يجوز همزها ألبتة باجماع من علماء العربية ^(٢) ، لأن الياء فيها ليست مبدلة من

(١) هو بكر بن محمد البصري روى عن الأصمعي وطبقته وكان اماماً في العربية والتصريف ، قوي المناظرة ، قال المبرد : لم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من أبي عثمان ، توفي سنة « ٢٤٨ » على إحدى الروايات .

(٢) جاء في لسان العرب .. وجمع المعيشة معاش على القياس ومعاش على غير قياس ، وقد قرئ بها قوله تعالى « وجعلنا لكم فيها معاش » وأكثر القراء على ترك الهمز في معاش ، إلا ما روي عن نافع فإنه همزها وجميع النحويين البصريين يزعمون أن همزها خطأ ، وذكروا أن الهمزة إنما تكون في هذه الياء إذا كانت زائدة مثل صحيفة وصحائف . فأما معاش فمن العيش الياء أصلية « ونقل من الصحاح قول الجوهري « وإن جمعت معيشة على الفرع لا على الأصل همزت وشبهت مفعلة بفعيلة ، كما همزت المصائب لأن الياء =

همزة ، وإنما الياء التي تبدل من الهمزة ، في هذه المواضع ، تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ، ويكون بعدها حرف واحد ، لا يكون عيناً نحو سفائن . وفي هذا الموضع غلط نافع لا شك اعتد أن معيشة بوزن فعيلة ، وجمع فعيلة على وزن فعائل ، ولم ينظر إلى أن الأصل في معيشة « معيشته » على وزن مفعلة . وذلك لأن أصل هذه الكلمة من عاش التي أصلها عيش . على وزن « فعَل » ويلزم مضارع فعل المعتل العين بالياء « يفعل » لتصح الياء نحو « يعيش » ثم تنقل حركة العين إلى الفاء ، فيصير « يعيش » ثم يبنى من « يعيش » مفعول فيقال « معيوش به » كما يقال « مسيور به » ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال « معيش » [به] كما يقال « مسير به » ثم توث هذه اللفظة فتصير « معيشة » ^(١) فأعرف ذلك وقس عليه .

وها هنا نكتة أخرى ، وهي من أعظم الأسباب الموجبة لمعرفة علم التصريف ، وذلك أن المعتل من الكلام ^(٢) إذا بني من ماضيه مستقبلي ، يجمل مواقع الصواب فيه إذا ^(٣) لم = ساكنة ، ومن النحويين من يرى الهمز لحناً .

وللصرفين كلام طويل في هذه الكلمة ، قال الفيومي في المصباح المنير « والمعيش والمعيشة : مكسب الانسان الذي يعيش به والجمع المعاش ، هذا على قول الجمهور أنه من عاش فاليم زائدة ، ووزن معاش « مفاعل » فلا يهمز به قرأ السبعة . وقيل هو من « معش » فاليم أصلية ووزن معيش ومعيشة « فعيل وفعيلة » ووزن معاش « فعائل » فتهمز به قرأ أبو جعفر المدني والأعرج .

(١) يشعر كلام المؤلف أن « معيشة » اسم مفعول مؤنث وهو وهم منه لأن المعيشة مصدر ميمي جاء على الوجه القليل ثم أثبت كالمسير ، أو اسم مصدر . قال الجوهري في الصحاح « وقد عاش الرجل معاشاً ومعيشاً وكل واحد منهما يصلح أن يكون مصدراً وأنت يكون اسماً مثل معاش ومعيش ومحال ومحيل » وقد نقلنا قول الفيومي « والمعيش والمعيشة : مكسب الانسان الذي يعيش به » . وفي مقاييس اللغة لابن فارس « قال الخليل : العيش الحياة والمعيشة : الذي (كذا أي التي) يعيش بها الانسان من مطعم ومشرب وما تكون به الحياة . أو المعيشة : اسم لما يعاش به وهو في عيشة ومعيشة صالحة » ، وقال الرضي الاسترابادي في شرح شافية ابن الحاجب (ج ١ / ١٧٠ - ١٧٣) في باب المصدر :

« وقد يجيء في الناقص « المفعول » مصدراً بشرط التاء كالمعصية والحمية ، وجاء في الأجوف المعيشة ثم قال « وجاء بالكسر وحده المكبر والميسر والحيز والمقليل والمرجع والنجي والمليت والشيب والمعب والمزيد والصير والمسير والعرفة والمغفرة والمؤدة والمأوية والمعصية والمعيشة » .

(٢) كذا ورد ولعل الأصل « الفعل » .

(٣) لعل الأصل « إن لم يكن » أو « ما لم يكن » فلا يجوز أن يكون الطرفان التاملان « إذا وإذا »

لفعل واحد هو « يجمل » .

يكن المؤلف عارفاً بعلم التصريف . مثال ذلك إذا أراد المؤلف أن يبين من وزن « فعل » المعتل فاؤه بالواو مستقبلاً . فإن كان جاهلاً بذلك قال في وَعَدَ « يَوْعِدُ » قياساً على الصحيح في ضرب « يَضْرِبُ » وإن كان عالماً به حذف الواو ، لوقوعها بين ياءٍ وكسرة ، فقال وعدَ « يَعِدُ » . وكذلك إذا أراد أن يبين من وزن « فَعِلَ » أو وزن « فَعُلَ » المعتلي الفاء بالواو مستقبلاً . فانه إن كان جاهلاً ذلك ، وكان قد سمع بعض العلماء ، يقول في وَعَدَ « يَعِدُ » حمل « فَعِلَ وَفَعُلَ » على ذلك الأسلوب فقال « وَجِلَ يَجِلُ » وفي « وضوء يَضِو » . وإذا كان عارفاً بمعنى الأمر في ذلك لم يحذف الفاء في مستقبل « فَعِلَ وَفَعُلَ » بل يقول « وَجِلَ يَوْجِلُ » و « وضوء يَوْضُو » . وكثيراً ما يقع الخطأ في تصريف الكلام المعتل ، من الماضي إلى المستقبل ، وهو موضوع من العربية وعر المسلك ، فينبغي لمؤلف الكلام مراعاته والاعتناء به ، وأمثال هذا كثير فاعرفها .

وأما الادغام وقولك : إن المؤلف لا يحتاج إلى معرفته ، واستدلالك عليه بما ذكرته من المثال ، وهو قولك : « مررت برجل ضفّ الحال » . فإن ذلك لا يُسَلِّم إلا في هذه الصورة ، وما يجري مجراها ، في نقل الألفاظ على هيأتها ، ومن شرط الأمثلة أن تكون شائعة في جنسها . ولنضرب لذلك مثلاً ، كيف اتفق ، فنقول : إذا قال النحوي في تعريف الحال « إنها هيئة الفاعل أو المفعول وهي نكرة منصوبة مشتقة ، أو في تقدير المشتقة ، تأتي بعد معرفة ، ويحسن تقدير « في » معها وسؤال « كيف » ثم مثَّلَ ذلك بقوله : « جاء زيد راكباً » . فلا يجوز أن يكون هذا المثال غير مطرد في جنسه ، لأنه لو لم يكن مطرداً في جنسه لما جاز أن يجعل مثلاً لما تقدّمه من هذه المصادر ، وكذلك هذا المثال الذي مثلت به ما ادعيت في الادغام فانه ليس بشائع في جنسه . وبيان ذلك أنا نقول : قد ورد عن بعضهم هذان البيتان وهما :

إذهبي في كلاءة^(١) الرحمن أنت مني في ذمة وأمان
ترهبيني والجيد منك لليلي والحشا والبُغَام والعينان

(١) في الأصل « كناية » بتسهيل الهمزة وقلبها ياءً ولا حاجة إليه .

فإذا يقول هذا الشاعر إذا سئل عن قوله « ترهيبني » وقيل : إن الأصل في ذلك « ترهيبني » بحذف إحدى النونين ؟ فلا أجدهُ يستطيع الجواب عن ذلك ، إلا أن يكون عارفاً بالادغام ، وهو : إذا كان المثلان في كلمتين وقبلهما ساكن ، وهو حرف مدّ أولين ، يجوز إدغام إحداهما في الآخر ، ولما وجد هذا السبب في « ترهيبني » أدغمت إحدى النونين في الأخرى ، ثم خفف الإدغام فصارت « ترهيبني^(١) » فيجب حينئذٍ على مؤلف الكلام ، بهذا الدليل ، معرفة الادغام ، ليسلم من اعتراض متعرض أو تعنت متعنت .

وأما النوع الثاني : وهو قولنا إن المؤلف يحتاج الى معرفة اللغة فلسنا نعني بذلك إلا ما كان مألوفاً^(٢) ، متداولاً بين أرباب هذه الصناعة . وسيأتي ذكر ذلك في كتابنا هذا . ويفتقر المؤلف أيضاً إلى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله في النظم والنثر ، ليجد اذا ضاق به موضع في كلامه ، بايراد بعض الألفاظ فيه ، المدول عنه إلى غيره ، مما هو في معناه . وكذلك يحتاج الى معرفة الأسماء المشتركة ، ليستعين بها على استعمال التجنيس في كلامه ، وأعلم أن هذا الموضع ينبغي أن يذكر فيه الأسماء ألبعة^(٣) ، وانقسام دلالتها على المعاني ، فإن المؤلف اذا كان عالماً بذلك ، فهو مما لا يستغني عنه فنقول :

الألفاظ تنقسم دلالتها على المعاني ستة أقسام : مترادفة ، ومشاركة ، ومتباينة ، ومتواطئة ، ومشككة ، ومتشابهة ، فأما الثلاثة الأولى التي هي : المترادفة والمشاركة والمتباينة فيحتاج مؤلف الكلام الى معرفتها . وانما أوجبنا عليه معرفة الأسماء المتباينة ، لأن منها ما يوهم أنه من المترادفة ، وليس كذلك ، وأما الثلاثة الأخر التي هي : المتواطئة والمشككة

(١) تخفيف الإدغام هاهنا لا يخرج عن كونه ضرورة شعرية فهو معادل لحذف النون بغير ناصب ولا جازم إن صح التأويل اليه أي الى الادغام ، والمعروف في مثل هذا أن يكون كقوله تعالى « مالك لا تأمنا » وقوله « أفغير الله تأمروني أن أعبد » .

(٢) في الأصل « مولوفاً » والصحيح ما أثبتناه .

(٣) البنية في الأصل مصدر المرة من الفعل « بت » بمعنى قطع وجزم ، وقد استعملت في كلام العرب للنفي والاثبات جاء في حديث « أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي » : « فلما يئس من رؤيته البنية نهكته العلة (مصارع العشاق ص ٢١٢ مطبعة السعادة) .

والمتشابهة فانه لا يحتاج مؤلف الكلام إلى معرفتها ، لأن ورودها في التأليف لا يُنتجُ فائدة تذكر ، كالمترادفة والمشاركة ، وما شابه المترادفة من المتباينة ، وإنما ذكرنا هذه الثلاثة الأخر ههنا ، لنكون قد استوفينا جميع أقسام الأسماء في كتابنا هذا ، فاعرفه .

فأما الأسماء المترادفة : فهي المختلفة الدالة على معنى يندرج تحت حقيقة واحدة ، كالخمر والراح ، والعُقار ، فإن المسمى بهذه الأسماء شيء واحد ، وهو الشراب المسكر المعتصر من العنب^(١) . وأما الأسماء المشتركة : فهي اللفظ الواحد المطلق على موجودات مختلفة بالحدّ والحقيقة ، إطلاقاً متساوياً ، كالعين ، فإنها تطلق على العين الباصرة ، وعلى ينبوع الماء ، وعلى المطر . وكل من هذه الثلاثة مختلف بالحد والحقيقة وأما المتباينة : فهي الأسماء المختلفة الدالة على معانٍ مختلفة ، كالفرس ، والحمار ، والجدار . وغير ذلك . وقد يوجد من المتباينة ما يوهم أنه من المترادفة ، وليس كذلك ، وهو أن يتحد الموضوع ، ويتعدد الاسم ، بحسب تباين اعتبارات ، فمن ذلك أن يكون أحد الاسمين له من حيث هو موضوعه ، والآخر من حيث هو صفة له ، كقولنا السيف ، والصارم . فإن الصارم دل على موضوع بصفة الحِدّة ، وذلك بخلاف ما دلّ عليه السيف ، لأنه موضوع بازاء هذه الآلة ، كيف كانت . ومن ذلك أن يكون أحد الاسمين له بسبب وصف ، والآخر بسبب وصف للوصف ، كقولنا الناطق ، والفصيح . فإن الفصيح وصف للناطق ، الذي هو وصف الانسان .

وأما الأسماء المتواطئة : فهي الدالة على أعيان متعددة بمعنى واحد مشترك بينها كدلالة اسم الحيوان على الانسان ، والفرس ، والحمار ، لأنّها مشتركة في الحيوانية ، والاسم موضوع بازاء ذلك المعنى المشترك المتعاطى .

(١) قال عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني في « الفلك الدائر على المثل السائر » « ص ١١ » في تقديمه ما يشبه هذا من كلام المؤلف « هذا الموضع من أمثال الغلطات التي نبه عليها المنطقيون فقالوا : قد يظن في كثير من الأسماء أنها مترادفة وهي في الحقيقة متباينة كالسيف والصارم والمنهد ... فكل واحد من هذه المعاني مباين للآخر فالأسماء الموضوعات لها متباينة في الحقيقة وإن ظنّ في الظاهر أنها مترادفة وكذلك ما مثل به المصنف فإن الخمر اسم موضوع لهذا الشراب المخصوص وإن كان مشتقاً غير مرتجل والراح اسم لما ترتاح النفس اليه والدمام اسم لما يدام استعماله كأنه أديم يدام فهو مدام ، فالعاني متباينة لا بحالة وإن توهم في الظاهر أنها مترادفة » .

وأما المشككة فهي كل اسم دلَّ على شيئين فصاعداً ، بمعنى هو واحد في نفسه ، لكن يختلف ذلك المعنى فيها من جهة أخرى ، كاللتقدم ، والتأخر ، والأشد والأضعف . أما التقدم والتأخر فكالوجود للجوهر قبل العَرَض وأما الأشد والأضعف فكالبياض الواقع على الثلج والعاج ، فان الثلج أشد بياضاً من العاج .

وأما التشابه فهي الأسماء التي لا يجمعها معنى واحد ، لكن بينها تشابه ما ، من حيث ذاتها ، كالطين المصور على صورة الانسان ، اذ يطلق لفظ الانسان عليه ، وعلى الانسان الحقيقي ، بطريق المشابهة لا بطريق التواطؤ ، لأنها مختلفان في الحد والحقيقة . هذا ما ينبغي ذكره في الأسماء وانقسامها في الدلالة على المعاني ، فاعرفه .

وأما النوع الثالث : فهو معرفة أمثال العرب وأيامهم فان^(١) مؤلف الكلام شديد الحاجة الى ذلك ، وذلك أن العرب لم تضع الأمثال إلا لأسباب^(٢) أوجبتها ، وحوادث اقتضتها ، فصار المثل المنضروب لأمر من الأمور عندهم كالعلامة ، التي يعرف بها الشيء^(٣) . وليس في كلامهم أوجز منها ، ولا أشد اختصاراً . وسبب ذلك ما أذكره لك ، لتكون من معرفته على يقين . فأقول : قد جاء عن العرب من جملة أمثالهم « إن يَبْغِ عليك قومك لا يَبْغِ عليك القمر » . وهو مثل يضرب للأمر^(٤) الظاهر المشهور ، والأصل فيه :

قال المفضل^(٥) بن محمد : إنه بلغنا أن بني ثعلبة بن سعد بن ضبة في الجاهلية تراهنوا على

(١) في الأصل « كان » وهو غير مستقيم . (٢) في الأصل « الأنساب » ولا يوافق المعنى .
(٣) قال عز الدين بن أبي الحديد « في الفلك الدائر على المثل السائر » - ص ١٤ - « الصحيح أن يقال : المثل على نوعين أحدهما ما قصد به المبالغة بالفضة (أفعل) كقولهم : أشغل من ذات النجيين . والثاني (كذا قال والصواب الآخر) كل كلام وجيز منضود أو منظوم ، قيل في واقعة مخصوصة تتضمن معنى وحكمة وقد تهيأ ، بتضمنه ذلك ، لان يستشهد به في فظائر تلك الواقعة » اهـ .
(٤) في الأصل « للام » ولا معنى له هنا .

(٥) هو المفضل الضبي أبو العباس وقيل أبو عبد الرحمن ، من رجال القرن الثاني للهجرة ، كان عالماً بالنحو والشعر والغريب وأيام الناس ، وله كتاب الأمثال وكتاب المفضليات من مختار شعر العرب ، وقد طبع كتاب الأمثال بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة « ١٢٩٩ » هـ .

الشمس والقمر ليلة أربع عشرة من الشهر ، فقالت طائفة : نطلع الشمس والقمر يرى . وقالت طائفة : يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس . فتراضوا برجل جعلوه بينهم حكماً ، فقال واحد منهم : إن قومي يبعون عليّ ، فقال له الحكم : « إِنْ يَبِغْ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغْ عَلَيْكَ الْقَمَرُ » فذهبت مثلاً . ومن المعلوم أن قول القائل « إِنْ يَبِغْ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغْ عَلَيْكَ الْقَمَرُ » إذا أخذ على حقيقته من غير نظر الى القرائن المنوطة به ، والأسباب التي قيل لأجلها ، لا يعطي من المعنى ما قد أعطاه المثل ؛ وذلك لأن المثل له مقدمات وأسباب ، قد عرفت ، وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم ، وحيث كان الأمر كذلك جاز إيراد هذه اللفظات في التعبير عن المعنى المراد . ولولا تلك المقدمات المعلومة ، والأسباب المعروفة لما فهم من قول القائل « إِنْ يَبِغْ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغْ عَلَيْكَ الْقَمَرُ » ما ذكرناه في المعنى المقصود ، بل ما كان يفهم من هذا القول معنى مفيد أبته ، لأن البغي هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحداً ، فكان يصير معنى المثل « إِنْ كَانَ يَظْلَمُكَ ^(١) قَوْمُكَ لَا يَظْلَمُكَ الْقَمَرُ » وهذا كلام مختل ليس بمستقيم .

فلما كانت الأمثال كالرموز والاشارات ، التي يلوح بها على المعاني تلويحاً ، صار من أوجز الكلام وأكثره اختصاراً وحيث ^(٢) هي بهذه المثابة فلا ينبغي لمؤلف الكلام أن يخل بها . وأما أيام العرب فإنها تتنوع وتتشعب ، فمنها أيام نحر ، ومنها أيام محاربة ، ومنها أيام مذمة وعار ، ومنها غير ذلك . ولا يخلو المؤلف من الانتصاب لوصف يوم يمر به ، في بعض الاوقات ، مشبهاً بذلك مماثلاً له ، فاذا جاء بذكر بعض تلك الايام المناسبة لمراده ، الموافقة له ، وقاس عليه يومه ، فقال : « أشهر من يوم كذا » أو « أسير » ؛ أو ما جرى هذا الجرى ،

(١) هذا التركيب يدل على أن الفعلين أجريا مجرى الفعل الواحد كقوله تعالى « من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » (التوبة ٩ : ١١٧) ولولا ذلك لوجب أن يقول « إِنْ كَانَ يَظْلَمُونَكَ قَوْمُكَ ... » يجعل جملة « يظلمونك » خبراً لكان مقدماً .

(٢) الركة ظاهرة على عبارة المؤلف هذه وهي من العبارات السائرة في أيامه ، أراد « واذا كانت بهذه المثابة ... ولما كانت ... » .

فانه يكون في غاية الحسن والرونق ، وهذا لاختفاء ^(١) به .

وأما النوع الرابع وهو الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور ، فان فيه المؤلف فوائد ^(٢) جمة ؛ وذلك أن يعلم منه أغراض الناس ونتائج أفكارهم ، ويعرف مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعتهم في ذلك ، فان هذه الأشياء مما تشجذ القريحة ، وتذكي الفطنة ^(٣) . وإذا كان المؤلف عارفاً بها تصير المعاني ، التي ذكرها أرباب هذه الصناعة ، وتعبوا في استخراجها كالشيء الملقى بين يديه ، يأخذ منه ما أراد ، ويترك ما أراد . وأيضاً فإنه ^(٤) إذا كان مطلعاً على المعاني المسبوق إليها ، فقد ينقدح له من بينها معنى غريب ، لم يسبق [إليه] ^(٥) . ومن المعلوم أن خواطر المؤلفين وإن كانت متفاوتة في الجودة والرداءة ، فان بعضها قد يكون ^(٦) عالياً على بعض ، أو منحطاً عنه بشيء يسير . وكثيراً ما تتساوى القرائح والأفكار ، في الاتيان بالمعاني ، حتى إن بعض المؤلفين قد يأتي بمعنى من المعاني مصوغاً بلفظه ، ثم يأتي الآخر بعده ، بذلك المعنى واللفظ ، بعينها ^(٧) ، من غير علم منه بما جاء به المؤلف الأول ، وهذا هو الذي تسميه أرباب هذه الصناعة « وقع الحافر على الحافر » كقول امرئ القيس :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أسيّ وتجمّل

وقول طرفة بن العبد البكري بعده :

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أسيّ وتجلّد

وسيأتي لذلك باب مفرد في كتابنا هذا .

وأما النوع الخامس ، وهو معرفة الأحكام السلطانية من الامامة والامارة ، وغير ذلك ،

(١) في الأصل « الاختفاء . (٢) في الأصل « فوائد » .

(٣) المشهور عند الفصحاء إعادة الضمير الى « ما » مفرداً مذكراً فان كانت « ما » شرطية وميزت بمؤنث جاز الوجهان . كقوله تعالى في فاطر ٣٥ : ٢ « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » .

(٤) هذا من تعابير المتكلمين لأن « إن » تقطع ما بعدها عما قبلها ، أراد « وهو أيضاً إذا كان .. »

(٥) زيادة يقتضيها السياق . (٦) في الأصل « لا يكون » وهو غير مستقيم .

(٧) في الأصل « بينهما » وهو تصحيف ولعل الصواب بأعيانها .

فإنما أوجبنا^(١) على مؤلف الكلام معرفتها ، والاحاطة بها ؛ لأنه قد يحدث في الامامة حادث ، في بعض الاوقات ، أو يجري فيها أمر من الأمور ؛ بأن يكون الامام القائم من المسلمين ، ثم يتولى من بعده من لم تتكامل فيه شرائط الامامة ؛ أو يكون كامل الشرائط ، غير أن الامام الذي كان قبله عهدَ بها الى آخر غيره ، وهو ناقص الشرائط ، أو يكون قد تنازع الامامة شخصان^(٢) ، أو يكون أرباب الحل والعقد قد اختاروا إماماً ، وهم غير كاملين الشرائط ، التي يجب أن توجد فيهم ، أو يكون أمر غير ما ذكرنا ، فتختلف الأطراف في ذلك ، وينتصب ملك من ملوك الأرض له عناية بالامام الذي قام للمسلمين ، فيتقدم^(٣) الى كاتبه بكتبه كتاباً في معناه إلى الاطراف الخالفة له . وإذا لم يكن الكاتب عند ذلك عارفاً بالحكم ، في هذه الحوادث ، واختلاف أقوال العلماء فيها ، وما هو رخصة في ذلك ، وما ليس برخصة ، فإنه لا يكتب كتاباً ينتفع به ألبتة . ولسمنا نعي بهذا القول أن يكون الكتاب مقصوداً على فقير محض فقط ؛ لأننا لو أردنا ذلك لما كنا نحتاج فيه الى كتبه كتاباً ، بل كنا نقتصر على انفاذ مصنف من مصنفات الفقه ، عوضاً عن الكتاب ، الذي نريد أن نكتبه ، وإنما قصدنا بذلك أن يكون الكتاب الذي يكتب في هذا المعنى مشتملاً على الترغيب والترهيب ، والتسامح في موضع ، والمحاققة^(٤) في موضع ، مشحوناً كذلك بالنكت الشرعية ، التي تليق به وتناسبه ، كما فعل الصابي^(٥) في الكتاب^(٦) الذي كتبه عن عز الدولة بن بويه الى الطائع ، لما مات الطيع ،

(١) في الأصل « أوجبناه » وهو غير مستقيم .

(٢) قال في المصباح النير : الشخص : سواد الانسان تراه من بعد ثم استعمل في ذاته .

(٣) يقال : تقدم بكذا الى فلان : أمره به .

(٤) في الأصل « المحاققة » بفك الأذغام وهو غير جائز ، لأنه مصدر « حق » الرباعي بتشديد القاف .

(٥) أبو اسحاق ابراهيم بن هلال بن زهرون الحراني الأصل ، قال فيه ياقوت « أوحده الدنيا في انشاء

الرسائل ، تقلد ديوان الرسائل والمظالم والمعادن تقليداً سلطانياً أيام بني بويه ببغداد » . وقد نشر الأمير شكيب

أرسلان الجزء الأول من رسائله ، وقد وجد - الدكتور معظي جواد ، أحد المحققين لهذا الكتاب -

منها نسخة بدار الكتب الوطنية بباريس غفلاً من اسمه ، رقمها « ٦١٩٥ » عربيات . وله كتاب التاجي في أخبار

بني بويه وأخبار أهله ، وديوان شعر . توفي سنة « ٣٨٤ » . « معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٠-٩٤ » ،

والوفيات « ج ١ ص ٦٤ » من طبعة مكتبة النهضة بالقاهرة .

(٦) ووددنا أن نشير الى موضع هذا الكتاب من رسائل الصائب التي طبعها الأمير شكيب ارسلان بالشام ، =

فانه من محاسن الكتب ، التي يكتب بها في هذا الفن .

وأما النوع السادس وهو حفظ القرآن الكريم ، والاطلاع على غرائبه وعجائبه ، فان مؤلف الكلام ينبغي له أن يكون عارفاً بذلك ، لأن فيه فوائد كثيرة ، ومنافع زائدة . منها أن يُضمّن كلامه الآيات في أماكنها اللائقة بها ، ومواضعها المناسبة لها ، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك ، من الفخامة والجزالة والرونق ، كما فعل الشيخ عبد الرحيم ^(١) بن نباتة في خطبه ^(٢) فانه أبدع في تضمين الآيات فيها ، وسيأتي بيان ذلك في باب التضمين .

ومنها أن المؤلف اذا عرف مواقع البلاغة وأسرار صناعة الكلام ، في تأليف القرآن الكريم ، اتخذه بحراً ، يستخرج منه الدرر والجواهر ، ويودعها ^(٣) في مطاوي كلامه . وكفى بالقرآن الكريم وحده آلة لمؤلف ^(٤) الكلام . فعليك أيها المترشح لهذه الصناعة بحفظه ، والفحص عن سره الخفي ، وغامض علمه المستور ، فانها تجارة المؤلف لا تبور ، ومنبيع لا ينور ، وكثر يرجع اليه ، وذخر يُعوّل في جميع كلامه عليه .

وأما النوع السابع ، وهو تحفظ أخبار الرسول - صلى الله عليه وسلم - مما يحتاج مؤلف الكلام إلى استعماله ، فان الأمر يجري في ذلك مجرى القرآن الكريم ، وقد تقدم القول فيه ، فاعرفه .

== الا اننا لم نعر عليه فيها ، ففقدنا عنه في رسائل الصائغ المخطوطة المحفوظة بدار الكتب الوطنية بباريس تحت رقم ٦١٩٥ فلم نظفر به فيها ، وذلك يدل على نقصان ما جمع منها .

(١) هو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل بن نباتة الحذاقي الفارقي ، صاحب الخطب المشهورة المطبوعة المتداولة ، كان إماماً في علوم الأدب ، وكان خطيب حلب وبها اجتمع مع أبي الطيب المتني في خدمة الأمير سيف الدولة بن حمدان ، قالوا : وكان سيف الدولة كثير الغزو فلهذا اكثر هذا الخطيب من خطب الجهاد ليحرض الناس عليه ويحثهم على نصرته سيف الدولة . ولد سنة « ٣٣٥ » وتوفي سنة « ٣٧٤ » هـ بميفارقين . (الوفيات ج ٢ ص ٣٣١ - ٣٣٣) من طبعة مطبعة السعادة سنة « ١٩٤٨ » .

(٢) في الأصل « خطبة » .

(٣) راجع « ص ٥ ح ٥ » من هذا الكتاب .

(٤) في الأصل « المؤلف » .

القسم الثاني

وهو ما يخص الناظم دون الناثر

وذلك معرفة العروض ، وما يجوز فيه من الزحاف ، وما لا يجوز ، فان الشاعر محتاج اليه . ولسنا نوجب عليه المعرفة بذلك لينظم بعلمه ، فان النظم مبني على الذوق ، ولو نظم بتمطيع التفاعيل^(١) لجاء شعره متكلفاً غير مرضي ، وإنما أريد للشاعر معرفة العروض لأن الذوق قد ينبو عن بعض الزحافات ، ويسكون ذلك جائزاً في العروض . وقد ورد للعرب مثله . فاذا كان الشاعر غير عالم به لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وبين ما لايجوز .

وكذلك أيضاً يحتاج الشاعر إلى العلم بالقوافي والحركات ، ليعلم الروي^(٢) والردف^(٣) وما لا يصح من ذلك ، فاذا أكل مؤلف الكلام معرفة هذه الآلات ، وكان ذا طبع مجيب وقريحة مؤاتية ، فعليه بالنظر في كتابنا هذا ، والتدبر لمشكلاته ، والتصفح لما أودعناه من حقائق علم البيان ، ونهنا عليه من أصول ذلك وفروعه .

(١) في الأصل « الأفاعيل » .

(٢) الروي : هو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة فتنسب اليه فيقال « قصيدة لامية » اذا كان الروي لاماً و « ميمية » اذا كان الروي ميمياً وهلم جرا .

(٣) الردف : هو حرف لين ساكن (واو أو ياء بعد حركة لم تتجانسها) أو حرف مد (ألف أو واو أو ياء بعد حركة مجانسة) يقعان قبل الروي ويتصلان به مثل حرف اللين (الياء) في كلمة (عين) من قول أبي العتاهية « دار أمامك فيها قرّة العين » ومثل حرف المد (الياء) في (سبيل) من قوله :
لا تعمر الدنيا فليد ... س الى البقاء بها سبيل

الباب الثاني

من الفن الأول . من القطب الأول

في أدوات التأليف

اعلم أيها المنتصب لهذه الصناعة ، أنه يجب عليك إذا أردت أن تؤلف شيئاً من الكلام ، منشوراً كان أو منظوماً ، أن تأخذ من نفسك ، ساعة نشاطك وفراغ بالك ، وإجابتها لك ، فان قليل تلك الساعة أجدى عليك بما يُعطيك يومك بالكَدِّ والمطاولَة . وإياك والتسوُّعُ فإنه يسلمك الى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، وسنبتين لك فيما يأتي من هذا الكتاب ما تنوقى به ذلك ؛ فاذا حاولت أمراً بديعاً فالتمس له لفظاً يناسبه ، فإنه جدير بالمعنى الشريف أن يكون لفظُهُ شريفاً . وإذا وجدت ذلك فهو الدرجة التي لا أمد وراءها ، والمنزلة التي لا مطلع فوقها . وعليك بتنقيح^(١) الألفاظ وتحسينها ، فان الخطب الرائقة والأشعار البارة ، لم تعمل لافهام المعاني فقط ، لأنه لو قصد بها الافهام فقط لكان الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد في الأفهام ، وإنما عملت الخطب والأشعار لأجل الاتيان ببداعة اللفظ ، وإحكام صنعته . ولسنا نعني بذلك أن يجعل المؤلف همته مقصورة على تجويد الألفاظ ، ويُهمِل المعاني المنوطة تحتها ، وإنما المعنىُّ به أن تكون المعاني المقصودة ذات ألفاظ حسنة رائقة ، وسندكر معرفة اللفظ الجيد من الرديء ، والفرق بينهما ، فيما يأتي من كتبنا هذا .

واعلم أن المعنى هو عماد اللفظ ، واللفظ هو زينة المعنى . والمعاني بمنزلة الأرواح ، والألفاظ بمنزلة الأجساد ، فأول ما يجب على المتكلم أن لا يؤلف كلامه من ألفاظ رديئة . ثم إن ألفه من

(١) في الأصل « بتفتيح » .

الفاظ جيدة حسنة ، فانه لا يكون لها مزية ورونق إلا بابتداعها معنى شريفاً واضحاً ؛ لأن الألفاظ لا تراد لنفسها ، وإنما تجعل أدلة على المعاني ، فاذا عَدِمَتِ الذي يراد منها لم يُعْتَدَ لها بالأوصاف التي تكون لها . ألا ترى أن قولك « فعولن مفاعيلن ... » ليس له من الحلاوة والرونق ما لقولك :

تَضَوَّعَ مِسْكَ بَطْنُ نَعْمَانٍ^(١) إِذْ مَشَتْ بِهِ زَيْبٌ فِي نِسْوَةٍ خَفِيرَاتٍ

وذلك لحلوّه من المعنى المفهوم ؟ وهذا مما لا يحتاج فيه إلى زيادة في القول ، لبيانهِ ووضوحهِ . ومن المعلوم أن جماعة العقلاء من الخاصة والعامة يعرفون المعاني ، ويُصَيِّبون فيها ، إلا أنهم لا يقدرّون على إبرازها في لباس أنيق مناسب لها ، لعدم الطبع المجيب إلى ذلك . ألا ترى أنه حكي عن المبرّد^(٢) ، وهو من أكبر علماء العربية وأفخمهم شأنًا ، وصاحب قول ومذهب ، أنه قال : لا أحتاج إلى وصف نفسي لعلم الناس بي ، إنه ليس أحد يختلج في قلبه مسألة مشكلة إلا لقيني بها ، وأعدّني لها ؛ فأنا عالم ومتعلم ، وحافظ ودارس ، لا يخفي عليّ مشتبهُ^(٣) من الشعر والنحو ، والكلام المنثور ، من الخطب والرسائل ، ولربّما احتجت إلى اعتذار من قلة إلى بعض الأصدقاء ، أو التماس حاجة ، فاجعل المعنى الذي أقصده نُصَبَ عَيْنِي ، ثم لا أجد سبيلاً إلى التعبير عنه بما أرتضيه . ولقد بلغني أن عبيد الله^(٤) بن سليمان ذكرني بحميل ، فحاولت أن

(١) نعمان كسجبان : اسم واد وهذا البيت لمحمد بن عبد الله النُميري « كامل المبرد ج ٣ ص ١٠٠ » ، « الأغاني ج ٦ ص ٢٣ » ، بمطبعة التقدم بمصر .

(٢) هو أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي الثمالي البصري ولد سنة « ٢١٠ » هـ وتوفي سنة « ٢٨٦ » وكان إماماً في العربية والنحو وأوحد زمانه فيها وله تأليف مشهورة كالكمال في الأدب ومعاني القرآن والروضة وإعراب القرآن ونسب عدنان وقحطان والرد على سيويه وغير ذلك . « معجم الأدباء لياقوت الحموي ج ١٩ ص ١١١ وما يليها » وبغية الوعاة ص ١١٦ « بمطبعة السعادة ، وقد جاء في الأعلام للزركلي « ص ١٠٠٢ » ان « مولده ووفاته ببغداد » والصحيح أنه ولد بالبصرة . انظر المراجع المذكورة اعلاه في ذلك .

(٣) في الأصل « متنبه » ولعل الصواب ما ذكرناه .

(٤) في الأصل « عبد الله » وهو تصحيف وهو أبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب الكاتب الوزير ولد سنة « ٢٢٦ » ووزر للعتد ثم للعتضد عشر سنين ، وكان من الممدحين ، مدحه ابن المعتز الخليفة الشاعر وتوفي سنة « ٢٨٨ » (راجع فوات الوفيات ج ١ ص ٥٨) من طبعة مطبعة السعادة بمصر والفخري « ص ٣٠١ » من طبعة أوربة . وابن كثير « في البداية والنهاية » ج ١١ ص ٨٥ .

أكتب إليه رقعة أشكره فيها ، وأعرضُ ببعض أموري ، فأتعبت نفسي يوماً في ذلك ، فلم أقدر على ما أرتضيه ، فكنت أحاول الأفضاح عما في ضميري فينحرفُ لساني إلى غيره .
فإذا كان هذا قول المبرد - مع علو منزلته ، وارتفاع قدره - ، فما ظنك بمن لم يستنشق رائحة هذه الصناعة ؟ ولذلك قيل : زيادة المنطق على الأدب خير و^(١) زيادة الأدب على المنطق هجنة . فاعرف ذلك وقس عليه .

ولأجل تجويد الألفاظ وتهذيبها كان الكاتب في الرسالة ، والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة ، بعد الفراغ من معانيها يشتغل بتنقيح ألفاظها ، والتأنق في تجويدها ، ليدلّ بذلك على براعته والتقدم في صناعته . ولو كان قصد هؤلاء القوم إفهام المعاني فقط اطرحوها ، وربحوا كدّاً كبيراً ، وأسقطوا عن أنفسهم تبعاً زائداً . فينبغي لمؤلف الكلام حينئذ أن تكون ألفاظه رشيقةً لائقةً ، متصفة بالصفات التي يرد ذكرها في هذا الكتاب . ويكون معناه صواباً فيما قصده . وإذا كان حُسنُ التأليف لا يؤاتيك ، ولا تصل قدرتك إليه وتجد اللفظة لا تقع موقعها ، ولا تصير إلى مركزها ، ولا تتصل بسلكها ، وكانت قلقة في مكانها ، نافرة عن موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن ، والنزول في غير مواطنها ، فانك إن لم تتعاط صناعة التأليف من المنظوم والمثثور لم يعبك^(٢) على ذلك أحد . ولو تكلفت ذلك ولم تكن حاذقاً به ، ولا محكماً له استحققت عند ذلك العيب ، واستوجبت الدّم وجعلت نفسك غرضاً^(٣) لسهام الملام . وإن كانت قريحتك لا تسمحُ لك ، وتعصي عليك ، بعد إجابة الفكر ، وإطالة النظر فلا تعجل وأترك نفسك في تلك الحالة ، ثم عاود أمرك عند نشاطك وفراغ بالك ؛ فانك لا تعدّم حالة الأجابة من خاطرك ، والمؤاتاة ؛ إن كان لك قلب^(٤) جيب .

وأعلم أنه ينبغي أن تستعمل في كتابك ، إن كنت كاتباً ، مخاطبة كل فريق من الناس ، على قدر طبقاتهم ، وقوتهم في الفهم . والدليلُ على ذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) في الأصل « في » وقد أثبتنا ما يقتضيه السياق .

(٢) في الأصل « لم يعبك » وهو تحريف النسخ .

(٣) في الأصل « عرصاً » .

(٤) انظر العمدة لابن رشيق « ج ١ ص ١٨٧ » بمطبعة حجازي .

لما أراد أن يكتب الى أهل فارس ، كتب اليهم ما يمكنهم ترجمته ، وهو ^(١) من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى كسرى أبرويز عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد ^(٢) أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأني رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسليماً . وإن أبيت فأنهم المجوس عليك » . ألا ترى كيف سهل الألفاظ غاية التسهيل ، بحيث إنها لا تخفى على من له أدنى تشبث باللغة ^(٣) العربية ؟ ولما أراد أن يكتب الى قوم من العرب خاطبهم على قدر قوتهم وعادتهم لسماح مثله ، فكتب لوائيل ^(٤) بن حنجر « من محمد رسول الله الى الأقبال ^(٥) العبا هلة ^(٦) أهل ^(٧) حضر موت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ على التبعة ^(٨) شاة ^(٩) »

(١) جاء نصه في تاريخ الطبري كما يأتي « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله الى الناس كافة » لينذر من كان حياً « أسلم تسلم فإن أبيت فعليك ثم المجوس » وفي رواية أخرى « ... من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله ، فإني أنا رسول الله الى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم » فإن أبيت فأنهم المجوس عليك » (تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٩٥ - ٦ من طبعة مطبعة الاستقامة بمصر) .

(٢) في الأصل « أشهر » . (٣) في الأصل « بلغة » .

(٤) هو وائل بن حجر بن ربيعة وقيل بن سعد الحضرمي ، كان أبوه من أقبال اليمن ووفد هو على النبي - صلى الله عليه وسلم - واقتطعه أرضاً فاقتطعه إياها قال ابن سعد : نزل الكوفة وروى عن النبي - ص - ومات في خلافة معاوية « الاصابة ج ٣ ص ٥٩٢ » . أما الكتاب الذي كتبه النبي - ص - فقد ذكره الزمخشري في « الفائق » ج ١ ص ٤ طبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م في غير رواية وصورة .

(٥) الأقبال جمع قيل وأصله قيل فيعمل من القول ، خذفت عينه واشتقاقه من القول ، كأنه الذي له قول أي ينفذ قوله ... وأما أقبال فمعمول على لفظ قيل كما قيل أرياح في جمع ريح والشائع أرواح « الفائق » ويراد الملك الصغير من ملوك اليمن .

(٦) العبا هلة : الذين أقروا على ملكهم لا يزالون عنه من « عبا هلة » بمعنى « أبهاه » اذا أهمله . العين بدل من الهمزة ... (الفائق) .

(٧) في الفائق « من أهل » .

(٨) في الأصل « السبعة » والتي أثبتناه من الفائق . والتبعة : الأربعون من الغنم ، وقيل هي اسم لأدنى ما يجب فيه الزكاة ، كالخمس من الأبل وغير ذلك ، وهي مشتقة من ناع اليه يتبع إذا ذهب اليه . وقيل غير ذلك (الفائق) . (٩) في الأصل « الشاة » بالتعريف ولا محل له .

والتَّيْمَةُ ^(١) لصاحبها ، وفي السُّيُوبُ ^(٢) الخُص لا ^(٣) خِلَاطَ ولا وِراط ^(٤) ولا شِنَاق ^(٥) ولا شِنَار ^(٦) ومن أجبي ^(٧) فقد أربى ^(٨) وكلُّ مسكر حرام .
فانظر أيها المتأمل لهذا الكلام ، كيف خاطب هؤلاء القوم بالضد مما خاطب أهل ^(٩) فارس . وليس سبب ذلك الا ما ذكرناه من مخاطبة كل فريق من الناس على قدر معرفتهم .
فاعرف ذلك وقس عليه .

- (١) في الأصل « التيمية » والتيمية : الشاة الزائدة على التيمية حتى تبلغ الفريضة الأخرى وقيل هي التي ترتبطها في بيتك للاختلاب ولا تسميها وأيتها كانت ، فهي المحبوسة إما عن السوم واما عن الصدقة ، من « التميم » وهو التعبيد والحبس عن التصرف الذي للأحرار (الفائق) .
(٢) في الأصل « وفي الستون » ولا معنى له . والسيوب : الركاز وهو المال المدفون في الجبالية أو المعدن ، جمع سيب وهو العطاء (الفائق) .
(٣) والخلاط أن يخالط صاحب الثمانين صاحب الأربعين في النعم وفيها شاتان لتؤخذ واحدة (الفائق) .
(٤) الوراق : خداع المصدق بأن يكون له أربعون شاة فيعطى صاحبه نصفه لئلا يأخذ المصدق شيئاً . مأخوذ من الورطة ، وهي في الأصل الهوة العامضة فجعلت مثلاً لسل خطة (ماكرة) وإطاء عشوة : وقيل هو تمهيبها في هوة أو خمر لئلا يعثر عليها المصدق ، وقيل هو أن يزعم عند رجل صدقة وليس عنده فيورطه « الفائق » .
(٥) الشناق أخذ شيء من الشنق وهو ما بن الفريضتين سمى شناقاً لأنه ليس بفريضة تامة فكأنه مشتق ، من شقت الناقة بزمانها : إذا كففتها وهو المعنى بتسميته وقصاً ، لأنه لما لم يتم فريضة فكأنه مكسور (الفائق) .
(٦) الشغار : أن يشاغر الرجل الرجل وهو أن يزوجه أخته على أن يزوجه هو أخته ولا مهر إلا هذا (الفائق) .
(٧) في الأصل « أحنى » . وأجبي : باع الزرع قبل بدو صلاحه وأصله الهدم من جأ عن الشيء إذا كف عنه (الفائق) .
(٨) أربى يربي أرباءاً : أي دخل في الربا والمعنى أنه إذا باعه على أن فيه كذا قفيزاً وذلك غير معلوم فاذا نقص عما وقع التعاقد عليه أو زاد فقد حصل الربا في أحد الجانبين « الفائق » .
(٩) في الأصل « لأهل » وهو غير مستقيم .

الباب الثالث

من الفن الأول من القطب الأول في الطريق

الى صناعة النظم والنثر

إِعلم أيها المتأمل لكتابنا هذا ، أنا مارسنا ^(١) هذه الصناعة ، وبيّناها من طُرُق كثيرة ، وأبواب متعددة ، وخبرنا ^(٢) ما ينفع المتدرب من ذلك ، وما يكون أعون له ، وأجدى عليه وأقرب الى تعليمه وإفادته ، فلم نجد ما هو أسهل مأخذاً ، وأقرب متناولاً ، سوى طريق واحد نحن ذا كروه في هذا الكتاب ، فنقول :

يجب على المبتدئ في هذا الفن والمترشح له إذا آتاه الله عز وجل طبعاً مجيئاً ، وقريحاً مواتية ، وكان مستكلاً لمعرفة ما يجب على المؤلف معرفته ، مما أشرنا اليه في صدر هذا الكتاب ، أن يأخذ رسالة من الرسائل ، أو قصيدة من الشعر ، يقف على معانيها ، ويتدبر أوائلها وأواخرها ، ويقرر ذلك في قلبه . ثم يكلف نفسه عمل مثلها ، مما ^(٣) هو في معناها ، ويأخذ تلك الألفاظ التي فيها ، وقيم عوض كل لفظه لفظة من عنده ، تسد مسدها ، وتؤدي المعنى المندرج تحتها ، ولا يزال كذلك ، حتى يأتي على آخرها . ثم بعد فراغه منها يشتمل بتنقيح ألفاظها وتجويدها ، وارتباط ^(٤) بعضها ببعض ، فاذا استتم عمله انتقل منه الى غيره ، وفعل فيه فعله أولاً ، ولا يزال

(١) في الأصل « مارسنا » . (٢) في الأصل « ما ما يفهم » .

(٣) في الأصل « ممن » .

(٤) استعمل المؤلف « ارتبط » لازماً وهو قليل قال الجوهرى في الصحاح « وفلان يرتبط كذا رأساً من الدواب » وقال ابن فارس في مقاييس اللغة « ويقال : ارتبطت الفرس للرباط » . وفي أساس البلاغة « وارتبط فلان فرساً ، وفي مثل : استكرمت فاربت » . وفي القاموس « وارتبط فرساً : اتخذ للرباط » . إلا أن لسان العرب ذكر قولهم « ارتبط في الحب : نشب » . مع ذكره المتعدي . وقال ابن كمال باشا في كتابه « التنبيه على غلط الجاهل والنبه » - ص ٢٣ - « ومنها في فصل الرأء (المرتبط) قول الناس (فلان =

على هذه القدم ، يُدْرَمُ^(١) في معارضة الرسائل ، ان كان كاتباً ، أو في معارضة القصائد ، ان كان شاعراً ، حتى يحصلَ له بذلك الدُرْبَةُ الوافرة ، وتتمرن قريحته عليه أو يعتاد خاطره هذا الأمر اعتياداً زائداً ، ولا ينبغي له ان يكون قانعاً من ذلك بالتقليل ، ولا راضياً بمعرفة الطريق ، دون سلوكه إياه ، مراراً كثيرة ، وخبرته به بسهله وحزنه ، وقريبه وبعيده ، فاذا تدرَّبَ واعتاد ، وصار ذلك له خلية وطبعاً ، تفرغت عنده المعاني وانتدحت في خاطره ، فتسهل عليه حينئذ صياغتها ، وإبرازها فيما يليق بها من اللباس . وهذا أنفع الطرق وأكثرها فائدة ، لمن يروم الدخول في زمرة الكتاب والشعراء ، ولا تجد أيها المنتصب لهذه الصناعة طريقاً مجدي عليك من الذنوع ما يجديه هذا الطريق ، فاعرفه .

= مرتبط بكذا (على البناء للفاعل خطأ ، والصحيح (مرتبط بكذا) على بناء المفعول لأن (ارتبط) متعد كربت ، كما اتفقت عليه أئمة اللغة » . قلنا ومنه قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

وقد استعمله لازماً أبو حيان التوحيدي قال في الامتاع والمؤانسة - ج ٢ ص ٨ - « وكيف ارتباط بعضها ببعض » وجاء في عمدة ابن رشيق « كارتباط الروح بالجسم » ج ١ ص ٨٠ من الطبعة الأولى .
(١) لعل الصواب « يدمن معارضة » .

الباب الرابع

من الفن الأول من القطب الأول

في الحقيقة والمجاز

اعلم أن الحقيقة : هي (اللفظ) ^(١) الدال على موضوعه الأصلي . وقيل : هي اسم مشترك ، يراد به ذات الشيء وَحْدَهُ ، ويراد به ما استعمل بأزاء موضوعه اللغوي . وأما المجاز : فهو ما أريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللفظ ، اتساعاً ، وقيل : هو ^(٢) ما نقل عن موضوعه الأصلي إلى غيره ، بسبب مشابهة بين محل الحقيقة ومحلّه ، في أمر مشهور .

واعلم أن المجاز ينقسم إلى أقسام ، وقد أودعنا كتابنا هذا منها ما سنح لنا ، وهو أربعة عشر قسمًا : « الأول » ما جعل للشيء بسبب المشاركة في خاصة ، كما يقال للبليد حمار ، وللشجاع أسد . « الثاني » الزيادة في الكلام لغير فائدة كقوله تعالى « فبإرحمة من الله لئن لئت ^(٣) لهم » فإها هنا زائدة لا معنى لها أي « فبرحمة ^(٤) من الله لئن لئت لهم » (الثالث) النقصان الذي لا يبطل به معنى الكلام ، لحذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، كقوله تعالى « ومن يكسب خطيئةً أو إثمًا ثم يرم به ^(٥) بريئاً » يريد شخصاً بريئاً . وكحذف المضاف وإقامة المضاف إليه ^(٦) مقامه كقوله تعالى « واسئل القرية ^(٧) » أي أهل القرية . وللنحاة في ذلك اختلاف . قال سيبويه ^(٨) : إن القياس ممنوع في حذف

(١) من المثل السائر ص ٥٨/١ . (٢) في الأصل « هي » .

(٣) آية : ٥٩ سورة آل عمران . (٤) في الأصل « فبما » .

(٥) آية : ١١٢ ، سورة النساء . (٦) زيادة أقضاها السياق . (٧) آية ٨٢ ، سورة يوسف .

(٨) سيبويه : عمرو بن عثمان امام البصريين في النحو ، أصله من البيضاء من أرض فارس ، قدم البصرة وأخذ عن الخليل ، وورد على يحيى البرمكي فجمع بينه وبين الكسائي للناظرة ، فانقطع سيبويه ، ولم تطل مدته بعدها توفي سنة ١٨٠ بشيراز ، وقيل غيرها « انظر بغية الوعاة » للسيوطي ص ٢٦٦ وما بعدها طبعة مطبعة السعادة . عصر سنة ١٣٢٦ هـ .

الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، فلا يجوز في جاءني رجل طويل « جاءني طويل » وقل الفارسي^(١) وغيره من علماء العربية : القياس جائز في حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . وسيبويه لم ينص في ذلك بشيء . وقال أبو الحسن الأخفش^(٢) تارة إنه ممتنع ، وتارة إنه جائز . والقوي عنده أن لا يقاس ، وغيره لا يمنع القياس ، « الرابع » تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه كقوله تعالى « إني أراني أعصر خمراً »^(٣) . وإنما كان يعصر عنباً . « الخامس » تسمية الشيء باسم مجاوره كقوله للمزادة « راوية » وإنما الراوية الجمل الذي يحملها . « السادس » تسمية الشيء بـسـكـله كقولك في جواب « ما فعل زيد » : القيام . والقيام إنما هو جنس يتناول جميع أنواعه . « السابع » تسمية الشيء بجزئه كقولك لمن تُبغضه : « أبعد الله وجهه عني » تريد بذلك عامة جسده . « الثامن » تسمية الشيء بدواعيه كتسميتهم الاعمدة قولاً نحو قولك « هذا يقول بقول الشافعي » أي يعتقد اعتقاده . « التاسع » تسمية الشيء باسم أصله كقولك للآدمي « مضغة » . « العاشر » تسمية الشيء باسم فرعه كقول الشاعر :

وما العيش إلا نومة وتشرق
وتمر على رأس النخيل وماء
فسمى الرطب « تمرأ » . « الحادي عشر » : تسمية الشيء باسم ضده كقولهم للأسود والأبيض « جون » . « الثاني عشر » تسمية الشيء بمكانه كقولهم للمطر « سماء » لأنه ينزل منها . « الثالث عشر » تسمية الشيء بفعله كتسمية الخمر مسكراً . « الرابع عشر » . تسمية الشيء بحكمه كقوله تعالى « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي ... » الآية .

(١) الفارسي : أبو علي الفارسي ولد بفارس وقد بغداد وتجول في البلدان وأقام مدة عند سيف الدولة الحمداني في حلب ، ثم عاد إلى فارس وصحب عضد الدولة بن بويه وصنف له كتاب « الإيضاح » في قواعد العربية ثم عاد إلى بغداد وتوفي فيها سنة ٣٧٧ هـ أخذ عن الزجاج وابن السراج ، وربما كان أشهر تلاميذه ابن جني أنظر بغية الوعاة ص ٢١٦ ضمة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٦ هـ والأعلام للزركلي ، و « وفیات الأعيان » و « نزهة الألباء » .

(٢) أبو الحسن الأخفش ، قرأ على ثعلب والمبرد ، وتوفي ببغداد سنة ٣١٥ هـ وكان طوف في مصر ، وخرج إلى حلب ، يقول ياقوت : له تصانيف ذكرها ابن النديم « في الفهرست » وهي : « شرح سيبويه » و « الأنواء » و « التنبيه والجمع » و « المهذب » و « تفسير رسالة كتاب سيبويه » . « أنظر بغية الوعاة ص ٢٣٨ » .

فسمي النكاح هبة . فهذه ضروب المجاز التي وقعت . فاعرفها .

وأما الفرق بينه وبين الحقيقة ، فهو أن الحقيقة جارية على العموم في نظائره ، ألا ترى أنا إذا قلنا « فلان عالم » لما صدق على كل ذي علم واحد صدق على كل ذي علم ، بخلاف « واسئل القرية » لأنه لا يصح إلا في بعض الجمادات دون بعض ، لأن المراد أهل القرية ، لأنهم ممن يصح السؤال لهم ، ولا يجوز أن يقال « واسئل الحجر أو التراب » . وقد يحسن أن يقال « واسئل الربع أو الطلل » .

واعلم أن كل مجاز فله حقيقة ، وليس من ضرورة كل حقيقة أن يكون لها مجاز : وذلك أن من الأسماء قسمين لا مجاز فيهما :

« الأول » أسماء الأعلام ، كأنها وضعت للفرق بين الذوات لا للفرق بين الصفات .
« الثاني » الأسماء التي لا أعم منها ، كالعلوم والمجهول والمعلوم ، وغير ذلك ، مما أشبهه .
واعلم أنه قد صار المجاز في تعارف الناس بمنزلة الحقيقة ، بل هو أقرب إلى التعريف من الحقيقة ، وأولى بالاستعمال منها ، وأحق بالفهم ؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكانت الحقيقة ، التي هي الأصل ، أولى منه حيث هو فرع عليها . ألا ترى أن قوله تعالى « والصبح اذا تَفَافَسَ » أبلغ من أن يقال « اذا انتشر » لأن التنفس يعطي من الدلالة ما لا يعطيه الانتشار ؛ وذلك لما فيه من بيان الروح على النفس ، عند إضاءة الصبح ، فجعل ظهور الصبح وانتشاره من خلال الليل ، شيئاً فشيئاً ، كالتنفس ؛ لأن أول ما يبدو الصباح ثم ينمي في انتشاره بالتدرج ، كإخراج الانسان نفسه .

واعلم أنه إنما ^(١) يعدل عن الحقيقة إلى المجاز لمعان ثلاث وهي : الاتساع والتشبيه والتوكيد ، فان عدت هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة : فمن ذلك قوله تعالى « وأدخلناه في رحمتنا » الآية . فهذا مجاز ، وفيه الأوصاف الثلاثة المذكورة . وأما الاتساع فهو أنه زاد في أسماء الجهات والمحال ^(٢) اسماً هو الرحمة ، وأما التشبيه فانه شَبَّهَ الرحمة ، وإن لم يصح دخولها ، بما يجوز

(١) هذا من العبارات المولدة نعتي استعمال « إنما » للحصر بعد « أنه » .

(٢) المحال جمع المحل ويجوز أن يكون جمع « المحلة » في غير هذه العبارة .

دخوله . وأما التأكيد فإنه أخبر عما لا يدرك بالحاسة ، وذلك تغالٍ بالخبر عنه ، وتفخيم له ، إذ صير إلى منزلة ما يشاهد ويعاين . ألا ترى إلى قول بعضهم في الترخيب في الجميل : « لو رأيتم المعروف لرأيتموه حسناً جميلاً » . وإنما يرغب بأن ينبه عليه ، ويعظم من قدره ، فيصور في النفوس ، على أشرف أحواله وأعلى صفاته ، وذلك بأن يخيل متجسماً ، لا عرضاً متوهماً .

وأعلم أن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة ، وذلك أن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة فيه ، فن ذلك عامة ^(١) الأفعال نحو « قام زيد ، وقعد عمرو » و « جاء الصيف وانصرف الشتاء » . ألا ترى أن الفعل يُفاد منه معنى الجنسية ، فقولك « قام زيد » معناه كان منه القيام أي هذا الجنس من الفعل . ومعلوم أنه لم يكن منه جميع القيام ، وكيف يكون ذلك وهو جنس مطبّق لجميع أنواعه من الماضي والحاضر والمستقبل ^(٢) ، الكائنات من كل (من) ^(٣) وجد منه القيام ؟ . فإذا كان الحال كذلك علمت أن قيام زيد مجاز لا حقيقة ، وإنما هو على وضع الكل موضع البعض ، للاتساع والتوكيد ، ونشبهه القليل بالكثير . ويدل على انتظام ذلك في جميع جنسه أنك تعمل في جميع أجزاء ذلك الفعل ، فتقول : قت قومة ، وقومتين ، ومائة قومة ، وقياما حسناً ، وقياماً قبيحاً ، فاعمالك إياه في جميع أجزائه يدل على أنه موضوع عندهم على صلاحيته ، لتناول جميعها ، ألا ترى إلى قول بعضهم :

وقد يجمعُ اللهُ الشَّيْئَتَيْنِ بعدما يظُنَّان كلَّ الظَّنِّ أنْ لا تلاقيا

فقوله « كلَّ الظن » يدل على صحة ما أشرنا إليه .

وكذلك قولك « ضَرَبْتُ زَيْدًا » مجاز أيضاً ، لأنك إنما فعلت بعض الضرب لا كله ، وإنما ضربت بعضه لا جميعه ؛ لأنك قد تضرب يده ، أو رجله ، أو ناحية من نواحي جسده . ولهذا إذا احتاط الانسان واستظهر جاء ببديل البعض ، فقال « ضربتُ زَيْدًا رَأْسَهُ » ثم هو مع ذلك متجاوز ، لأنه إنما يضرب ناحيةً من رأسه ، لا رأسه كله . ولهذا يحتاط بعضهم في نحو

(١) عامة الأفعال أكثرها وعامة الناس أكثرهم . (٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) يرد على قول المؤلف أن الفعل الماضي الزمن يقيد القيام بالماضي فلا مستقبل فيه ولا حاضر .

هذا فيقول « ضربت زيدا جانب وجهه الأيمن » . فإذا عرف التوكيد ثم وقع (في)^(١) الكلام نحو « نفسه وعينه وكله وأجمع » وما جرى هذا المجرى تحقق^(٢) منه حال سعة المجاز في هذا الباب . ألا تراك تقول : قطع الأمير اللّص . ارتفع المجاز من جهة الفعل وصرت فيه الى الحقيقة ، لكن يبقى عليك التجوز من جهة أخرى وهو قولك « اللص » وانما لعله^(٣) قطع يده أو رجله ، فإذا احتطت في ذلك قلت « قطع الأمير نفسه يد اللص أو رجله » . وكذلك جاء جميع الجنس . فوقوع التوكيد في هذه اللّغة أقوى دليل على شيوع^(٤) المجاز فيها واشتماله عليها ، حتى إن علماء العربية جعلوا له باباً مفرداً ، لعنايتهم به ، وكونه مما تمس الحاجة اليه ، وأنه لا ينبغي أن يضاع مثله ولا يهمل ، كما أنهم جعلوا لكل معنى أهمهم^(٥) باباً مفرداً ، كالصفة : والعطف ، والاضافة ، وغير ذلك فاعرفه .

(١) زيادة اقتضاها السياق ألا تراه قد قال بعد ذلك « فوقوع التوكيد ... » .

(٢) في الأصل « تحقيق » ولعل الأصل ما ذكرناه .

(٣) في الأصل « لمة » .

(٤) في الأصل « شياع » . والشياع مصدر « شاعه » أي تبعه ورافقه ، يقل في الذبوع « شاع يشيم شيعاً ومشاعاً وشيعواً وشيوعاً وشيعاً (الزاموس) . وقد وقع « الشياع » بمعنى الشروع فيما نقل من كلام الشريف الرضي في كتابه « المجازات القرآنية ص ١٢٤ » .

(٥) هو ابن سنان الحفاجي ، وقد تقدم ذكره .

الفصل الثاني

في القطب الأول

في الألفاظ والمعاني وتفضيل الكلام المنثور على المنظوم^(١) وهو ثلاثة أبواب :
الأول : في الألفاظ المفردة وهو قسمان :

« الأول » : في الكلام على الألفاظ المفردة ، والفرق بين الجيد منها والردى ،
واعلم أن صاحب كتاب « سر الفصاحة » وغيره من أرباب هذه الصناعة قد أوردوا في كتبهم
من ذلك أشياء حسنة ، ونهبوا على نكت مستملحة ، غير أننا لما أمعنا النظر فيما قالوه ، وتصفحنا
مطاوي ما ذكروه ، وقع لنا فيه زيادة مبتكرة ، وقول مستغرب ، ولنورد هاهنا ، ما وصل إلينا
عن علماء هذه الصناعة ، وما أبتكرناه نحن فنقول :

الأوصاف التي توجد في اللفظة الواحدة ، وتستحق بها منزلة الحسن والجودة ، سبعة أنواع ،
فأما الذي وصل إلينا منها فستة أنواع :

« الأول » تباعد مخارج الحروف .

« الثاني » أن لا تكون الكلمة وحشية ولا متوعدة .

« الثالث » أن لا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة .

« الرابع » أن لا تكون عبر بها عن معنى يكره ذكره ، فإذا أوردت ، وهي غير مقصود

(١) في تفضيل النثر على الشعر ، راجع شرح الحماسة للمرزوقي « ج ١ ص ١٧ » من طبعة مطبعة لجنة
التأليف والترجمة بعصر .

بها ذلك المعنى قبيحت .

« الخامس » أن تكون مصغرة في موضع يُعبر بها عن شيء لطيف ، أو خفي ، أو نحو ذلك .

« السادس » أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيباً . وقد ذكر أبو محمد بن سنان الخفاجي قصداً آخر فقال : « ينبغي أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح ، غير شاذة »^(١) . وليس هذا معتبراً في جودة اللفظة ولا في رداءتها ، لأن شذوذ اللفظة لا يوجب لها حسناً ولا قبحاً ، وإنما المعنى بقولهم : إن هذه الكلمة شاذة أي أنها لم تُنقل إلا عن واحد فقط ، فلا يوثق بها ولا يركن إليها ، سواء كانت حسنة أو قبيحة . فاعرف ذلك .

وأما الذي ابتكرناه نحن فنوع واحد وهو أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة . ولنرجع إلى ذكر الستة الأنواع ، التي وصلت إلينا من علماء هذه الصناعة ، وتحقيق القول فيها ، فنقول :

إعلم أنه ليس لهم فيها إلا السبق بذكرها فقط ، وأما علّة كل نوع منها ، والسبب الذي ذكر لأجله فانا لم نأخذ (عندهم^(٢)) ، وإنما استنبطناه نحن دونهم . وذلك أننا لم نقف لهم في ذلك على قول شاف ، ولا كلام محرر . بل جل أمرهم أن ذكروا هذه الأنواع الستة ثم مثّلوا كل نوع منها بمثال ، كما فعل أبو محمد بن سنان^(٣) الخفاجي ، وهو من الأئمة المشاهير في هذا العلم ، وكذلك فعل غيره ممن تقدمه كقدامة^(٤) بن جعفر الكاتب ، والآمدي^(٥) ، والجاحظ وغيرهم . وكتبهم التي صنفوها في هذا الفن شاهدة بما ذكرناه عنهم من إجمال القول ، والاقتناع بالأمثلة .

أما النوع الأول من الأنواع الستة فهو تباعد مخارج الحروف ، ولسنا نغني بذلك أن

(١) راجع سر الفصاحة « ص ٧٥ » وما بعدها من طبعة المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٥٠ هـ =

١٩٣٢ م .

(٢) زيادة يقتضيها السياق . (٣) راجع مختصر ترجمته في حاشية « ص : ٣ » من هذا الكتاب .

(٤) انظر مختصر ترجمته في حاشية « ص : ٢ » من هذا الكتاب .

(٥) انظر مختصر ترجمته في حاشية « ص : ٢ » من هذا الكتاب .

المقارب الخارج لا يكون حسناً ولا جيداً ، بل نعني بذلك أن الغالب على المتباعد الخارج من الألفاظ الجودة والحسن ، والغالب على المقارب الخارج الرداءة والقبح . ألا ترى ^(١) أن « الجيم والشين والياء » لها مخارج متقاربة ، وهي من وسط اللسان ، بينه وبين الحنك ، وتسمى ثلاثها الشجرية ^(٢) ، فإذا ركبنا منها شيئاً من الألفاظ يجيء حسناً رائعاً فإن قلنا : « جيش » ، كانت لفظة محمود ، وإن قدمنا الشين على الجيم قلنا : « شجي » كانت أيضاً لفظة محمود . فهذه مخارج متقاربة ، وقد ركبنا منها هاتين اللفظتين ، وجاءتا في غاية الحسن والرونق . وهذا يكون نادراً في المقارب الخارج وإنما الأكثر والغالب يجيء في المتباعد الخارج . فاعرف ذلك .

وحيث انتهى بنا القول إلى هاهنا فلنبداً بوصفه ، في هذا الموضع ، بذكر الأصوات والحروف ، وذكر المخارج وانقساماتها ، قبل ذكر السبب في حسن المتباعدة ، وقبح المتقاربة ، فنقول : اعلم أن الصوت ^(٣) عرض يخرج مستطيلاً متصلاً ، حتى يعرض له ، في الحلق والهم والشفتين ، مقاطع ، تنبيه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع إن عرض له حرفاً . وتختلف أجراس ^(٤) الحروف بحسب اختلاف مقاطعها . ألا ترى أنك تبتدىء من أقصى الحلق ثم تبلغ به أي المقاطع شئت ، وتجد له جرساً ما ، فإن انتقلت منه راجعاً عنه ، أو مجاوزاً له ، ثم قطعت أحسست عند ذلك جرساً غير الجرس الأول ، نحو « الكاف » فانك إذا نطقت بها سمعت هناك صدى ، فإذا رجعت إلى « القاف » سمعت غير ذلك الصدى فإن جزت [إلى] الجيم سمعت غير ذينك الأولين . وشبّه بعضهم الحلق والهم بالزمار ^(٥) وما أقرببه شبهها به . والسبيل إلى

(١) راجع المثل السائر « ج ١ ص ١٥٣ » فقد ذكر المؤلف هذا هناك .

(٢) في مقدمة اللسان « الشجرية : الجيم والشين والضاد ، والشجر : مفرج الهم » .

(٣) يعني « صوت الهم » أما الصوت المطلق فقد قال في تعريفه العلامة ابن سينا « أظن أن الصوت سببه القريب توج الهواء ودفعه بسرعة وبقوة من أي سبب كان » (أسباب حدوث الحروف ص ٥ من طبعة طهران) .

(٤) أجراس جمع جرس (بكسر الجيم وفتحها) ، وهو الصوت .

(٥) في الأصل « بالزمر » أنظر الحديث عن هذا في ص ١٨ من « سر الفصاحة » لابن سنان الحفاجي ، ص ٦ وما بعدها ، طبعة المطبعة الرحمانية ، مصر سنة ١٩٣٢ . وأنظر : « فصيل في الأصوات » في كتاب « سر الفصاحة » أيضاً .

معرفة ذلك أنك إذا أردت اعتبار هذا : تأتي بالحرف ساكنًا لا متحركًا ، لأن الحركة تقلقه عن موضعه ومستقره ، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة^(١) من قبله ، لأن الساكن لا يمكن الابتداء به ، فتقول : « إك » « إق » وكذلك ساثرها .

واعلم أن « الحروف » تطلق باعتبارات ، فالأول : اسم لهذه الحروف المحدودة ؛ وذلك مأخوذ من تسمية الحد والناحية حرفًا ، لأن الحروف هي جهات للكلمة ونواحيها . الثاني : تطلق على أدوات الكلام نحو « من وعن ، وغيرهما » . الثالث : كقول النبي (ص) « أنزل القرآن على سبعة أحرف » أي سبع لفات لا تختلف ولا تضاد ، كما يقال : « هذا في حرف أبي »^(٢) و « وهذا في حرف ابن مسعود »^(٣) . الرابع : يقال ناقة حرف : أي ضامرة . وقال أبو العباس^(٤) المبرد : إن الهمزة ليست من جملة الحروف . وجعل عددها ثمانية وعشرين حرفًا ، واستدل على ذلك بأن قال : إن الهمزة لا صورة لها في الخط . وهذا فاسد ؛ إذ الاعتبار باللفظة لا بالخط ، فإن الخط لو لم يكن لما كان ذلك مانعًا من كون الهمزة من جملة الحروف .

فأما ترتيب الحروف على نسق الخارج فهي « همزة ، ألف ، ع ، [هـ] ح ، غ ، خ ، ق ، ك ، ج ،

(١) كذا قال ابن جني قبله في « سر صناعة الأعراب » ج ١ ص ٧ وجاء في مقدمة « لسان العرب » ص ١٣ من طبعة دار الفكر : « ونظر الخليل بن أحمد إلى الحروف كلها وذاقها فوجد مخرج الكلام كله من الحلق ، فصير أولها في الابتداء أدخل في الحلق . وكان إذا أراد أن يذوق الحرف فتج فاء بألف ثم أظهر الحرف ثم يقول : أب . أت . أث . أج . أع » ، وهذا يدل على أن كسر الألف غير ضروري .

(٢) أبي : على صيغة تصغير « أب » وهو أبي بن كعب من صحابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان أقرأ العرب للقرآن الكريم ، راجع ترجمته في طبقات القراء المعروف « بفاية النهاية » للجزري ج ١ ص ٣١ ، وكتب تراجم الصحابة ، « كاسد الغابة » و « الاصابة » .

(٣) هو عبد الله بن مسعود الصحابي المشهور ، وكان في قراءته اختلاف من حيث قسم من الألفاظ المفردة ، راجع ترجمته في : « طبقات الجزري » وكتب تراجم الصحابة .

(٤) راجع مختصر ترجمته في حاشية ص ٢٢ من هذا الكتاب . وقد سبق ابن جني المؤلف إلى رد ذلك القول ، قال في « باب أسماء الحروف » من « سر صناعة الأعراب » ج ١ ص ٤٦ : « اعلم أن أصول حروف المعجم عند الكافة ثمانية وعشرون حرفًا ، فالوا ألف وآخرها الياء ، على المشهور في ترتيب حروف المعجم إلا أبا العباس فإنه كان يعدّها ثمانية وعشرين ، وهذا الذي ذهب إليه أبو العباس غير مرضي عندنا ، كما نوضح القول فيه إن شاء الله » .

ش، ي، ض، ل، ن، ر، ط، د، ت، ز، س، ظ، ذ، ث، ف، م، و، ب^(١) .
 وستة أحرف فروع مستحسنة ، وهي همزة بين بين ، والنون والخفيفة ، والألف المهالة ، وألف
 التفخيم ، والشين كالجيم ، والصاد كالزاي . وثمانية أحرف غير مستحسنة وهي : الكاف بين
 الجيم والكاف ، والجيم كالـكاف ، والجيم كالـشين ، والفاء كالباء ، والصاد الضعيفة ، والصاد
 كالسين ، والطاء كالتاء ، والظاء كالثاء . وذكر قوم أربعة أحرف هي : السين كالزاي ، والجيم
 كالزاي ، واللام المفخمة ، والقاف كالـكاف ؛ فصار الجميع سبعة وأربعين حرفاً .

فأما انقسام المخارج فإنها ستة عشر مخرجاً : ثلاثة حلقية^(٢) وهي الهمزة والألف والهاء .
 هذا على ترتيب سيبويه ، وأما على ترتيب أبي الحسن^(٣) الأخفش فإن الهاء مع الألف لا قبلها
 ولا بعدها ، ومخرجان يليان هذه الثلاثة المذكورة وهما العين والحاء ، ومخرجان آخران فوق
 ذينك من أول الفم وهما الغين والحاء ، وحرف من أقصى اللسان ، وهو القاف . وأسفل من
 موضع القاف قليلاً مخرج الكاف ، وهذان الحرفان - أعني القاف والكاف - يدعيان لهيويين :
 من اللهاة . وثلاثة أحرف من وسط اللسان : وهي الجيم والشين والياء ، وتسمى الشجرية .
 ومن أول حافة اللسان وما بينهما من الأضراس مخرج الضاد ، ويسمى المتفرد المستطيل . ومن
 حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرفه مما بينها وبين ما يليها من الحنك ، فويق الضاحك
 والنباب والثنية والرابعة مخرج اللام ، ويسمى المنحرف . ومن طرف اللسان ، بينه وبين ما فوق
 الثنايا السفلى ، مخرج النون . ومن مخرج النون ، غيرانه أدخل في ظهر اللسان قليلاً ، لانحرافه
 إلى اللام مخرج الراء . وهذه الأحرف الثلاثة : اللام والراء والنون تسمى الذليقة . وقال سيبويه

(١) بين هذا الترتيب وترتيب ابن جني في « مرصعة الاعراب » ج - ١ ص ٥٠ - شيء من
 الاختلاف ، فليلاحظ .

(٢) في الأصل « حليقة » وهو من تصحيف النسخ .

(٣) هو أبو الحسن علي بن سليمان الملقب بالأخفش الأصغر ، أحد الأخفش الثلاثة المشهورين ، قرأ على
 ثعلب والمبرد وغيرهما ، وشرح كتاب سيبويه في النحوي . وله كتاب الأنواء ، والثنية والجمع ، وكتاب المذهب .
 دخل مصر والشام ، وعاد إلى العراق ، وكان ضيق المال ، توفي بقاء سنة « ٣١٥ » من ثمانين سنة .
 راجع « معجم الادباء » و « بنية الوعاة » ص ٣٣١ .

إنَّ الأصول الخماسية لا تخلو من أحدها البتة . ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا ثلاثة أحرف وهي الطاء والذال والتاء ، وتسمى النطمية . وثلاثة أحرف مما بين طرفي اللسان وفوق الثنايا وهي : الصاد والسين والزاي وتسمى الأسلية . وثلاثة أحرف مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا وهي : الظاء والذال والتاء ، وتسمى اللثوية . وحرف واحد مما بين باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العُلَى وهو الفاء . وثلاثة أحرف مما بين الشفتين وهي الباء والميم والواو ، وتسمى الشفوية . وحرف واحد من الخيشوم وهو النون ، ويسمى الخيشومي . فهذه جميع مخارج الحروف .

وحيث انتهى القول بنا الى هذا المقام وأتينا على ذكر الأصول والحروف وانقسام المخارج فينبغي حينئذ أن نذكر السبب في حسن ما تباعد من المخارج ، وقبح ما تقارب منها ، فقول : قال أبو محمد بن سنان الخفاجي في كتابه^(١) : « إن الحروف التي هي أصوات^(٢) تجري من السمع مجرى الألوان من البصر ، ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا اجتمعت كانت في النظر أحسن من الألوان المتقاربة ؛ ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة ، أقرب ما بينه وبين الأصفر ، وبعد ما بينه وبين الأسود » . هذا حكاية كلامه بعينه . ولنا عليه اعتراض ، وهو أما نقول : إذا ثبت لك أنَّ الألوان المتباينة في النظر أحسن من الألوان المتقاربة فكيف يلزم على هذا أن نقيس عليه السمع ونجربه مجراه ؟ فان قال في الجواب عن ذلك : « إني إنما قست السمع في أصوات الحروف المتباعدة على البصر في الألوان المتباعدة ، لأن السمع حاسة والبصر أيضاً حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب » . قلنا له : إنما يستقيم لك ما ذكرته من هذا القياس أن لو توقف في عرفان جودة اللفظة على سماع أصوات مخارجها ، كما يتوقف في عرفان حسن الألوان على إبصارها ورؤيتها ، وإنما قد يعلم جودة اللفظة ، ويعرف حسن تركيبها ، من غير أن يسمع لها صوت ؛ وذلك أن التأمل للكلام

(١) يريد « سر الفصاحة » وقد مر ذكره غير مرة . راجع ص ٦ ، و ص ٦٠ وما بعدها من الكتاب المذكور ، طبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٢ .

(٢) في الأصل « أصول » والتصحيح من كتاب « سر الفصاحة » .

مكتوباً من غير تصويت به ، ولا نطق ، اذا عرضه على طبعه السليم ، وفكره المستقيم ، عرف جودة ألفاظه ، وعلم حسن تركيبها من قبجه . ولا خلطة للسمع في ذلك ولا مشاركة . فقد ثبت بهذا الدليل فساد ما ذكرته من قياس السمع على البصر ، واختلال ما أثرت إليه من ذلك ^(١) . وإعنا القول السديد في حسن اللفظ المتباعد الخارج ، وقبح اللفظ المتقارب الخارج ، ما سنورد هاهنا : وهو أن الفائدة في الأشياء المركبة ، إنما هي اختلاف أجزائها وتباين مفرداتها ، ليؤثر التركيب عند ذلك شيئاً لم يكن ؛ إما حسناً وإما قبحاً . فأما اذا كانت أجزاؤها مشابهاً بعضها البعض ، فانه لا يكون لتركيبها حينئذ كبير فائدة ، وهذا مما لا نزاع فيه : لوضوحه وبيانه .

وحيث كانت الحال في الأشياء المركبة كذلك ، قسنا عليه تركيب مخارج الحروف . وذلك أن من الخارج ما هو مختلف ونعني بالمختلف هاهنا : المتقارب ؛ كالراء ، واللام ، والطاء ، والسين وغير ذلك ، مما يجري هذا الجرى . فتى كانت الكلمة مركبة من حروف متباعدة الخارج ، أثر التركيب فيها أثراً ؛ وهو الحسن والجودة في الغالب . ومتى كانت الكلمة مركبة من حروف متقاربة الخارج ، جاءت بخلاف ذلك في الغالب أيضاً .

فان قيل : أما قولك : إن الكلمة ، اذا ركبت من حروف متباعدة الخارج ، أثر التركيب فيها أثراً مسلماً اليك ذلك . وأما تخصيصك ذلك التأثير بالحسن والجودة ، فهذا تحكم محض أنت مطالب باثباته .

(١) قال ابن الحديد في « الفلك الدائر على المثل السائر » - ص ٨٣ - « قال المصنف - يعني نصر الله بن الأثير - وقد ذكر ابن سنان المتفاجي ، إن أحد ما يشترط في حسن اللفظ ، أن تكون مخارج حروفها متباعدة ، قال : وهذا باطل ، لأنه لو كان العلم بحسن اللفظ وقبحها مشروطاً بتباعد مخارجها أو تقاربها لوجب أن لا يحكم على الفور بقبح لفظة أو حسنها حتى تعتبر مخارج الحروف ... أقول : ليس بمتكبر أن يعلم العلول قبل العلة ، والمشرط قبل الشرط ، ألا ترى أنك اذا رأيت الجارية الحسناء فانك تستحسنها على الفور ولا يتوقف استحسانك اياها على أن تستحضر في ذهنك علة الحسن : من دقة شفيتها وأنفها ، وامتداد سالفيتها ، ومخالطة الحمرة للبياض في بشرة وجهها ، وغير ذلك من أسباب الحسن ؟ ولا يطن بحكمك على الفور لتعليل الحسن بهذه الأمور » .

وكذلك قولك في الكلمة : « اذا تركبت من عدة حروف متقاربة المخارج » ، ألا ترى أن مخارج الحروف جميعها ، اذا اعتبر كل واحد منها على الانفراد ، لا يوجد له حسن ولا قبح ؟ وهذا لا نزاع فيه . فن توهم شكاً في ذلك أو لحقه أدنى ارتياب ، فليعرضه ويعتبره ، منصفاً من نفسه ، فانه يعلم صحة ما ذكرناه ، ويعرف حقيقة ما أشرنا اليه .

واذا كانت الحال كذلك ، فن أي وجه تكسب اللفظة الجودة والحسن اذا تركبت من حروف متباعدة المخارج ؟ ومن أي وجه تكسب الرداءة والقبح ، إذا تركبت من حروف متقاربة المخارج ؟

الجواب عن ذلك ، أنا نقول : إنها اكتسبت حسناً عند تركيبها من حروف متباعدة المخارج ، واكتسبت قبحاً عند تركيبها من حروف متقاربة المخارج ؛ لأن النطق اذا أتى على مخارج حروف اللفظة ، وهي متباعدة ، ليجمعها ويؤلفها ، كان له في ذلك مهلة وأناة ؛ لأن بين المخرج الى المخرج فسحةً وبعداً ، فتجيء الحروف عند ذلك متمكنةً في مواضعها ؛ غير قلقة ولا مكدودة . واذا أتى النطق على مخارج حروف اللفظة وهي متقاربة ، ليجمعها ويركبها ، لم يخلص من مخرج إلا وقد وقع في المخرج الذي يليه ؛ لقرب ما بينها فيكاد عند ذلك يعتبر أحدهما بالآخر ، فتجيء مخارج حروف اللفظة قلقة مكدودة ، غير مستقرة في أماكنها . ولهذا لم ترد العين مع الحاء ، ولا النين مع الحاء ، ولا الطاء مع التاء ، ولا القاف مع الكاف ، ولا الذال مع التاء ، ولا مع الطاء ؛ وذلك لقرب مخارج هذه الحروف بعضها من بعض ^(١) .

ومن أدل الدليل على أن المخارج المتباعدة أحسن تأليفاً من المخارج المتقاربة ، ان العرب من

(١) قال ابن أبي الحديد في الفلك الدائر - ص ٨٣ - « ومن ذلك أنه قد اعترف ، أن كل ما تستعجب من الألفاظ تجده متقارب الحروف . وما تستحسنه تجده متباعد الحروف ، ولكنه زعم ، أنه لا يميل الاستعجاب والاستعسان بهما ، فيقال له : اذا كان تقارب المخارج والاستعجاب متلازمين لا يفترقان ، فلا بد من أمر أوجب تلازمهما ، فيمكنك أن تقول : إن الاستعجاب (الذي) أوجب تقارب المخارج ، فيما هو متقارب المخارج ، أمر ذاتي له ، لا يتوقف الا على الاستعجاب ، فاذا لم يكن الاستعجاب أوجب تقارب المخارج ، ولا بد للازمته إياه من سبب ، فلا سبب إلا أن يقال : إن المخارج علة الاستعجاب » .

شأنهم وعادتهم ، أن يعدلوا في كلامهم عن الأثقل الى الأخف ؛ طلباً للاستحسان ، وهذا شأنهم ، وكثير في لغتهم ، لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه . وتراهم قد خالفوا عادتهم وعدلوا عن الأخف الى الأثقل ، طلباً لبعده الخارج ؛ حيث هو أسهل على اللسان ، وهرباً من تقاربها ؛ حيث هو أشق وأصعب على اللسان . وذلك نحو « الحيوانات » ألا ترى أن أصل هذه الكلمة ، باجماع من علماء العربية : « حَيَّيَان » لأنها من مضاعف الياء ، إلا أنه لما ثقل عليهم عدلوا به عن الياء الى الواو ، مع علمهم بأن الواو أثقل من الياء ، لكنه لما تباعد الحرفان ساغ ذلك ؛ لأجل الاستخفاف . فلما رأينا أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد نقضوا عادتهم ، ورفضوا سنتهم ، في العدول عن الأثقل الى الأخف ؛ طلباً لتباعد مخارج الحروف ، علمنا أن ذلك أهم عندهم ، وأكثر تقدماً في نفوسهم . وكفى بهذا دليلاً على أن تباعد المخارج أحسن تأليفاً من تقاربها ، فاعرف ذلك .

وأعلم أن تباعد المخارج ليس بكاف في حسن اللفظة ، ولا مقنع في جودتها ؛ فانه قد تأتي لفظة مؤلفة من حروف متباعدة المخارج ، ولكنها تكون مبذية من حركات ثقيلة ، أو تكون وحشية ، أو غير ذلك من الصفات الذميمة ، فيعارض ذلك الوصف الحمود هذا الوصف المذموم فيذيله ^(١) ويذهب به .

النوع الثاني من القسم الأول من الباب الأول

وهو أنه لا تكونه الكلمة ومبذية ولا متوعدة

ونعني بالوحشي : قلة الاستعمال ؛ وذلك عيب في الكلام فاحش ؛ فيجب على المؤلف اجتنابه والبعده عنه ، لأن أحسن الالفاظ ما كان مألوفاً بين أرباب هذه الصناعة ، دائراً في تأليفاتهم ، قد

(١) في مختار الصحاح « الاذالة : الاهانة ، يقال : أذال فرسه وغلّامه . وفي الحديث « نهى عن اذالة الخيل » وهو امتهاها بالعمل والحمل عليها .

صقلته الألسن ، وأَنَسَتْهُ الاسماع والقلوب . ولذلك كان جميع ألفاظ القرآن الكريم منخرطة في هذا السلك ، وجارية في هذا المنهاج .

واعلم أن العرب ، وإن استعملوا الوحشي من الكلام ، فإنهم غير ملومين على ذلك ، ولا يكون عيباً في كلامهم ؛ لأنه لغة القوم ، وبه كانت مفاوضاتهم في أحاديثهم وأشعارهم ، وكان كالذي كان لهم طبعاً وخليفة . والدليل على أن العرب لا يلامون في استعمال الوحشي من الكلام ، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد نطق به كثيراً في كلامه ، وأنت به الأخبار المنقولة عنه ، كحديث طَهْفَةَ بن أبي زهير النهدي^(١) وغيره . فأما حديث طَهْفَةَ فهو^(٢) أنه لما قدمت وفود العرب على النبي - صلى الله عليه وسلم - قام طهفة بن أبي زهير فقال : « أُنَيْتَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ غُورِي تِهَامَةَ ، عَلَى أَكْوَارِ^(٣) الْمَيْسِ^(٤) ، تَرْتَمِي بِنَا الْعَيْسِ^(٥) نَسْتَحْلِبُ^(٦) الصَّبِيرِ^(٧) وَنَسْتَحْلِبُ^(٨) الْخَبِيرِ^(٩) ، وَنَسْتَعْصِدُ^(١٠) الْبَرِيرِ^(١١) وَنَسْتَحْلِبُ^(١٢) الرَّهَامَ^(١٣) ،

(١) في الأصل « الهندى » وهو تحريف ، وطهفة : مذكور في كتب تراجم الصحابة مثل « الإصابة ج ٢ ص ٢٢٧ » ومنهم من سماه « طهية » .

(٢) راجع هذا الخبر في « الفائق » ج ٢ ص ٤ من طبعة البابي الحلبي بالقاهرة . وقد أورد المؤلف هذا الخبر في كتابه « المثل السائر » ج ١ ص ١٥٨ وما بعدها ، من طبعة البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٥٨ هـ .

(٣) الأكوار : جمع « كور » وهو الرجل بأدائه ، ويجمع أيضاً على « كيران » ، « مختار الصحاح »

(٤) الميس : شجر تتخذ منه الرجال « مختار الصحاح » .

(٥) العيس : الأبل البيض التي يخالط بياضها شيء من الشقرة ، ويقال هي كرائم الأبل ، واحدها

اعيس ، والأثني عيساء « مختار الصحاح » .

(٦) في الأصل « نستحب » والتصحيح من الفائق « ج ٢ ص ٤ » .

(٧) الصبير : السحاب السكثيف المتراب « الفائق » .

(٨) نستحلب : من الحلب ، وهو القطع والمزق ، يقال « حلب السبع الفريسة ، يحلبها - بكسر الهمزة

وبضمها - إذا شقها ومزقها ، ومنه الحلب (الفائق) .

(٩) الخبير : النبات ، (الفائق) .

(١٠) نستعصده : أي نأخذه من شجرة فنأكله للجذب ، وهو من العصد ، وهو القطع (الفائق) .

(١١) البرير : ثمر الأراك إذا اسود وبلغ ، والأراك : نوع من الشجر .

(١٢) نستخياه : نظنه خليقاً بالأمطار (الفائق) .

(١٣) الرهام : ضفاف الأمطار ، وهي جمع رهمة (الفائق) .

وَنَسْتَحِيلُ^(١) الْجَهَامَ^(٢) مِنْ^(٣) أَرْضِ غَائِلَةِ النَّطَاءِ^(٤) ، غَلِيظَةِ الْمَطَا^(٥) ، قَدْ نَشَفَ الْمُدَّهْنَ^(٦) ،
وَيَبِسَ الْجَمْعَشْنَ^(٧) وَسَقَطَ الْأَمْلُوجُ^(٨) ، وَمَاتَ الْعَسْلُوجُ^(٩) ، وَهَلَكَ الْهَدْيُ^(١٠) ، وَمَاتَ
الْوَدْيُ^(١١) . بَرُّنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْوَثْنِ وَالْعَيْنِ^(١٢) ، وَمَا يَحْدُثُ الزَّمَنُ ، لَنَا دَعْوَةُ
السَّلَامِ ، وَشَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ ، مَا طَمَا^(١٣) الْبَحْرَ وَقَامَ تِمَارُ^(١٤) ، وَلَنَا نَعَمٌ كَهَمَلٍ^(١٥) أَغْفَالٍ^(١٦)

(١) نَسْتَحِيلُ : نَنْظُرُ إِلَى حَالِ الشَّيْءِ .

(٢) الْجَهَامُ : السَّعَابُ الَّذِي لِأَمَامِهِ « مَخْتَارُ الصَّبَاحِ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ « فِي » وَالتَّصْحِيحُ مِنَ الْفَائِقِ .

(٤) النَّطَاءُ : مِنَ النَّطِيِّ ، وَهُوَ الْبَعِيدُ . وَالْغَائِلَةُ : هِيَ الَّتِي تَقُولُ ، أَيْ تَأْخُذُ سَالِكَهَا مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرُ .

(٥) الْمَطَا : الظَّهْرُ .

(٦) الْمُدَّهْنُ : نَقْرَةٌ فِي صَخْرَةٍ يَسْتَنْقِعُ فِيهَا الْمَاءُ وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ « دَهَنَ الْمَطَرُ الْأَرْضَ : إِذَا بَلَّهَا بَلًّا يَسِيرًا ، وَنَافَقَ دُهَيْنٌ : قَلِيلَةُ الْبَيْنِ » .

(٧) الْجَمْعَشْنُ : أَصْلُ النَّبَاتِ .

(٨) الْأَمْلُوجُ وَجَعُهُ الْأَمَالِيَجُ : وَهُوَ وَرَقٌ كَأَنَّهُ حَبْدَانٌ ، يَكُونُ نَضْرِبُ مِنَ الشَّجَرِ ، وَقَبْلُ : الْأَمْلُوجُ : نَوَى الْمَقْلَ ، وَلَمَقْلٌ : ثَمَرُ شَجَرٍ يُقَالُ لَهُ « الْدُومُ » .

(٩) فِي الْأَصْلِ « الْعِلُوجُ » وَهُوَ تَصْحِيفٌ وَالتَّصْحِيحُ مِنَ الْفَائِقِ ، « ج ٢ ص ٦ » وَالْعَسْلُوجُ : هُوَ الْفَعْنُ النَّاعِمُ .

(١٠) وَالْهَدْيُ : هُوَ مَا يَهْدَى إِلَى الْحَرَمِ مِنَ النِّعَمِ ، وَأَرَادَ بِهِ الْإِبِلَ ، فَسَمَّاها هَدْيًا لِأَنَّهَا تَكُونُ مِنْهَا ، أَوْ أَرَادَ « هَلَكَ مِنْهَا مَا أَعْدَلُ لِأَنَّهُ يَكُونُ هَدْيًا » وَهُوَ الرَّاجِعُ هُنَا .

(١١) الْوَدْيُ : الْفَسِيلُ : وَهُوَ صَغَارُ النَّخْلِ .

(١٢) فِي الْأَصْلِ « الْعَيْنُ » وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْفَائِقِ « ج ٢ ص ٤ » وَالْعَيْنُ : الْإِعْتِرَاضُ وَالْخِلَافُ ، أَيْ بَرُّنَا مِنْ أَنَّ خِلَافَ وَنَعَانَدُ .

(١٣) طَمَا الْبَحْرَ يَطْمُو ، وَطَمَا يَطْمِي : إِذَا ارْتَفَعَ .

(١٤) تِمَارُ بوزن كتاب : جَبَلٌ بِيْلَادِ قَيْسِ (الْقَامُوسُ) وَفِي مَعْجَمِ يَاقُوتَ : قَالَ عَرَّامُ بْنُ الْأَصْبَغِ « فِي قَبْلِ أَبْكَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ « بَرِّمٌ » وَجَبَلٌ يُقَالُ لَهُ « تِمَارٌ » وَهَما جَبَلَانِ عَالِيَانِ لَا يَنْبَتَانِ شَيْئًا ، فِيهَا الْفُحْرَانُ كَثِيرٌ ، وَلَيْسَ قَرَبُ « تِمَارٌ » مَاءٌ . وَهُوَ مِنْ أَعْمَالِ الْمَدِينَةِ .

(١٥) الْهَمَلُ : الْمَهْمَلَةُ الَّتِي لَا رِעَاءَ لَهَا ، وَلَا فِيهَا مِنْ يَصْلَحُهَا وَيَهْدِيهَا ، وَمِنْهُ الْمَثَلُ : « اخْتَلَطَ الْمَرْعِيُّ بِالْهَمَلِ » أَيْ الْخَيْرُ بِالشَّرِّ ، وَالتَّصْحِيحُ بِالْقِيمِ . (الْفَائِقُ) .

(١٦) الْأَغْفَالُ : جَمْعُ غَفْلٍ ، وَهِيَ الَّتِي لَا سَمَةَ عَلَيْهَا . قَالَ الْمُبَارَكُ بْنُ الْأَثِيرِ فِي النِّهَايَةِ : وَقِيلَ الْأَغْفَالُ هُنَا الَّتِي لَا أَلْبَانَ لَهَا . وَقِيلَ : الْعَصَلُ : الَّذِي لَا يَرْجَى خَيْرُهُ وَلَا شَرُّهُ .

ما تبض^(١) ببال^(٢) ، ووقير^(٣) كثيرُ الرّسل^(٤) قليل الرّسل^(٥) ، أصابتها سنة حمراء^(٦) مؤزلة^(٧) ، فليس لها نهل^(٨) ولا علل^(٩) « فقال رسول الله - صلى عليه وسلم - : « اللهم بارك لهم في محضها^(١٠) ونخصها^(١١) ، ومذقها^(١٢) وفرّقها^(١٣) ، وابث راعيها في الدثر^(١٤) بيانع^(١٥) الثمر ، وأجر^(١٦) له الثمد ، وبارك له في المال والولد . من أقام الصلوة كان مسلماً ، ومن آتى الزكاة كان محسناً ، ومن شهد أن لا إله الا الله كان مخلصاً . لكم يا بني نهد ودائع^(١٧) الشّرك ، ووضائع^(١٨) المال . لا تُلطط^(١٩) في الزكاة ولا تُلحد^(٢٠) في الحياة^(٢١) ، ولا تتناقل

-
- (١) تبض : مضارع بضت ، أي أعطت قليلا قليلا ، والبئر البضوض : التي يخرج ماؤها قليلا قليلا أيضاً .
(٢) البال : القدر الذي يبل .
(٣) الوقير : الغنى الكثيرة ، قال أبو عبيدة : لا يقال للقطيع الوقير حتى يكون فيه الحمار والكلب .
(٤) الرسل : ما يرسل الى المرعى ، وجمعه أرسال .
(٥) الرسل : اللين ، يريد أنها كثيرة العدد قليلة اللين . وقيل الرسل : النفرقة والانتشار في المرعى لقلة النبات ونفرقه . قوله « قليل الرسل » مكرر في الأصل وهو من سبق قلم النسخ .
(٦) الحمراء : الشديدة ، لأن الآفاق تحمر في الجذب .
(٧) المؤزلة : التي جاءت بأذزل ، وهو الضيق .
(٨) النهل : الشرب الأول ، وباب فعله طرب .
(٩) العلل : الشرب الثاني ، وباب فعله « نصر » و « ضرب » .
(١٠) الخض : اللين الخالص .
(١١) الخض : اللين الخالص .
(١٢) المذق : المذوق ، وهو المخاطوط بالماء .
(١٣) الفرق : مكياك يكال به اللين .
(١٤) الدثر : المال الكثير .
(١٥) البانع : المدرك الناضج يقال : « ينعت الثمرة وأينعت » أراد : بسبب يانع الثمر أو معه .
(١٦) الجر : افتح وأغزر . والثمد : المال القليل .
(١٧) الودائع : قال ابن الأثير « يحتمل أن يريد بها ما كانوا استودعوه من أموال الكفار الذين لم يدخلوا الاسلام ، أراد احلالها لهم ، لأنها مال كافر قدر عليه من غير عهد ولا شرط » . وقيل الودائع : جمع الوديع ، أي العهد .
(١٨) الوضائع جمع وضيمة : وهي ما وضع عليهم في ملكهم من الزكوات .
(١٩) تلطط ، يقال : لط والظ : اذا دفع عن حق يلزمه وسره . وفي الأصل المخطوط « يلطط » للغائب .
(٢٠) الالتاد : الميل عن الحق الى الباطل . وفي الأصل « يلحد » .
(٢١) في الحياة : أي ما دمت حياً .

عن الصلاة . وكتب معه كتاباً الى بني نهد : « من محمد رسول الله الى بني نهد بن زيد ، السلام على من آمن بالله ورسوله . لكم يا بني نهد في الوظيفة ^(١) الفريضة ^(٢) ، ولكم العارض ^(٣) والفريش ^(٤) وذو العنان الركوب ^(٥) ، والفلو الضبيس ^(٦) لا يُمنع سرحكم ، ولا يُعصد ^(٧) طلحكم ، ولا يُحبس درّكم ^(٨) ما لم تضمروا الاماق ^(٩) وتأكلوا الرّباقي ^(١٠) . من أقرّ بما في هذا الكتاب فله من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوفاء بالعهد والذمة ، ومن ابى فعلية الرّبوّة ^(١١) » فقال له علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - « يا رسول الله نحو بنو أب واحد ورؤيتنا في بلد واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدبني ربي فأحسن تأديبي ، ورؤيت في بني سعد » .

ألا ترى الى هذا السلام الذي لا يكاد يعرف ولا يفهم ، وهو الذي نعدّه نحن في زماننا وحشياً متوعراً لعدم الاستعمال له ؟ ومع ذلك ، فقد نطق به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيثبت من هذا أن كان الوحشي من الكلام ليس معيماً من حيث ذاته ، وإنما يعاب من حيث النسبة الى الزمان وأهله ، كما أنا نعيمه نحن في هذا الزمان ، ونطرحه ونكرهه ، ولا نستعمله ،

التي :

- (١) الوظيفة : ما يتقدر من زكاة أو طعام أو رزق .
- (٢) الفريضة : يقال فرضت ، أي هرمت فهي فرض وفريضة .
- (٣) العارض : التي أصابها كسر أو رض . (٤) الفريش : التي وضعت حديثاً .
- (٥) ذو العنان الركوب : الفرس الذلول . (٦) الضبيس : الصعب .
- (٧) يعصد : يقطع . والطلع : شجر ، وقيل شجر الموز .
- (٨) في الأصل « ذر » وهو من تصحيف النساخ . ومعنى الجملة : لا تحشر ذوات البانكم الى المصدق فتحبس عن المرعى .
- (٩) في الأصل « الابق » والامق : هو من أماق الرجل ، إذا صار في اماقة : وهي الحمية والأنفة .
- (١٠) في الأصل « الرنان » والنصوب « من الفائق » . والرباق : جمع ربق ، وهو الحبل ، وأراد به العهد . شبه ما لزم أعناقهم بالربق في أعناق البهم ، وشبه نقضه بأكل البهيمة ربقها وقطعه .
- (١١) الربوّة : الزيادة على الفريضة ، عقوبة على إباءه الحق .

وقد كان من قبلنا مألوفاً مستعملاً بين البلغاء والفصحاء . وهذا مما لا نزاع فيه بحال من الاحوال ، فاعرفه .

وعلى ذلك فأنما يلام على استعمال الوحشي من الكلام الحصري ؛ لأنه يتكلفه ويتلفه من الكتب ، ويلتقطه من بطون الدفاتر ، مع العناية والمشقة في تحصيله . وقد رأينا جماعة ، ممن يدعي هذه الصناعة ، يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعُسّر فهمه ، ويبعد متناوله ، كالذي نحن بصدد ذكره ههنا . وإذا رأوا كلاماً غامضاً وحشياً يعجبون منه ، ويصفونه بالفصاحة وهو بالعكس من ذلك . وقد استعمل هذا القسم من الكلام كثيراً ابن هاني المغربي^(١) ، فمن ذلك ما جاء في قصيدة من شعره على قافية الثاء ، وهو قوله :

وما راعهم إلا سُرادق جَعْفَر^(٢) يَحْفُف^(٣) بها أُسْدُ اللقاء الدلاهِث^(٤)
وما تستوى الشغواء غيرَ حَيْثَةٍ^(٥) قوادِمها^(٦) والكَسراتُ^(٧) الحِثائِثُ^(٨)

(١) هو محمد بن هاني بن محمد بن سعدون الأندلسي ، ولد بقرية سكون من قرى إشبيلية سنة « ٣٢٠ » هـ وفي رواية سنة « ٣٢٦ » هـ وله كنيستان أحدهما أبو القاسم والأخرى أبو الحسن ، ويقال له : ابن هاني الأندلسي تميزاً له عن ابن هاني الحكمي المعروف بأبي نواس . له ديوان كبير مطبوع ، طبع بمطبعة المعارف بمصر ، وقد شرحه الدكتور زاهد علي ، في حيدر آباد الدكن بالهند ، وقال : إن هذا الديوان قد طبع ثلاث مرات : مرة بمصر في سنة ١٢٧٤ هـ ، ومرة في بيروت سنة ١٨٨٦ م وسنة ١٣٢٦ هـ . توفي ابن هاني المغربي مقتولاً سنة « ٣٦٢ » هـ ، وفي رواية « ٣٦١ » هـ ولكن التاريخ الأول هو الراجح .

(٢) هو أبو علي جعفر بن علي الأندلسي أمير الزاب ، من شمال إفريقيا ، كان جواداً . ولابن هاني فيه مدائح ، منها القصيدة التي منها هذه الأبيات الثلاثة توفي سنة « ٣٦٤ » (الأعلام لأزركلي ج ١ ص ١٨٥) .
(٣) ورد هذا البيت في « ج ١ ص ١٢٦ » من الديوان ، وفيه « تحف » مكان « يحف » وبعده : فجدلهم عن صهوة الطرف راكب واطعنهم عن جانب الطود ما كبت
وبعد خمسة أبيات يأتي البيت التالي : « وما تستوي . . » وبعده بأربعة أبيات يأتي البيت الثالث : « تورعت . . . »

(٤) الدلايث : واحدها دلهث وهو الأسد .

(٥) في الأصل « وما تستوي السفواء غير حبيثته » والتصحيح من الديوان و « انشواء » : العقاب ، لزيادة منازرها الأعلى على الأسفل .

(٦) القوادم : جمع قادمة ، وهي عشر ريشات في مقدم الجناح ، وهي كبار الريش .

(٧) الكسرات : جمع كاسرة ، وهي مؤنث الكاسر ، بمعنى العقاب . وكسر الصائر : إذا انقض أو كسر صيده ، أو كسر جناحيه ، ضمها يريد الوقوع .

(٨) في الأصل « الحثايت » والتصحيح من الديوان المشار اليه ، وهي جم الحثيثة .

تورّعت عن ديبالك وهي غريبة^(١) لها مَبْسَم برّد^(٢) وفرع^(٣) جُثَاثُ^(٤)
 ألا ترى الى هذه الكلمات ، كيف يكرهها السمع ، وينبو عنها الطبع ، وتستكرهها
 القلوب ، وتعاها النفوس ، وكأن الانسان عند الوقوف عليها خابط [خَبَطَ] عشواء^(٥) ،
 لا يدري أين يضع رجله ؟

ومن هذا النوع أيضاً قولُ بعضهم وقد اعتلّت أُمهُ فكتب رقاعاً وألقاها في الجامع^(٦)
 بمدينة السلام وهي^(٧) « صين امرؤا ورعى ، دعا لامرأة مقسّنه^(٨) ، قد منيت بأكل
 الطرموق ، فأصابها من أجله الاستمصال ، أن يمن عليها بالاطرغشاش^(٩) ، والابرغشاش^(١٠) »
 وكل من قرأ رقاعه لعنه ، ولمن أُمهُ . ومما يجري هذا المجرى قول ابن الرومي :

إسقني الأسكركة الصنة نَبَرَ في جعضلفونه
 واترك الفيجن^(١١) فيـه يا خليلي بنصونه

فانه لا يوجد^(١٢) من الألفاظ الوحشية شيء أقبح من قوله « الأسكركة » وجعضلفون

(١) في الأصل « عزيزة » ولا يقتضيه المقام ، والعزيزة : هي الشابة لا تجربة لها ، يريد رقتها وطرأتها .

(٢) البرد : البارد : أي المنهي الطيب .

(٣) فرع المرأة : شعرها ، والفرع من كل شيء : أعلاه .

(٤) جُثَاثُ : الشعر الكثير .

(٥) العشواء : الناقصة التي لا تبصر أمامها . فهي تخبط بيديها كل شيء ويقال : « ركب فلات

العشواء » : إذا خبط أمره ، على غير بصيرة . وفلان خابط خبط عشواء (مختار الصحاح) .

(٦) أراد به جامع المنصور بالجانب الغربي من بغداد العتيقة ، وكان فوق الصالحية الحالية بقليل .

(٧) أورد أبو هلال العسكري هذا النص في كتابه « الصناعتين » ص : ٣٣ ، طبعة الاستانة

سنة ١٣٢٠ .

(٨) في الأصل « مقسّنه » ، والتصحيح عن الصناعتين ، وفي حاشية الكتاب ، « قال الجوهري :

أقسّئ الرجل إقسّئاناً : إذا كبر .

(٩) في متن كتاب الصناعتين ، الطرموق : الطين . الاستمصال : الاسهال . واطرغش وابرغش :

إذا أبل وبرأ .

(١٠) في الأصل الانبخال ، والتصحيح عن كتاب « الصناعتين » .

(١١) الفيجن كجيدر : السذاب . وأجئن : دوام على أكله « القاموس » .

(١٢) في الأصل « لايجد » وكتب فوقه « لا يوجد » .

« أو متراكم » أو ما جرى هذا المجرى لصح له الوزن والمعنى المقصود ، وكان قد سلم من استعمال الوحشى من الكلام ؟ وإنما يتهيأ للشاعر هذا ، اذا كانت الكلمة فى أول البيت أو فى أثنائه ، فأما اذا كانت آخراً منه فإنه قلما يقدر على تغييرها ، وإقامة غيرها مقامها ، وذلك للزوم [القافية]^(١) التي يبني قصيدته عليها ، فاعرف ذلك وقس عليه .

النوع الثالث من القسم الأول من الباب الأول

وهو ألا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة ، وذلك ينقسم قسمين :
الأول : - ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع له فى أصل اللغة ، فغيرته العامة وجعلته دالاً على معنى آخر ، وهو ضربان :
الأول :- يكره ذكره ، كقول أبي الطيب المتنبى :

أذاق النواني حسنه ما أذقني وعف جازاهن عني بالصرم^(٢)

فإن لفظة « صرم » فى أصل وضع اللغة « القطع » يقال : ^(٣) صرمه أي قطعه ، فغيرتها العامة ، وجعلتها دالة على المحل المخصوص دون غيره . ثم لم يكفهم ، حتى جعلوا ما هو بالسين صاداً ؛ ولأجل هذا استكره استعمال هذه اللفظة . وكذلك ما جرى هذا المجرى كقول أبي الطيب :

(١) زيادة اقتضاها السياق .

(٢) هذا البيت من قصيدة يمدح بها الحسين بن اسحاق التنوخي ، مطلعها :

ملام النوى فى ظلمها غاية الظلم لعل بها مثل الذي بي من السقم

(انظر الجزء الرابع ص ٤٧ من شرح الديوان المنسوب الى ابي البقاء العكبري ، طبعة مصطفى البابي الحلبي

سنة ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م « وفي الديوان « عني على الصرم » . وجاء فى شرح الديوان المذكور :

والصرم : الاسم من صرمت الرجل ، أي قطعت كلامه ، وأصل الانصرام : الانقطاع .

(٣) فى الأصل « يقال له صرمه » ولا حاجة الى زيادة « له » .

سلي^(١) الببد أين الجنُّ منّا بِجَوِّ زها^(٢) وعن ذي المهاري^(٣) أين منها النقانق؟^(٤)
فإن النقانق في أصل اللغة : هي جماعة النعام ، فغيرتها العامة ، وجعلتها دالة على ضرب من
طعام السوق^(٥) ، فصارت من أكثر^(٦) الألفاظ ابتذالا . واعلم ان العامة اعتمدوا^(٧) هذا في
كثير من كلامهم ، حتى ان الشيخ أبا منصور الجواليقي ، صنف في ذلك كتاباً ووسمه « بإصلاح
ما يزلط فيه العامة » فنه ما هذا سبيله ، وهو الذي أنكرنا استعماله على أرباب هذه الصناعة ؛
لكراهته ولأنه مما لم^(٨) يأت في كلام العرب ، ولا جاء عنهم ، فهذان عيان من الضرب الذي
ذكرناه .

وأما الضرب الثاني من القسم الأول ؛ ففيه عيب واحد ؛ وهو أنه وضع في كلام العرب
لمعنى فجعلته العامة دالاً على غيره ، إلا أنه ليس بمستقيم ولا مستكره ، وذلك كتسميتهم الانسان
ظريفاً اذا كان دمث الأخلاق ، حسن الصورة واللباس ، طيب الريح ، وما هذا سبيله . والظريف
في أصل اللغة بخلاف ذلك ؛ لأن الانسان انما يسمى ظريفاً اذا كان حسن النطق فقط . اذ الظرف
يتعلق باللسان لا غير . وقد قالت العرب في صفات خلق الأنسـان : الصبـاحة في الوجه .
الوضاءة في البشر . الجمال في الأنف . الحلاوة في العينين . الملاحاة في الفم . الظرف في اللسان .

(١) هنا البيت للمعني من قصيدة يمدح بها الحسين بن اسحاق التنوخي ، مطلعها :
هو البـين حتى ما تأتئ الحزائـق
ويا قلب حتى أنت ممن أفارق
« انظر ص ٣٤١ من الجزء الثاني من شرح ديوان التني المنسوب الى العكبري ، طبعة الحلبي سنة
١٣٥٥ - ١٩٣٦ م .

(٢) جوز كل شيء : وسطه .
(٣) المهاري : جمع مهري ، ويمجوز جمعه على المهاري كصغارى ، وهي ابل منسوبة الى قبيلة من اليمن وهم
بنو مهرة بن حيدان .

(٤) النقانق : جمع نقنق ، وهو ذكر النعام .
(٥) النقانق : هي المعروفة عند أهل بغداد « بالكيباية » وهي قطع من الكروش مخططة على الرز
واللوز والأبازير وما شاكل ذلك ، وهي شبيهة بـ « المكشاة » عند العرب .
(٦) في الأصل « أكبر » وهو غير مستقيم . (٧) في الأصل « أعتقدوا » ولا نراه ملائماً .
(٨) في الأصل « عالم بأن في كلام » .

الرشاقة في القُدَّ . اللبابة في الشائل . كمال الحسن في الشعر . وهذا الضرب قد ذكره الشيخ أبو منصور الجواليقي^(١) في كتابه ، فاعرفه .

القسم الثاني مما ابتدئته العامة ، وهو الذي لم تغيره عن بابه . وانما أنكرنا استعمال هذا القسم من الكلام ، لأنه مبتذل بينهم فقط ، لا لأنه مستقبح ، ولا مخالف لما وضع له في أصل اللغة . وذلك كقول أبي الطيب المتنبي^(٢) :

فقلقلت^(٣) بالهم الذي قلقل الحشا قلقل^(٤) عيس كلهن قلقل^(٥)

ألا ترى الى سخافة هذه اللفظة ، وما عليها من الزكاة التي لا أمد وراءها !؟. ومما جاء على نحو ذلك قوله أيضاً :^(٦)

وملمومة^(٧) سيفية^(٨) ربعية^(٩) بصيح الحشا فيها صياح اللقالق

(١) هو وهوب بن أحمد بن محمد . أجد علماء اللغة في القرن الخامس والسادس للهجرة ، ألف كتاب العرب ، وكتاب شرح أدب الكتاب ، وعما طبعوا . وقد طبع الحجم العالمي العربي بدمشق الكتاب الذي أشار اليه المؤلف ، توفي بغداد سنة ٣٩٩ هـ « انظر الوفيات ج ٤ ص ٤٢٥ » طبعة مكتبة النهضة و « بغية الوعاة » ص ٤٥٩ ، طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ .

(٢) هذا البيت من قصيدة مطلعها :

فقا تريا ودقي فهاتا المجايل ولا تخشيا خلفاً لجا أنا قائل

قالها المتنبي في صباه ، (انظر ص ١٧٤ من الجزء الثالث من شرح الديوان المنسوب الى العكبري) طبعة الحلبي بمصر سنة ١٣٥٥ هـ .

(٣) وقلقل : حرك . ويريد بالمشا : ما في داخل جوفه .

(٤) قلقل عيس : جمع قلقل : وهي الناقة الخفيفة . وناق قلقل ، وفرس قلقل : اذا كانا سريع الحركة .

(٥) قلقل : جمع قلقل ، وهي الحركة . (انظر حاشية شرح الديوان المشار اليه » ص ١٧٥ ج ٣ »

(٦) هذا البيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة بن حمدان مطلعها :

تذكرت ما بين العذوب وبارق بحر عواليسا وجرى السوابق

(٧) الملمومة : الكنية المجتمعة . (٨) سيفية : منسوبة الى سيف الدولة .

(٩) ربعية : منسوبة الى ربعة ، وهي قبيلة سيف الدولة .

(١٠) اللقالق : جمع لقلق ، وهو طائر كبير يسكن النيران في أرض العراق .

ومن هذا القسم قول ابن هانيء^(١) المغربي :
 من^(٢) ليس يرفل^(٣) إلا في سَوا بِنه^(٤) من بُبمي^(٥) مفاض^(٦) أو سلوقي^(٧)
 أم من بُذل^(٨) عماليقاً تدلّهم أي الأجادل يسمو للكرائي^(٩)
 فإن كلاً من هاتين اللفظتين^(١٠) مبتذل بين العامة جداً . وأمثال هذا كثير ، فاعرفه .
 وعليك أيها المؤلف اجتنبه ، والبعد عنه .

النوع الرابع من القسم الأول من الباب الأول

وهو أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن معنى يكره ذكره

فاذا وردت وهي غير مقصودة بها ذلك المعنى فبحث ؛ وذلك اذا كانت مهمة بغير قرينة
 تميز معناها عن القبيح ، فاما اذا جاءت ومعها قرينة ، مخصصة لما تحتها من المعنى المخصص ، فان
 ذلك لا يكون معيباً في الكلام . فثال ما ورد من هذا النوع ومعه قرينة ، قوله تعالى في
 حق النبي - صلى الله عليه وسلم - « فاما الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النور الذي
 أنزل معه أولئك هم المفلحون »^(١١) . ألا ترى أن لفظة التعزيز مشتركة ، وهي تطلق على

(١) انظر حاشية « س : ٤٦ » من هذا الكتاب .

(٢) هذا البيت من قصيدة يمدح بها أبا الفرج الشيباني ، مطلعها :

قولاً لمعتقل الرمح الرديني والمرتدي بالرداء الهندواني

راجع الديوان « ص ٧٩٧ » طبعة مطبعة المعارف بمصر سنة ١٣٥٢ هـ .

(٣) يرفل : مضارع رفل في ثيابه ، أي أطلها وجرها متبجراً .

(٤) السوايغ : جمع ساغة ، وهي الدرع الواسعة .

(٥) تبمي : منسوب الى تبع ، من ملوك اليمن .

(٦) المفاض من الدروع : الواسم أيضاً .

(٧) السلوقي من الدروع والكلاب : منسوبة الى سلوقه ، وهي قرية باليمن .

(٨) في الأصل « أم يدل عماليقاً يدلمهم » والتصحيح من الديوان ص « ٨٠٩ » منه .

(٩) في الديوان « إن الأجادل تسمو للكرائي ؟ » والكرائي : جمع كركي : وهو طائر يقرب من

الوز ، قصير الذنب رمادي اللون ، والكركي لا يزال معروفاً بالعراق .

(١٠) أراد بها « السلوقي » و « الكركي » .

(١١) سورة الأعراف ، « الآية ١٥٧ » وانظر الآية التاسعة من سورة الفتح ، « لتؤمنوا بالله ورسوله

وتعزروه ... الآية » وانظر الآية الثانية عشرة من سورة المائدة في الاخبار عن الرسل « ... وعزّروهم
 وأفرضهم الله قرصاً حسناً لأكفرن عنهم سيئاتهم » .

التعظيم والأكرام ؛ وعلى الضرب الذي هو دون الحدّ ، وذلك نوع من الالهانة . وهما معنيان
ضدان ، فحيث وردت هذه الآية جاء معها قرائن قبلها وبعدها ، تخصص معناها بالحسن ، وتميزه
عن القبح . ولو جاءت مهملة بنير قرينة ، ويراد بها المعنى الحسن ، لسبق الى الوهم ما اشتملت
عليه من المعنى القبيح . مثال ذلك لو (قال)^(١) قائل : « لقيت اليوم فلاناً ، فاكرمته وعزرتة »
لزال ذلك اللبس وارتفع الاشكال .

ومن هذا النوع أيضاً قول بعضهم ، يصف رقعة ، جاءته من صديق له « فأنارت إنارة
الزواهر ، والأذهان منها كالماناة في فلكها الدائر » . فان لفظ^(٢) « العانة » مشترك يدل على معان
مختلفة ، فهي اسم للقطيع من حمر الوحش ، وتقع اسماً على كواكب تحت القوس ، ويراد بها
الركب من الانسان ، فلما وردت في هذا الكلام ورد معها قرينة ، وهى ذكر الفلك ، فخصصها
بأنها الكواكب تحت القوس ، لأن الفلك لا يكون إلا للكواكب ، ولو وردت مرسله بغير
قرينة لظن السامع أمراً آخر يكره ذكره . وأمثال هذا كثير . فيجب على المؤلف أن يُراعي فيه
ما أشرنا إليه من ذكر القرينة .

واعلم أنه قد جاء من الكلام (ما معه قرينة^(٣)) فأوجب قبحه ، ولو لم تجيء القرينة معه
لكان الأمر في استقباحه سهلاً ، وذلك قول الشريف الرضي :

أعزز^(٤) عليّ بأن أراك وقد خلا عن جانبك مقاعد العواد
فإن أبا محمد بن سنان الخفاجي^(٥) قد ذكر هذا البيت في كتابه فقال : إن إيراد هذه اللفظة
أعني « مقاعد » في هذا الموضع صحيح إلا أنه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشعر ، لا سيما
وقد أضافه إلى من يجتمل إضافته إليه ، وهو « العواد » ولو انفرد لكان الأمر فيه سهلاً ،
(١) زيادة اقتضاها السياق .

(٢) في الأصل « لفظة » وقد جردناها من التاء لتطابق لفظ « مشترك » الذي هو خبر إن .
(٣) زيادة يستقيم بها الكلام من المثل السائر « ج ١ ص ١٨٦ » طبعة الحاي سنة ١٣٥٨ هـ = سنة
١٩٣٩ م .

(٤) هذا البيت من قصيدة يرثي بها الرضي أبا اسحق ابراهيم بن هلال الصابي الكاتب ، وأولها :
أعلمت من حملوا على الأعواد ؟! أرايت كيف خبا ضياء النادي ؟!
(٥) انظر كتاب « سر الفصاحة » ص ٧٩ ، وانظر حاشية المثل السائر « ج ١ ص ١٨٦ .

فأما الإضافة الى من ذكره ففيها قبج لا خفاء به « هذه حكاية كلام أبي محمد بن سنان الخفاجي ، وهو كلام مرضي واقع موقعه في هذا الباب . ولنذكر نحن ما عندنا من ذلك فنقول : قد جاءت لفظة « مقاعد » في القرآن الكريم ، وهو قوله تعالى : « وإذ غدّوت من أهلك تبوي المؤمنين مقاعد للقتال ^(١) » . إلا أنها في الآية غير مضافة الى من يقبج اضافتها اليه ، كما جاءت في شعر الشريف الرضي ، وهو قوله « مقاعد العواد » . فلو لم يذكر القرينة التي هي لفظة « العواد » ، لكان الأمر يسهل في ذلك ، ولو قال عوضاً عن « مقاعد العواد » مقاعد الزيارة ، وما جرى هذا الجرى لذهب ذلك القبح وزالت تلك الهجنة والكراهة . ولهذا جاءت هذه اللفظة أعني « مقاعد » في الآية على ما ترى من الحسن والجودة ، وجاءت في شعر الشريف الرضي على ما ترى من القبح والرداءة ، فاعرف ذلك وقس عليه .

وأما الذي ورد من هذا النوع مهملاً بغير قرينة ، فكقول تأبط شراً :
أقول للحيان وقد صفرت لهم وطابي ويوي ضيق الجحر ^{مُعور} (٢)
ولو ورد مع ذلك قرينة لم يفسده شيئاً البتة ، ألا ترى أن لفظة « الجحر » تطلق على كل ثقب ، كثقب الحية ، وثقب اليربوع وغير ذلك ، وتطلق أيضاً على المحل المخصوص من الحيوان ، وأما استقبحت ها هنا ، لأن الوهم يسبق الى ما تدل عليه من المحل المخصوص ، دون غيره . ومع هذا فأَي قرينة وردت مع هذه اللفظة لا تذهب ما عليها من الكراهة ، ولا تزيل ما فيها من القبح . وأمثال ذلك كثيرة ، فاعرفها .

النوع الخامس من القسم الأول من الباب الأول

وهو أن تكون الكلمة مصغرة ، في موضع يعبر بها عن شيء خفي
أو لطيف أو ضعيف أو ما جانس ذلك ^(٣)

ومعاني التصغير خمسة :

- (١) « سورة آل عمران » الآية ١٢١ .
- (٢) انظر المثل السائر « ج ١ ص ١٨٧ » وشرح الحماسة للتبريزي « ج ١ ص ٧٥ » .
ولحيان : بطن من هذيل ، و صفرت لهم وطابي : كناية عن خلو قلبه من وهم ومُعور : باد عورته ، وهي مكان الخفاة منه .
- (٣) في الأصل « جنس » وليس بصواب .
- (٤) في الأصل « خمس » وهذا جائز لو أراد المؤلف « المعناة » ولكنه قال « الأول » فتمين التذكير .

الأول يرد لتحقير المعاني لا الصور نحو « رجيل » أي إنه حقير من حيث معناه ، لا من حيث صورته .

« الثاني » يرد لتحقير الصور لا المعاني ، وهو ضد الأول نحو « جبيل » .

« الثالث » للتقريب وذلك في الظروف الزمانية والمكانية نحو : « وقيت » و « فويق » .

« الرابع » يرد للتخفيف وذلك في المدد نحو « مُوَيْل » و « أَحْيَال » .

« الخامس » يرد للتعظيم كقول النبي - صلى الله عليه وسلم - في حق عبد الله بن مسعود « كُنَيْفٌ مُلِيٌّ عَلَمًا »

. فإن قيل : التصغير إذا جعل أمانةً للتحقير والتعظيم معاً زالت الفائدة المقصودة به ، لأنه لا يصير دليلاً على أحدهما .

الجواب عن ذلك أنا نقول : ليس الأمر كما وقع لك : أن التصغير أمانة للتحقير والتعظيم على الإطلاق ، من غير تقييد ، بل ههنا فرق بينهما ، متى عرف لم ينكر جعلهم التصغير دليلاً على التحقير والتعظيم معاً ، وهو أن التصغير الدال على التعظيم لا يكون إلا ومعه صفة مدح مقترنة (به) . ألا ترى قول النبي ، صلى الله عليه وسلم ، « كُنَيْفٌ مُلِيٌّ عَلَمًا » فقوله « كنيف » تصغير محض وقوله : « مليّ عَلَمًا » صفة مدح ، أوجبت له التعظيم ، وذلك أن المشار إليه لما كان قصير الشكل ، صغير الجلثة ، أطلق عليه لفظة التصغير بأن قال « كُنَيْف » ولما كان عزيز العلم ، راجح اللب ، أطلق عليه صفة المدح بأن قال « مُلِيٌّ عَلَمًا » فصغره أولاً ثم عظمه ثانياً ، فقيل : « تصغير تعظيم » لما هذا سبيله ، فاعرفه .

وأما التصغير الدال على التحقير فليس كذلك ، لأنه لا يجيء معه صفة مدح البتة .

وأما أبنية التصغير فثلاثة : ثلاثي لا زيادة فيه ، ويحيى على « فُعِيل » نحو « ثويب »

(١) في الأصل « جبيل » وهو من خطأ النسخ .

(٢) المويل تصغير « المال » ويراد به في الغالب « الابل » و « احيال » : تصغير أعمال : جمع حمل .

(٣) جاء في مختصر الصحاح الكندي ، بكسر الكاف : وعاء تكون فيه أداة الراعي ، ويتصغيره جاء

الحديث « كنيف ، مليّ عَلَمًا » .

(٤) زيادة اقتضاها المقام .

ورباعي لا زيادة فيه ويحيى على « فَعَمِلَ » نحو « دُرِّهِمْ » فإن كان فيه زيادة من حروف المد واللّين بين ثلثه ورابعه جاء على « فَعَمِيلَ » نحو « قُنَيْدِيلَ » . وأما الخماسي فيحذف منه الحرف الأخير ، وهو أولى بالحذف نحو « سَفِيرَج » ، وربما حذفوا ما قبل الآخر ، فقالوا في فرزدق : « فرزِق » .

وقد جاءت اوزان غير هذه وهي « أَفْعَالٌ » نحو « أَطِفَالٌ ^(١) » و « فُعَيْلَانٌ » نحو « سُكَيْرَانٌ » و « فُعَيْلٌ » نحو « حُبَيْلٌ » و « فَعِيلَاءٌ » نحو « حُمَيْرَاءٌ » والأصل ما أوردناه أولاً ، وذلك شيء مستقصى في كتب النحو ، وليس هذا موضعه .

وأعلم أنه قد وردت ألفاظ لم يستعمل لها مكبر نحو : الثريا ، والأجيين والكعيت ، وسهيل وغير ذلك . وليس هذا من غرضنا في هذا الكتاب الذي نحن بصدد ذكره ، خلّوه من معنى التصغير ، فما جاء من التصغير قول الرضي :

وهل تُخَشِّفُ بِالْعَمِيقِ عَلاَقَةً بقلبي أم دانيت غير مُدَانِ

فانه لما كان هذا الغزال صغيراً ، قريب العهد بالولادة ، كان وروده مصغراً أليق وأحسن وأدخل في الصفة . وكذلك قوله أيضاً :

هل ناشد لي بعَمِيقِ اللّوى غزيراً مرّاً على الركب ؟

وأمثال هذا كثير فاعرفه . فلا ينبغي لك أيها المؤلف أن تكثر من استعمال هذا النوع من الكلام في تأليفك ، وإن كان حسناً رائعاً . بل الأليق بك أن تقتصر منه على الشيء اليسير ، يكون كلامك به ملهماً ، فإن مثل التصغير وما جرى مجراه في التّأليف ، كمثل الوشي في الثوب الديباج ، فإنه إذا كان ملوناً أحسن منه إذا كان من لون واحد . وكذلك الكلام ، فانه إذا كان مشتقاً على هذه الأنواع المذكورة من التصغير وغيره ، مما سبق ذكره ، ويأتي شرحه في هذا الكتاب ، كان أولى من اشماله على نوع واحد فاعرف ذلك .

(١) في الأصل « أَطِفَالٌ » وهو خطأ من الناسخ .

النوع السادس من القسم الأول من الباب الأول :

وهو أن تكون الكلمة مؤلفة من أقل الأوزان تركيباً

وسبب ذلك أنها إذا ركبت من حروف قليلة خفّت على النطق لقصرها ، وسهل التعبير بها على اللسان لسرعة فراغه منها ، وإذا تركبت من حروف كثيرة كان في النطق بها كلفة على الناطق ، وذلك لتطاولها وامتداد الصوت بها . ولنضرب لهذا مثالا كيف اتفق ، ليكون أسرع فهماً للتأمل ، فنقول : إذا تلفظ الناطق بالثلاثي ، فقال للماء الطيب « عذب » أو تلفظ بالرباعي ، فقال للذهب « عسجد » كان ذلك أسهل عليه من التلفظ بالخماسي إذا قال للمرأة الشديدة الصوت « صَهْصَلِق » وللمعجوز « جَحْمِرَش » وذلك مما لا يمكن النزاع فيه ، لأن شاهده من نفسه ودليله من ذاته . ولهذا كانت أكثر ألفاظ القرآن الكريم ثلاثية ، وكان القليل رباعياً . وأما الخماسي فليس في القرآن منه شيء البتة ، إلا ما كان اسم نبيّ فقط نحو إبراهيم ، وإسماعيل^(١) . وغيرها .

وأعلم أن الأسماء الثلاثية في الأصل ، إذا كان فيها زيادة فأكثر ما تبلغ سبعة أحرف ، وكذلك الرباعية أيضاً . وأما الخماسية ، فإن زيادتها لا تكون إلا حرفاً واحداً ، وذلك لأن الخماسي عندهم غاية الأصول ، فلا يحتمل غاية الزيادات . وأما الأفعال فلا تكون خماسية في الأصل بل غايتها أن تكون رباعية فقط . وذلك أن الأسماء أقوى من الأفعال ، وحيث كانت أقوى منها جعلوا لها ميزة عليها ، وفضيلة فوقها . وسبب قوة الأسماء على الأفعال استغناء الأسماء عنها ، وحاجة الأفعال إليها . ألا ترى الاسم مع الاسم نحو « زيد منطلق » كلام مفيد ؟ والفعل مع الفعل نحو « ضرب قام » ليس بكلام مفيد ؟ ولكن إذا اقترن الاسم بالفعل نحو « قام زيد » صار ذلك كلاماً مفيداً . فالأسماء إذن مستغنية عن الأفعال ، والأفعال ليست مستغنية عن الأسماء ، بل هي مفتقرة إليها . وحيث تكلمنا على الأصول الثلاثة ؛ ثلاثيها ورباعيها وخماسيها

(١) قال المؤلف في المثل السائر « ج ١ ص ١٨٩ » : « لا يوجد في القرآن من الخماسي الأصول شيء ، إلا ما كان من اسم نبي عرب اسمه ، ولم يكن في الأصل عربياً نحو إبراهيم وإسماعيل » .

وبلغ منا القول الى هذا المقام فليرد ذلك بذكر الأصول مع زوائدها ، والغرض بها اجتناب الألفاظ التي كثرت حروفها واستعمال ما كان قليل الحروف ، فانه اذا كان التلفظ بالخماسي فيه كلفة على الناطق وكراهة ، كما أريناك^(١) ، فالأولى أن تزداد كلفته اذا تلفظ بكلمة فيها أكثر من خمسة أحرف ، فمثال ذلك قول بعضهم ، في جملة رقعة كتبها إلى صديق له ، قاصداً بها التشدق في الكلام ، فقال « واذا اسلعلعت تلك تجنبلت هذه وتكهيمشت » أي اذا طالت تلك قصرت هذه . فان قوله « اسلعلعت » من أقبح الألفاظ طولا ، مع أنها من وحشي الكلام فقد جمعت إذن العيين معاً .

ومن هذا النوع أيضاً ما ذكره أبو محمد بن سنان الخفاجي^(٢) وهو قول أبي الطيب المتنبي :

إن الكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها
ألا ترى الى تطاول هذه اللفظة وخروجها عن الاعتدال ؟ وبحسب ذلك يتضاعف استقباحها واستكراهها . وأمثال هذا كثيرة فاعرفها .

فان قيل : إن هذا الذي أنكرته من طول الألفاظ وذكرته ها هنا قد ورد في القرآن الكريم ما يماثله ويشابهه ، فن ذلك قوله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » الآية . وقوله تعالى : « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ » .

فلفظة « ليستخلفنهم » عشرة أحرف . ولفظة « فسيفيكمهم » تسعة أحرف . وأمثال ذلك في القرآن كثير . فلو كان هذا منكراً في التأليف ، مكروهاً في الكلام لما ورد في القرآن المجيد . الجواب عن ذلك ، أنا نقول : ليس هذا الذي قد جاء في القرآن الكريم مثل هذا الذي أوردناه نحن في كتابنا وأنكرناه على قائله^(٣) ؟ لان قوله تعالى « ليستخلفنهم » ثلاث كلمات جمعت فصارت

(١) في الأصل « رأيناك » وهو تصحيف من الناسخ .

(٢) راجع سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان « ص ٨١ » .

(٣) انظر المثل السائر ج ١ ص ١٨٨ ورأى ابن الأثير هناك : « ان قبح اللفظة لم يكن بسبب طولها ، وانما هو لأنها في نفسها قبيحة » .

كلمة واحدة صورة لا معنى . ألا ترى أن الأصل فيها « ليستخلفن الله المؤمنين » ألا أنه لما جاء بذكر المؤمنين مظهراً في الأول لم يحتج في ذكرهم ثانياً إلى الإظهار ، بل اقتصر على ضميرهم كما تقول : « قاتلت بني فلان وحاربهم » ينوب مناب قولك « وحاربت بني فلان أيضاً » . وهذا مما لا نزاع فيه لوضوحه . وكذلك القول في اللفظة الأخرى وهي قوله تعالى : « فسيكفيهم الله » ولا تجد في القرآن الكريم لفظة واحدة ، مثل لفظة « سويداواتها » في الطول ، لأنها ليست ثلاث كلمات وقد جمعت كلمة واحدة كما أريناك ^(١) وإنما هي كلمة تدل على معنى الجمعية لا غير ، وفي آخرها الهاء والألف لإضافتها الى المؤنث ، فاعرف ذلك .

وأما النوع السابع الذي ابتكرناه ^(٢) نحن فهو أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة ، وسبب ذلك سرعة النطق بها ، ومضاهؤه فيها من غير عناء يلحقه ولا كلفة ؛ ولهذا اذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة ، لم يستكره ذلك ولم ^(٣) يستثقل ، بخلاف هذا في الحركات الثقيلة ؛ فانه اذا توالى منها اثنتان في كلمة واحدة استكرهت واستثقلت ؛ وذلك لما يجده الناطق فيها من تكلف العناء وتجشم المشقة . ومن أجل هذا استثقلت الضمة على الواو ، والكسرة على الياء ؛ لأن الضمة من جنس الواو والكسرة من جنس الياء ، فتكون عند ذلك كأنها حركتان ثقيلتان . ولنضرب لهذا مثالا كيف اتفق فنقول : إنا اذا أتينا بلفظة مؤلفة من ثلاثة أحرف وهي « ج زع » فلا خلاف أنا اذا جعلنا « الجيم » مفتوحة كانت أحسن من جعلها مضمومة ، فان من له أدنى ذوق وأقل معرفة يعلم أن « الجزع » أحسن موقعا من الجِزَع ، و « الجِزَع » أحسن موقعا من « الجُزَع » . ومن المعلوم أن هذه اللفظة لم يكن اختلاف حركاتها مغيراً لخارج حروفها ، حتى ينسب حسننها وقبحها الى الخارج ، بل قد تحققنا أنه يكسوها تارة حسناً وتارة يسلب ذلك الحسن عنها ، ورأينا الحسن انما يحدث لها اذا فتحنا « الجيم » منها ، فعلمنا أن حسننها حادث من ذلك السبب ؛ فان الشيء اذا رأيناه يتغير وتختلف أحواله ، ورأينا أن

(١) في الأصل « رأيناك » .

(٢) انظر كتاب « الخصائص » لابن جني ج ١ ص : ٩ ، ٧٣ - ٧٧ وقد أشار هناك الى ما رأى المؤلف انه ابتكره .

(٣) في الأصل « ولا يستثقل » وهو من خطأ الناسخ .

اختلاف كل حالة من أحواله لها سبب نسبنا ذلك إليه . ولما رأينا ان هذه اللفظة ، إذا ضممنا ^(١) الجيم منها يذهب ذلك الحسن ، علمنا أن سبب ذهابه كون الجيم مضمومة . وحيث كانت الحال بهذه المثابة ، ثبت أن أخف الحركات الفتح ثم الكسر ثم الضم ؛ والدليل على ذلك ما ذكره لك ؛ وهو أن الحركات مضارعة للحروف . ألا ترى ان جماعة من علماء العربية كانوا يسمون « الضمة » الواو الصغيرة و « الكسرة » الياء الصغيرة ، و « الفتحة » الألف الصغيرة ؟ وبما يؤكد ذلك أنك متى أشبعت الحركة انشأت بعدها حرفاً من جنسها ، نحو قولك في اشباع ضرب « ضوريبا » ولهذا اذا احتاج الشاعر الى إقامة الوزن اشبع الحركة فانشأ عنها حرفاً من جنسها كقول بعضهم :

فانت من الفوائل حين ترى ومن ذم الرجال بمنزح

يريد « بمنزح » وهو مفتعل من النزح . فاذا ثبت هذا ، فاعلم انه إنما كانت الفتحة أخف من الكسرة ، والكسرة أخف من الضمة ؛ لأن الألف أخف من الياء ، والياء أخف من الواو . والدليل على ذلك ما ذكره لك . فأما قولنا : إن الألف أخف من الياء فلا نأينا العرب قد أبدلوا الألف من الياء في العين من الفعل الماضي ، وذلك مطّرد عندهم مستمر ؛ وإنما فعلوا هذا استئثاراً للياء وطلباً للاستخفاف ، وبيانه أنهم قالوا ^(٢) : « باع ، وسار ، وأختار » وأصله « يَبِيعُ ، وَسَيَرُ ، وَإِخْتَسِرُ » ^(٣) . فلما ثقل هذا عليهم أبدلوا الياء ألفاً للرخّة ^(٤) ، فقالوا « باع ، وسار ، وأختار » وكذلك ما جرى هذا المجرى . فعلم بهذا أن الألف أخف من الياء . فإن قيل : إن هذا الدليل الذي أوردته على أن الألف اخف من الياء قد جاء عن العرب نقيضه ، ألا ترى أنك إنما استدلت على أن الألف اخف من الياء ، لكون العرب قد ابدلت الألف من الياء ؟ وقد رأيناهم أبدلوا الياء

(١) في الأصل « يَفْتَحُنا » وهو من خطأ النساخ .

(٢) كرر الناسخ « أنهم قالوا » فحذفنا المكرر .

(٣) ضبط الناسخ هذه الأفعال مبنية للمجهول ، ولا نرى ذلك مستقيماً .

(٤) في الأصل « للفتحة » والصواب ما أثبتناه .

من الألف ، نحو « حماليق ، وقيتال » فإن الياء هاهنا بدل من ألف حلاق وألف « قانتل » .
الجواب عن ذلك أنا نقول : ليست هذه الصورة في الدليل الذي أوردناه نحن ، لأن لفظ « باع ،
وسار ، واختار » على وزنه لم يغير عنه ، وذلك أنه فعل ماض ، فلما رأينا العرب قد أبدلت الياء
في هذا الموضع الفاء ، مع أنه لم يتغير عن وزنه بجمع ولا غيره ، علمنا أنهم إنما فعلوا ذلك استئثاراً
للياء لا اضطراراً . وأما لفظ « حماليق » أو « قيتال » فليس كذلك لأنه قد خرج عن وزنه الأول .
ألا ترى أن « حماليق » جمع « حلاق » « وقيتالا » مصدر « قانتل » فلم تبدل الألف هاهنا
ياء طلباً للخفة وإنما أبدلت اضطراراً ، لئلا يلتبس الأمر عليهم . فأنهم لو قالوا : جمع « حلاق »
« حلاق » لما عرف أن ذلك جمع ؛ لأنه ليس في الجمع « فعالال » . ألا ترى أن أصل « حلاق »
من « حلق » على وزن فعمل . وهو رباعي ، وقد جمع الرباعي على « فعاليل » نحو « برائين »
و « داميل » فحملت لفظة « حماليق » على ذلك ، فالياء إذاً ليست بمبدلة من الألف هاهنا
استئثاراً للألف بل اضطراراً ، لئلا يلتبس الأمر في ذلك . وكذلك « قيتال » فإن أصله من
« قانتل » ومصدر فاعلت ، جاء على « مفاعلة وفعال » نحو « مقاتلة وقيتال » فلو قيل عوضاً
عن قيتال « قاتال » على وزن « فاعال » لالتبس الأمر في ذلك أيضاً . وذلك أنه ليس في
أوزان المصادر « فاعال » فالياء إنما أبدلت في هذا الموضع من الألف اضطراراً لا استئثاراً .
ألا ترى أنها قد حذفت منه وأستقطت بالكسبية ، فليل « قانتل قتالاً » ، ولم يفعل ذلك إلا طلباً
للخفة ، لأنهم لما أبدلوا الياء ، وهي ثقيلة ، من الألف ، وهي خفيفة ، كان ذلك بخلاف عادتهم
ونسألتهم ؛ لأن من عادتهم أن يعدلوا عن الأثقل إلى الأخف لا إلى الأثقل . لكنهم لما اضطروا
إلى إبدال الياء من الألف لم يتركوا الياء على حالها ، بل حذفوها وأسقطوها كما أريناك .
وكذلك فعلوا في لفظة « حماليق » أيضاً ، فأنها لما أبدلت الياء فيها من الألف ، حذفوا الياء
أصلاً وأسقطوها فقالوا : « حماليق » على وزن « فعالل » كما قالوا « دراهم وبرائين » وكما طردوا
كذلك جميع أوزان الرباعي ، فاعرف ذلك وقس عليه .

(١) في الأصل « رأيناك » .

وأما قولنا « إن الياء اخف من الواو » فدلّله من وجهين : الاول أنه اذا بني من الفعل المعتل فاؤه بالياء مستقبل لم تحذف الياء نحو « يسر^(١) و ييسر ، و « يعر^(٢) » الجدي ييسر^(٣) » ولا كذلك الفعل المعتل فاؤه بالواو ، فانه اذا بني منه مستقبل حذفت الواو^(٤) ، نحو « وعد يعد ووزن ين » ، ولم يقولوا : « وعد يوعد ، ولا وزن يوزن » كما قالوا : « ييسر ييسر ، ويعر الجدي^(٥) ييسر » فحيث ابقوا الياء في المستقبل ولم يبقوا الواو في المستقبل ، علمنا أن حذفهم للواو إنما هو استئصال^(٥) لها دون الياء .

وأما الوجه الثاني ، فهو انك اذا بنيت « مفعولا » من المعتل العين بالواو حذفت منه حرفاً للاستئصال ؛ فقلت في قال « مقول » وفي صاغ « مصوغ » . واذا بنيت مفعولا من المعتل العين بالياء إن شئت حذفت فقلت في باع « مبيع » وفي عاب « معيب » وان شئت تمت ولم تحذف ، فقلت : « مبيوع ومعيب » وإنما لم يتموا في الواو فلم يقولوا : في مقول « مقوول » ولا في مصوغ « مصووغ »^(٦) وأتموا في الياء فقالوا « مبيوع ومعيب » لأن الياء فيها الضمة أخف من الواو فيها الضمة ؛ ألا ترى أن الواو اذا انضمت فروا منها الى الهمزة فقالوا « أدور^(٧) وأثوب » قال الراجز :

لكل دهر قد لبست أثوباً .

- (١) في القاموس المحيط « اليسر : بالفتح ويحرك : اللين والانقياد ويسر يسير . يريد : « لان يلين » .
- (٢) وفي القاموس « واليعار كغراب : صوت الغنم والمعزى ، أو الشديد من أصوات الشاة (يقال) : يعرت تيعر كيعنم ويضرب » .
- (٣) في الأصل « ونحو » والواو زائدة . (٤) في الأصل « الجد » .
- (٥) في الأصل « استقبال » ولا وجه له وهو من خطأ النسخ .
- (٦) جاء في الصحاح للجوهري « دفت الدواء وغيره : أي بللته بماء أو غيره ، فهو مدوف ومدووف . وكذلك مسك مدوف أي مبلول ، ويقال مسحوق . وليس يأتي « مفعول » من ذوات الثلاثة من بنات الواو بالتمام إلا حرفان « مسك مدووف وثوب مصوون » فان هذين جاءا نادرين ، والكلام مدوف ومصون ، وذلك لتقل الضمة على الواو ، والياء أقوى على احتماها منها . فلهذا جاء ما كان من بنات الياء بالتمام والنقصان ، نحو : ثوب محيط ومحيوط ، على ما فسرناه في باب الطاء « ا هـ .
- (٧) في الأصل « ادووعر » . وهو من خطأ النسخ . والأدور : جمع الدار . والأنثوب : جمع الثوب .

فالهمزة في الواو اذا انضمت مطردة . فأما اذا كان بعدها واو ، كان ذلك أثقل لها . فلهذا الزموها الحذف في « مفعول » . والياء اذا انضمت لم تهمز ولم تغير عن حالها ، فهذا يدل ، وببصرك أن الياء أخف من الواو ، فاعرف ذلك .

هذا ما انتهت اليه المقدرة ، وأحاطت به المعرفة ، من الأوصاف التي توجد في اللفظة الواحدة ، فليتنامله الواقف على كتابنا هذا وليتدبره ؛ فانه يفرق بين الجيد والردىء من الألفاظ ، ويعرف ما يستعمله من ذلك ، وما يطرحه . وحيث فرغنا من الكلام فيما يتعلق باللفظة المفردة ^(١) ، فلنتبعه بالكلام على الألفاظ المركبة ، والله أعلم بالصواب .

(١) فات المؤلف أن من أسباب خفة اللفظة المفردة أن تنتهي بألف مقصورة ، لأن انطلاق اللسان بها نحو السكون وخلاصه من حركة الاعراب أو البناء يخففانها تخفيفاً مبيناً كقوله تعالى « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلّى ... والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ... طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى » .. سبح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى « . (م . ج) .

القسم الثاني من الباب الأول

في صناعة تركيب الألفاظ

اعلم أن اللفظة قبل دخولها في سبل التأليف ، وقبل أن تصير الى الصورة التي تسمى كلاماً ، دالاً على معنى من المعاني ، لا يكون لها منزبة على أختها ، التي في معناها ، الا بان تكون هذه أشرف من هذه بعلامات^(١) توجد فيها . إما أن تكون إحداها مستعملة مألوقة ، والأخرى وحشية متوعدة ، وإما أن تكون حروف هذه أخف حركة أو أحسن امتزاجاً مع صواحبها ، أو غير ذلك مما قدمنا ذكره . ولا يتصورُ بين اللفظتين تفاضل في الدلالة على المعنى الذي اشتركا فيه ، حتى تكون إحداها أحسن في الدلالة على ذلك المعنى من الأخرى ؛ ولنضرب لهذا مثالا فنقول : لا يخفى على من له ذوق صحيح ، وفطرة سليمة ، أن لفظة الليث أو الأسد أحسن دلالة (على) ^(٢) مسماها من لفظة « القدوكس »^(٣) أو « العميثل » فثبت بهذا الدليل أن الكلمة لا يكون لها منزبة على أختها إلا بعلامات توجد فيها دون تلك^(٤) ، وهذا لا يثبت على اعتماده وقصده في الكلام الا الفطن اللبيب ، الذي له عناية بصناعته . وكثيراً ما رأينا من يحكم على الألفاظ بالجودة والرداءة ، واذا طوّل دليل يثبت له ما ادعاه لا يحجر جواباً ، الا تحكماً محضاً ، لا حاصل وراءه . ولا يعلم أنه لا يجوز لقائل أن يقول : هذا الكلام جيد أو رديء ، إلا بعد أن يعتبر كل لفظة منه على انفرادها ، ويعرض عليها تلك الصفات التي ذكرناها أولاً في كتابنا

(١) في الأصل « فعلامات » وهو من غلط الناسخ .

(٢) زيادة يقتضيه السياق . (٣) في الأصل « القدوكس » .

(٤) أنظر الحديث عن هذا في كتاب « دلائل الإعجاز » للإمام عبد القاهر الجرجاني ص ٣٥ وما بعدها ،

طبعة المنار سنة ١٣٣١ هـ .

هذا ، فاذا رآها موجودة فيها أو بعضها ، علم أنها حقيقة بأن تدخل في سبك التأليف . ثم يعود بعد ذلك ويعتبر مكانها من النظم ، وكيف ممازجتها لجاراتها والثثامها مع أخواتها ، فاذا وجدها شديدة المناسبة لها ، حسنة الامتزاج معها ، حكم على ^(١) ذلك اللفظ بالجودة ، وشهد له بالرونق والطلاوة ، وإن كان الأمر بخلاف ذلك [حكم] ^(٢) عليه بالرداءة والقبح ، على حسب ما استحق . والأصل في هذا كله حسن التأليف ، وجودة التركيب ، فان حسن التأليف يزيد المعنى نباهة ويميل النفوس الى استماعه ، والاصغاء اليه ، فانه اذا كان المعنى سيئاً ، وكان اللفظ جيداً مختاراً ، ويكون التركيب مع ذلك ردياً لم يوجد له قبول ، ولا يظهر عليه رونق . واذا كان المعنى واللفظ وسطين ، وكان تركيبها جيداً حسناً كان ذلك معلياً من قدرها ، ورافعاً من شأنها . فمثال ذلك كالعقد المتوسط . ألا ترى أنه اذا أحسن تنضيده فجعلت كل قطعة مع ما يشاكلها ، ويليق بها ، كان رائعاً في النظر وان لم يكن مرتفعاً ثميناً . ومثال المعنى واللفظ الرائقين مع التركيب الرديء مثال عقد ثمين ، أفسد نظمه ، فجعلت كل قطعة منه مع ما ينافيها ولا يناسبها ، فانه يصير بذلك مختلفاً في النظر ، وان كان رائعاً ثميناً .

وحسن التأليف : هو أن توضع الألفاظ في مواضعها وتجعل في أماكنها . وسوء التأليف بخلاف ذلك . ألا ترى أنه اذا قدم في التأليف ما يجب تأخيرها ، وآخر ما يجب تقديمه تصير المعاني نافرة عن مواضعها ، محوالة عن وجوهها ؟ ومثال ذلك كالصورة التي تحول بعض أعضائها ^(٣) الى موضع بعض ، فتحول الرأس الى موضع اليد أو الرجل أو غير ذلك ، فانه اذا فعل هذا قبحت الصورة ، وفسدت هيئتها الجميلة الحسنة . فاعرف ذلك ، فانه لم يقل : « لفظة متمكنة مرضية » وفي خلافها « لفظة مستكرهة » الا والغرض بالتمكن ^(٤) حسن الاتفاق بين الالفاظ بعضها مع بعض ، وبالقلق سوء الملازمة وأنها ^(٥) لم توافق صوابها . وهل تشك أيها

(١) الفصيح « حكم له بالجودة » لا عليه . (٢) زيادة اقتضاها المقام .

(٣) في الأصل « أغصانها » وهو من غلط النساخ .

(٤) في الأصل « التمكن » وهو غير مستقيم ، فهو من غلط النساخ أيضاً .

(٥) في الأصل « وأن » .

التأمل لكتابنا هذا ، اذا فكرت في قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلغي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي » وقيل بُعْداً للقوم الظالمين « أنك لم تجد ما وجدت لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة ، والفضيلة الزائدة ، الا لأمر يرجع الى ارتباط بعضها ببعض ، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن الوافر ، والشرف الكامل الا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ، وكذلك الى آخرها . وأن الفضل حصل من امتزاجها وتلاؤمها . فان لحقك في ذلك أدنى شك فتأمل هل ترى لفظة منها ، لو أخذت من مكانها ، وأفردت من بين أخواتها ، كانت مؤدية من الحسن ما تؤديه وهي في موضعها من الآية ؟ فصح لنا من هذا القول أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي مفردة فقط^(١) . ومن أدل الدليل على ذلك ، أن ألفاظ القرآن الكريم قد نطق بها العرب قبل نزوله على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وليس فيه لفظة من الألفاظ (إلا)^(٢) وقد تكلموا بها ، وجاءت عنهم . ولو لا ذلك لما كان عربياً ، لأنه لما نزل على لغة القوم وكلامهم ، ونحن قد رأينا القرآن الكريم يفوق جميع كلامهم ، ويعلو عليه مع كونه وارداً على لغتهم قد تكلموا بألفاظه ونطقوا بها ، ثبت لنا من ذلك أن ألفاظ القرآن الكريم إنما تفضل سائر الكلام من حيث تركيبها ونظمها . وهي من حيث الانفراد مساوية لكلام العرب ، حيث هي عين ألفاظهم ونفس كلامهم . وهذا مما لا شك فيه ولا ارتياب ، فاعرفه .

ومما يشهد بذلك ويؤيده ، أنك ترى اللفظة تروك في كلام ، وتزداد بها إعجاباً واستحساناً ، ثم تراها في كلام آخر ، فتثقل عليك وتستكرهها . مثال ذلك أن لفظة الأخدع ، قد جاءت في بيتين من الشعر ، وهي في أحدها لائقة حسنة ، وفي الآخر ثقيلة مستكرهة ، كقول الصِّمَّة بن عبد الله بن طفيل في الحماسة :

(١) انظر دلائل الإعجاز « ص ٣٢ » طبة أحمد مصطفى المراغي بالطبعة العربية بمصر ففيه ما يشبه هذا الكلام ، مع بعض اختلاف في الألفاظ . وانظر المثل السائر « ج ١ ص ١٤٥ » .
(٢) زيادة اقتضاها السياق .

تَلَفَّتْ نَحْوُ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي وَجِئْتُ مِنَ الْإِصْفَاءِ لَيْتًا وَأُخْدَعًا^(١)
وَكَقُولِ أَبِي تَمَامَ :

يَا دَهْرُ^(٢) قَوْمٍ مِنْ أُخْدَعِيكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ خُرْفِكَ
أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَجَدَ لِهَذِهِ اللَّفْظَةِ بَيْتَ أَبِي تَمَامٍ مِنَ الثَّقَلِ عَلَى النَّفْسِ وَالْكَرَاهَةِ أَضْعَافَ
مَا وَجَدَ لَهَا فِي بَيْتِ الْحَمَاسَةِ مِنَ الرُّوحِ وَالْخَفَةِ وَالْإِيْنَاسِ وَالْبَهْجَةِ ؟ وَهَذَا مِمَّا لَا يُمْكِنُ النَّزَاعُ فِيهِ
لِظَهْوَرِهِ ، وَسَيَأْتِي لَهُ بَابٌ مُفْرَدٌ فِي الْكَلَامِ عَلَى الصَّنَاعَةِ اللَّفْظِيَّةِ .
فَعَمَلِيكَ أَيُّهَا الْمُرْتَشِحُ لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَنْ تَرَاعِيَ فِي كَلَامِكَ هَذِهِ الدَّقَائِقَ الشَّرِيفَةَ ، وَالنَّكَتَ
اللطيفة ، فَانْصَنَاعَ التَّنَافُيفِ غَوْرًا لَا يَدْرِكُ مَنْتَهَاهُ ، وَمَذْهَبًا لَا يُوَصِّلُ إِلَى مَدَاهِ .

(١) مطلع القصيدة :

حَنَنْتُ إِلَى رِيَا وَنَفْسِكَ بَاعَدْتَ حِزَارَكَ مِنْ رِيَا وَشَعْبًا كَمَا مَعَا
وَانْظُرِ الْآيَاتِ وَالْحَدِيثِ عَنْهَا فِي ص ٣٨ مِنْ كِتَابِ « دَلَالَةُ الْإِعْجَازِ » طَبْعَةُ النَّارِ سَنَةِ ١٣٣١ هـ .
وَاللَّيْتُ : صَفْحَةُ الْعَنْقِ . وَالْأُخْدَعُ : عَرَقٌ فِي مَوْضِعِ التَّحْجَمَتَيْنِ ، وَهُوَ شَعْبَةٌ مِنَ الْوَرِيدِ وَهِيَ أُخْدَعَانُ
« الصَّحَاحِ » .

(٢) مِنْ قَصِيدَةِ يَمْدَحُ بِهَا مُحَمَّدُ بْنُ الْهَيْثَمِ ، وَيَهْنَثُهُ بِرِثْتِهِ مَطْلَعُهَا :
قَدْ مَاتَ مَحَلُّ الزَّمَانِ مِنْ فَرْقِكَ وَاصْتَنَى أَهْلُ الْأَعْدَامِ فِي وَرْقِكَ
وَالْمَرْقُ بِالضَّمِّ : الْعَنْفُ ، وَالْمَحْقُ وَالْمَجْهَلُ .

الباب الثاني

من الفن الثاني من القطب الأول

في الكلام على المعاني

اعلم أن المعاني على ضربين : أحدهما يبتدعه صاحب الصناعة ، من غير أن يكون له فيه إمام يقتدى به ، أو رسوم قائمة ، في أمثلة يعمل عليها . وهذا الضرب مما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ^(١) ، ويتنبه له عند الأمور الطارئة ؛ والآخر ما يحتذيه على مثال تقدم ، ورسم سبق . وينبغي للمؤلف أن يطلب الإصابة في كلا الأمرين ، ويتوخى فيها الصورة المقبولة ، والعبارة المستحسنة . ولا يتكفل فيما يبتكره من المعاني على فضيلة السبق ، ولا يغتر بمزية الإبداع ، فيتسامح في تهجين صورته . فانه إذا فعل ذلك ذهب حسنه ، وانطمس نوره . ويكون فيه الى الى الدم أقرب منه الى الحمد . وينبغي أن يستيقن المؤلف ويتحقق ، أن المعاني أشرف من الالفاظ ؛ والدليل على ذلك ما ذكره : وهو أنا لو خلعنا من هذه الالفاظ دلالتها على المعاني ، لما كان شيء منها أحق بالتقديم من شيء ، بل كانت بمنزلة أصداء الأجسام والأصوات الناشئة عنها ؛ ويزيد ما ذكرناه وضوحاً ، أن هذه الصناعة من النظم والنثر ، التي يتوآصفها البلغاء بينهم ، وتفاضل بها مراتب البلاغة ، إنما هي شيء يستعان عليه بتدقيق الفكرة ، وكثرة الروية والتدبر . ومن المعلوم أن الذي يستخرج بالفكرة ، وينعم فيه النظر ، إنما هو المعنى دون اللفظ ؛ لأن اللفظ يكون معروفاً عند أرباب صناعة التأليف دائراً فيما بينهم ، والمعنى قد يبتدع ، فيذكر

(١) في الأصل « المتجددة » ولا وجه للتحدي في الحوادث .

المؤلف معنى لم يسبق اليه ، وذلك إنما يكون تحادثاً^(١) عن الفكرة الصحيحة ، والطبع السليم ، فان الذي تخرج فيه صنعتك ، وتقع فيه صياغتك هو المعنى . ولهذا كان جماعة المؤلفين يشتركون في معرفة الجيد من الألفاظ ، وانما التفاوت يقع بينهم في المعاني . لأن الألفاظ الجيدة يستعملها جميعهم ، ولا يكاد أحدهم يفوت الآخر فيها . وأما المعاني فانه قد ينتكر المؤلف المعنى من نفسه ، وينتخله من ذاته ؛ وذلك كثير لا يحصى . فصح من هذا الوجه ، أن المعاني أشرف من الألفاظ وأنبل .

واعلم أن شرف المعنى وعلوه ، وسقوطه واستفاله ، من نتائج علو الهمة وسقوطها . وقد حكى أن أشرف كلام قائله العرب : « القتل أنفى للقتل » . ومن المعلوم أن هذا الكلام ليس فيه من الألفاظ البديعة الرائعة ما يرفعه الى منزلة يكون بها أشرف كلام قائله العرب ؛ حتى إنهم جعلوه في مقابلة قوله تعالى : « ولستم في القصاص حياة »^(٢) . لا بل في لفظه من القتل^(٣) ، بسبب تكراره مالاخفاء به . ومع هذا فانا نجد من كلامهم ما ألفاظه تطرب الأسماع ، وتأخذ بمجامع القلوب ، وذلك أكثر من أن يحصى ، وهو لا يكون بمنزلة قولهم : « أقتل أنفى للقتل » فصح حينئذ أن نخامة هذا الكلام ، وعلو منزلته ، إنما هي لأمر يرجع الى جلالة المعنى المندرج تحته ، وشرف قدره .

وقد رأيت جماعة من متخلفي هذه الصناعة ، يعملون همهم مقصورة على الألفاظ التي لاحاصل وراءها ، ولا كبير معنى تحتها . وإذا قال أحدهم سبعيتين أو ثلاثاً ، يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم ، فاذا أنكرت هذه الحال عليهم ، يقولون : لنسا أسوة بالعرب ، الذين هم أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة ، فإنهم اعتنوا بالألفاظ ، ولم يعتنوا بالمعاني اعتناءهم بها . ألا ترى إلى جهل هؤلاء القوم ، فإنهم لم يكفهم جهلهم فيما ارتكبوه من ذلك ، حتى إنهم ادعوا أن العرب مثلهم ، فصارت جهالتهم جهالتين .

(٢) لعل الأصل « حادثاً » فلا يستقيم المعنى بالتعاضد هنا .

(٢) أنظر سورة « البقرة » الآية « ١٧٩ » .

(٣) أنظر ص ٤١١ وما بعدها من « الإيضاح » للخطيب القزويني ، طبعة مطبعة الجامعة السورية سنة

١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م ، وقد أطلال المؤلف الحديث عن هذا القول وعن الآية الكريمة المشار إليها فيه .

ولنذكر ههنا ما إذا تأمله الناظر في كتابنا هذا عرف ما يوثقه ، ويذهب به (١) الاستحسان كل مذهب فنقول : إن العرب لما كانت تعني بالفاظها ، فتصلحها ، وتهذبها ، وتراعيها ، وتلاحظ أحكامها بالنظم تارة وبالنثر أخرى ، فإن المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها وأفخم قدرًا في نفوسها . فأول ذلك عنايتها بالفاظها لأنها (٢) كانت عنوان حاجتها ، وطريقًا إلى إظهار أغراضها أصلحها ورتبوها ، وبالغوا في تجبيرها وتحسينها ، ليكون ذلك أوقع لها في النفس ، وأذهب بها في الدلالة على القصد . ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعاً (لنّ لسامعه حفظه ، وإذا لم يكن مسجوعاً (٣) لم يأنس به أنسه (في) حالة السجع . فإذا رأيت العرب قد أصلحوا الفاظهم وحسنوها ، ورقّقوا حواشيها ، ونمّقوا أطرافها ، وصمّوا غروبها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني ، وتنويه بها . ونظير ذلك إصلاح الوعاء وإحكامه ، وإنما المبغى بذلك الاحتياط للوعى ، لئلا يتغير جوهره ، فإنا قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما نجد من طلاوته . وبلادة لفظه . بضع من رونقه لسوء (٤) العبارة عنه ، فإن قيل : إنا نرى من ألفاظهم ما قد تمقوه . وزخرفوه ودبجوه ، ولسنا نرى مع ذلك تحته معنى شريفاً ، فما جاء منه قول بعضهم (٥) :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

ألا ترى إلى حسن هذا اللفظ ، ومائه وصقاله ، وتدبيج أجزائه ؟! ومعناه مع ذلك ليس مدائياً له ولا مقارباً ، فانه إنما هو « لما (٦) فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين ، وتحدثنا على ظهور الإبل ... » ولهذا نظائر كثيرة ، شريفة الألفاظ مشروفة المعاني . وفيما أشرنا إليه كفاية

(١) زيادة من المثل السائر « ج ١ ص ٣٥٢ » . (٢) زيادة يحتاج إليها السياق .

(٣) في الأصل « له » والتصحيح من المثل السائر أيضاً .

(٤) لأصل « سوء العبارة » وقد زدنا اللام ليستقيم الكلام .

(٥) من أبيات لكثير غزة ، وقيل إنها لابن الطثرية ، أو لعقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى .

(٦) انظر : « دلائل الإعجاز » للجرجاني « ص ٤٩ » وانظر « ص ١٥ » من كتابه « أسرار

البلاغة » فله كلام في هذا الشعر .

للتأمل . الجواب عن ذلك أنا نقول : هذا الموضع قد سبق الى التثبت به من لم ينعم النظر، ولا رأى ما رآه الفوم، وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر، وعدم معرفته . وهو أن في قول هذا الشاعر « كل حاجة » مما يستفيد منه أهل النسيب، الأهواء والرقّة والمقة ما لا^(١) يستفيدة غيرهم ، ولا يشاركونهم فيه من ليس منهم . ألا ترى أن حوائج منى أشياء كثيرة ، فمنها التلاقي، ومنها التشاكي ، ومنها التخلي للاجتماع ، الى غير ذلك مما هو تالٍ له ، ومعقود الكون به . فكان الشاعر صانع^(٢) عن هذا الموضع الذي أوماً اليه وعقد غرضه عليه ، بقوله في آخر البيت « ومسح بالأركان من هو مسح » أي إنما كانت حوائجنا التي قضيناها وآرابنا التي بلغناها من هذا النحو الذي هو مسح الأركان ، وما هو لاحق به ، وجار في القربة من الله تعالى مجراه ، أي لم نتعد هذا القدر المذكور الى ما يحتمله أول البيت ، من التعريض الجاري مجرى التصريح . وأما البيت الثاني فإن فيه « أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا » وفي هذا ما نذكره لئلا نراه فتعجب ممن^(٣) عجب منه ، ووضع من معناه ، وذلك أنه لو قال : « أخذنا في أحاديثنا ونحن ذلك » لكان فيه معنى يكبره أهل النسيب ، وذلك أنهم قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الإلفين ، والجدل يجمع شمل المتواصلين . ألا ترى قول بعضهم :

وحدثني يا سعد عنها فزدني جنونا فزدني من حديثك يا سعد
وقول الآخر :

وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يجن قتل المسلم المتحرز

فاذا كان قدر الحديث عندهم على ما ترى فكيف به إذا قيده بقوله : « أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا » وذلك أن في قوله : « بأطراف الأحاديث بيننا » وحياً خفياً ورمزاً حلواً ؟ . ألا ترى أنه قد يريد بأطرافها ما^(٤) يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة التيمون ، من

(١) في الأصل « مما » والتصحيح من المثل السائر « ج ١ ص ٣٥٣ » .

(٢) في الأصل « ضائع » وهو تصحيف ، والتصحيح من المثل السائر « ج ١ ص ٣٥٤ » .

(٣) في الأصل « ومن » والواو زائدة ،

(٤) في الأصل « مما » والتصحيح من المثل السائر .

التعريض والتلويح والایحاء ، دون التصريح . وذلك أحلى وأدمث وأغزل ، وأنسب من أن يكون كشفاً ومصارحة وجهرًا . وإذا كان الأمر كذلك فعنى هذين البيتين أعلى عندهم وأشد تقدماً في^(١) نفوسهم من لفظها ، وإن عذب موقعه ولذ سمعه . نعم ، في قول هذا الشاعر « وسالت باعناق المطي الأباطح » من الرشاقة واللاطفة ما لا يخفاء به^(٢) . فالعرب إنما تحلي الفاظها وتدبجها ، وتوشى وترخفها ، عناية منها بالمعاني التي تحتها ، أو توصلها بها الى ادراك مطالبها . فالألفاظ إذاً خدم المعاني ، والمخدوم لا شك أشرف من الخادم ، فاعرف ذلك .

(١) في الأصل « من » والتصحيح من المثل السائر .
(٢) أنظر المثل السائر ج ١ ص ٣٥٥ « فقيه تفصيل لوجه الاستحسان .

الباب الثالث

من الفن الثاني من القطب الأول في تفضيل

الكلام المنشور على المنظوم

وأعلم أن الأقوال متعارضة في تفضيل كل واحد من هذين القسمين على الآخر ، إلا أن المذهب الفحل والقول القوي هو أن الكلام المنشور أفضل من الكلام المنظوم ، والدليل على ذلك من أربعة أوجه :

« الأول » أن القرآن الكريم ورد نثراً ، ولولا فضله وعلوّ درجته ، لما نزل كتاب الله - عز وجل - على أسلوبه ونهجه ، وأيضاً ، فإن القرآن معجزة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن المعلوم أن المعجزات لا تجيء إلا من طريق الأصعب^(١) ، بحيث إنه لا يمكن أحداً من خلق الله الوصول إليها ، والإتيان بمثله . ولما كان النثر من الأقوال الشاقة ، والأشياء المتصعبة ، أنزل الله تعالى القرآن ، الذي هو معجزة ، على قانونه .

ومما يدل على أن النثر أشق من النظم ، وأصعب مأخذاً ، هو^(٢) أن العرب كانوا أفصح الناس ، وأبلغهم وأكثرهم قدرة على التفنن في الكلام ، ومع هذا فلم نسمع لأحد منهم نثراً ، إلا لقس^(٣) بن ساعدة ، الذي يضرب بكلامه المثل في الفصاحة والبلاغة ، ولأقوام آخرين وهم قليل .

وأما النظم ، فإن جميع العرب كانوا يقولونه وكان عليهم من أسهل الأشياء حتى على نسائهم .

(١) استعمل « الأصعب » اسماً ، لا وصفاً .

(٢) الصواب حذف « هو » ، لأنه إضمار قبل الذكر غير جائز .

(٣) في الأصل « النثر » ولا نراه يستقيم .

وأيضاً ، فإن أرباب النظم لو أريد حصرهم ، بل حصر أهل عصر واحد لتعذر حصول ذلك ، فكيف حصر جميعهم ؟ وليس سبب هذا إلا وعورة مسلك النثر وشرف منزلته ، وأنه لا يناله إلا الأفراد من الفضلاء ، فإن قيل : إذا كانت العرب لا تكثر من النثر ، وأكثرت من النظم ، فليس ذلك دليلاً على أن النثر أصعبُ من النظم بل الأمر بالعكس من ذلك ، وهو : أن النثر لما كان سهلاً عند العرب هيناً ، والنظم شاقاً عليهم مستصعباً ، عمدوا الى الأصعب وتركوا الأسهل ؛ لأنهم إنما كان غرضهم إظهار قوتهم في البلاغة والفصاحة ، وإذا كان ذلك فيما هو أشق مسلكاً ^(١) وأوعر مذهباً ، كان أدل على تمكنهم من الكلام . وأما النثر ، فما كان عندهم بمنزلة ما ^(٢) يرغبون فيه ، ويتنافسون عليه ؛ لسهولة عندهم ! ولهذا لم يعتنوا به ويكثرؤا منه ، كما فعلوا في النظم ! وأما قولك : إن القرآن الكريم ورد نثراً ، وتفضيلك النثر على النظم ، لأن الله تعالى إنما أنزل القرآن ليكون آية لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومعجزةً على يده ، ليفحم به أولئك الفصحاء والبلغاء من العرب ، لأنهم كانوا أرباب الفصاحة والبلاغة ، وحيث كان النثر سهلاً عندهم يسيراً عليهم أنزل الله تعالى القرآن على أسلوبة ليعجزهم ، بما هو أسهل عليهم من غيره ، ليكون ذلك أعظم في الإعجاز . وأبلغ الجواب عن ذلك أنا نقول إن هذا الذي ذكرته من أن النثر ، كان أسهل على العرب من النظم ، واستدلالك عليه بقله رغبتهم فيه ، واعتنائهم به ، فليس ذلك دليلاً لك ، بل هو دليل لنا دونك . وذلك أنه قد ثبت بإجماع منا أن العرب لم تكثر من النثر ، وأكثرت من النظم ، ومن المعلوم أن الإنسان إذا كان أكثر من شيء أستدل بذلك على قدرته عليه ، و(عدم) قصوره ^(٣) عن الوصول اليه . ولا يقال بأن إكثاره من هذا الشيء دليل على تعذره عليه ، لأنه لو كان متعذراً عليه لما قدر على الاكثار منه ، ولذلك لا يقال أيضاً : إن تقليده من هذا الشيء دليل على سهولته عنده لما أقل منه ، وهذا مما لا يمكن النزاع فيه بحال من الأحوال .

وأما قولك : إن النثر لما كان عند العرب أسهل من النظم ، أنزل الله تعالى القرآن الكريم

(١) في الأصل « ملكا » ، وهو من خطأ الناسخ .

(٢) في الأصل « من » وهو من غلط النسخ . (٣) في الأصل قصورها .

على أسلوبه ، ليعجزهم بما هو أسهل عليهم من غيره ، فيكون ذلك أدل على الإعجاز من كونه يجيء على أسلوب الأثق الأصعب . فالجواب عن ذلك أنا نقول : قد ثبت أن المعجزات التي على أيدي الأنبياء - صلوات الله عليهم - لم تأت مما كان سهلاً على أممهم ، لأنهم إنما جاؤا بأحياء الأموات ، وانشقاق البحر وانفجار الماء من الحجر ، وما جرى هذا المجرى ، وهذا الحكم أيضاً موجود في النثر ، فانه لما كان شاقاً على العرب ، وليس فيهم من يقدر على الاتيان به الا القليل ، أنزل الله تعالى القرآن الكريم على نهجه وطريقه ، لتكون المعجزة مناسبة لما جاءت [فيه] . وذلك أن النثر من حيث ذاته أمر شاق مستصعب ، وانضاف الى ذلك كونه من عند الله تعالى فصار معجزاً بالضرورة ، فاعرف ذلك .

وأما الوجه الشافي فهو : أن النثر ينوب مناب النظم ، ولا ينوب النظم مناب النثر وذلك أنه اذا أخذ معنى من المعاني ، وعبر عنه بلفظ مطابق له ، وكان ذلك الكلام منشوراً ، فإنه لا يمكن التعبير بمقدار ذلك اللفظ ، ويكون الكلام شعراً ، وذلك أنه يحتاج في الشعر الى أقامة الوزن ، وهذا لا يتم إلا بزيادة لفظ ، أو نقصان لفظ ، وإذا زيد على ذلك شيء صار في الكلام ما لا حاجة فيه ، إذ المعنى كان يصح بدونه ، وإن نقص منه شيء صار المعنى ناقصاً عما كان عليه في الأول .

وأما الوجه الثالث : فهو أن النثر لا ينال الا بعد تحصيل آلاته المذكورة في صدر كتابنا هذا أو بعضها . وذلك بخلاف النظم ، فإنه قد يقوله من لم يحصل من آلاته شيئاً البته . وكثيراً ما رأينا ممن يقول الشعر الحسن ، ويصيب في معانيه ، ويجيد الفاظه ، وهو لا يعرف من آلات التأليف شيئاً ، كالمسوقة والعامية من أرباب الحرف والصنائع .

وأما الوجه الرابع : فهو أن النثر تعلو درجته حتى ينال الوزارة للخلفاء والملوك . وأما الشاعر فلا تعلو درجته عن رتبة المستعطين ، ومنزلة الطالبين لما في أيدي الناس . ولو لا فضل النثر وما عرف من شرف صنعته والحاجة اليها ، لما رقي الى درجة الوزارة . وكذلك الشاعر ؛ فلولا كساد صنعته والاستغناء عنها ، لعلت درجته وارتفعت منزلته ، ولما كان في طول عمره كلاً على الناس ، وهذا شيء مطّرد لم يزل . وقد شوهد رأي العين ، فلا يمكن النزاع فيه بحال من الأحوال .

القطب الثاني

في الرؤساء الخاصة وهو فنان :

القطب الأول في الفصاحة والبلاغة :

اعلم أن هذا باب غامض ، متعذر على الواج ، ومسلك وعمر ، مستصعب على الفاهج . ولم يزل الناس من قديم الوقت ، وهلم جرآ ، يتهافتون على الخوض فيه ، والفوص عليه ، وهم مع كثرة طلبهم لمعرفته ، وتوفر حرصهم على الاحاطة به ، لا يظفرون منه الا كنفبة ^(١) طائر أو قطرة من بحر زاخر . وقد قال بعض المصنفين من العلماء ^(٢) : « لم أزل منذ خدمت أهل ^(٣) العلم ، انظر فيما قلوه في معنى الفصاحة والبلاغة ، وأستكشف عن المعنى في ذلك ، فلا أجد الا كالرمز والاشارة ، ولا أقف فيه على قول شاف ، ولا كلام كاف . فلما رأيت الأمر كذلك ، علمت أنه لا يكفي في معرفة هذا العلم العظيم ، الذي كان به إعجاز القرآن الكريم ، قول مهمل ، ولا كلام مجمل . بل لا تتم معرفته حتى يفصل فيه القول ، ويدل على الخصائص التي تأتي في تأليف الكلام ، ويوضح إيضاحاً جلياً من غير مفادرة لشيء من ذلك ، حتى تكون المعرفة بهذا العلم كمعرفة الصانع الخاذق ، الذي يعلم كل هُدْبة منسوجة من الابرسم في الثوب الديباج ، وكل حجر من الأحجار الداخلة في البناء ، فانك إذا نظرت الى هذا العلم الشريف احتجت عند ذلك الى طول مكث وتدبر ، وكثرة تأمل وتفكر ، والى همة تأبى أن تقنع إلا بأعلى المنازل ، وأسمى المراتب . ومتى جشمت

(١) النغبة : الجرعة .

(٢) القائل هو الامام عبد القاهر الجرجاني ؛ صاحب كتابي : « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » وقد أورد المؤلف كلامه مع بعض تغيير فيه . انظر : « دلائل الإعجاز » ص ٢٨ وما بعدها من طبعة مطبعة المنار سنة ١٣٣١ هـ .

(٣) الذي في « دلائل الإعجاز » : « لم ازل منذ خدمت العلم ... » بغير لفظة اهل ، انظر ص ٢٨ وما بعدها من طبعة مطبعة المنار سنة ١٣٣١ هـ .

نفسك حصول هذا المرام البعيد ، وكلفتها صعود هذا المرمى النازح ، فقد أتمت أمراً عظيماً ،
وتعرضت لخطب^(١) جسيم « وفقنا الله وإياكم لمواقع الصواب .

ولنرجع إلى ما هو غرضنا ومهمنا من ذكر الفصاحة والبلاغة ، والكشف عن حقيقةها
واختصاصها ، فنقول : اعلم أن أصل الفصاحة في وضع اللغة : الظهور والبيان ؛ يقال : أفصح^(٢)
الصبح إذا بدا ضوءه وأسفر ، وأفصح فلان عما في نفسه : إذا أظهره ، وإنما سمي اللفظ فصيحاً
لأنه يبين المقصود ، ويوضح المعنى المندرج تحته .

والفصاحة : اسم عام يشمل المفرد من اللفظ والمركب ، وإنما كان الأمر كذلك لأن واضع
اللغة إنما وضع الالفاظ مفردة لا مركبة ، فالفصاحة شملت أولاً المفردة ، وإذا شملت المفردة فن
الضرورة شمولها للمركبة ؛ لأن المركبة مجتمعة من المفردة . وكل مركب كانت أجزاؤه ذات صفة
هي فيها متساوية فتلك الصفة تعمه لاحالة .

واعلم أيضاً أن الفصاحة أمر إضافي^(٣) كالحسن والقبح . والكلام الفصيح ليس كلاماً
مخصوصاً بعينه ، بل كل من فهم كلاماً وعرفه فهو فصيح بالنسبة إليه ، لأنه ظاهر عنده ،
وواضح لديه . ومما يقوي هذا القول ، أن اللفظ الذي لا نعه نحن في زماننا هذا فصيحاً ،
ونكره لعدم استعماله وغرابته ، كان عند من تقدمنا من أرباب التأليف مستعملاً في زمانهم
متمعارفاً مشتهراً . ولو لا ذلك لما أوردوه في كلامهم ، فإن معظم أشعار العرب ومن يليهم من
المحدثين مشحونة ومملوءة منه . ولو استعمل في زماننا هذا لاستنكر واستبشع ، وحكم على قائله
بالجهل والتعسف . ورأينا أبا محمد بن سنان الخفاجي قد قال في كتابه^(٤) : إن الفصاحة نعت
للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة ، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك
الألفاظ . ثم إنه قسم الشروط إلى قسمين ، أحدهما يوجد في اللفظة المفردة ، والآخر يوجد في
الألفاظ المركبة ، وجعل ما يختص باللفظة المفردة منقسماً إلى ثمانية أقسام ، كتباعد مخرج

(١) انظر : « دلائل الإعجاز » ص ٣٢ طبعة مطبعة المنار سنة ١٣٣١ هـ .

(٢) في لسان العرب « الفصاحة : البيان . فصح الرجل فصاحة فهو فصيح من قوم فصحاء وفصاح
وفصح ... تقول : رجل فصيح وكلام فصيح أي بليغ ولسان فصيح أي طلق » . فالفصاحة تختص بالفعل
الثلاثي ، وإيضاح ابن الأثير لها بالفعل الرباعي مخالف لأصول الإيضاح .

(٣) أي نسي . (٤) راجع كتاب : « سر الفصاحة » ص ٥٥ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر .

الحروف ، وأن لا تكون الكلمة وحشية ولا متوعدة ، وغير ذلك مما أورده وذكره في كتابه .
 وفي هذا نظر وقفنا عليه الفكر والروية ، وذلك أنه قد جعل صفات اللفظة التي تكون بها
 ذات مزية وحسن هي الفصاحة ، وخالف بذلك نص العرب ، لأنهم قالوا : إن اللفظ الفصيح
 هو الظاهر الواضح ، ولم يقولوا : إنه المتباعد مخارج الحروف ، ولا الذي ليس وحشياً ولا
 متوعراً ، ولا غير ذلك مما ذكره أبو محمد بن سنان . ولهذا تطرق إلى ^(١) كلامه الخلل ، وذلك
 أنه نقل الفصاحة عن حقيقتها التي وضعت لها في أصل اللغة ، بأن علقها على هذه الشروط التي
 ذكرها ، وجعل وجودها موقوفاً على وجود تلك الشروط ، و [إذا نقص] ^(٢) بعضها لا تكون
 فصيحة وحقيقتها أن تكون فصيحة ، وهذا من أعجب الأشياء فليتأمل .

وأيضاً فإن أبا محمد بن سنان قد ذكر في كتابه ، من جملة الأقسام الثمانية ، قسماً وهو أن
 لا تكون الكلمة قد عبر بها عن معنى يكره ذكره ^(٣) ، فإذا وردت وهي غير مقصود بها ذلك
 المعنى قبحت ، كقول عروة بن الورد :

[و] قلت لقوم في الكنيفِ تروّحوا عشيّةً بتنا عند ^(٤) ما وإن رُزح

قال « الكنيف » أصله السائر ، ومنه قيل للترس « كنيف » غير أنه قد استعمل في الآبار
 التي تستر الحدث وشهر بها فأنا أكرهه لذلك . هذا حكاية كلام أبي محمد بن سنان الخفاجي .
 ولنا عليه اعتراض ، وهو أننا نقول : إذا كان قد جعل الفصاحة مقصورة على الألفاظ فكيف
 عاد نقض ^(٥) ما ادعاه بهذا القول ، فانه إنما أنكر من هذه اللفظة التي هي الكنيف ما تضمنته
 من المعنى فقط . والا فإذا اعتبر لفظها ومخارج حروفها ، من غير نظر إلى المعنى المندرج تحتها ،
 لم يوجد لها قبس ولا كراهة ، لأن مخارج الحروف التي تألفت منها متباعدة ، فخرج الكاف

(١) الفصيح « على » لأنه ضرر ، حلت بسببه « على » محل « إلى » .

(٢) زيادة اقتضاها السياق :

(٣) في الأصل « ذلك » والتصحيح من سر الفصاحة « ص ٧٨ » وراجع كلام المؤلف فيما يقرب من
 هذا الباب من النوع السادس من القسم الأول من الباب الأول .

(٤) في معجم البلدان « دون » .

(٥) الفصيح « عاد فنقض » وحذف حرف العطف من بين الفعلين المتعاضدين من التعابير المولدة في عصر

دون مخرج القاف الذي هو من أقصى اللسان ، ومخرج النون من طرف اللسان بينه وبين ما فوق
 الثنايا السفلى ، ومخرج الياء من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك ، ومخرج الفاء من باطن
 الشفة السفلى ، وأطراف الثنايا العُلَى . ومع هذا فإذا نقلت هذه اللفظة التي قد استعجبت ها هنا ،
 الى موضع آخر صار ذلك القبح حسناً كقولك : « أنا في كنف فلان » أي في ذراه ، وتحت
 ظله . فصَحَّ حينئذٍ من خوى كلام أبي محمد بن سنان أنه نقض ما أدعاه أولاً ، من أن الفصاحة
 نعت للألفاظ ، بما ذكرناه من شروطها الثمانية ، التي من جملتها هذا القسم المأخوذ عليه ، وهو
 مما يختص بالمعنى دون اللفظ ، وتناقض كلام مثل ذلك الإمام المشهور في هذه الصناعة عجيب .
 عصمنا الله وإياكم من الزلل وهدانا إلى طريق الصواب .

وأما البلاغة ، فإن أصلها [في] ^(١) وضع اللغة : الوصول والانتهاء ، يقال : بلغت المكان
 إذا انتهيت إليه ^(٢) ، ومبلغ الشيء : منتهاه . وسمي الكلام بليغاً من ذلك ، أي إنه قد بلغ الأوصاف
 اللفظية والمعنوية . وذلك أن له أوصافاً ثلاثة يعرف بها ، فتى عري من واحد منها نقص عن
 درجة البلاغة ، فلا يسمى بليغاً ، وهي أن يكون معناه مقيداً ، ويكون لفظه فصيحاً ، ويكون
 غير زائد على المعنى المندرج تحته ، فيلزم على هذا أن يكون كل كلام بليغ فصيحاً وليس كل كلام
 فصيح بليغاً .

واعلم أن البلاغة تعم الكلام مركباً لا مفرداً ، وإنما كانت كذلك لأن المفرد لا يكون مقيداً ،
 وما ليس بمفيد فلا يسمى بليغاً .

وأيضاً فإن اللفظة المفردة برأسها ، إذا وردت في الكلام لا يراد بها إلا معنى واحد من
 غير زيادة . [و ^(١)] في الكلام ما يزيد معناه على لفظه ، وذلك إنما يكون مركباً لا مفرداً .

وأما اختصاص الفصاحة والبلاغة ^(٣) ، فإن أبا محمد ابن سنان الخفاجي ذكر ذلك في كتابه ^(٤)
 فقال : إن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع

(١) زيادة اقتضاها السياق .

(٢) مصدر « بلغت المكان » هو « البلوغ » لا « البلاغة » ولم يستعمل فصيح « البلاغة » بمعنى

« البلوغ » الحقيقي فتأمل ذلك .

(٤) راجع سر الفصاحة « ص ٥٥ » .

(٣) في الأصل « في البلاغة » .

المعاني . ثم أنه لم يورد على ذلك دليلاً بل أجل القول فيه كما قد ذكرناه ^(١) . فإن هذا حكاية لكلامه بعينه . فلما وقفنا نحن على ما أوما ^(٢) إليه ، سنع لنا في أثباته دليل ، وهو أنا نقول : قد ثبت لنا أن أصل الفصاحة في وضع اللغة : الظهور والبيان ، والفصيح : هو الظاهر ، وهو اسم فاعل ^(٣) من فصيح مطرّد في بابه ، يقال : « كرم فهو كريم » و « وظرف فهو ظريف » و « وشرّف فهو شريف » و « فصّح الكلام فهو فصيح » وكذلك ما جرى هذا الجرى . فوزن فاعيل : هو اسم فاعل ^(٣) من « فعّل » ، وهذه قاعدة مستمرة في ذلك .

وقد ثبت لنا أيضاً ، أن المعنى لا يكون مظهرًا لنفسه ، ولا موضحًا عن ذاته ، إذ المعاني جميعها قائمة بالنفس ، وإنما اللفظ يظهرها ويبينها فهو إذاً فاعل البيان والايضاح ، وهذه أيضاً قاعدة مسلمة ، لا خلاف فيها بحال من الاحوال . فلما كان اللفظ هو الفاعل للبيان والايضاح ، وكان الفصيح اسم فاعل من فصّح ، أي بان واتضح ، وجب حينئذ أن يكون اسماً للفظ ، ومختصاً به . فاعرف ذلك .

فان قيل : القياس يقتضي أن الدليل الذي أوردته في الفصاحة يلزمك في البلاغة مثله ، وهو أن وزن « بليغ » مثل وزن « فصيح » فكما أن فصيحاً اسم فاعل ، كذلك يكون « بليغاً » أيضاً اسم فاعل ، واذا كان اللفظ فاعلاً للفصاحة فاخترت به ، كذلك يكون اللفظ فاعلاً للبلاغة فيجب اختصاصها به .

الجواب عن ذلك أنا نقول : أما قولك : القياس يقتضي أن تكون البلاغة مختصة باللفظ ، كما أن الفصاحة مختصة به ، لتساوي البلاغة والفصاحة في الدليل الذي أوردناه من حيث إنَّ بليغاً وفصيحاً على وزن واحد فان هذا الذي ذكرته قياس وارد ، ولكن من وجه ، وذلك أنا نحن لم نستدل على أن الفصاحة تخص اللفظ بوزن « فاعيل » الذي هو اسم الفاعل فقط ، وإنما استدللنا على أن الفصاحة تخص اللفظ من حيث كان أصلها في وضع اللغة الظهور والبيان . وانضاف الى ذلك أنها على وزن « فاعيل » الذي هو اسم فاعل من « فعل » نحو « فصّح »

(١) راجع « سر الفصاحة » ص ٥٦ . (٢) في الأصل « أوى » وهو من خطأ الناسخ .

(٣) المعروف في اصطلاح الصرفين أن « الفصيح » صفة مشبهة باسم الفاعل .

فهو « فصيح » . فلما صح لنا هذان الأمران ، ثبت لنا من مجموعها ما ادَّعينا : من أن
الفصاحة تخص اللفظ كما أريناك .

وأما البلاغة فلو كان أصلها في وضع اللغة « الظهور والبيان » كما هو أصل الفصاحة ،
لصح لك ما ذكرته من الاعتراض . وإنما أصلها في وضع اللغة « من الوصول والانتهاء » لا غير ،
وعلى أصلك أيها المعارض فينبغي أن يكون كل ما هو على وزن « فاعِل » مختصاً باللفظ نحو « شرف
فهو شريف » و « ظرف فهو ظريف » و « كرم فهو كريم » وأمثال ذلك مما جرى هذا المجرى
فالشرف إذاً مختص باللفظ ، وكذا الظرف والكرم ، وهذا من أعجب الأشياء ، فليتأمل .

وأيضاً ، فقد بينا أن للبلاغة أوصافاً ثلاثة ، لا يسمى الكلام بليغاً إلا بمجموعها . ومتى
عري من واحد منها فليس ببلغي . فالأول منها يتعلق بالمعنى ، وهو الافادة . والثاني يتعلق
باللفظ والمعنى كليهما ، وهو أن يكون اللفظ غير زائد على المعنى . والثالث يتعلق باللفظ وهو
الفصاحة ، لأن الكلام لا يطلق عليه اسم البلاغة حتى يكون فصيحاً . فالفصاحة إذاً شرط في
البلاغة لا تتم إلا به . فلما كانت الحال كذلك وجب أن تعم البلاغة اللفظ^(١) والمعنى معاً .
وأما الفصاحة فليست كذلك ؛ لأنها محض إبانة ووضوح فقط ، وذلك يتعلق باللفظ بموجب
الدليل الذي قدمنا ذكره . فتدبر ما أشرنا إليه ، وتصفح مطاوبه^(٢) ، وفي ذلك كفاية .

(١) في الأصل « باللفظ » ولعل الباء من زيادة الناسخ .

(٢) في الأصل « في ذلك » بلا واو ، وهو غير مطرد .

الفن الثاني من القطب الثاني

في ذكر أصناف علم البيان وانقساماتها وهو بيان :

الباب الأول في الصناعة المعنوية

وينقسم الى تسعة وعشرين نوعاً ، وإنما قدمنا ذكر المعاني على الألفاظ ؛ لأن المعاني هي التي تقرر أولاً في النفس وترتب في القلوب ، ثم يطلب لها بعد ذلك ألفاظ تعرب عنها ، وتدل عليها . ولأن المعاني أشرف من الألفاظ وأعلى محلاً . فاعرف ذلك .

النوع الأول في الاستعارة

وهو أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتدع الافصاح بالتشبيه واطهاره ، وتجيء على اسم المشبه به وتجريه عليه كقولك : « رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء » ، فتدع ذلك وتقول : « رأيت أسداً » وهذا يكون على ضربين : أحدهما : أن تجعل المشبه هو المشبه به ، بأن تنزله وتسقط ذكر المشبه من البين كقولك : « رأيت أسداً » والثاني بأن تجعل المشبه به خبراً عن المشبه في باب الاستعارة ، وأورده جماعة العلماء مثل : قدامة^(١) ، والجاحظ ، وأبي هلال العسكري^(٢) ، والغانمي^(٣) ، وأبي محمد بن سنان^(٤) الخفاجي في تصانيفهم في باب

(١) راجع حاشية ص ٢ من هذا الكتاب .

(٢) هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهيل العسكري . كان لغوياً أديباً مشاركاً في العلوم الأخرى ، قضى أكثر أيامه ببغداد . وكانت ولادته سنة ٢٩٣ هـ . بمسكر مكرم بالأهواز ، وتون ببغداد سنة ٣٨٢ هـ وله من الكتب « كتاب الصناعتين » و « جهرة الأمثال » و « ديوان المعاني » و « معجم في اللغة » و « أسماء بقايا الأشياء » و « الأوائل » و « التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم » وقد طبع أكثرها . انظر معجم الأدباء وبغية الرعاة « ص ٢٢١ » و « فهرست دار الكتب المصرية » ج ١ ص ٢٨٥ .

(٣) راجع حاشية ص : ٢ من هذا الكتاب . (٤) انظر حاشية ص : ٣ من هذا الكتاب .

الاستعارة . ولم يذكرُوا أن الأصل فيه تشبيه بليغ ؛ فما أعلم هل ذلك لخفائه عليهم ، أو أنهم عرفوه ولم يذكروه ، وهو الأصل المقيس عليه في التشبيه ، الذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان . وقد أوردناه نحن في كتابنا هذا في باب الاستعارة تشبيهاً بالقوم ، واستثنائاً بسنتهم ؛ لأنهم السابقون في هذا الفن بالتصنيف ، إلا أن موضعه باب التشبيه . فاعرف ذلك .

واعلم ^(١) أنه قد أجمع الجمهور من العلماء على أن الاستعارة مزية وفضلاً على حقيقتها ؛ والسبب في ذلك أنك إذا قلت : « رأيت أسداً » كان لكلامك مزية ، لا تكون إذا قلت : « رأيت رجلاً هو كالأسد سواء ، في الشجاعة ، وقوة القلب ، وشدة البطش » . وليست المزية التي تثبت لها الجنس على الكلام المتروك على ظاهره ، ولكنها في طريق إثباتك ، لها وتقريرك إيها ، معلومة من قرائن الأحوال ، فليست المزية في قولك : « رأيت أسداً » أنه دلّ على شجاعة زائدة ، وشدة وافرة ، بل أنك أثبتت للمستعار له الشجاعة الزائدة والشدة الوافرة ، من وجه هي أبلغ وآكد ، وأوجبها له إيجاباً هو أشد وأقوى ، لأنك أثبتتها بالدلائل والشواهد . فإذا سمعهم يقولون : إن من شأن هذه الأجناس أن تكسب المعاني نبلاً ، فإنهم لا يريدون الشجاعة والشدة وغير ذلك ، وإنما يريدون إثبات معاني هذه الكام لمن تثبت له ، ويخبر بها عنه من طريق هو أشد وآكد . وسيأتي بيان ذلك في باب التشبيه مستوفى ، إن شاء الله .

وأعلم أن الاستعارة جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما ، يكسب (بيان) ^(٢) أحدهما بالآخر ، ولا بد للاستعارة من ثلاثة أشياء : مستعار ، ومستعار منه ، ومستعار له ، فاللفظ المستعار ، قد نقل من أصل إلى فرع للإبانة . والمستعار منه والمستعار له ، لفظان حمل أحدهما على الآخر في معنى من المعاني ؛ هو حقيقي للحمول عليه ، مجازي للحمول . مثال ذلك قوله تعالى : « وأشتعل الرأس شيباً » فهذا مستعار ، ومستعار منه ، ومستعار له ؛ فالمستعار هو الاشتعال ،

(١) انظر « ص ٤٨ » وما بعدها من « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر الجرجاني ، طبعة المراغي .

(٢) الزيادة والإصلاح من الورقة « ٥١ » من الكتاب فقد كرر المؤلف هذا التعريف فيها .

وقد نقل من الأصل الذي هو النار إلى الفرع الذي هو الشيب ، قصداً للإيابة ، وأما المستعار منه فهو النار والاشتغال لها حقيقة . وأما المستعار له فهو الشيب ، والاشتغال له مجاز .

وأعلم أن أبلغ الاستعارات ما ناب التشبيه منها ، وكلما زدت التشبيه فيها إخفاءً ازدادت الاستعارة حسناً وروناً ؛ حتى إنك تراها أعجب ما يكون ، إذا كان الكلام ألف تأليفاً إن أردت أن تفصح فيه بالتشبيه خرجت إلى شيء يحيط من درجته ، ويضع من قدره ؛ ويدلنا على ذلك قول بعضهم :

أثمرت أغصان راحته لجفافة الحسن عُناباً

ألا ترى أنك لو كلفت نفسك أن تظهر التشبيه ، وتفصح به أحتجت إلى أن تقول : أثمرت أصابع يده أتي هي كالأغصان ، لطاب الحسن ، شبه العناب من أطرافها المخضولة ؟! ومن له أدنى تشبث^(١) بهذه الصناعة ، يعلم الفضيحة بين ما تضمنه هذا البيت من الاستعارة ، وبين إظهاره إلى التشبيه . فأعرف ذلك وقس عليه .

وحيث أنتهى بنا القول إلى هذا المقام ، ونهنا على هذه الأصول ، فلنتبعها بما ينخرط في سلكها من الكلام على الجيد من الاستعارة ؛ الذي^(٢) يجب على المؤلف أستماله ، والردىء الذي ينبغي له أجنبه والبعد عنه ، فنقول : الاستعارة تنقسم قسمين :

الأول ، يجب أستماله : وهو ما كان بينه وبين ما أستمير له تشابه وتناسب ، ولنضرب له أمثلة يستدل بها عليه : فن ذلك قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار »^(٣) . وهذا الوصف إنما هو على ما يظهر للعين لاعلى حقيقة المعنى ؛ لأن الليل والنهار أسمان يقعان على هذا الجو عند إظلامه وإضاءته بغروب الشمس وطلوعها ، وليس على الحقيقة شيئين يسليخ أحدهما من الآخر ، إلا أنها في رأي العين كأنها كذلك . والسليخ يكون في الشيء الملتحم بعضه ببعض ، فلما كانت هوائي الصبح عند طلوعه ، كالملتزمة بأعجاز الليل ، أجري عليها اسم السليخ ، وكان

(١) في الأصل « تشبيه » ولا محل له هنا .

(٢) في الأصل « التي » وهو غير مستقيم .

(٣) سورة « يس » الآية « ٣٧ » .

ذلك لائتمًا في بابه ، وهو أولى من قوله « يخرج » لأن السليخ أدل على الالتحام المتوهم من
الخراج ، وذلك ان انسلاخ الشيء عن الشيء ، هو أن يميز أحدهما من الآخر ، ويزول عنه
بالتدرج ، حالاً فحالاً ، كما ينسلخ جلد الشاة عنها . وكذلك انفصال الليل عن النهار . فأنظر
أيها المتأمل لهذه الاستعارة ، شدة التناسب الذي بينها وبين ما استعيرت له ، ومشابتها إياه ؛
فإنها من الاستعارات التي لا أمد فوقها في الحسن .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى ، عز وجل : « واشتمل الرأس شيباً » وقد ذكر علماء البيان في
هذا ، ما نورهه هنا . وهو : أن الشيب لما كان يأخذ في الرأس ، ويسمى فيه شيباً فشيئاً ، حتى
يحيله الى غير لونه الأول ، كان بمنزلة النار التي تُشعل في الجسم وتسري فيه ، حتى تحيله الى غير
حاله المتقدمة . وهذا كلام مرضي في بابه ، الا أن ههنا نكتة أخرى ، وذلك أنه شبه انتشار الشيب
بأشغال النار في سرعة التهابه ، وتعذر تلافيه ، وفي عظم الألم في القلب به ، ولأنه لم يبق الا
الخنود بعده . فهذه الاستعارة البديعة هي التي تعجز القدرة عن الاتيان بمثلها ، ومما دون ذلك في
الطبقة ، قول أبي تمام :

ومعرّس للغيث يخفق بينه رايات كل دُجْنَةٍ وطفاء (١)

فإن استعارة هذا البيت صالحة مرضية ، لملاءمتها ما استعيرت له ، فحيث جعل للسحابة
رايات كان ذلك مناسباً ، لأن الهيدب (٢) الذي يستبين للناظر في الجو عند انسكاب السحابة ،
يكون مشابهاً لذوائب الرايات . وأما قوله « يخفق » فهو أيضاً حسن مرضي ؛ لأن الريح اذا
هبت على الرايات خفت بنودها ، وجاء لها صوت كصوت السحابة في انسكابها (٣) وهو لها
وانصبابها ، ولا سيما الوطفاء .

(١) أنظر ديوان أبي تمام « ص ٣ » . والمعرس اسم مكان من التعريس والتعريس : النزول في آخر الليل
وقيل أصله من « عرس بالشيء : إذا لزمه » . (أنظر ص ٢١ من شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي
بتحقيق محمد عبده عزام . طبعة محمد علي صبيح وفي الديوان « فوقه » بدلا من « بينه » . والدجنة : الغيم
الطبق الريان المظلم . والوظفاء : المسترخية الجوانب لكثرة ماثها « القاموس » .

(٢) الهيدب من السحاب : المتدلي الذي يدنو من الأرض ، وتراه كأنه خيوط عند انصباب المطر « القاموس »

(٣) في الأصل « هو لها » بلا واو .

ومن هذا النوع أيضاً قوله في الخمر : -

صُعِبَتْ فِرَاضَ الْمَاءِ سَيِّئِ خَلْقِهَا فَنَعَمَتْ مِنْ حُسْنِ خَلْقِ الْمَاءِ

ألا ترى الى حسن هذه الاستعارة ، فانه ليس بشيء أحسن من قوله في الخمر بأنها سيئة الخلق ، وذلك حيث تكون صرفاً لا يستطيع شربها ، ولا يمكن اساعتها ، كالخلق السيئ الذي تعافه الأنفس ، وتستكرهه الأرواح . وقوله « حسن خلق الماء » أيضاً غاية في الجودة ؛ لأن الماء الصافي في سلاسته ، ولطافة جوهره ، شبيه بالخلق السهل الطيب . وأبدأ بوصف الأخلق الحسنة بالماء ؛ فيقال ، « فلان لطف أخلاقاً من الماء » لأنه ليس في الأجسام المدركة بالبصر أطف ولا أرق من الماء ؛ لأن النفس تجد لمشاهدته من اللذة ، والسرور ، والانبساط ، مالاخفاء به . ولهذا قال بعض الحكماء : « الماء من طبع الروح » . ومما يؤيد قوله هذا ، ما ورد في القرآن الكريم ؛ فانه قد ذكر الماء في مواضع كثيرة منه ، ثم يذكر إحياء الأرض الميتة به ، كقوله تعالى : « والله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه الى بلدٍ ميتٍ فأحييناه بها الأرض بعد موتها كذلك النشور ^(١) » . فجعل الماء للأرض بمنزلة الروح للجسد .

ومن بديع الاستعارة قول بعضهم :

يا طودَ حلمَ ظَلْتُ مُعْتَصِماً بِهِ يا بحرَ علمَ عَمْتُ فِي تَيَّارِهِ

فان المناسبة بينهما وبين ما استعيرت له شديدة جداً ، وذلك أن الحلم أصله في وضع اللغة : الثأني والثبات ، وترك الاعمال بالعقوبة ، فلما كان الطود ثابت الأصل راسخ القواعد ، لا يتحرك عن مكانه ، ولا يزول من مستقره حسنت استعارته للحلم ، للمشابهة التي بينهما . وههنا نكتة أخرى ، وهو أن قوله : « طود حلم » أبلغ في الاستعارة من أن لو قال « جبل حلم » لأن الطود هو الجبل العظيم ، وذلك أرسخ وأرسي أصلاً من غيره . وأما استعارته للعلم ^(٢) بحرّاً فحسن لا خفاء به على من له معرفة بهذا الفن .

(١) سورة « فاطر » الآية « ٩ » .

(٢) في الأصل « للجود » ولا ذكر للجود في البيت المشار اليه ، ولعلها من سبق قلم النساخ .

ومن هذا النحو قول امرئ القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وقد قال أبو القاسم ^(١) بن بشر الآمدي ، أن امرأ القيس وصف احوال الليل الطويل ، فذكر امتداد وسطه ، وتناقل صدره ، وترادف أعجازه وآخره ، فلما جعل له وسطاً ممتداً ، وصدرأً ثقيلاً ، وأعجازاً رادفة لوسطه ، استعار له اسم الصُلب ، وجعله متمطياً من أجل امتداده . واسم الكلكل ، وجعله نائياً لتناقله . واسم العجز ، من أجل نهوضه ، فقال أبو محمد بن ^(٢) سنان : « إن هذا الذي ذكره أبو القاسم الآمدي ، ليس بمضي غاية الرضى ، وإن بيت امرئ القيس ليس من الاستعارة المبيرة ولا الردية ، بل هو وسط . فان أبا القاسم قد أفصح ان امرأ القيس لما جعل الليل رسطاً ممتداً ، استعار له اسم الصلب ، وجعله متمطياً من أجل امتداده ، وحيث جعل له أخيراً وأولاً ، استعار له عجزاً وكلكلًا . وهذا كله إنما يحسن بعضه مع بعض ، فذكر الصلب إنما يحسن لاجل العجز . والوسط والتمطي لأجل الصلب . والكلكل لمجموع ذلك . وهذه استعارة مبنية على استعارة أخرى » ، هذا حكاية كلام أبي محمد بن سنان ، وهو مما أخطأ فيه من وجهين : الأول أنه قال : هذا البيت من الاستعارة الوسط ، التي ليست بردية ولا جيدة » ثم جعلها استعارة مبنية على استعارة أخرى . وعنده أن الاستعارة المبنية على الاستعارة من أقبح الاستعارات وأبعدها ، فانه قسم الاستعارة الى قسمين : قريب مختار ، وبعيد مطّرح . فالقريب المختار : ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي وشبه ظاهر واضح .

(١) هو الحسن بن بشر الآمدي . قال ياقوت الحموي : « ولد بالبصرة وكان حسن الفهم جيد الدراسة ، والرواية ، سريع الادراك » وذكر له تصانيف كثيرة منها كتاب « الموازنة بين البحري وأبي تمام » والمؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء » و « وقد عيّر الشعر » لابن طباطبا و « نثر المنظوم » و « غلط قدامة بن جعفر في نقد الشعر » . و « معاني شعر البحري » و « الخاص والمشارك من معاني الشعر » وكان ينظم الشعر ، وتوفي سنة « ٣٧١ » « معجم الأدباء ج ٨ ص ٧٥ وما بعدها » و « بنية الوعاة » « ص ٢١٨ » .

(٢) راجع كتاب : « سر الفصاحة » ص ١١٤ .

والبعيد الطّرح إما أن يكون لبعده مما استعير له في الأصل ، أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة أخرى فيضعفه لذلك .

هذا ما ذكره ابن سنان في تقسيم الاستعارة . وإذا كانت الاستعارة المبنية على استعارة أخرى عنده بعيدة ضعيفة ، فكيف جعلها وسطاً؟! هذا تناقض في القول ، فاعرفه .

الوجه الثاني : أنه ^(١) لم يأخذ على أبي القاسم الأمدي في موضع الأخذ ، لأنه لم يختار إلا ما حسن اختياره ، وكان بديعاً في بابه . فان الاستعارة قد ثبتت ^(٢) أنها جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما ، يكسب بيان أحدهما بالآخر . وهذا الحكم موجود في بيت امرئ القيس ، فانه لو لم يكن الليل صدر ، أعني أولاً ، ولم يكن له وسط وآخر لما حسنت هذه الاستعارة . ولما كان كذلك استعار لوسطه صلباً ، وجعله متمطياً . وجعل لصدره المتثاقل ، أعني أوله ، كالكلأ وجعله نائياً ، واستعار لآخره مجزأً ، وجعله رادفاً لوسطه . وذلك من الاستعارات المناسبة ، التي لا أمد فوقها فاعرفها .

وحيث ذكرنا للاستعارة المناسبة أمثلة يحتملها الترشح لهذه الصنعة ، ويستعملها في كلامه ، فيجب حينئذ أن نذكر القسم الآخر ، وهو غير المناسب ، ونضرب له أمثلة يعرف بها أيضاً ، فمن ذلك قول أبي تمام :

يَوْمُ فَتَحَ سَقَى أَسْوَدَ الضَّوَاحِي كُثِبَ المَوْتُ رَائِباً وَحَلِيّاً ^(٣)

فانه لا شيء أقبح من هذه الاستعارة ، ولا أشد تباعداً بينها وبين ما استعيرت له ، فاكفاه أن جعل الموت كُثْباً ، أي ألباناً ، واحدها « كُثْبَةٌ » حتى جعل بعضها رائباً ، وبعضها حلياً . ثم إن الموت من شأنه أن يستعار له ما يكره لا ما يستطاب .

(١) في الأصل « أن » . (٢) لعل الأصل « ثبت » .

(٣) انظر ديوان أبي تمام « ص ٢٥ » طبعة محمد علي صبيح والبيت من قصيدة مظهرها :

من سجايا الطلول أن لا تجيباً فصول من مقلة أن تصوبا

والكثب جمع كُثْبَةٌ : وهي ملء الفدح من اللبن أو القليل المجتمع منه (راجع شرحه للتبريزي ص ١٧٩) .

ومن قبس الاستعارة أيضاً قوله :

وتقاسم الناس السخاء مجزاً وذهبت أنت برأسه وسنامه ^(١)
وتركت للناس الإهاب وما بقي ^(٢) من فرثه وعُروقه وعظامه ^(٣)

فاستعار للسخاء ، رأساً وسناماً وإهاباً وعظاماً وعروفاً . وما قنع بذلك ، حتى استعار له
فرثاً ، فصار السخاء جمللاً على الحقيقة . وأمثال ذلك كثيرة .

ولا يخلو الناظم أو النائر من سقطات تؤخذ عليه ، إلا أنه ينبغي أن تكون مغفورة في جنب
ماله من الجيد الحسن ، لأن ذلك لا يحيط من قدره في صناعته إذ العالم من تُعَدَّ سقطاته ، لا من
يُعدَّ جيده .

ومن الاستعارة البعيدة قول بعضهم :

الى ملك في أيسكة المجد لم يزل على كبد المعروف من نَيْلِه بَرْدُ

فان استعارته للمجد أيسكة ، أقرب مأخذاً من استعارته للعروف كبداً ، وإن كانت
الاستعارتان من البعد على ما ذكره لك ، وهو أني أقول : قد ثبت ان الاستعارة هي الجمع بين
شيئين بمعنى مشترك بينهما يُكسب بيان أحدهما بالآخر ، وهذه قاعدة مسلمة ، لانزاع فيها
بحال من الأحوال . واذا كان الأمر كذلك ، فالجامع بين المجد والأيسكة وجه بعيد . وذلك
أن المجد في وضع اللغة : هو المحمد الكريم ، أي الأصل الكريم . والأيسكة في وضع اللغة :
واحدة الأيك ، وهو شجر ملتف ، فلما كان المجد هو المحمد الكريم ، أي الأصل ، كان للأيسكة
أصل أجيز استعارته للمجد أيسكة من هذا الوجه ، وفيه بعد ، وسبب بعده ؛ أنه يسوغ لقائل
أن يقول : إن كل ما كان له أصل على هذا القياس يجوز أن يستعار للمجد ؛ كقولنا : « جبل
المجد » و « حائط المجد » وغير ذلك مما له أصل ، وهذا بعيد جداً .

(١) أنظر ديوان أبي تمام « ص ٢٢٥ » وهما من قصيدة يدح بها أبا سعيد الثغري .

(٢) والاهاب بكسر الهمزة : الجلد والفرث : ما في الكرش من السرجين . وانظر المثل السائر

« ج ١ ص ٤١٧ » .

وأما الاستعارة الثانية ، وهو قول الشاعر : « كبد المعروف » فإن به ما استعيرت له ، وقبحها مما لا يحتاج فيه الى الشرح لوضوحه وبيانه . وأمثال ذلك كثيرة لا تحصى . فعلى المؤلف اجتنابها ، والعدول عنها .

النوع الثاني من الفن الثاني

التشبيه

وحده أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به . ويقال : هو الدلالة على اشتراك شيئين في معنى من المعاني ، وأن أحدهما يسد مسد الآخر وينوب منابه ، سواء كان ذلك حقيقة أو مجازاً . فأما الحقيقة ، فهو أن يقال في شيئين أحدهما شبيه ^(١) بالآخر في جميع أوصافه ، كالسوادين والبياضين أو ما جرى مجراها ، وليس هذا من غرضنا . وأما المجاز ، فهو أن يقال في شيئين أحدهما شبيه بالآخر في بعض أوصافه كقولنا : « زيد أسد » فهذا القول صواب من حيث [كلام] ^(٢) العرب ، وداخل في باب المبالغة ، الا أنه لم يكن زيد أسداً على الحقيقة .

وأعلم أن فائدة التشبيه هي الكشف عن المعنى المقصود ، مع ما يكتسبه من فضيلة الإيجاز والاختصار . والدليل على ذلك ما ذكرناه من قولنا : « زيد أسد » . فإن الغرض من هذا القول أن نبين حال زيد ، وأنه متصف بشهامة النفس ، وقوة البطش ، والشجاعة ، وغير ذلك مما جرى هذا المجرى . الا أننا لم نجد شيئاً ندل به عليه ، سوى أن جعلناه مشبهاً بالأسد ، حيث كانت هذه الصفات مختصة به ، ومقصورة عليه . فصار ما قصدناه من هذا القول ، اكشف وأبين من أن لو قلنا : « زيد شهيم ، شجاع قوي البطش ، جريء الجنان » وأشبه ذلك ، لما قد عرف وعهد من اجتماع هذه الصفات في المشبه به ، أعني الأسد ، فانه معروف بها ، مشهور بكونها فيه ، واشتمالها عليه . وأما المشبه ، أعني « زيدا » فليس معروفاً بها ، ولا منسوباً إليها ، وإن كانت موجودة فيه .

(١) في الأصل « شبه » وهو من غلط الناسخ . (٢) زيادة اقتضاها السياق .

وأما الإيجاز فهو أن قولنا ، « زيد أسد » يسد مسد قولنا « زيد من حاله كيت وكيت » وهو من الشدة والشجاعة على كذا وكذا » مما يطول ذكره ، ويتسع القول فيه . فأعرف ذلك . وأعلم أن تشبيه الشيء (بالشيء)^(١) لا يخلو من أحد قسمين : إما أن يكون الشئان ، المشبه أحدهما بالآخر ، متفقين من جميع الجهات ، وإما أن يكونا متفقين من وجه دون وجه . فإن كانا متفقين من جميع الجهات كالسوادين والبياضين فليس هذا من غرضنا إذ لا كبير فائدة فيه . وإن كان اتفاقهما من وجه دون وجه ، فهما إذاً مختلفان . فبقي كلامنا الآن على تشبيه شيئين مختلفين أحدهما بالآخر ، كقولنا : « زيد أسد » فإن غرضنا من هذا ، أن نشبه شهامة زيد وشجاعته وجراته ، لا أن زيداً أسد من جميع الجهات . فإنا لو أردنا ذلك لكان هو هو ، وهذا محال ، لأن زيداً ليس أسداً ، وإنما هو إنسان . فأعرف ذلك .

واعلم أن التشبيه يكون بأداته ، كالكاف وكأن وما جرى هذا الجرى . ويكون بغير أداته ، وهو أن يجعل الكلام خلواً^(٢) منها صالحاً لتقديرها فيه . وإذا جاء التشبيه بغير أداته كان أبلغ وأوجز . والدليل على ذلك ، قولنا : « زيد أسد » يعطي ظاهره من المعنى أننا أخبرنا عن زيد أنه أسد ، وذكرنا أنه هو . إلا أن حرف التشبيه في ذلك مقدر . وإذا قلنا « زيد كأنه الأسد » فذلك قد أظهرنا فيه حرف التشبيه ، الذي كان مخفياً^(٣) في الأول ، فيصير حينئذ تشبيهاً لزيد بالأسد . وفي الأول أنه كان قد جعل هو الأسد ، وحرف التشبيه مقدر فيه تقديرًا . فن هذا الوجه كان الأول أبلغ ، وأشد موقفاً في النفس . وأما كونه أوجز ، فلأن قولنا : « زيد أسد » أخص من قولنا : « زيد كأنه الأسد » وإن كان المعنيان سواء . فأعرف ذلك .

واعلم أنه لا يخلو الشئان في تشبيه أحدهما بالآخرين من ثلاثة أقسام : إما تشبيه معنى بمعنى ، كالذي ذكرناه من قولنا : « زيد أسد » . وإما تشبيه معنى بصورة ، كقوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ... » . الآية^(٤) . فشبه ما لا يدرك بالحاسة (بما يُدرك بها)^(١)

(١) زيادة يقتضيها المقام . (٢) في الأصل « منه » .

(٣) في الأصل « مخفياً » وهو من خطأ النساخ . (٤) سورة « النور » الآية « ٣٩ » .

وأما تشبيه صورة بصورة ، كقوله تعالى : « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام »^(١) .
 فشبه صورة أجسام الفلك في كبرها وعظمتها بالجبال ، وذلك تشبيه صورة مرئية بصورة مرئية .
 وكل واحد من هذه الأقسام الثلاثة ، لا يخلو من ثلاثة أقسام أيضاً وهي :
 تشبيه مفرد بمفرد ، وتشبيه مركب بمركب ، وتشبيه مفرد بمركب :
 فالقسم الأول : تشبيه المفرد بالمفرد ، وذلك كقول البحري :
 تبسمٌ وقطوبٌ في ندىٍّ ووغىٍّ^(٢) كالنمى والبرق تحت العارض البرد
 فهذا من أحسن التشبيه وأقربه . وهو تشبيه صورة بصورة ، إلا أن في هذا البيت اختلافاً
 في الصيغة من حيث الترتيب والتفسير ، فإن الأولى أن يقدم تفسير التبسم على تفسير القطوب ،
 وسيأتي بيان ذلك في بابه .

ومن هذا القسم أيضاً ، قول بعضهم في صفة السيوف والدروع :
 وكأنما فوق الأكف بوارق وكأنما فوق المتون إضاءه^(٣)
 وهذا من بدیع التشبيه ونادره ، فأعرفه . وكذلك قول بكر^(٤) بن النطاح :
 بيضاء تسحب من قيام فرعها وتغيب فيه وهو جشل أسحمُ
 فكانها فيه نهار ساطعٌ وكأنه ليل عليها مظلم
 وأمثال هذا كثيرة .

القسم الثاني في تشبيه المركب بالمركب وذلك كقوله تعالى :

- (١) سورة « الرحمن » الآية « ٢٤ » .
- (٢) هذا البيت من قصيدة يمدح بها أبا نهشل حميداً ، مطلعها :
 إني تركت الصبا عمداً ولم أكد من غير شيب ولا عدل ولا فسد
 (راجع الديوان ج ١ ص ١٥٢ طبعة مطبعة هندية بمصر) .
- (٣) إضاءه : جمع أضاء وهي الغدير قال الجوهري في الصحاح الأضاء : الغدير والجمع أضاً مثل قناة وقفاً ،
 وإضاء أيضاً بالكسر والمد كما قالوا : أكمة وأكم ولم كام .
- (٤) بكر بن النطاح أبو وائل الحنفي من بني حنيفة ، كان من خول شعراء العصر الأول من عصور
 بني العباس ، برز في الغزل والمدح والحماسة . وعاصره هارون الرشيد وأدرك عهد الأمين « طبقات الشعراء لابن
 المعتز » ص ٩٩ - ١٠٤ وتاريخ بغداد للخطيب « ج ٧ ص ٩٠ - ١ » .

« إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ^(١) » الآية ، فشبهت حال الدنيا بسرعة زوالها ، وانقراض نعيمها ، بعد الاقبال ، بحال نبات الأرض في جفافه ، وذهابه حطاماً ، بعد ما التفت وتكاثر ، وزين الأرض . وذلك تشبيه معنى بصورة . وهو من أبداع ما يجيء في هذا القسم ، فاعرفه .

ومما جاء على نحو منه ، قوله عز وجل في حق المنافقين : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » ^(٢) . تقديره : أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أوقد ناراً ، في ليلة مظلمة ، بمغارة ، فاستضاء بها ما حوله ، فاتقى ما يخاف وأمن ، فبينما هو كذلك ، إذ طفئت ناره فبقي مظلاً خائفاً متحيراً . وكذلك المنافق إذا أظهر كلمة الايمان استنار بها ، واعتز بعزها ، وأمن على نفسه وماله وولده . فإذا مات عاد إلى الخوف ، وبقي في العذاب والنقمة .

واعلم أنهم لما وُصِفوا بأنهم اُشْتَرُوا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذا التمثيل ، ليمثل هداهم الذي باعوه ، بالنار المضيئة ما حول المستوقد ، والضلالة التي اشتروها وطبع بها على قلوبهم ، بذهاب الله بنورهم ، وتركهم في الظلمات ، ثم قال الله تعالى « صُمِّ بُكُمْ عُمِّي » . كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا مسامعهم عن الاصاخة ، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم ، جعلوا كأنما أصابت هذه الحواس منهم الآفات ، وهذا من عجائب التشبيه ، وطريقته عند علماء البيان ، طريقة قولهم « لِيُوث » للشجعان ، و « بحور » للكرام وبعض علماء هذه الصناعة يجعلون ما كان على مثال قوله تعالى : « صُمِّ بُكُمْ عُمِّي » استمارة ، وليس كذلك كأن ^(٣) المستمار له مذكور ، وهم المنافقون . والاستمارة انما تطلق بحيث يطوى

(١) أنظر سورة « يونس » والآية « ٢٤ » . (٢) أنظر سورة « البقرة » والآية « ١٧ » .

(٣) لعل الأصل « لأن » أو « فان » .

ذكر المستعار له ، ويجعل الكلام خلواً منه ، صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول اليه لولا دلالة الحال من خوى الكلام عليه ، وقد أشرنا الى ذلك فيما سبق من باب الاستعارة ، فاعرفه . وهذا هو الفرق بين الاستعارة والتشبيه عند المحققين من علماء البيان . ومن هذا القسم قوله :

بكيت عليه حين لم يبلغ النى ولم يرو من ماء الحياة السكدر
كأن دم النجلاء ^(١) تحت بروده لطيمة مسك في إهاب غضنفر ^(٢)
وكذلك قول أبي الطيب المتنبي :

كأن الجفون على مقلتي ثياب شققن على ثاكل ^(٣)
ولقد أحسن بعض البغداديين في قوله :
يا طالباً عجائب الأمور فقرة ^(٤) في الدرع ذي القثير
وقل رأيت البحر في غدير

ومن هذا النحو قول ابن المعتز :

والصبح يتلو المشتري فكأنه عريان يمشي في الدجى بسراج
وقال مؤلف الكتاب في صفة سقاة الخمر « فأخذنا في معاطاة ^(٥) الرحيق ، ما بين الاكواب
والأباريق . يطوف بها علينا ولدان ، يعجز عن وصفهم قسّ وسحبان ، فكأنهم في أيديهم
الكوؤوس ، أقمار تسمى بشموس » وكذلك قوله أيضاً في صفة بركة النيلوفر ، من جملة رسالة
عملها في الربيع « فأتينا الى روضة ذات تأرج وتبرج ، وبركة نيلوفر كأنها مداهن من المسجد ،

(١) في الأصل « النجلاء » وهو من خطأ الناسخ ، والنجلاء : الطعنة الواسعة .

(٢) اللطيمة : العير التي تحمل الطيب ويز التجارة وقد أراد بها ها هنا : الطيب نفسه . والاهاب : الجلد . والغضنفر : الأسد .

(٣) من قصيدة له في مدح الأمير سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان مطلعها :

إلام طماعية العاذل ولا رأي في الحب للعاقل ؟

راجع « الديوان ص ٢٥٨ » طبعة عبد الوهاب عزام ، بمطبعة لجنة التأليف والترجمة بحصر .

(٤) كذا وردت في الأصل . (٥) الفصيح « تعاطي الرحيق » .

على قضب من الزبرجد ، أو كأنه وهو في الماء يعوم ، سماء أشرقت بمطالع النجوم » ، وله من
مرثية قالها في بعض الأصدقاء :

لم يكتسب غير الثنا والحمد في حياته
أبقى لنا مناقباً تنشر في ممانه
كالرند يبقى عرفه بعد ذهاب ذاته

وأنجب ما سمعت في هذا الباب ، قول الحسين بن مطير الأسدي^(١) يرثي معن بن زائدة^(٢) :
فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مَرْتَمًا^(٣)
فاعرف ذلك وقس عليه .

- (١) في الأصل « الأزدي » وليس بصواب : وكان أسدياً بالولادة وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، وله أماديع في رجالها ، وكان زيه وكلامه كزبي أهل البادية وكلامهم . توفي بعد معن بن زائدة ، وله رثاء فيه ، وكانت وفاته في نحو سنة « ١٦١ » هـ « فوات الوفيات ج ١ ص ١٤٤ » .
- (٢) هو أبو الوليد معن بن زائدة بن عبد الله الشيباني . من أشهر قواد العرب وأجوادهم ، وأحد الشجعان العظماء ، أدرك العصرين الأموي والعباسي ، وكان في العصر الأموي مكرماً ينتقل في الولايات ، فلما صار الأمر إلى بني العباس طلبه المنصور فاستتر في البادية ، حتى كان يوم الهاشمية ، وثار جماعة من أهل خراسان على المنصور فدافع عن المنصور ، فحسبها المنصور له وولاه إمارة سجستان ، فأقام فيها مدة ثم قتل غيلة . وللشعراء فيه أماديع ومرثيات كثيرة « وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٢٩ » من طبعة بلاد العجم .
- (٣) من كلمة له رواها أبو تمام في باب الحماسة ، وأولها قوله :

المأ على معن وقولا لغيره سقتك النوادي مريباً ثم مريباً

أنظر شرح التبريزي ج ٢ ص ٣٩٠ . وانظر حاشية « المثل السائر » ج ١ ص ٤١٣ طبعة البابي
الحلي سنة ١٩٣٩ .

القسم الثالث

في تشبيه المفرد بالمركب فمن ذلك قول بعضهم :

كأن السهمي^(١) إنسان عين غريقة من الدمع يبدو كلما ذرّفت ذرّفا
ومن هذا القسم قول الآخر في الورد^(٢) الجنبذ :

أتتك أبا حسن^(٣) وردة تلذّ النفوس بأنفاسها
كمعذراء أبصرها مبصر فردت يدها على رأسها
وقد ورد (كثيراً)^(٤) أمثال ذلك ، وفيما ذكرناه كفاية .

وحيث تكلمنا في التشبيه الجيد وبينناه ، فينبغي أن نوضح التشبيه الرديء ليجتنبه مؤلف الكتاب^(٥) ، فنقول :

اعلم أن التشبيه الرديء هو أن يكون ، بين المشبه والمشبه به ، بعد وتباين ، وذلك كقول بعضهم في السهام :

كساها رطيب الريش فاعتدلت لها قداح كأعناق الأطباء الفوارق
فانه قد شبه السهام بأعناق الأطباء^(٦) ، وذلك من أبعد التشبيهات وأكثرها تبايناً . ومما جرى هذا المجرى ، قول أحد الاعراب :

(١) السهمي ويكتب بالألف القائمة أيضاً ، كوكب خفي يمتحن الناس به أبصارهم . وإنسان العين : المثال الذي يراد في السواد .

(٢) في الأصل « في الورد الحند » ولعل الصواب ما أثبتناه . والورد الجنبذ على وزن قنفذ هو الذي لم يتفتح وهو معروف الى اليوم ببغداد ، الواحدة جنبذة .

(٣) في معجم الأدباء لياقوت الحموي « ج ٤ ص ١٠٥ » من طبعة مرغليوث « أبا عامر » والبيتان لصاعد بن الحسن اللغوي البغدادي ، تزيل الأندلس أيام أبي عامر المنصور محمد بن أبي عامر المستولي على الأندلس ، فالكنية للمنصور المذكور . ولشعر خبر مذكور هناك .

(٤) زيادة يقتضيها السياق . (٥) أراد بالكتاب « الكتابة » . (٦) في الأصل « الظبي » .

ملا حاجبيك الشعر حتى كأنه طباء جرت منها سنيح^(١) وبارح
فشبه شعرات بيضاً في حاجبيه بظباء سوانح وبوارح ، وهو تشبيه بعيد جداً . وأمثال ذلك
كثيرة فأعرفها .

واعلم أن الأصل في حسن التشبيه هو أن يمثل الأستر بالأظهر وغير المعتاد بالمعتاد المعروف ،
وذلك لأجل إيضاح المقصود ، وبيان المعنى المراد .

ويظهر أيضاً حسن التشبيه في تمثيل الشيء بما هو أعظم منه ، وذلك لأجل المبالغة والغلو .
وأعلم أن من التشبيه ضرباً يسمى : « غلبة^(٢) الفروع على الأصول » وهو ضرب من
الكلام ظريف ، لا تكاد تجد شيئاً منه إلا والفرض به المبالغة ؛ فما جاء من ذلك قول ذي^(٣) الرمة :
ورمل كأوراك العذارى قطمته اذا ألبسته المظلمات الحنادس^١
ألا ترى الى ذي الرمة ، كيف جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً ؟ وذلك أن العادة والعرف أن
تشبه أعجاز النساء بكثبان الأتقاء ، وهو مطرد في بابه ، كقول البحتري :

أين الغزال المستعير من النقا كفلا ومن نور الأقاخي مبسما^(٤) ؟
فقلب ذو الرمة العادة والعرف في هذا ، فشبه كثبان الأتقاء بأعجاز النساء ، وذلك كأنه^(٥)
يخرج مخرج المبالغة ، أي قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء ، وصار كأنه الأصل
فيه ، حتى شبهت به كثبان الأتقاء . ومثل ذلك قول بعضهم :

(١) في الأصل « بسنج » وهو من تصحيف النساخ ، والسنيح هو السانح ، والسانح : العارض . وسنج
الظي سنوحاً ضد برح ، أي صر من الجهة اليمنى ، وفيه دلالة على اليمن عندهم . والسانح : ضد البارح ، لأن
البارح يمر من الجهة اليسرى ، وهو دليل على الشؤم .
(٢) في الأصل « غلبة » وهو من خطأ النساخ .

(٣) هو أبو الحارث غيلان بن عقبة المضري من خول الطبقة الثانية من شعراء عصره ، أكثر شعره
تشبيب وبكاء أطلال وكان يذهب في ذلك مذهب الجاهليين عشق مي المنقرية واشتهر بها . وكانت وفاته
باصبهان سنة « ١١٧ » هـ « وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٠ » من طبعة بلاد العجم .

(٤) من قصيدة يمدح بها أحمد وإبراهيم ابني المدبر مطلعها :
ألحني سلمى بكاطمة أساما وتعلما أن الجوى ما هجتما

(٥) لعل الأصل « لأنه » ،

في طلعة البدر شيء من ملاحظتها وللقضيب نصيب من تنفيها
ونظائر هذا أكثر من أن تحصى ، فاعرفه . ولما شاع ذلك في كلام العرب واتسع صار
كأنه أصل من ^(١) بابه .

النوع الثالث

من الباب الأول في شجاعة العربية

وهو نوع من علم البيان تتكاثر لطائفه ، وتتوفر محاسنه ، لأن معظم البلاغة مندرجة في
أثنائه ، ومنطوية تحت ضروبه ، إلا أني لم أجِد شيئاً منه عند أرباب هذه الصناعة ، ولا وجدته
في كتاب مصنف في هذا الفن ، سوى أني رأيت أبا الفتح عثمان بن جني قد ذكر ، في كتابه
الموسوم بالخصائص ، شيئاً من التقديم والتأخير ، والحمل على المعنى لا غير ، وقد ذكرنا نحن في
هذا النوع أشياء عجيبةً ، ونكتاً طريفةً ^(٢) ، عثرنا عليها في أثناء القرآن الكريم ، وأعلم أن
هذا النوع ينقسم ستة أقسام :

القسم الأول في الالتفات ^(٣)

(الالتفات) الرجوع من الغيبة الى الخطاب ، ومن الخطاب الى الغيبة ، يفعل ذلك على عادة
العرب في افتتانهم في الكلام ، وفيه فوائد كثيرة ، لأن الكلام اذا نقل من أسلوب الى أسلوب
كان أحسن تطرية لنشاط السامع ^(٤) ، وإيقاظاً للاصغاء إليه ، من إجرائه على أسلوب واحد ،
وليس يُفعل ذلك اتساعاً فقط بل لأمر أعلى ، ومهم من الغرض أعنى ' ، فأما الرجوع من الغيبة
الى الخطاب فكقوله تعالى في سورة الفاتحة : « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين
إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم

(١) لعل الأصل « في بابه » .

(٢) في الأصل « طريفة » . (٣) راجع المثل السائر « ج ٢ ص ٤ » .

(٤) هذا رأي الزحخشري في الالتفات ، وقد نقله ابن الأثير عنه في « المثل السائر » ج ٢ ص ٤ طيبة
البابى الحلبي بالقاهرة .

ولا الضَّالِّينَ » ، هذا رجوع (من) الغيبة الى الخطاب ومما يختص به هذا الكلام من الفوائد ، أنه ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام من الربوبية العامة ، والملك الخاص ، فعمل العالم بعلوم عظيم الشأن ، حقيق بالخضوع له ، والاستعانة في المهات به ^(١) فخطوب ذلك المعلوم الموصوف بتلك الصفات فقيل : إياك نعبد يا من هذه صفاته ، أي نخص بالعبادة والاستعانة ، ليكون أدلَّ على العبادة ، لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به ، فان قوله « إياك نعبد وإياك نستعين » بعد قوله « الحمد لله رب العالمين » ليس العدول فيه من الغيبة الى الخطاب اتساعاً إنما عدل اليه لفائدة حسنة ، وذلك أن الحمد لله دون العبادة ، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبد . فلما كان الحال كذلك استعمل ^(٢) لفظ « الحمد » لتوسطه مع الغيبة في الخبر ، فقال : « الحمد لله » ولم يقل « لك » ، ولما صار الى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال « إياك نعبد » فخطب العباد إصراحاً بها ، وتقرباً منه - عز ^(٣) اسمه - بالانتهاء الى محدود ^(٤) منها وعلى نحو من ذاك جاء آخر السورة فقال « صراط الذين أنعمت عليهم » فأصرح بالخطاب لما ذكر النعمة ، ثم قال « غير المغضوب عليهم » ولم يقل « غير الذين غضب عليهم » لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه ، فلما صار الى ذكر الغضب قال « غير المغضوب عليهم » فجاء باللفظ منحرفاً به عن ذكر الغضب ، فأسند النعمة اليه لفظاً ، وزوى عنه ذكر الغضب تحسناً ^(٥) ولطفاً ، فانظر الى هذه اللغة الشريفة وتناسب هذه المعاني اللطيفة التي الأقدام (لا) ^(٦) تكاد تطؤها ، والأفهام مع قربها صاخفة عنها .

ومن هذا الجنس قوله تعالى « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً » ^(٧) فقوله « لقد جئتم » وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة زيادة تنكيل عليهم ، بالجرأة على الله - عز وجل -

(١) زيادة اقتضاها السياق .

(٢) في الأصل « اشتمل » والتصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ٦ » .

(٣) في الأصل « عن » والتصحيح من المثل السائر .

(٤) في الأصل « محدودة » والتصحيح « من المثل السائر » .

(٥) في الأصل « تحسناً » والتصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ٦ » .

(٦) من « المثل السائر » ج ٢ ص ٦ . (٧) أنظر سورة « صريم » الآية « ٨٩ » .

والتعرض لسخطه ، وتنبيه لهم ، على عظم ما قالوه . وأمثال هذا كثيرة فاعرفه .

وأما الرجوع من الخطاب الى الغيبة فقله — عز اسمه — « هو الذي يسيرُكم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصف وجاءهم الموجُ من كل مكانٍ وظننوا أنهم أُحيط بهم دَعَوْا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين » ^(١) ألا ترى كيف صرف الكلام هاهنا من الخطاب الى الغيبة ؟ وإنما فعل ذلك لفائدة ، وهو أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، كالخبر لهم ، ويستدعي منهم الإنكار عليهم والتوبيخ ، ولو قال : حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها . وساق الخطاب معهم الى آخر الآية ، لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة . وليس ذلك بخاف عن (عارف) هذا الكلام فاعرفه .

ومن هذا الجنس قوله تعالى « ان هذه أُمَّتُكُمْ أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون وتقطعوا أمرهم بيننفسهم كلُّ الينا راجعون » ^(٢) . الأصل في تقطعوا « تقطعتم » عطفًا على الأول الا أنه صرف الكلام من الخطاب الى الغيبة على طريقة الالتفات ، كأنه ينمى عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين ، ويقبح عندهم ما فعلوه ، ويقول : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله ، فجعلوا أمر دينهم إلى ما ينهم قطعاً ، وذلك تمثيل لاختلافهم فيه وتباينهم ، ثم توعدهم بعد ذلك بأن هؤلاء الفرق المختلفة اليه يرجعون ، فهو مجازيهم على ما فعلوا .

ومما ينخرط في هذا السلك أيضاً قوله تعالى « يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته » ^(٣) الآية فانه إنما قال « فأمنوا بالله ورسوله » ولم يقل : فأمنوا بالله ربي ، حيث قال أولاً : إني رسول الله إليكم ، لكي تجري عليه الصفات التي أجريت عليه وليعلم أن الذي وجبَ الايمان به والاتباع (له) هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي ، الذي يؤمن بالله وكلماته ، كائنًا من كان أنا أو غيري ،

(١) سورة « يونس » الآية « ٢٢ » . (٢) سورة « الأنبياء » والآية « ٩٣ » .

(٣) سورة « الأعراف » والآية « ١٥٨ » .

إظهاراً للنصف ، وبعد عن التصعب لنفسه ، فقرّر أولاً في صدر الآية ، بأنه رسول الى الناس ، وأثبت ذلك في أنفسهم ، ثم أخرج كلامه من الخطاب الى معرض الغيبة لارضين كبيرين قد ذكرتهما .

الضرب الثاني : الرجوع من الفعل المستقبل الى فعل الأمر ، يفعل ذلك تعظيماً لحال من أجري عليه فعل الأمر . فما جاء منه قوله تعالى « ياهود ماجئتنا بينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تشركون » ^(١) - ولم يقل « وأشهدكم » ليكون موازناً له وبمعناه ، لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت في معنى يثبت التوحيد ، ويشد معاقده . وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة بهم ، ولذلك عدل به عن لفظ الأول ، لاختلاف ما بينهما ^(٢) وجيء به على لفظ الأمر ؛ كما يقول الرجل لمن ييس الثرى ^(٣) بينه وبينه : اشهد عليّ إني أحبك . تهكاً به واستهانة بحاله . وأمثال هذا كثيرة فاعرفها .

الضرب الثالث : الرجوع من خطاب التثنية الى خطاب الجمع ، ومن خطاب الجمع الى خطاب الواحد .

فمن ذلك قوله تعالى « وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً . واجعلا لبيوتكما قبله ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين » ^(٤) . ألا ترى الى هذا المعنى والتوسع في الكلام فانه نوع الخطاب ، فثنى ثم جمع ثم وحد ، فخطب موسى وهارون - عليهما السلام - بالنبوة والاختيار ، وذلك مما يفوتض إلى الأنبياء . ثم ساق الخطاب لهما ولقومهما باتخاذ المساجد ،

(١) سورة « هود » الآية « ٥٤ » .

(٢) في الأصل « بينها » .

(٣) في الأصل « للرجل لم ينس البرى بينه وبينه » . والمراد بالأصل كناية عن التباغض .

(٤) « سورة يونس » الآية « ٨٧ » .

واقامة الصلاة ، كأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى - صلوات الله عليه - بالبشارة التي هي الغرض ، تعظيماً له وتفخيماً لامره ، ولأنه الرسول على الحقيقة .

ومن هذا النحو قوله تعالى : حكاية عن حبيب النجار « ومالي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون ^(١) » هذا عدول عن خطاب الواحد ، الى خطاب الجماعة . وانما صرف الكلام عن خطاب نفسه الى خطابهم ، لأن ابرز الكلام لهم في معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ، ليلطف بهم ، ويداريهم ، ولأن ذلك دخل في إحضار النصيح ؛ حيث لا يريد لهم الا ^(٢) ما يريد لنفسه ، وقد وضع قوله : « مالي لا أعبد الذي فطرني » مكان قوله : ومالكم لا تعبدون الذي فطرکم ، ألا ترى إلى قوله « واليه ترجعون » ولو لا أنه قصد ذلك لقال : الذي فطرني واليه أرجع ، وقد ساقه ذلك المساق الى أن قال « تعالوا إني آمنت بربكم فاسمعون ^(٣) » يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني ، فقد نهتهم على الصحيح الذي لا معدل عنه ، لأن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم ، واليه مرجعكم .

فانظر أيها المتأمل لكتابنا هذا ، الى هذه الدقائق التي أشرنا إليها في غرضون هذا الكلام ، فان فيها ما شئت من اللطائف اللطيفة ، والفوائد العجيبة .

القسم الثالث من النوع الثالث

في الأخبار عن الفعل الماضي بالمضارع وعن الفعل المضارع بالماضي

وهو قسم من التأليف ، لطيف المأخذ ، دقيق المغزى ، فالأول : الاخبار بالفعل المضارع عن الماضي ، اعلم أن الفعل المضارع اذا أتى به في حال الاخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الاخبار بالفعل الماضي ، وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها ، ويستحضر ^(٤) تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضي ، فما جاء قوله تعالى : « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه الى بلد ميت فأحييناه به الأرض بعد موتها كذلك

(١) سورة « يس » الآية « ٢٢ » . (٢) في الأصل « بما » ولا حاجة الى الباء .

(٣) سورة « يس » الآية « ٢٥ » . (٤) في الأصل « وتستحضر » .

النشور^(١) « فإنه إنما قيل فتمثّر سحاباً ، مضارعاً ، وما قبله وبعده ماض ، لذلك المعنى الذي أشرنا إليه ، وهو حكاية الحال التي^(٢) يقع فيها إثارة الريح السحاب ، واستحضار تلك الصورة البدئية ، الدالة على القدرة الباهرة ، وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية ، بحال تستغرب أو تُبهِم المخاطب أو غير ذلك كما قال تأبط شرّاً -

فاني قد لقيت الغول تهوي بسهب^(٣) كالصحيفة صححان
فأضرُبها بلا دَهش نخرت صريعاً للبدن وللجرات^(٤)

لأنه قصد أن يصور لقومه ، الحال التي تشجع فيها على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم إياها ، ويطلعهم على كنهها مشاهدة ، للتعجب من جرأته على ذلك الهول ، وثباته عند تلك الشدة . ولو قال فضربتها لزالّت هذه الفائدة التي ذكرناها ونهينا عليها .

ومن هذا الباب قوله تعالى « ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماءً فتُصبح الأرضُ مُخضرةً إنّ الله لطيفٌ خبير^(٥) » ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي ها هنا الى المضارع فقال « فتصبح » وذلك لافادة بقاء المطر زماناً بعد زمان كما يقال « أنعم عليّ فلانٌ عام كذا فأروح وأغدو شاكرًا له » ولو قال « فرُحْتُ وغدَوْتُ شاكرًا له » لم يقع ذلك الموقع فافهم ما أشرنا اليه وتدبر دقائقه .

وأما الإخبار بالفعل الماضي عن المضارع ، فهو عكس ما تقدم ذكره ، وفائدته : أن الفعل الماضي إذا أحبر به عن الفعل المضارع إذا لم يوجد بعده ، كان أبلغ وأكد ، وأعظم موقفاً

(١) سورة « فاطر » الآية « ٩ » .

(٢) في الأصل « الذي » وقد رجحنا « التي » لأنه جاء بضمير الحال مؤنثاً بقوله « فيها » ولأنّ تأنيث الحال هو الوجه الأقوى .

(٣) في الأصل « بشهب » والتصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ١٦ » والسهب : الأرض المستوية والجمع سهوب . والصححان : الأرض الواسعة المستوية ، وقد استعملها وصفاً للسهب . والبيتان من كلمة لتأبط شرّاً أولها قوله :

ألا من مبلغ فتیان فهم بما لاقيت عند رحي بطان ؟

« أنظر الأغاني ج ١٨ ص ٢١٠ طبعة بولاق » انظر حاشية المثل السائر « ج ٢ ص ١٦ » .

(٤) الجران : مقدم العنق . (٥) سورة « الحج » الآية « ٦٣ » .

وأخيراً شأناً : لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان وجد وصار من الأمور المقطوع بها ، المحكوم بكونها وحدثها . والفرق بينه وبين الأخبار بالفعل المضارع عن الماضي ، هو أن الفعل الماضي يخبر به عن المضارع ، إذا كان المضارع من الأشياء الهائلة ، التي لم توجد ، والأُمور المتعاطمة التي لم تحدث ، فيجعل ^(١) عند ذلك مما قد كان ووجد ، ووقع الفراغ من كونه وحدثه . وأما الفعل المضارع إذا أخبر به عن الماضي ، فإن الفرض بذلك تبين هيئة الفعل ، واستحضار صورته ، ليكون السامع كأنه يعاينها ويشاهدها . فهذا هو الفرق بين الأخبار بالفعل المضارع عن الماضي (وبالمضارع عن الماضي) ^(٢) فاعرفه .

ولنرجع الى ما نحن بصدد ذكره من الأمثلة للأخبار بالفعل الماضي عن المضارع ، فن ذلك قوله تعالى : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » ^(٣) فانه إنما قال : « فنزع » بلفظ الماضي بعد قوله « ينفخ » وهو للمستقبل ، للاشعار بتحقيق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة ، واقع على أهل السموات والأرض ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل ، وكونه مقطوعاً به .

ومن هذا الجنس قوله تعالى « وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً » ^(٤) « فبرزوا » بمعنى يبرزون يوم القيامة ، وإنما جيء بلفظ الماضي ، لأن ما أخبر الله به لصدقه وصحته كأنه قد كان ووجد . ومثل ذلك قوله - عز اسمه - « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » ^(٥) فان « أتى » ها هنا بمعنى « يأتي » وإنما حسن فيه لفظ الماضي ، لصدق إتيان الأمر ودخوله في جملة ما لا بد من حدوثه ووقوعه ، فصار « يأتي » بمنزلة قد أتى ومضى ، وكذلك قوله - تعالى - « وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالِ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ، وَحَشَرْنَا هُمْ فَلَم نَفَارْ مِنْهُمْ أَحَدًا » ^(٦) فانه إنما قال « وحشرناهم » ماضياً بعد « نسير » « وترى » وهما مستقبلا لل دلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ، ليعانوا

(٢) زيادة اقتضاها السياق .

(١) في الأصل « فتجعل » .

(٤) سورة « إبراهيم » الآية « ٢١ » .

(٣) سورة « النحل » الآية « ٨٧ » .

(٦) سورة « الكهف » الآية « ٤٧ » .

(٥) سورة « النحل » الآية « ١ » .

تلك الأحوال ، كافة ، قال : « وحشرناهم » قبل ذلك .

ومما ينخرط في هذا السلك الإخبار باسم المفعول عن الفعل المضارع ، وأما فعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي ، وقد سبق الكلام عليه ، فمن ذلك قوله تعالى « إن في ذلك الآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ^(١) » فانه إنما آثر اسم المفعول ها هنا على الفعل المضارع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، فإنه لا بد من أن يكون ميعاداً مضروباً يجمع الناس وأنه ^(٢) موصوف بهذه الصفة ، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى : « يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ^(٣) » فانك تمثر على صحة ما قلت .

القسم الثالث من النوع الثالث في عكس الظاهر

اعلم أن هذا القسم من مشكلات علم البيان ، وأسراره الغريبة ، وخفاياه المستطرفة المعجبية ، وهو مما لم يذكره أحد من مؤلفي هذا الفن في كتابه ، ولا أشار اليه ، وسبب التفرد بذكره في هذا الكتاب ، أنا عثرنا على ذلك في كلام علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — في وصفه مجلس النبي — صلى الله عليه وسلم — فعند ذلك طلبنا له مثلاً أو نظيراً ، في كلام العرب وأشعارهم فظفرنا بذلك ، وأوردنا الكلام الوارد عن علي — رضي الله عنه — ثم أتبعناه بما جاء عن العرب في ذلك ، وإنه مما يستغرب ويستطرف ، لأن العرب قد توسعوا في كلامهم ، وتجاوزوا إلى غاية ، يذكرون كلاماً يدل ظاهره على معنى ، وهم يريدون به معنى آخر عكسه وخلافه . والأصل في ذلك ، أنك تذكر كلاماً يعطي معناه أنه نفي لصفة شيء قد كان ، وهو نفي للموصوف أنه كان أصلاً . فأمّا قول علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — في هذا الباب ، فانه وصف مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فقال « لا تنثي ^(٤) فلتاته » أي لا تذاع فلتاته ، ألا ترى الى ظاهر

(١) سورة « هود » الآية « ١٠٣ » .

(٢) في الأصل « وإنما » والتصحيح من المثل السائر (ج ٢ ص ١٩) .

(٣) سورة « التغابن » الآية « ٩ » .

(٤) في الأصل « تنثي » وهو من تحريف النساخ ، ونص الحديث كما في الفائق « ج ١ ص ٣ » من الطبعة المصرية « مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤنب فيه الحرم ولا تنثي فلتاته ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير ، فإذا سكنت تسكلموا . ولا يقبل الثناء الا عن مكافئ » .

ذلك : أن ثم فلتات غير أنها لانداع ، وليس المراد ذلك ، بل المراد أنه لم يكن ثم فلتات أصلاً ، فتداع ، وهذا من أعجب ما وقفت عليه في علم البيان وأطرفه .
وأما ما ورد عن العرب في هذا الباب ، فنحو قول الشاعر^(١) :
« ولا ترى الضبَّ بها ينجحر^(٢) » .

فان ظاهر المعنى من ذلك يعطي أنه قد كان هناك ضب الا أنه غير منجحر ، وليس كذلك بل المعنى المقصود ، هو أنه لم يكن هناك ضب أصلاً فينجحر . فاعرف هذا ، وقس عليه . وله أشباه كثيرة في كلامهم وأشعارهم ، وفيما أشرنا اليه كفاية ، لمن له لب ومعرفة .

القسم الرابع من النوع الثالث في الحمل على المعنى

وذلك كمتأنيث المذكر وتذكير المؤنث وتصوب معنى الواحد للجماعة ، والجماعة للواحد ، وحمل الثاني على لفظ الأول ، أصلاً كان ذلك اللفظ أو فرعاً ، وغير ذلك .

اعلم أن هذا القسم من التأليف دقيق المسلك ، بعيد المذهب ، يحتاج الى فضل معاودة وزيادة تأمل ، وقد ورد في القرآن الكريم ، وفصيح الكلام مثوراً ومنظوماً . فأما تأنيث المذكر فكقول الشاعر :

أنهجر بيتاً بالحجاز تلفعتُ به الخوف والأعداء من كل جانب
ذهب بالخوف الى المخافة ، وقال الآخر :
يا أيها الراكب المُرَجَّبِيْ مطيَّتهُ سائل بني أسد ما هذه الصوت

(١) الشاعر هو أوس بن حجر .

(٢) هذا عجز بيت ، وصدره في وصف مفازة :

لا يفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجحر

انظر حاشية ص ٤١٣ من الجزء الثالث من « الايضاح » طبعة الجامعة السورية سنة ١٩٤٩ .

وقال الفيومي في « النفي » من مصباحه اللير : « ولهم طريقة أخرى معروفة وهي نفي الموصوف فينتفي ذلك الوصف بانتفائه ، فقولهم « لا رجل قائم » معناه لارجل موجود فلا قيام منه ، قال امرؤ القيس :
« على لاحب لا بهتدي بتماره »

أي لامنار فلا هداية به ، وقال الشاعر : « لا يفزع الأرنب ... » أي لا أرنب فلا يفزعها هول ولا ضب فلا انجحر ، وخرج على هذه الطريقة قوله - تعالى - « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » أي لاشافع فلا شفاعة منه ، وكذا « بغير عمد ترونها » أي لاعمد فلا رؤية . وكذا « لايسألون الناس الحافاً » لا سؤال فلا لحاف .

فانه ذهب بالصوت الى الاستغاثة ، واعلم أنه قد كثر عن العرب تأنيث فعل المضاف المذكر اذا كانت إضافته الى مؤنث ، وكان المضاف بعض المضاف اليه أو منه أو به ، ولذلك قرئ قوله تعالى « لَا تَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا » ^(١) . بالتأنيث فأنت فعل الايمان إذ ^(٢) كان من النفس وبها . وأمثال ذلك كثيرة فاعرفه .

وأما تذكر المؤنث فشائع في كلام العرب كقوله تعالى « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي » ^(٣) أي هذا الشخص أو هذا المرئي . وكذلك قوله - عز اسمه - « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى » لأن الوعظ والموعظة واحدة ، وقالوا في قوله تعالى « إن رحمة الله قريب من المحسنين » ^(٤) إنه أريد بالرحمة هاهنا المطر ، بدليل قوله تعالى « وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته » ^(٥) .

وأما حمل الواحد على الجماعة ، فكقولهم : « هو أحسن الفتيان وأجمله » فأفرد الضمير ، لأن هذا الموضع يكثر فيه الواحد كقولهم « هو أحسن فتى في الناس » قال الله تعالى « ومن الشياطين من يغوصون له » ^(٦) فحمل على المعنى وقال ذو الرمة :

وميّة أجهل الثقلين وجهاً وسالفة وأحسنه قذالاً

فأفرد الضمير ، مع قدرته على جمعه ، وهذا يدل على قوة اعتقادهم في أحوال المواضع ، وكيف ما يقع فيها . ألا ترى أن هذا الموضع موضع جمع ، وقد سبق في الأول لفظ الجمع فترك اللفظ ، وموجب الموضع وعدل الى الافراد من غير ضرورة ، فانه قد كان يمكنه ان يقول :

وميّة أجهل الثقلين وجهاً وسالفة وأحسنهم قذالاً

ومن هذا النحو قول بعضهم :

فقلنا أسلموا إنا أخوكم فقد برئت من الأحن الصدور

فيجوز ان يكون ذلك جمع أخ قد حذف نونه للإضافة ، ويجوز أن يكون واحداً ووقع

(١) سورة « الأنعام » الآية « ١٥٨ » : (٢) في الأصل « اذا » وهو غير مستقيم .

(٣) سورة « الأنعام » الآية « ٧٨ » . (٤) سورة « الأعراف » الآية « ٥٦ » .

(٥) سورة « الأعراف » الآية « ٥٧ » . (٦) سورة « الأنبياء » الآية « ٨٢ » .

موقع الجماعة ، كقول الشاعر :

« ترى جوانبها بالشحم مفتونا »

والحل على المعنى واسع في هذه اللغة . وأعلم أن العرب إذا حملت على المعنى ، لم تكدر تراجع^(١) اللفظ ، كقولك : « شكرت من أحسنوا الي على فعله » ويقال : « شابت مفارقة » وإنما هو مفرق واحد . ومما يؤكد عندك أن العرب إذا حملت على المعنى لم تراجع اللفظ ، قوله تعالى : « ألم تر الى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم : ربّي الذي يُحيي ويميت . قال : أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم : فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين »^(٢) ثم قال :

« أوكلذي مرّاً على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها »^(٣) الآية فإن ذلك محمول على المعنى ، كأنه قال : أ رأيت الذي حاج إبراهيم في ربّه ، أوكلذي مرّاً على قرية فجاءَ بالثاني على أن الأول قد سبق كذلك ، وأمثال هذا كثيرة .

وأما حمل الجماعة على الواحد ، فكقوله تعالى « بلى من أسلم وجهه لله ، وهو محسنٌ ، فله أجره عند ربّه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »^(٤) فحمل أول الكلام على لفظ الواحد ، وآخره على لفظ الجمع .

وأعلم أن العرب تعتبر تارةً اللفظ ، وتارة المعنى ، يقولون : « ثلاثة أشخاص » فيثبتون التاء وإن عنوا مؤنثاً^(٥) ، ويقولون : « ثلاث أنفس » وإن عنوا رجالاً ، لأجل اللفظ . ويقولون : « ثلاث شخوص » إذا عنوا مؤنثاً ، « وثلاثة أنفس »^(٦) إذا عنوا مذكراً للمعنى فاعرف ذلك وقس عليه .

القسم الخامس من النوع الثالث في التقديم والتأخير

وذلك مما يتعلق بعلم النحو ، فإن لنا تقديمًا وتأخيرًا في الكلام ، ولا يتعلق بالنحو ، وليس

(١) في الأصل « راجع » وهو تصحيف . (٢) سورة « البقرة » الآية « ٢٥٨ » .

(٣) سورة « البقرة » الآية « ٢٥٩ » . (٤) سورة « البقرة » الآية « ١١٢ » .

(٥) على أن عمر بن أبي ربيعة قال :

فكان بجني دون من كنت أتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

(٦) قال الجوهري في « نفس » من الصحاح « ويقولون ثلاثة أنفس فيذكرونه لأنهم يريدون به الانسان » .

هذا بابه ، وسيأتي ذكره . إعلم إن التقديم والتأخير مما نحن بصدد ذكره ها هنا على ضربين : أحدهما يكون التقديم هو الأولى والأبلغ لموضع الاختصاص ، والآخر يكون التأخير هو الأولى والأبلغ ؛ إما الفائدة تقتضي ذلك ، وإما خوفاً من فساد المعنى واختلاله . وسيرد كل ضرب من هذه الضروب ، مشروحاً مبيناً . وأما الضرب الأول وهو ما كان التقديم فيه هو الأولى والأبلغ فذلك كتقديم المفعول على الفعل ، وتقديم المبتدأ على الخبر ، وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل .

فإن ذلك تقديم المفعول على الفعل ، وإنما تعمد^(١) إلى ذلك قصداً للاختصاص ، ألا ترى قولك « زيدا ضربت » تخصيصاً له بالضرب ، إذ يحتمل أن يكون الضرب لغيره ؛ لأنك إذا قدمت الفعل كنت بالخيار في إيقاعه على أي مفعول شئت كأن^(٢) تقول « ضربت خالداً أو بكراً أو غيرها » وإذا أخرته ، لزم الاختصاص للمفعول . وقد ورد في القرآن الكريم ، كقوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »^(٣) . فإنه إنما قدم المفعول ، الذي هو الرزق ، على الفعل الذي هو ينفقون ؛ لأن الإنسان قد ينفق ما ليس له . فلو قدم الفعل ها هنا على المفعول ، لسبق إلى الوهم قبل ذكر المنفق جواز كونه مما ليس له ، ومع تأخيره يزول هذا الوهم ، ويرتفع ذلك اللبس .

ومن هذا النحو ، قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » فإن قوله : « إياك نعبد » تخصيص له بالعبادة ، دون غيره ، وكذلك قوله : « إياك نستعين » وهذا بخلاف ما لو قال « نعبدك ونستعينك » فإنه يحتمل أن تكون العبادة والاستعانة لغيره كما أشرنا إليه ، في « زيدا ضربت » و « ضربت زيدا » فأعرف ذلك .

وأما تقدير خبر المبتدأ عليه ، فإنه لا يعتمد إليه أيضاً إلا لضرب من الاختصاص ، كقولك : « زيد قائم » و « قائم زيد » فقولك « قائم زيد » قد أثبت له القيام لا محالة ، وقولك : « زيد

(١) في الأصل « تعمل » وهو من خطأ الناسخ .

(٢) سورة « البقرة » الآية « ٣ » .

(٣) في الأصل « بأن » وهو من خطأ الناسخ .

قائم » أنت بالخيار في إثبات القيام له أو نفيه عنه ، بأن تقول : ضارب أو قاعد أو جالس أو غير ذلك .

ومن هذا النحو قوله تعالى « وظنّوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ^(١) » الآية .
فانه إنما قال ذلك ، ولم يقل : « وظنّوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم » لأن في تقديم الخبر الذي هو مانعتهم ، على المبتدأ ؛ الذي هو حصونهم ، دليلاً على فرط اعتقادهم في حصانتها ، وزيادة وثوقهم بمنعمها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسماً لأنّ ، واسناد الجملة اليه ، دليل على تقريرهم في أنفسهم أنهم في عزة وامتناع ، لا يبالى معها أحد بتعرض طامع أو قصد قاصد . وليس شيء من ذلك في قولك : « وظنّوا أن حصونهم مانعتهم أو تمنعهم » . ومن تقديم خبر المبتدأ عليه قوله تعالى : « أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم » فانه إنما قدّم خبر المبتدأ عليه في قوله : « أراغب أنت عن آلهتي » لأنه كان أهم عنده ، وهو به شديد العناية ، وفي ذلك ضرب من التعجب والانكار لرغبة إبراهيم - عليه السلام - عن آلهته ، وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها . وهذا بخلاف ما لو قال : « أنت راغب عن آلهتي » . وقد سبق الكلام على ذلك فاعرفه .

فأما الظرف فاعلم أنه كان الكلام مقصوداً به الإثبات ، فان تقديم الظرف فيه أبلغ من تأخيره . وفائدته إسناد الكلام الواقع بعده ، الى صاحب الظرف دون غيره « وإذا أريد بالكلام النفي فيحسن فيه تقديم الظرف وتأخيره ؛ وكلام الامرين له موضع يختص به ؛ فاما تقديمه في النفي ؛ فانه يقصد به تفضيل النفي عنه على غيره . وأما تأخيره ؛ فانه يقصد به النفي أصلاً من غير تفضيل . وسيأتي بيان ذلك عند ذكر الأمثلة الدالة عليه .

فأما الأول ؛ وهو تقديم الظرف في الإثبات فنحو قوله تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الاكبر إن الينا أيابهم وإن علينا حسابهم » ^(٢) فتقديم الظرف على المصدر ، وها هنا ^(٣) تشديد في الوعيد ، لا يكون عند

(١) سورة « الحمر » الآية « ٢ » . (٢) سورة « الفاشية » الآية « ٢٢ » .

(٣) في الأصل « وها هنا شديد » وهو تصحيف النسخ .

تأخيرهم ؛ لأنه يعطي من المعنى أن إياهم ليس إلا الى الله ، المقتدر على الانتقام . وأن حسابهم ليس الا عليه ، وذلك بخلاف ما لو قال : إن إياهم الينا ثم إن حسابهم علينا « لأن قوله » إن الينا إياهم « لا يحتمل ان يكون الإياب فيه الى غير الله ؛ لأنه صدر الكلام بالظرف ، وإذا قال « إن إياهم الينا » يحتمل أن يظن المخاطب عند سماعه « إن إياهم » قبل قوله « الينا » ان يكون الإياب الى غيره .

ومن هذا الجنس قوله تعالى « يسبّح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » ^(١) فان الله قدم الظرفين فى قوله « له الملك وله الحمد » ليدل بتقديمهما على اختصاص الملك والحمد بالله لا يغيره ، وكذا جاء قوله تعالى « من كفر فعليه كفره » ^(٢) .. فان تقديم الظرف ها هنا ، أشد موقفاً من تأخيرهم ، وأخف شأنًا ؛ وذلك للدلالة على أن ضرر الكفر ، لا يعود الا على الكافر ، وأنه لا يتمدها . وهذا لا يخفى على من له معرفة بعلم البيان . وأما الثانى ؛ وهو تأخير الظرف وتقديمه فى النحو ، فنحو قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه » ^(٣) فانه إنما أخر الظرف ها هنا لأن ^(٤) القصـد فى إيلاء حرف النفي الريب [الدلالة] ^(٥) على نفي الريب عنه ، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعونه . ولو أولاه الظرف ، لقصد أن كتاباً آخر فيه الريب لا فيه ، كما قصد فى قوله تعالى : « لا فيها غول » ^(٦) وذلك تفضيل لحر الجنة على خمر الدنيا ؛ بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها الدنيوية ؛ كأنه قال « ليس فيها ما فى غيرها من هذا العيب والنفيسة » .

فتأخير الظرف فى قوله تعالى « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه » ^(٧) يقتضى النفي أصلاً من غير تفضيل ، وتقديم الظرف فى قوله تعالى « لا فيها غول » ^(٨) يقتضى تفضيل المنفي عنه ، وهو خمر الجنة ، على غيرها من خمر الدنيا . وهذا مثل قولنا « لا عيب فى الدار » وقولنا « لا فيها

(١) سورة « التغابن » الآية « ١ » . (٢) سورة « الروم » الآية « ٤٤ » .

(٣) سورة « البقرة » الآية « ١ ، ٢ » . (٤) فى الأصل « فأن » .

(٥) زيادة اقتضاها السياق . (٦) سورة « الصافات » الآية « ٤٧ » .

(٧) سورة « البقرة » الآية « ١ ، ٢ » . (٨) سورة « الصافات » الآية « ٤٧ » .

عيب « والأول ؛ قصدنا به أن ننفي عن الدار أن فيها عيباً أصلاً ، وثبت أنها خالية من العيوب . والثاني ، قصدنا به أن ليس فيها ما في غيرها من العيب » فاعرف ذلك ، وقس عليه ، فإنه من دقائق علم البيان .

وأما تقديم الحال فنحو « جاء راكباً زيد » وإنما يفعل ذلك لضرب من الاختصاص أيضاً . وهذا بخلاف قولك « جاء زيد راكباً » إذ يحتمل أن نقول ^(١) : ضاحكاً أو ماشياً وغير ذلك . وأما الاستثناء فجار هذا المجرى ، نحو قولك : « ما قام إلا زيداً أحدٌ » وكما قام أحدٌ إلا زيداً ، والكلام على ذلك كالكلام على ما سبق . فاعرفه .

وأما الضرب الثاني فهو أن يقدم ما الأولى به التأخير ، لأن المعنى يحتل بذلك ^(٢) . ويضطرب ، كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول ، وتقديم العطف على المعطوف عليه ، سواءً كان بياناً أو نسقاً ، إلا عطف النسق في الواو وحده ، فإنه جائز ، نحو قولك « قام عمرو وزيد ^(٣) » وغير ذلك مما ورد مشروحاً .

فن هذا الضرب قول بعضهم :

فقد والشكُّ بَيْنَ لي عناءً بوشك فراقهم صُرد ^(٤) يصبح

فانه قدم « بوشك فراقهم » وهو معمول « يصبح » ويصبح صفة لصرد جارية على صرد ، وذلك قبيح ، ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال « هذا اليوم رجل ورد من موضع كذا » وإنما يجوز وقوع المعمول ، بحيث يجوز وقوع العامل ، فكما لا يجوز تقديم الصفة على موصوفها ، كذلك لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها .

ومن هذا النوع ، قول الآخر :

فاصبحت بعد خطِّ بهجتها ، كأنَّ قفراً رسومها قَلما

(١) في الأصل « يقول » وهو غير مستقيم .

(٢) ذلك : اسم إشارة إلى « ما هو أولى بالتأخير لو أخر » .

(٣) في الأصل « عمرو زيد » .

(٤) الصرد : بضم الصاد وفتح الراء ؛ طائر ضخم الرأس يصطاد العصفير .

فانه قدم خبر كان عليها وهو قوله « خط » وهذا وأمثاله مما لا يجوز قياس عليه ، والأصل في هذا البيت « فأصبحت بعد مهمتها قفراً كأن قلما خطّ رسومها » إلا أنه على تلك الحالة الأولى مختلّ مضطرب . ويشبه بذلك قول الفرزدق :

الى ملك ما أمته من محارب أبوه ولا كانت كليب تصاهره
وهو يريد « إلى ملك أبوه ما أمه من محارب » أي ما أم أبيه من محارب ، وهذا أقبح من الأول وأكثر اختلالاً . وأما قوله :

ولست خراسان التي كان خالد بها أسد إذ كان سيفاً أميرها
لخديشه طريف^(١) ، وذلك أنه فيما ذكر يمدح خالد بن عبد الله القسري^(٢) . ويهجو أسداً ؛ وكان أسد وليها بعد خالد ، وكأنه قال :

« ولست خراسان البلدة التي كان خالد^(٣) بها سيفاً إذ كان أسد أميرها » وعلى هذا التقدير ففي « كان » الثانية ضمير الشأن ، والحديث والجملة بعدها خبر عنها ، وقد قدم بعض ما إذ^(٤) مضافة إليه ، وهو أسد ، عليها ، وفي تقديم المضاف إليه أو شيء منه على المضاف من القبح ما لا يخفاء به ، وأيضاً فإن في أصله أسداً أحد^(٥) جزئي الجملة المفسرة للضمير ، والضمير لا يكون تفسيره إلا من بعده ، ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج الى تفسير ، ولما سماه الكوفيون المظهر^(٦) المجهول . ومن هذا الجنس قوله :

ملوك يبتنون توارثوها سرادقها المقاود^(٧) والقبابا
أراد « ملوك يبتنون المقاود^(٧) والقباب توارثوها سرادقها » فقوله « يبتنون المقاود

(١) في الأصل « ظريف » .

(٢) في الأصل « خالد بن الوليد » وهو غير مستقيم تاريخياً . والتصحيح من المثل السائر « ج ٢

ص ٤٥ » .

(٣) في الأصل « خالداً » من غلط النسخ . (٤) في الأصل « إن » والتصحيح من المثل .

(٥) في الأصل « احداً » وهو من غلط الناسخ .

(٦) وفي الأصل « المظهر » وفي المثل السائر « الضمير المجهول » وهو غير متسق .

(٧) في الأصل « المقاود » ولا محل لها هنا ولعل الأصل ما ذكرناه . فالمقاود جمع مقاد للخيول .

والقبا ب « صفة للملوك أيضاً وموضعها التأخير ، فقدمها ^(١) ، وهو يريد بها موضعها ، كقولك « مررت برجل ، يكلهها ، مار بهند » أي « مار بهند يكلهها » فقدم الصفة الثانية ، وهو معتقد تأخيرها . وقد استعمل العرزدق هذا الضرب كثيراً ، كأنه كان يقصد ذلك في شعره ويتعمده ، لأن مثل هذا لا يجيء إلا متكلفاً مقصوداً ، وإلا فاذا ترك المؤلف نفسه تجري على سجيته وطبعها في الاسترسال ، من غير أن يكلفها التعقيد في الكلام ، فإنها لا تأتي بمثل هذه الأسباب القبيحة ، التي هي عيب في التأليف فاحش ، الا ترى أن المقصود من الكلام معدوم في هذا الضرب المذكور ، لأن المقصود من الكلام إنما هو الايضاح والابانة وافهام المعنى ، فاذا ذهب هذا الوصف من الكلام ذهب المراد به والمقصود منه ، وصار غير مفهوم ولا فرق بينه — عند ذلك — وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما . فاعرف ذلك .

وأعلم أن من التقديم والتأخير باباً عجيباً المأخذ ، كثير الفائدة ، وافر اللطائف ، وهو باب الاستفهام ، فإن حاجة المؤلف الكلام اليه ماسة . ولنورد في كتابنا هذا منه ما يروقك ، أيها المتأمل ، ويذهب بك في الاستحسان كل مذهب ، فنقول : اعلم أنك اذا بدأت في الاستفهام بالفعل فقلت « أفعلت كذا وكذا » كان الشك في الفعل ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده لا غير . وإذا قلت : « أأنت فعلت » فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل وحده . وهذا المعنى قائم في الهمزة ، إذ هي كانت للتقرير ، فإذا قلت « أأنت فعلت ذاك » كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل ، قال الله تعالى « أأنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم ^(٢) » حكاية عن قوم نمرود ، لأنهم لم يقولوا ذلك لآبراهيم — عليه السلام — وغرضهم أن يقر لهم ان كسر الأصنام كان ووجد ، لان ذلك معلوم عندهم ، وقد شاهدوه رأي العين ، والاستفهام إنما يكون عن شيء لا يعلم وإنما غرضهم الاقرار بأن ذلك حدث منه ، لأنه قال — صلوات الله عليه — في الجواب لهم « بل فعله كبيرهم هذا » ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب « فعلت أو لم أفعل » فالهمزة مما ذكرناه تقرير لفعل قد كان وإنكار له ، لم كان ، وتوبيخ لفاعله عليه ^(٣) ، ولهذا مذهب آخر

(١) أي فقدم « توارثوها » . (٢) سورة « الأنبياء » الآية « ٦٢ » .

(٣) انظر هذا الموضوع في دلائل الاعجاز « ص ٧٨ » طبعة دار المسكبة العربية بمصر .

وهو أن تكون الهمزة لانكار أن يكون الفعل من أصله ، ومثاله قوله تعالى « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً ^(١) » . وقوله تعالى « أأصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون ^(٢) » . فهذا رد على المشركين ، وتكذيب لهم في قولهم ما يؤدي إلى هذا الجهل العظيم ، وإذا قدم الاسم في هذا صار من الانكار في الفاعل ، كما تقول للرجل إذا انتحل شعراً « أنت قلت هذا الشعر ، كذبت ، لست ممن يقول مثله » فأنكرت أن يكون هو القائل ولم تنكر الشعر . وقد يكون المراد إنكار الفعل من أصله ثم يخرج اللفظ مخرجه إذا كان الانكار في الفاعل مثال ذلك قوله تعالى « قل رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً ^(٣) » . ومعلوم أن المعنى على إنكار أنه قد كان من الله إذن فيما قالوا من غير أن يكون هذا الأذن قد كان من غير الله ، فأضافوه الى الله ، إلا أن اللفظ أخرج مخرجه ليكون أشد لنفي ذلك ولفظاً له ^(٤) . ونظيره قوله تعالى « آل الذكرين حرّم أم الاثنيين ^(٥) » فأخرج اللفظ مخرجه إذ كان قد ثبت تحريم في أحد أشياء ثم أريد معرفة عين المحرم ، مع أن المراد ^(٦) إنكار التحريم من أصله ، ونفي أن يكون قد حرّم شيئاً مما ذكروا أنه محرّم . وهذا هو الفرق بين تقديم الاسم ، وتقديم الفعل الماضي ، فإذا كان الفعل مضارعاً فالقول في ذلك أنك إذا قلت « أنفعل كذا » لم يخل من أن تزيد الحال أو ^(٧) الاستقبال ، فإن أردت الحال كان المعنى شبيهاً بالماضي ، كما ذكرنا ، وإن أردت الاستقبال كان المعنى إذا بدأت ^(٨) بالفعل أنك تعمد إلى انكار الفعل نفسه ، وترغم أنه لا يكون ، أو أنه لا ينبغي أن يكون . فمثال الأول قول امرئ القيس :

(١) سورة « الاسراء » الآية « ٤٠ » . (٢) سورة « الصافات » الآية « ١٥٣ » .

(٣) سورة « يونس » الآية « ٥٩ » .

(٤) في دلائل الاعجاز « وإبطاله » . (٥) سورة « الأنعام » الآية « ١٤٣ » .

(٦) في الأصل تكرار « مع أن المراد » وهي من زيادة النسخ .

(٧) في الأصل « والاستقبال » والتصحيح من دلائل الاعجاز « م ٧٩ » .

(٨) في الأصل « بدت » والتصحيح من دلائل الاعجاز .

أَيْقِظْنِي والمُشْرِفُ مُضَاجِعِي ومسنونة زرق كأنياب أغوال^(١)؟!
فهذا تكذيب منه لانسان يهدده بالقتل . وعلى هذا جاء قوله تعالى « أَنْزِلْهُمْ مَكْمُومَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ »^(٢) . ومثال الثاني قولك للرجل يركب الخطر « أَنْخُرْجْ فِي هَذَا الْوَقْتُ ؟ أَنْتَرَّرْ بِنَفْسِكَ » ؟ ومنه قول الشاعر :

.. أَأَتْرِكُ أَنْ قُلْتَ دِرَاهِمُ خَالِدٍ^(٣) زيارته إني إِذَا لِلثِّمِ ؟
فان بدأت بالاسم فقلت « أَأَنْتَ تَفْعَلُ » أو قلت « أَهُوَ يَفْعَلُ » كنت موجهة للانكار الى نفس المذكور وأبيت أن يكون بمثابة من يجيء منه الفعل ، إما لقصور همته وعجزه ، مع أن يكون ذلك في وسعه ، وإما لارتفاع قدره ، وعلو همته . فمثال الأول قولك : أَهُوَ يَرْتَاحُ لِلْجَمِيلِ ، هو أصغر همه من ذلك وقولك « أَأَنْتَ تَتَمَنَعُنِي ، أَأَنْتَ تَأْخُذُ عَلَى يَدَيَّ »^(٤) أنك أعجز من ذلك ، ومثال الثاني قولك « أَهُوَ يَسْأَلُ فَلَانًا هُوَ أَرْفَعُ قَدْرًا مِنْ ذَلِكَ » . واعلم أن محض المعنى من الاستفهام ، الذي تفسره بالانكار هو تنبيه السامع ، حتى يرجع الى نفسه فيخجل ويرتدع ، قال الله تعالى « أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى » على سبيل التمثيل والتشبيه ، كقولهم « أَأَنْتَ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ » لأن أسمع الصم مما لا يدعيه أحد ، وكذلك الصعود الى السماء . ومثله قول بعضهم :

فدع الوعيد فما وعيدك ضائري أظنين أجنحة الذباب يضير ؟^(٥)

(١) من قصيدة لامرئ القيس مطلعها :

أَلَا عَمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الظَّلَلُ الْبَالِي وَهَلْ يَعْمَنُ مِنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي
وبعد البيت المذكور في المتن :

وَلَيْسَ بِنَدَى سَيْفٍ فَيَقْتُلُنِي بِهِ وَلَيْسَ بِنَدَى رَمَحٍ وَلَيْسَ بِنَبَالٍ
« رَاجِعْ دِيْوَانَ لِمَرِي الْقَيْسِ » .

(٢) سورة « هود » الآية « ٢٨ » .

(٣) في الأصل « قُلْ الدِّرَاهِمُ » والتصحيح من دلائل الاعجاز « ص ٨٠ » والبيت كما في الكامل
لمهارة بن عقيل بن بلال بن جرير من أبيات يمدح بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني .

(٤) في الأصل « يَعْنِي » .

(٥) في كامل المبرد « ج ٢ ص ٣٣ من طبعة الدجوني » وفي دلائل الاعجاز أن هذا البيت لابن أبي عينة =

وأعلم أن حال المفعول فيما ذكرناه حال الفاعل في أن تقديم اسم المفعول يقتضي أن يكون الانكار في طريق الاحالة والمنع من أن يكون بمثابة من يقع به ذلك الفعل ، فاذا قلت « أزيداً تضرب » أنكرت أن يكون بمنزلة من يُجتراً عليه ، ولذلك قدمت « غير » في قوله تعالى « أغير الله أأخذ ولياً » وقوله تعالى « قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون » وكان لذلك من الزية والحسن والفيخامة ما يعلم أنه لو أخرت « غير » فقيل « أأخذ غير غير الله ولياً ، أو تدعون غير الله » لما كان مؤدياً من المعنى ما كان يؤديه مع تقدمها ، وذلك أنه حصل بالتقدير معنى قولك « أ يكون غير الله بمنزلة من يُتخذ ولياً أو يرضى عاقل لنفسه أن يفعل ذلك » و « أ يكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك » ولا يكون شيء من هذا الذي ذكرناه إذا قيل « أأخذ غير الله ولياً » وذلك لأنه يتناول الفعل أن يكون فقط ، ولا يزيد على ذلك شيئاً ، فهذا هو القول في الضرب الأول (١) .

وأما الضرب الثاني :

وهو أن يكون يفعل لفعل موجود ، فإن تقديم الاسم يقتضي تشبيهاً بما اقتضاه في الفعل الماضي ، من الاقرار بأنه الفاعل ، أو الانكار أن يكون هو الفاعل . فثال الأول قوله تعالى « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقوله تعالى « أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » فحكم المضارع في الآية الأولى حكم الماضي في الآية الثانية ، ومثال الثاني قوله تعالى « أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم » فافهم ذلك . واعلم أي قد أطلقت عنان الكلام في مسائل الاستفهام ليتبين أن للعربية أسراراً لا يطلع على خباياها ، ولا

== عبد الله بن محمد المهلب . وكان سبب قوله هذا أن علي بن محمد بن جعفر بن علي بن الحسين العلوي دعاه الى نصرته حين ظهرت الميضة فلم يحبه فتوعده فقال :

أعلي أنك جاهل مغرور
أبعثت توعدني أن استبطلأني
لاظلمة لك لا ولا لك نور
إني بحربك ما حيت جدير
فدع ...

« أنظر حاشية ص ٨٢ من دلائل الإعجاز » .

(١) ألحق الناسخ هنا الجملة الأولى من البحث التالي لهذا الى قوله « موجود » خذفنا الزائد .

يُقدر قدر مزاياها الا من تغذى بلبان البلاغة طفلاً ونشأ عليها كبيراً وصغيراً ، وسلك منهاهج هذا العلم ، وفاز منه بأوفر الحظ والقسم . ولا يتسع لهذا الضرب من التأليف نطاق هذه الأوراق ولا يمكن أن يودع ما فيه من اللطائف ، صفحات ما حررناه من هذه الصحائف ، والذي عليه مدار المعول ، فيما نوردته من المجمل والمفصل ، هو البحث عن أسرار البلاغة ، والابانة عن الشيء الذي به يشرف الكلام ، وتحصل له المزية على سواء ، فتدبر ذلك وقس عليه .

القسم السادس من النوع الثالث

في الاعتراض وهو شعبة من « علم البيان » تتكاثر محاسنها اعلم أن الجائز من هذا القسم . وغير الجائز إنما يؤخذ من كتب النحو ، فانه يكون مستقصى فيها ، كالاعتراض بين القسم وجوابه ، وبين الصفة والموصوف ، وبين المعطوف والمعطوف عايه ، وأشباه ذلك مما يجوز استعماله ، وكالاعتراض بين المضاف والمضاف اليه ، وبين إنَّ واستها ، وبين حرف الجر ومجروره ، وأمثال ذلك مما يقيح استعماله ، وليس هذا مكانه لأن كتابنا هذا موضوع لمن استكمل معرفة ذلك وغيره ، مما أشرنا اليه في صدر الكتاب ، وإنَّ ما أشرنا اليه ها هنا من الاعتراض ما يفرق المؤلف به بين الجيد منه والردىء لا ما يعلم به الجائز ، وغير الجائز ، فاعرف ذلك .

واعلم أن الاعتراض ينقسم الى قسمين : أحدها لا يأتي في الكلام إلا افائدة ، وهو جار مجرى التوكيد في كلام العرب ، والآخر يأتي في الكلام افائدة . فما جاء منه قوله تعالى « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسمٌ لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ^(١) » هذا كلام فيه اعتراضان ^(٢) أحدهما « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » لأنه اعترض بين القسم ، الذي هو « فلا أقسم بمواقع النجوم » وبين جوابه الذي هو « إنه لقرآن كريم » وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر ، بين الموصوف الذي هو « قسم » وبين صفته التي هي « عظيم » وهو قوله تعالى « لو تعلمون » فذانك اعتراضان ^(٣) كما ترى ، فلو جاء الكلام ، غير معترض فيه ،

(١) سورة الواقعة الآية ٧٥ .

(٢) في الأصل « اعتراضات » ، وهي من خطأ الناسخ .

لوجب أن يكون « فلا أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم » وفائدة هذا الاعتراض بين القسم وجوابه إنما هو تعظيم لشأن المقسم به ، في نفس السابغ ، ألا ترى قوله تعالى « لو تعلمون » اعتراضاً بين الموصوف والصفة ، وذلك أوقع في الأنفس ، لتعظيم المقسم به ، أي إنه من عظيم الشأن ونخامة الأمر بحيث لو علم ذلك لوفي حقه من التعظيم . وهذا مثل قولنا « ان هذا الأمر لعظيم ، بحيث لو تعلم يا فلان عظمه ، لقدترته حق قدره » . فان ذلك يكبر في نفس المخاطب ، ويعظم موقعه عنده ، ويبقى متطلماً الى معرفة عظمه ، ويتراى به وهمه إلى أعلى المنازل وأسبق الرتب . ومن هذا النحو قوله تعالى « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن . وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إليّ المصير » ^(١) ألا ترى إلى هذا الاعتراض الذي طبق مفصل البلاغة ، فانه لم يؤت به إلا لفائدة كبيرة ، وذلك أنه لما وصى بالوالدين ^(٢) ذكر ما تكابده الأم من المشاق والمتاعب ، في حمل الولد وفضاله ، إيجاباً للتوصية بالوالدة وتذكيراً بحقها ، وانما خصها بالذكر دون الوالد ، لأنها تتكلف من أمر الولد ما لا يتكلفه الوالد ، ومن ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لمن قال له « مَنْ أَبْرَ » : أَمَّكَ ثُمَّ أَمَّكَ . ثم قال بعد ذلك « أَبَاكَ » . ومما جاء على هذا الأسلوب قوله تعالى « وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون » فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويربكم آياته لعلمكم تغفلون » ^(٣) فقوله تعالى « والله مخرج ما كنتم تكتمون » اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ، وفائدته أنه يقرر في أنفس المخاطبين وقلوب السامعين أن تدارؤ بني إسرائيل في قتل تلك النفس لم يكن نافعاً لهم في إخفائه وكتمانه ، لأن الله مظهر لذلك ومخرج له ، ولو جاء الكلام خالياً من هذا الاعتراض لكان « وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها فقلنا اضربوه ببعضها » ولا يخفى على العارف بهذه الصناعة الفرق بين ذلك وبين كونه معترضاً فيه .

(١) سورة « لقمان » الآية « ١٤ » .

(٢) في الأصل « وصى الوالدين » وهو من غلط النسخ .

(٣) سورة « البقرة » الآية « ٧٢ » .

ومن هذا الجنس قول النابغة :

لعمري وما عمري عليّ بهيّن لقد نطقت بطلاً عليّ الأفاع^(١)

فقوله « وما عمري عليّ بهيّن » من محمود الاعتراض ونادره ، لما فيه من تفخيم المقسم به .
وعلى نحو هذا جاء قول كثير : -

لو أنّ الباخلين وأنت منهم رأوك تعلموا منك المطالا

فقوله « وأنت منهم » من الاعتراض الذي يؤكد به المعنى المقصود فيزداد به مزينة ونبلاً
وفائدها هنا التصريح بما هو المراد تبينه في الأنفس وتقرره في الأذهان ، وقال بعضهم لعبد الله
أبن طاهر أحسن ما قيل في هذا الباب : -

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
وأمثال هذا كثيرة . فاعرفه .

وأما الثاني وهو الذي يأتي في الكلام لنير فائدة فهو ضربان : الأول أن يكون دخوله في
التأليف كخروجه منه ، لا يؤثر حسناً ولا قبيحاً ، فمن ذلك قول النابغة : -

يقول رجال يجهلون خليقتي لعل زياداً لا أبالك غافل

فقوله « لا أبالك » اعتراض لفائدة فيه ، وليس [يؤثر] ^(٢) في هذا البيت حسناً ولا
قبيحاً ، ومثله قول زهير : -

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم
وكذلك قول بعض المحدثين : -

صدودكم والديار دانية أهدى لرأسي ومفرقي شيبا

فذكر المفرق بعد الرأس بما لا فائدة فيه البتة .

ومن هذا القول أو الضرب قول ابن هاني :

فلا مهجة في الأرض منك منيعة ولو قطرت في ريق أرقط أرقم

(١) في الأصل « الأفاع » من غلط الناسخ .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

فان قوله « أرقط » لا حاجة اليه ولا فائدة في ذكره ، إذ لا فضل للارقط من الحيات على غيره من الألوان ولا ضربة ، وأمثال هذا كثيرة .

وأما الضرب الثاني الذي يكون مؤثراً في الكلام نقصاً ، وفي المعنى فساداً ، فما جاء منه قول بعضهم :

فقد والشك بين لي عناءً بوشك فراقهم صردٌ يصيح
فان [في] ^(١) هذا البيت من رديء الاعتراض ما أذكره ، وهو الفصل بين قد والفعل ، الذي هو « بين » وذلك قبيح لوجوب اتصال « قد » بما تدخل عليه من الأفعال ، ألا تراها تعتمد مع الفعل كالجزء منه ، ولذلك دخلت اللام المراد بها تأكيد الفعل على « قد » في قوله تعالى « ولقد أوحى اليك الى الذين من قبلك » ^(٢) وفي قوله تعالى « ولقد علموا لمن اشتراه » ^(٣) . وقول الشاعر :

ولقد أجمع رجليَّ بها حذر الموت وإني لغرور ؟
إلا أنه إذا فصل بين قد والفعل بالقسم فان ذلك لا بأس به ، نحو قولك « قد والله كان ذلك » . وقد فصل بين المبتدأ الذي هو الشك وبين الخبر الذي [هو] ^(٤) عناء بقوله « بين » وفصل بين الفعل الذي هو « بين » وبين فاعله الذي هو « صرد » بخبر المبتدأ الذي هو « عناء » فجاء هذا البيت كما ترى ، فان قبحه لا خفاء به ومن هذا الجنس قول الآخر :

نظرت وشخصي مطلع الشمس ظلّه إلى الغرب حتى ظلّه الشمس قد غفل ^(٥)
أراد « نظرت مطلع الشمس » أي حاذاها ، وعلى هذا التقدير فقد فصل بمطلع الشمس بين المبتدأ الذي هو « شخصي » وبين خبره الجملة وهو قوله « ظلّه إلى الغرب » . وأغلط من ذلك الفصل بين الفعل وفاعله بالأجنبي . وقد تقدم ذكره ، وهذا وأمثاله مما يفسد المعاني ويؤثر بها الاختلال .

(١) زيادة اقتضاها السياق (٢) سورة « الزمر » الآية « ٦٥ » .

(٣) سورة « البقرة » الآية « ١٠٢ » . (٤) زيادة اقتضاها السياق .

(٥) كذا ورد هذا البيت .

واعلم أن النائر في ذلك أكثر ملامة من الناظم ، وأعظم عيباً ، وذلك أن الناظم يحتاج الى إقامة ميزان الشعر ، ويكون مجال الكلام عليه ضيقاً في بعض الاوقات ، فيلجئه طلب الوزن الى إلقاء نفسه في مثل هذه المقايح ، وأما النائر فانه لا يحتاج الى إقامة الميزان الشعري لكلامه ، فلاجل ذلك يتسع عليه مجال التأليف ، وينطلق عنانه فيه كيف يشاء ؛ ولهذا إذا اعترض في كلامه اعتراض^(١) يفسده توجه عليه الانكار ، وحق عليه العتب^(٢) واللام أكثر مما يتوجه على الناظم .

النوع الرابع في الإيجاز

وهو حذف زيادات الكلام

هذا نوع من التأليف شريف لا يكاد يلجئه الا فرسان البلاغة ومن ضرب فيها بالقبح المعلى ، وذلك لعلو منزلته ، وبعد مناله ، والدليل على ذلك أنه أقل أنواع التأليف استعمالاً بين أرباب هذه الصناعة .

واعلم أن العرب اعتنوا بهذا الضرب من الكلام اعتناء زائداً ومما يدلنا على إيثار القوم قوة إيجازهم وحذف فواصل كلامهم ما جاؤا به من الاسماء المستفهم بها والاسماء المشروط بها ، فانهم استغنوا بالحرف الواحد عن الكلام الكثير ، المتناهي في الطول ، فن ذلك قولهم « كم مالك » ألا ترى أنه قد أغناك هذا عن قولك « عشرة مالك أم عشرون أم ثلاثون أم مائة أم ألف ؟ » فلو ذهبت تستوعب الأعداد لم تبلغ إلى ذلك أبداً ، لانه غير متناه ، فلما قلت « كم » أغنتك هذه اللفظة الواحدة عن تلك الألفاظ التي لا يحاط بها ، وكذلك قولك « أين منزلك » فان لفظة « أين » تغنيك عن ذكر الأماكن كلها وكذلك « من عندك » فقد أغنتك هذه اللفظة عن ذكر الناس كلهم . وأما الشرط ففي قولهم « من يقوم أقم معه » كفاية^(٣) عن

(١) في الأصل « اعتراضاً » ولا وجه له ولعله من خطأ النسخ .

(٢) في الأصل « التعب » وهو من سبق قلم الناسخ .

(٣) في الأصل « كفاية » والصواب ما ذكرناه .

ذكر جميع الناس أيضاً ، ولولا ذلك لاحتجت أن تقول « إن يقيم زيد أو عمرو أو جعفر أو نحو ذلك » ثم تقف حسيراً مبهوراً ، ولم تجد الى غرضك سبيلاً ، وكذلك بقية أسماء العموم في غير الايجاب نحو « أحد ودّيار وغيرها » فاذا قلت « هل عندك أحد » أغناك ذلك عن أن تقول « هل عندك زيد أو عمرو أو جعفر » فتطيل ثم تقصر إقصار الكليل المنقطع . وهذا وغيره أظهر أمراً ، وأبدى صفحة وعنواناً ، فجميع ما ذكرناه هاهنا شاهد بانصباب همم القوم الى اختصار كلامهم وإيجاز لغتهم .

واعلم أن جماعة من أرباب هذه الصناعة أجمعوا على أن الكلام ينقسم قسمين : فنه ما يحسن فيه التطويل كالخطب والتقليدات السلطانية ، وكتب الفتوح التي تقرأ في ملاء من عوام الناس ؛ فان الكلام اذا طال في مثل ذلك أثر عندهم وأذهمهم ، ولو اقتصر فيه على الإيجاز والاشارة لم يقع لأكثرهم حتى يقال في ذكر الحرب « تطاعن الفريقان وتقاتلا ، واشتد المصاع وحمي القراع » . وما جرى هذا المجرى ، والمذهب الفصل في هذا الباب ما أذكره لك وهو أن فهم العامة من الناس ليس شرطاً معتبراً في اختياره ، لأن ذلك لو كان شرطاً لوجب قياسه أن يستعمل في الكلام الألفاظ العامة المبتذلة عندهم ، التي قد تداولوها بينهم حتى يكون ذلك أقرب الى فهمهم وأسهل مأخذاً ومتناولها ، لأن العلة في اختيار تطويل الكلام اذا كان فهم العامة له ومعرفة فهم به ، فكذلك نجعل نحن تلك العلة بعينها في اختيار المبتذل في الكلام ، لأنه لاخلاف في أن العامة إلى فهمه أقرب من فهم ما يقل ابتذالهم له ، وتداولهم إياه . وهذا شيء مدفوع لايجوز استعماله ألبتة . وإنما الذي يجب على مؤلف الكلام اعتماده هو أن يسلك المذهب القويم ، ويجهد أن لايزيد ألفاظه على معانيه مع الايضاح^(١) لها والابانة عنها ، فانه إذا فعل ذلك خرج من عهدة الملامة ، وليس عليه أن يفهم العامة كلامه فان نور الشمس اذا لم يره الأعمى [لا]^(٢) يكون ذلك نقصاً في استنارته ، وإنما النقص في بصر الأعمى حيث لايستطيع النظر اليه قال الشاعر :

(١) في الأصل « الاتضاح » وهو من غلط الناسخ . والتصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ٧٤ » .

(٢) زيادة من المثل السائر .

عليّ تحت المعاني من معادنها وما عليّ بأن لا تفهم البقر (١)

وحيث انتهى بنا القول الى هذا الوضع ، فلنرجع إلى ما هو غرضنا ومهمنا ، من الكلام على الایجاز وحدّه وأقسامه . ولنوضح ذلك إيضاحاً جلياً ، فنقول : اعلم أنّ حد الایجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من أقرب طرقه ، وهو ينقسم قسمين : أحدهما الایجاز بالحذف وهو ما يحذف منه المفرد والجملة ، للدلالة (٢) نحو الكلام على المحذوف ، ولا يكون إلا فيما (٣) زاد معناه على لفظه . وأما القسم الآخر فهو ما لا يحذف منه شيء ، بل يترك على حاله ، وهو ضربان : أحدهما ما ساوى لفظه معناه ، ويسمى التقدير ، والآخر ما زاد معناه على لفظه ، ويسمى القصر ، فأما القسم الأول ، وهو الایجاز بالحذف ، وذلك باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الامر ، شبيه بالسحر ، فانك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الافادة أزيد للافادة ، وتجبدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون مبيناً إذا لم تبين ، وهذه جملة تنكرها حتى تحبر ، وتدفعها حتى تنظر (٤) ، وهذا القسم يشتمل على أربعة عشر باباً : الأول الاكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالمسبب عن السبب ، وهو ضرب من الكلام ، تتكاثر محاسنه ، وتزايد لطائفه . فأما الاكتفاء بالسبب عن المسبب فكقوله تعالى « وما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكنّا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر » (٥) كأنه قال « وما كنت شاهداً لموسى وما جرى له وعليه ، ولكنّا أوحيناه اليك » فذكر سبب الوحي على عادة اختصارات القرآن الكريم ، لأن تقدير الكلام « ولكنّا أنشأنا

(١) هذا البيت من قصيدة للبحتري يدح بها علياً الأرمي مطلعها :

في الشيب زجر له لو كان ينزجر وبالغ منه لولا أنه حجر
وقد روي البيت في الديوان :

عليّ تحت القوافي من مقاطعها وما عليّ لهم أن تفهم البقر

« الديوان ج ٢ ص ٤٣ » .

(٢) في الأصل « الدالة » والتصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ٧٨ » .

(٣) في الأصل « مما » والتصحيح من المثل السائر .

(٤) راجع دلائل الاعجاز « ص ٩٥ » .

(٥) سورة « القصص » الآية « ٤٤ » .

بعد الوحي فاندurst العلوم ، فوجب إرسالك اليهم ، فأرسلناك وعرفناك العلم بقرص الأنبياء ، وقصة موسى — عليهم السلام — . وأما الاكتفاء بالسبب عن المسبب فكقوله تعالى « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » تأويله ، والله أعلم ، إذا أردت قراءة القرآن فاكتمف^(١) بالمسبب الذي هو « القراءة » عن السبب الذي هو « الارادة » وهذا أولى من تأويل من ذهب إلى أنه أراد « فادا تعودت فاقرا » لأن في ذلك قلباً لضرورة بك إليه . وأيضاً فإنه ليس كل مستعذ بالله واجبة عليه القراءة ؛ ومن ذلك قوله تعالى « فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه^(٢) ... » فاكتمف بالمسبب الذي هو « الانفجار » عن السبب الذي هو « الضرب » وكذلك قوله تعالى « إذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم » أي اذا أردتم القيام إليها . وأعلم أنه قد ورد في القرآن الكريم ما هو سبب^٣ وهو بعينه مسبب ، كقوله تعالى « فلا يَصُدُّكَ عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » ألا ترى أن العبارة لنهي من لا يؤمن عن صدم موسى ، والمقصود نهى موسى عن متابعة الصاد له عن التصديق بالبعث ، فقد صليحت العبارة إذا لاداء هذين المعنيين ، وذلك أن صد الكفار عن التصديق بالبعث سبب التكذيب ، فذكر السبب ليدل به على المسبب ، وكأنه قال « لاتكذب بالبعث » وأيضاً فإن صد الكفار مسبب عن رخوة الرجل في الدين ، ولين شكيمته ، فذكر المسبب ليدل به على^(٣) السبب كأنه قال « كنى شديد الشكيمة ولا تكن رخواً حتى لا يلوح منك لمن يكفر بالبعث أن يطمع في صدك عما أنت عليه » . وهذا كقولهم « لا أَرَيْنَكَ ههنا » المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته ، وذلك سبب رؤيته إياه ، فكان ذكر المسبب دليلاً على السبب ، وهذا من أطرف ما يرد في بابه فاعرفه .

الضرب الثاني من القسم الأول

من النوع الرابع

وهو الاضمار على شريطة التفسير ، وذلك حذف الجملة من الكلام إذا كان ما بعدها يدل

(١) في الأصل « فاكتمفي » وهو من غلط الناسخ .

(٢) سورة « البقرة » الآية « ٦٠ » . (٣) في الأصل « عن » .

عليها ، وفيها من دقيق الصفة ، وجليل الفائدة ، ما لا خفاء به ، فما جاء منه قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ^(١) » . تقدير الآية « أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أفسى قلبه » ويدل على المحذوف قوله « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » . ومن ذلك قوله تعالى : « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » . تقديره « لا يستوي من أنفق من قبل الفتح ومن أنفق من بعده » . ويدل على المحذوف « أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » . ومن هذا الضرب حذف العلل كقوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام : « قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجملة آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ^(٢) » . « ولنجملة » تعليل معلله محذوف أي وانما فعلنا ذلك لنجملة آية للناس ، ونبين به أثر قدرتنا الباهرة . ومن الأضمار على شريطة التفسير حذف المفعول الوارد بعد المشيئة والارادة كقوله تعالى : « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ^(٣) » . ففعلول شاء هاهنا محذوف وتقديره : ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم ^(٤) لذهب بها ، وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى : « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى » . الآية . ومن هذا الضرب قول البحترى : -

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كرمًا ولم تهدم مآثر خالد ^(٥)

فالأصل في ذلك « لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها » فحذف ذلك من الأول استغناء بدلالته عليه في الثاني ، فان الواجب في حكم البلاغة أن لا تنطق ^(٦) بالمحذوف ، ولا تظهره إلى اللفظ ، ولو أظهرته لصرت ^(٧) إلى كلام غث ومجىء المشيئة بعد لو وبعد حروف الجزاء هكذا

(١) سورة « مريم » الآية « ٢٠ » . (٢) سورة « مريم » الآية « ٢١ » .

(٣) سورة « البقرة » الآية « ٢٠ » . (٤) التتمة من المثل السائر « ج ٢ ص ٧٨ » .

(٥) من كلمة للبحترى يمدح بها الخضر بن أحمد الثعلبي وأولها قوله :

عجباً لطيف خيالك المتعاهد ولوصلك المنقارب المتباعد

(٦) في الأصل « ينطق » وهو من غلط النسخ « والتصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ٩٨ » .

(٧) في الأصل « لضرب » والتصحيح من المثل « ج ٢ ص ٩٨ » .

موقوفة غير معداة الى شيء ، كثير شائع بين البلغاء ، ولقد تكاثر هذا الحذف في « شاء وأراد » حتى إنهم لا يكادون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب نحو قوله تعالى : « لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء ^(١) » الآية . وعلى هذا الأسلوب جاء قول الشاعر :

ولو شئت أن أبكي دماً لبكيتـه عليه ولكن ساحة الصبر أوسع ^(٢)

فلو كان على حد قوله تعالى « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ^(٣) » لوجب أن يقول : لو شئت لبكيت دماً ، ولكن ساحة الصبر أوسع ، ولكنه ترك تلك الطريقة ، وعدل عنها الى هذه ، لأنه أليق في هذا الكلام خصوصاً وسبب حسنه أنه كان بدءاً عجيباً ، أن يشاء الانسان أن يبكي دماً ، فلما كان مفعول المشيئة أمراً عظيماً ، وبدعاً غريباً كان الأحسن أن يذكر ولا يضم . فأعرف ذلك .

الضرب الثالث من القسم الأول

من النوع الرابع وهو حذف الفعل وجوابه

فأما حذف الفعل ؛ فكقوله تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه » حتى « وإنجاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ... ^(٤) » ومن هذا الباب قوله تعالى : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ

(١) سورة « الزمر » الآية « ٤ » .

(٢) هذا البيت للخرمي وقد أورده التبريزي في شرح الحماسة « ج ٢ ص ١٠٥٣ » من طبعة لجنة التأليف والترجمة بحصر ، والخرمي هو أبو يعقوب اسحاق بن حسان ، وكان مولى ابن خريم بن عمرو الناعم المري فنسب اليه ، وهو من شعراء القرن الثاني للهجرة « راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣/٥٤٢ من طبعة ليدن سنة ١٩٠٢ » وقبل هذا البيت في شرح ديوان الحماسة :

وإني وإن أظهرت صبراً وحسبة وصانعت أعدائي عليك لموجع

وجاء في حاشية المثل السائر « ج ٢ ص ٩٩ » أن البيت للخرمي (كذا) من مرثية يرثي بها أبا الهيثم (بن عمار بن خريم) أولها :

قضى وطراً منك الحبيب المودع وحل الذي لا يستطاع فيدفع

وأظر الأغاني ج ١٨ ص ١١٣ طبعة ساسي .

(٣) « سورة الأنعام » الآية « ٣٥ » .

(٤) سورة ٣١ آية ١٥ . وقد جاء في « المثل السائر » بعد هذه الآية الكريمة : « فقله : (وانجاهداك) لا بد له من اضرار القول : أي ، وقتلنا له : إن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » ج ٢/ص ٩٥ .

ألا تعبدوا إلا إياه وبوالدين إحساناً^(١) . وكذلك قوله ، عزَّ اسمه : « ولقد قال لهم هارون من قبل : يا قوم إنما فُتِنْتُمْ بِهِ » الى قوله « .. ولم تَرْقُبْ قَوْلِي^(٢) » ألا ترى كيف حذف الفعل في هذا الموضع مكرراً فإن تقديره : فلما رجع موسى إليهم ، وآمهم على تلك الحالة من عبادة العجل ، قال لأخيه : « ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ... »^(٣) الآية ، وأخذ بلحيته ورأسه ، إنكاراً عليه وغضباً . قال له هارون : « يَا بَنَى أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي » الآية . ومن هذا الضرب إبقاء الفعل على شيئين ، وهو لأحدهما ، كقوله تعالى : « فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ^(٤) » فوقع الفعل من « أجمعوا » على أمركم وشركاءكم ، وهو « لأمركم » وحده . وإنما المراد : أجمعوا أمركم ، وادعوا شركاءكم ؛ لأن معنى « اجمعوا » : من أجمع الأمر ، إذا نواه وعزم عليه . وقد قرأ أبي^(٥) « فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ » وهذا دليل على ما أشرنا إليه ، وكذلك هو مثبت في مصحف عبد الله بن مسعود فاعرف ذلك .

ومن حذف الفعل بابٌ يسمى : « اقامة المصدر مقام الفعل » . وهو باب لطيف المأخذ ، وإنما يفعل ذلك لضرب من المبالغة والتوكيد ؛ كقوله تعالى : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ^(٦) » . قوله : « فَضَرْبَ الرِّقَابِ » وأصله : فاضربوا الأعناق^(٧) ضرباً ؛ فيحذف الفعل ، وأقيم المصدر مقامه ، وفي ذلك اختصار مع اعطاء معنى^(٨)) التوكيد المصدرى ، فاعرفه .

(١) سورة ١٧ آية ٢٣ . (٢) سورة ٢٠ آية ٩٠ .

(٣) سورة ٢٠ آية ٩٢ وتكملة الآية : « ... الا تتبعني ، أف عصيت أمري ، قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ... » .

(٤) سورة ١٠ الآية « ٧١ » .

(٥) أبي بن كعب : صحابي أنصاري من بني النجار من الخزرج قرأ القرآن على النبي - ص - وقرأ عليه النبي - ص - بعض القرآن للإرشاد والتعليم ، وكان سيد القراء ، كان يكتب ويقرأ ، ولما أسلم كان من كتاب الوحي « غاية النهاية في طبقات القراء لشمس الدين ابن الجزري ج ١ ص ٣١ » وقاموس « الأعلام » للزركلي « ج ١ ص ٢٨ » .

(٦) السورة ٤ والآية ٤٧ .

(٧) في المثل السائر : فاضربوا الرقاب ضرباً ، والرقاب هنا أشد مناسبة « ج ٢ ص ٩٥ » .

(٨) زيادة من المثل السائر « ج ٢ ص ٩٥ » .

وأما حذف جواب الفعل ، فإنه يكون في ^(١) الأمر كقوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً ^(٢) .. » الى قوله : « ... تدميراً » ألا ترى كيف حذف جواب الأمر في هذه الآية ؛ فإن تقديره : فقلنا : اذهبوا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فذهبوا اليهم فكذبوهم فدمرناهم تدميراً . فذكر حاشيتي القصة ؛ أولها وآخرها ، لأنها المقصود من القصة بطولها ، يعني إلزام الحجة ببعثة الرسل ، واستحقاق التدمير بتكذيبهم . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ... » ^(٣) الى قوله « ... وهم لا يشعرون » . اعلم أن في جواب الأمر من هذا الكلام محذوفاً تقديره « فأرسله معهم » ، ويدلنا على ذلك ما جاء به بعده من قوله تعالى : (فلما ذهبوا به . كما حذف أيضاً في قوله عز وجل ^(٤)) : « وقال الذي نجا منها وأذكر بعد أمة ^(٥) .. » الى قوله « ... بقرات سمان » . الآية .

جواب الأمر في هذا الموضع محذوف وتقديره . « فأرسلوه الى يوسف فأتاه فقال له : « يوسف أيها الصديق ^(٦) » . وكذلك قوله تعالى : « وقال الملك أئتوني به فلما جاءه الرسول ... » ^(٧) الى قوله : « ... كيد الخائنين » . ففي هذا الكلام حذف واختصار استغني عنه بدلالة الحال عليه ^(٨) ، وتقديره « فرجع الرسول الى الملك برسالة يوسف ، فدعا الملك بالنسوة وقال لمن ما خطبكن ... »

(١) في المثل السائر : « فانه لا يكون في الأمر المحتوم ... » ج ٢ ص ٩٥ .

(٢) سورة الفرقان ، آية « ٣٥ » وتكملة الآية : « ... فقلنا اذهبوا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً ... » .

(٣) وتكملة الآية « ... وانا له لناصحون ، أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ، قال لني ليحزنني ان تذهبوا به وأخاف ان يأكله الذئب واتم عنه غافلون ، قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ، فلما ذهبوا به وأجمعوا ان يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا اليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون .. »

(٤) نقصان أئمنائه من المثل السائر « ج ٢ ص ٩٦ » من الطبعة المذكورة .

(٥) سورة يوسف ، الآية « ٤٥ » . (٦) سورة يوسف الآية « ٤٦ » .

(٧) « » « » « ٥٠ » .

(٨) أراد بالحذف « المحذوف » فأعاد الضمير اليه ، ولو لا ذلك ماصح تعبيره .

فانظر أيها المتأمل الى هذه المحذوفات ، التي كأنها لم تحذف من هذا الكلام لظهور معناها وبيانه ، ودلالة الحال عليه . وعلى نحو من ذلك ينبغي أن تكون المحذوف ^(١) فاعرفها .

الضرب الخامس ^(٢) من القسم الأول

من النوع الرابع

وهو حذف المضاف والمضاف إليه وإقامة كلٍّ منهما مقام الآخر ^(٣) وذلك باب طويل عريض سائغ ^(٤) . في كلام العرب . وإن كان أبو الحسن ^(٥) الأخفش لا يرى القياس عليه ، فأما حذف المضاف فكقوله تعالى : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كلِّ حدب ... » ^(٦) [تحذف المضاف إلى يأجوج ومأجوج ^(٧)] وهو سدّها ، كما تحذف المضاف الى القرية في قوله تعالى : « واسأل القرية ^(٨) » أي أهل القرية . ومن هذا الضرب قوله تعالى : « ولكن البرّ من اتقى ^(٩) » أي برّ من اتقى ، وإن شئت كان تقديره « ولكن ذا البر من اتقى » والأول أجود ، لأن حذف المضاف ضرب من الاتساع ، والخبر أولى بذلك من المبتدأ ، لأن الاتساع يحذف الإعجاز أولى منه بحذف الصدور . وقد حذف المضاف مكرراً نحو قوله تعالى : « فقبضت قبضةً من أثر الرسول » ^(١٠) أي من أثر حافر فرس الرسول . وهذا الضرب أكثر اتساعاً من غيره . وأما حذف المضاف اليه (فانه قليل الاستعمال ؛ فما جاء منه قوله تعالى) ^(١١) : « لله الأمر من قبل ومن بعد » ^(١٢) أي من قبل ذلك ومن بعده .

(١) المحذوف : جمع حذف .

(٢) الضرب الرابع ربما كان سافطاً من ناسخ الكتاب ، وهو في المثل السائر « حذف المفعول به » . أنظره في ج ٢ ص ٩٧ من « المثل السائر » طبعة محمد محي الدين عبد الحميد سنة ١٩٣٩ بمطبعة مصطفى الحلبي بالقاهرة .

(٣) المثل السائر « ج ٢ ص ٩٩ » . (٤) في المثل السائر « شائع » .

(٥) أنظر حاشية ص ٢٩ من هذا الكتاب . (٦) الأنبياء ، الآية (٩٦) .

(٧) زيادة من المثل السائر ج ٢ ص ٩٩ . (٨) يوسف ، الآية (٨٢) .

(٩) سورة البقرة (١٨٩) . (١٠) طه الآية (٩٦) .

(١١) زيادة في المثل السائر « ج ٢ ص ١٠٠ » . (١٢) الروم (٤) .

الضرب السادس من القسم الأول

من النوع الرابع

وهو حذف الموصوف والصفة وإقامة كلٍّ منهما مقام الآخر . وأكثر ذلك يجيء في الشعر ، وإنما كانت كثرتة في الشعر دون الكلام المنتثر ؛ لأنَّ القياس يكاد يحظره ؛ وذلك لأنَّ الصفة تأتي في الكلام على ضربين : إما للتأكيد والتخصيص وإما للمدح والذم ، وكلاهما من مقامات الاسهاب والتطويل ، لا من مقامات الإيجاز والاختصار . وإذا كان الأمر كذلك لم يلحق الحذف به . هذا مع ما يضاف إلى ذلك من الالتباس وضدَّ البيان ، ألا ترى أنك إذا قلت : « مررت بطويل ^(١) » لم يبين من ظاهر هذا اللفظ الممرور به ؛ إنسان هو أم رمح أم ثوب أم غير ذلك . وإذا كان الأمر كذلك فحذف الموصوف إنما هو شيء قام الدليل عليه أو شهدت به الحال . وكلما أستهبهم الموصوف كان حذفه غير لائق .

ومما يؤكد عندك ضعف حذف الموصوف أنك تجد ^(٢) من الصفات ما لا يمكن حذف موصوفه ؛ وذلك أن تكون الصفة جملةً نحو : « مررت برجل قام أبوه ، ولقيت (غلاماً ^(٣)) وجهه حسن » ألا تراك لو قلت : مررت بquam أبوه ولقيت وجهه حسن لم يجز .

وأعلم أنه قد أقيمت الصفة الشبيهة ^(٤) بالجملة مقام الموصوف المبتدأ في قوله تعالى : « وإنا من الصالحون ومننا دون ذلك » . (أي قوم دون ذلك ^(٥)) فأما حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها فإنه لا يكون إلا فيما دلت الحال عليه ، فمن ذلك ما حكاه صاحب الكتاب ^(٦) من قوله : « سير عليه ليل » وهم يريدون : ليلٌ طويلٌ . وإنما حذف الصفة في هذا

(١) في الأصل « صدرت بطويل » والتصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ١٠١ » .

(٢) في الأصل « تحذف » والتصحيح من المثل أيضاً « ج ٢ ص ١٠٢ » .

(٣) زيادة من المثل السائر « ج ٢ ص ١٠٢ » .

(٤) زيادة من المثل السائر اقتضاها السياق « ج ٢ ص ١٠٢ » .

(٥) التكملة من المثل السائر « ج ٢ ص ١٠٢ » .

(٦) يعني بصاحب الكتاب « سيويه » وقد قاله هو أيضاً في المثل السائر « ج ٢ ص ١٠٢ » .

وأظر حاشية ص ٢٨ من هذا الكتاب .

الموضوع لما دلّ من الحال على موضعها ، وذلك أنه يحسن في كلام ألقائل ^(١) لذلك من التصريح والتلويع والتفخيم والتعظيم بما يقوم مقام قوله : « طويلٌ » أو نحو ذلك . وأنت تحسّ ^(٢) هذا من نفسك إذا تأملتَه ؛ وهو أن يكون في مدح إنسان والثناء عليه (فتقول : « كان ^(٣) » واللهِ رجلاً » فتزيد في قوة اللفظ بالله في هذه الجملة وتمكن في مَطِ اللام وإطالة الصوت بها ؛ أي رجلاً فاضلاً ، أو شجاعاً ، أو كريماً ، أو ما جرى هذا المجرى من الصفات ، وكذلك تقول : « سألناه فوجدناه ^(٤) » (إنساناً ^(٥) أي) إنساناً سمحاً أو جواداً أو ما أشبهه . وتمكن الصوت « بإنسان » وتفخمه ، وتستغني عن وصفه بقولك : « إنساناً سمحاً أو جواداً أو ما أشبهه » فعلى هذا أو نحوه تحذف الصفة ، فأما إن عريت من الدلالة عليها من اللفظ والحال فإن حذفها لا يجوز . ألا تراك لو قلتَ : « ورَدْنَا البصرة فاجتزنا بالأبلة ^(٦) » على رجل ، أو « رأينا إنساناً » ثم سكتَ لم يفد ذاك شيئاً ؛ لأن هذا ونحوه مما لا يخلو ذلك المكان منه ، وإنما المقصود أن تصف من ذكرت وما ذكرت ، فإن لم تفعل فقد كلّفتَ علمَ ما لم تدأُل عليه ، وهذا اغوٌ من الحديث وجورٌ في التكليف .

ومن حذف الصفة ما روي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لرجل المسجد إلا في المسجد » أي لا صلاةً كاملةً أو فاضلةً أو نحو ذلك . فاعرف ما أشرنا إليه وتدبره فإنه ضرب من الكلام رقيق وغورٌ من العربية سحيق ^(٧) .

(١) في الأصل « كذلك » والتصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ١٠٢ » .

(٢) في الأصل « تحسن » وهي من سبق قلم النساخ ، والتصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ١٠٢ » .

(٣) زيادة من المثل السائر . « ج ٢ ص ١٠٣ » .

(٤) زيادة من المثل السائر . « ج ٢ ص ١٠٣ » .

(٥) زيادة من المثل السائر .

(٦) الأبلة : بضم أول وثانيه وتشديد اللام وفتحها . وهي بلدة كانت على شاطئ دجلة قريبة من البصرة ، وهي أقدم منها . قال الأصمعي جنات الدنيا ثلاث : غوطة دمشق ، ونهر بلخ ونهر الأبلة . وقد نسب إليها جماعة من رواة العلم ، أنظر المجلد الأول من كتاب « معجم البلدان لياقوت الحموي » وكانت قرب أبي الحصيب البلدة الحالية ، ونهرها هو نهر الحورة الحالي .

(٧) يستدرك على المؤلف في هذا الباب أن حذف الموصوف في باب المفعول المطلق جائز دائماً نحو « أقام طويلاً وفكر كثيراً » .

الضرب السابع من القسم الأول من النوع الرابع

وهو حذف الشرط وجوابه

فأما حذف الشرط فنحو قوله تعالى : « يا عبادي الذين آمنوا إنَّ أرضي واسعة ، فإياي فاعبدون » ^(١) . ألا ترى أن الفاء في قوله : فاعبدون ، جواب شرط محذوف ؛ لأن المعنى : أن أرضي واسعة ، فإن لم تخلصوا لي العبادة في أرضي فأخلصوها في غيرها ، ثم حذف الشرط ، وعوض من حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديره معنى الاختصاص والاختصاص .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : « فمن كان منكم مريضاً ، أو به أذى من رأسه ففدية » ^(٢) أي فحسبَ فعلية فدية ، وكذلك قولهم : « الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً نجيهاً ، وإن شراً فشرها » أي (إن) ^(٣) فعل المرء خيراً جزى خيراً ، وإن فعل شراً جزى شراً . ومن حذف الشرط قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم » ^(٤) والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون » ^(٥) . اعلم أن هذه الفاء في قوله تعالى « فهذا يوم البعث » هي الفاء التي في قول الشاعر :

... فقد جئنا خراسانا ^(٦)

(١) سورة « العنكبوت » الآية « ٥٦ » (٢) سورة « البقرة » الآية « ١٩٦ »

(٣) زيادة من المثل السائر « ج ٢ ص ١٠٤ » .

(٤) في الأصل « الكتاب » وهو من تحريف النسخ .

(٥) سورة « الروم » الآية « ٥٥ ، ٥٦ » .

(٦) في الأصل « فقد جئتم » والصحيح ما أثبتناه نقلاً من كتاب « دلائل الإعجاز » للبرجاني

ص ٧١ طبعة المنار سنة ١٣٦٧ وقد نسب البرجاني إلى العباس بن الأحنف وهو :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم الفول . فقد جئنا خراسانا

وبعده في الديوان :

متى يكون الذي أرجو وآمله أما الذي كنت أخشاه فقد كانا

وهذه الأبيات قالها ابن الأحنف لما خرج مع الرشيد إلى خراسان انظر ص ٢٤٠ من « شرح ديوان

العباس بن الأحنف » تحقيق الاستاذ عبد الحميد الملا ، طبعة نعيان الأعظمي سنة ١٩٤٧ .

وحقيقتها أنها^(١) جواب شرط محذوف يدل عليه الكلام ، كأنه قال : « إن صح ما قلتم أن خراسان أقصى ما يراد بنا ، فقد جئنا خراسانَ وأن لنا أن نخلص » . وكذلك هذه الآية يقول تعالى : « إن كنتم منكربن البعث فهذا يوم البعث » أي قد تبين بطلان قولكم . وأمثال ذلك كثيرة ، فاعرفه .

وأما حذف جواب الشرط ، فكقوله تعالى : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله^(٢) ... » إلى قوله : « ... الظالمين » . فان جواب الشرط هاهنا محذوف تقديره : إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ، أستم ظالمين . ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » وأمثال هذا كثيرة ، وهو ضرب من علم البيان ، تتوفر لطائفه ، فاعرفه .

الضرب الثامن من القسم الأول من النوع الرابع

في حذف القسم وجوابه

وأما حذف القسم ، فنحو قولك : « لَأَفْعَلَنَّ » ، أو غير ذلك من الأقسام^(٣) المحلوف بها . وأما حذف جوابه ، فكقوله تعالى : « وَالْفَجْرُ وليالٍ عشر »^(٤) إلى قوله « .. مثلها في البلاد » . فان جواب القسم هاهنا محذوف ، تقديره : لنعدن ، أو نحوه . ويدل على ذلك ما بعده من قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ... »^(٥) إلى قوله : « سَوَّطَ

(١) في الأصل « أن » والتصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ١٠٥ » .

(٢) سورة الاحقاف « آية ١٠ » وتكملة الآية : « وآمن واستكبرتم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين ... »

(٣) الأقسام هاهنا : جمع القسم بمعنى الحلف .

(٤) سورة الفجر « الآية الأولى ، وتكملة الآيات : « ... والشفع والوتر ، والليل اذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر ، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرْمَ ذات العمد التي لم يخلق مثلها في البلاد » الآيات من ١ - ٨ .

(٥) سورة الفجر « آية ٦ » وتكملة الآيات : « ... إِرْمَ ذات العمد التي لم يخلق مثلها في البلاد وئود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب » الآيات من ٦ - ١٣ .

عذاب . ومن هذا النحو قوله تعالى : « ق ، والقرآن المجيد » ^(١) ، ... « إلى قوله : « عجيب » . فان معناه : والقرآن المجيد لتُبْعَثُنَّ ، والشاهد على ذلك ما جاء بعده ، من ذكر البعث في قوله : أنذا مِتْنَا وكنا ترابا ، ذلك رجوع بعيد » ^(٢) . وقد ورد هذا الجنس في القرآن كثيراً .

الضرب التاسع من القسم الأول من النوع الرابع

في حذف « لو » وجوابها

وهو من ألطف ضروب الایجاز وأحسنها ، فأما حذف « لو » فكقوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولدٍ وما كان معه من إله إذاً لذهب كلُّ إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض » ^(٣) . وأما حذف جوابها (فكقوله تعالى) ^(٤) : « ولو ترى إذ فزِعوا فلا قَوَتْ وأُخِذُوا من مكان قريب » ^(٥) . فان جواب « لو » ههنا محذوف وتقديره « لرأيت ^(٦) أمراً عظيماً ، وحالاً هائلة » أو غير ذلك مما جرى هذا المجرى .

ومن هذا الجنس قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين أو يعلم .. » ^(٧) إلى قوله « ولا هم ينصرون » . تقديره : لو يعلمون الوقت الذي يستمجلونه ؛ وهو وقت صعب ، شديد ، محيط بهم ، فيه النار من وراء وقدام ، فلا يقدرّون على دفعها عن أنفسهم ، ولا يجدون ناصراً ينصرهم ، لما كانوا بتلك الصفة ، من الكفر والاستهزاء والاستعجال ،

(١) سورة « ق » وتكلمة الآية : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب » .

(٢) سورة « ق » آية ٣ .

(٣) سورة « المؤمنون » الآية « ٩١ » ، وزاد في المثل السائر « تقدير ذلك : إذ لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق » ج ٢ ص ١٠٦ .

(٤) زيادة اقتضاها الايضاح . (٥) سورة « سبأ » آية ٥١ .

(٦) في الأصل « لو رأيت » والتصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ١٠٧ » .

(٧) سورة « الأنبياء » آية ٣٨ وتتمة الآية « لو يعلم الذين كفروا ، حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون » .

ولكن جهلهم به هو الذي هوّنه عليهم .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « لو أنه لي بكم قوّةً أو آوي الى ركنٍ شديد ^(١) » فجواب « لو » في هذا الموضع محذوف ، كما حذف في قوله تعالى : « ولو أن قرأنا سيّرت به الجبال ^(٢) » أي لو أن لي بكم قوة لدفعتمكم أو منعتمكم ، أو ما أشبهه . وكذلك (قوله تعالى) : « ولو أن قرأنا سيّرت به الجبال » أي : لكان هذا القرآن .

الضرب العاشر من القسم الأول من النوع الرابع

في حذف جواب « لما » وجواب « أمّا » وجواب « إذا »

فأما جواب « لما » فكقوله تعالى « فلما أسأما وتلّه للجبين ، ونادياه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا . إنا كذلك نجزي المحسنين ^(٣) » فان جواب « لما » ها هنا محذوف وتقديره « فلما أسأما وتلّه للجبين ونادياه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا كان ما كان مما ^(٤) تنطق به الحال ، ولا يحيط به الوصف ، من استبشارها واغتباطها ، وشكرها على ما أنعم به عليها ، من دفع البلاء العظيم ، بعد حلوله ، وما أشبه ذلك مما اكتسباه بهذه المحنة ، من عظام الوصف ، دنيا وآخرة . وقوله « إنا كذلك نجزي المحسنين » . تعليل ^(٥) ما خولها من الفرح والسرور بعد تلك الشدة العظيمة .

وأما حذف جواب « أمّا » فنحو قوله تعالى : « فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتهم بعد إيمانكم ^(٦) » .

وأما حذف جواب « إذا » فثاله تعالى : « وإذا قيل لهم اتّقوا ما بين أيديكم وما

(١) سورة « هود » الآية « ٨٠ » .

(٢) سورة « الرعد » الآية « ٣١ » وتكملة الآية « ... أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى . »

(٣) سورة « الصافات » والآية « ١٠٣ » .

(٤) في الأصل « مما يضيق به » والتصحيح من المثل السائر ج ٢ ص ١٠٩ .

(٥) في المثل السائر « تعليل لتخويل ما خولها ... » ج ٢ ص ١٠٩ .

(٦) سورة « آل عمران » الآية « ١٠٦ » .

خلفكم لعلكم ترحمون وما تأتيتهم من آيةٍ من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين^(١) . ألا ترى كيف حذف الجواب عن « إذا » من الكلام ، وهو مدلول عليه بقوله تعالى « إلا كانوا عنها معرضين » . كأنه قال « إذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون » . ثم قال : ودأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة .

الضرب الحادي عشر من القسم الأول من النوع الرابع

في حذف « لا » من الكلام وهي مرادة وذلك كقوله تعالى : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف^(٢) حتى تكون حرصاً أو تكون من الهالكين » فقوله : « تفتأ » يريد : لا تفتأ فحذف « لا » من الكلام ، وهي مرادة . والمعنى : تأنه لا تزال تذكر يوسف .

ومن هذا الضرب قول امرئ القيس :

فقلت : عيى الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي^(٣)
تقديره : لا أبرح قاعداً ، فحذفت : « لا » من هذا الموضع ، وهي مرادة ، وقس عليه .

الضرب الثاني عشر من القسم الأول من النوع الرابع

في الاستئناف

وهو حذف السؤال المقدور ؛ وذلك ضرب من التأليف لطيف الأمر ، عجيب المغزى ، ولا تجدد باباً من أبواب الحذف أحسن مأخذاً منه ، ولا أطرف^(٤) خبراً ، وهو ينقسم قسمين : الأول : إعادة الأسماء والصفات .

(١) سورة « ياسين » الآية « ٤٥ » وما بعدها .

(٢) سورة « يوسف » الآية « ٨٥ » .

(٣) هذا البيت من قصيدة له مطلعها :

الاعم صباحاً أيها الظلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الحالي ؟!

أنظر ديوان امرئ القيس شرح حسن السندوي ، الطبعة الثالثة ص ١٥٨ مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

(٤) في الأصل « أطرف » .

اعلم أن هذا القسم يجيء تارة بإعادة اسم من تقدم الحديث عنه ، كقولك : « أحسنت الى زيد ، زيد ^(١) حقيق بالاحسان » وتارة يجيء بإعادة صفة ، كقولك (أحسنت الى زيد) صديقك القديم أهل لذلك منك » وهو أحسن من الأول وأبلغ ، لانطوائه على بيان الموجب للاحسان وتخصيصه ، فما جاء من هذا الباب قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ^(٢) ... » الى قوله « ... المفلحون » .

اعلم أنه لما قيل « هدى للمتقين » بأن الكتاب لهم هدى فاتجه للسائل أن يقول : « ما بالهم خصوا بذلك » ؟ فوقع قوله : « الذين يؤمنون بالغيب » الى سياقه كالجواب ، وجيء بصفة « المتقين » المنطوية تحتها خصائصهم التي استوجبوا بها من الله — عز وجل — اللطف والاختصاص على غيرهم ، أي الذين هذه عقائدهم وأعمالهم أحقاء بأن يهديهم الله وأن يعطيهم الفلاح .

وإن جعلت قوله تعالى : « ... الذين يؤمنون بالغيب ... » الى آخر قوله : « ... وبالأخرة هم يوقنون ^(٣) » تابعاً « للمتقين » ، وقع الاستئناف على « أولئك » كأنه قيل : « وما للمتقين » . بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى ؟ فأجبت : أن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس ، بالهدى عاجلاً ، وبالفلاح آجلاً ، فافهم ذلك وتدبر رموزه ودقائقه .
الثاني : الاستئناف بغير إعادة الأسماء والصفات .

وذلك كقوله تعالى : « وما لي لا أعبدُ الذي فَطَرَنِي واليه تُرْجَعُونَ » الى قوله « ... المكرمين ^(٤) » .

(١) الزيادة من « المثل السائر » ج ٢ ص ٨٢ .
(٢) سورة « البقرة » الآية الأولى ، وتكملة الآية : « الذين يؤمنون بالغيب وقيمون الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .
(٣) سورة « البقرة » الآية « ٣ » .

(٤) سورة ياسين الآية : « ٢٢ » وتكملة الآية « أُنْخِذْ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدْنَ مِنَ الرِّحْمِ بَصُرَ لَا تَنْفَعُ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقَذُونَ . إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ . قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ » .

اعلم أن مخرج هذا القول مخرج الاستئناف ، لأن ذلك من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه ، كأن^(١) قائلاً قال له : « كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه بعد ذلك التصلب في دينه والتسخّي لوجهه بروحه » ؟ فقيل : قيل ادخل الجنة ، ولم يقل : « قيل له » لانصباب الغرض الى القول وعظمه لا الى القول له^(٢) مع كونه معلوماً .

وكذلك قوله تعالى (يا ليت قومي^(٣)) مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد .
ومن هذا القسم أيضاً قوله تعالى : « يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف (تعملون) الى قوله « معكم رقيب^(٤) » .

اعلم أن مخرج الفرق بين إثبات الفاء في سوف كقوله تعالى : « قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعملون من يأتيه عذاب » يخزيه « ويحلّ عليه عذاب مقيم » . وبين حذف الفاء ههنا في هذه الآية (أن^(٥)) إثباتها وصل ظاهراً بحرف موضوع للوصل ، وبحذفها^(٦) وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤالٍ مقدر ، كأنهم قالوا : ماذا يكون اذا عملنا نحن على مكانتنا ، وعملت أنت ؟ فقال : « سوف تعملون » فوصل تارةً بالفاء وتارةً بالاستئناف ، للتفنين في البلاغة على عادة بلغاء العرب . وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف . وهو قسم من أقسام علم البيان تتكاثر محاسنه .

الضمرب الثالث عشر من القسم الأول من النوع الرابع

في حذف الواو وإثباتها

اعلم أنه حذفت الواو وأثبتت في مواضع ، فأما إثباتها فكقوله تعالى : « وما أهلكنا من

(١) كأن مكررة ، ولا نرى لزوماً لتكرارها .

(٢) أنظر المثل السائر « ج ٢ ص ٨٣ » .

(٣) سورة هود آية (٩٣) وتكملة الآية « ... من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو كاذب ، وارتقبوا إني معكم رقيب » .

(٤) سورة الزمر آية « ٤٠ » . (٥) زيادة من المثل السائر « ج ٢ ص ٨٣ » .

(٦) في المثل السائر : « وحذفها » ج ٢ ص ٨٣ .

قرية إلا لها منذرون^(١) . وعلى هذا فلا يجوز حذف الواو وإثباتها في كل المواضع ، وإنما يجوز ذلك فيما هذا سبيله من هاتين الآيتين لا غير .

ولنبين^(٢) في ذلك رسماً تتبعه فنقول : إعلم أن كل اسم نكرة جاء خبره بعد « إلا » يجوز إثبات الواو في خبره وحذفها كقولك « ما رأيت رجلاً إلا وعليه ثياب » وإن شئت (قلت^(٣)) « إلا عليه ثياب » ، فإن كان الذي يقع على النكرة (ناقصاً^(٤)) فلا يكون إلا بحذف الواو ، نحو قولك « ما أظن درهماً إلا هو » كافيك « ولا يجوز « إلا وهو كافيك » لأن الظن يحتاج إلى شيئين فلا يعرض^(٥) فيه بالواو لأنه يصير^(٦) كالسكتفى من الأفعال باسم واحد ، وكذلك أخوات^(٧) « ظننت » وكان وإنَّ وما أشبههما « نخطأ أن تقول : « إن رجلاً وهو قائم » و« أظن رجلاً وهو قائم » . أو « ما كان رجل إلا وهو قائم » ، ونحو ذلك ، ويجوز هذا في « ليس » خاصة ، تقول : « ليس أحد إلا وهو قائم » لأن الكلام يتوهم تمامه بليس وبحرف ونكرة^(٨) ، ألا ترى أنك تقول « ليس أحد وما من أحد » ، فجاز فيها ولم يجوز في « أظن » لأنك لا تقول : « ما أظن أحداً » . فأمّا « أصبح وأمسى ورأيت » فإن الواو فيهن أسهل لأنها توأم^(٩) في حال ، و« كان وأظن » ونحوها بنين على النص إلا إذا كانت تامة ، وكذلك (لا)^(١٠) التبرئة وغيرها نحو « لا رجل ، وما من رجل » فيجوز إثبات الواو فيها وحذفها . فاعرف ذلك وقس عليه .

(١) سورة « الشعراء » والآية « ٢٠٨ » .

(٢) في المثل السائر « ج ٢ ص ١١٢ » « ولنبين لك في ذلك » .

(٣) زيادة من المثل السائر . (٤) زيادة من المثل السائر ج ٢ ص ١١٢ .

(٥) في الأصل « فلا تعرض » والتصحيح من المثل السائر .

(٦) في الأصل « لا يصير » والتصحيح من المثل السائر ج ٢ ص ١١٢ .

(٧) في المثل السائر « جواب » .

(٨) زياده الواو من المثل السائر ، وانظر حاشيته هناك ج ٢ ص ١١٢ .

(٩) في المثل السائر « توأم في حال » ولا نراه مستقيماً فالتوأم بتشديد الميم جمع تامة .

(١٠) زيادة واجبة وفي المثل السائر « في التنزيه » ولا نرى له وجهاً . لأن « التبرئة » يراد بها نفي

الجنس كما هو معروف في كثير من كتب النحو كشرح الكافية للرضي الأستراباذي « ج ١ ص ١١٨ - ٩ » طبعة استانبول ، وبذلك سماها مفسر المفصل للزحشري « ص ٤٠٦ . مطبعة التقدم بمصر » .

الضرب الرابع عشر من القسم الأول من النوع الرابع

في الحذف الذي يوجب الاختلال في الكلام

وذلك ما يحذف من أصل اللفظ وهو إسقاط بعض حروفه . ولا يحسن استعماله في التأليف لكنه يجوز ؛ لأن العرب قد أوردته في أشعارها واستعملته في كلامها ، فحذفت بعض الالفاظ استخفافاً حذفاً يخل بالباقي ويعرض له بالشبهة . ألا ترى الى قول علقمة ^(١) :

كأن إبريقهم ظبي على شرف مفدّم بسبا ^(٢) الكتّان ملثوم ^(٣)
فمّوله « .. بسبا الكتّانة » يريد « بسباب الكتّان » وكذلك قول لبّيد :
دَرَسَ النّسا بمتالع فأبان ^(٤)

أراد « المنازل » وعلى نحو من هذا جاء قول أبي دؤاد ^(٥) :
يُنْذِرِينَ جَفَدَلَ حائِرٍ لْجَنُوبِهَا ^(٦) فكأنما تذكي سنابكها الحُبا ^(٧)
أراد « الحبّاب » .

(١) هو علقمة بن عبدة شاعر جاهلي من بني تميم ، يقال له الفحل . كان يتازع امرأ القيس الشعر ، وقد احتكما الى زوجة امرئ القيس ام جندب ، فاستنشدتها على قافية واحدة ، وروي واحد ، وحكمت لعلقمة أنظر ص ١٠٧ من كتاب « الشعر والشعراء » وبينه هذا من قصيدة أولها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبّلتها إذ نأنتك اليوم مصروم ؟

(٢) في الأصل « مقدّم بسبا الكتّان ملثوم » وهو من تحريف النساخ .

(٣) الشرف : المكان العالي ، والقدم وزان كتاب : خرقه تجعل في ام الأبريق .

(٤) تمام البيت « فتقادت بالحبس بالسوبان » ومتالع : اسم جبل بنجد . وأبان اسم جبل أيضاً وهما أبانان : الأبيض والأسود . والسوبان واد في بلاد العرب . « أنظر كتاب الضرائر وما يسوغ للشاعر روى النائر ص ٦٠ طبعة المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤١ » للسيد محمود شكري الآلوسي .

(٥) هو أبو دؤاد الأيادي : شاعر جاهلي مشهور قال ابن قتيبة فيه : « ... اختلفوا في اسمه ، فقال بعضهم هو جارية بن الحجاج ، وقال الأصمعي هو حنظلة بن الشرقي ... وهو أحد نعات الخيل الحميدين » أنظر ص ١٢١ وما بعدها من كتاب : « طبقات الشعراء » طبعة بريل في مدينة ليدن سنة ١٩٠٢ ، وانظر « الموشح » ص ٧٣ للمرزباني .

(٦) في الأصل « بدرين جندل جائر بحنونها » .

(٧) يذرين مضارع « أذرى » مسنداً الى نون الاناث والمراد بها الخيل . والجندل : الصخر . والحبّاب : رجل من بني محارب بن حصفة ضرب بناره المثل لأنه كان لا يوقد إلا ناراً ضعيفة مخافة الضيفان وقيل الحبّاب ذباب ذو ألوان يطير بالليل وفي ذنبه شعاع كالسراج ومنه نار الحبّاب المضروب بها المثل لضعفها « أنظر اللسان في مادة « حبّج » وحاشية المثل السائر « ج ٢ ص ١١٣ » وغيرها .

وهذا وأمثاله قليل جداً فاعرفه . وإياك ، أيها المؤلف ، أن تستعمله في كلامك وإن كان
كان جائزاً . وقد ورد في أشعار العرب مثله .

وأما القسم الثاني من النوع الرابع فهو الإيجاز من غير حذف ؛ وذلك ضربان : الأول
ما يساوي لفظه معناه ويسمى التقدير؛ فما جاء منه قوله تعالى : « قتل الانسان ما أ كفره ، من أي
شيء خلقه ^(١) ... » الى « يقض ما أمره » . فقوله : « قتل الانسان » دعاء عليه . وقوله :
« ما أ كفره » تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله - عز وجل - . ولا ترى أسلوباً أغلظ من
هذا الدعاء والتعجب ، ولا أحسن متناولاً ، ولا أدل على سخط مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع
للآئمة على قصر مَتنه . ثم إنه أخذ في صفة حاله من ابتداء حدوثه الى منتهى زمانه ، فقال
تعالى : « من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدّره » . إي هيأه لما يصلح له « ثم السبيل
يسّره » أي سهل سبيله وهو مخرجه من بطن أمه ، والسبيل الذي يختار سلوكه من طريقي
الخير والشر . والأول أولى ، لانه تال لخلقته وتقديره . ثم بعد ذلك تيسيره سبيله لما يختار من
طريقي الخير والشر . « ثم أماته فأقبره » أي جعله ذا قبر يوارى فيه . « ثم إذا شاء أنشره »
أي أحياءه . « كلا » : ردع للانسان عما هو عليه « لما يقض ما أمره » أي لم يقض ، مع تطاول
زمانه ، ما أمره الله - عز وجل - يعني أن إنساناً لم يخلُ من تقصير قط .

الا ترى الى هذا الكلام الذي لو أردت أن تحذف جزءاً من أجزائه لما قدرت على ذلك ؟
لأنك كنت تذهب بجزء من معناه ، ويختل عليك نظمه ؛ فان أسقطت الجملة الأولى التي هي
صدر الكلام زال معنى الدعاء عليه ، وإن أسقطت الجملة الثانية ، زال معنى التعجب من كفران
نعمة ربه . وإن أسقطت الجملة الاستفهامية ، أو غيرها زال ما تضمنته من المعاني ^(١) التي لولاها
لما كان ، فاعرف ذلك .

ومن هذا الضرب قول علي بن جبلة ^(٢) :

(١) سورة « عبس » آية ١٧ وما بعدها ، وتكلمة الآية : « ... من نطفة خلقه فقدّره ، ثم السبيل
يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره ... »

(٢) في الأصل « المعنى » . والجمع هو الذي يقتضيه السياق .

(٣) علي بن جبلة : ويعرف بالكوك شاعر مشهور ، كان ضريراً دقيق الفطنة ، سهل النظم ، وصافاً
مجيداً ، مدح المأمون وحيد بن عبد الحميد الطوسي والحسن بن سهل وإبا دلف القاسم بن عيسى ولد سنة
١٦٠ وتوفي سنة ٢١٣ ، أنظر : « الشعر والشعراء » لابن قتيبة طبعة اوربا ص ٥٥٠ وما بعدها . =

وما لامرئ حاولته عنك مهربٌ
 بلى هارب لا يهتدي لمكانه
 ولو حملته في السماء المطالع
 ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع
 فهذا هو الكلام ، الذي ألفاظه وفاق معانيه . فانه قد اشتمل على مدح رجل ، (في) (١)
 شمول ملكه ، وعموم سلطانه ، وأن لا مهرب عنه لمن يحاوله وإن صعد السماء ، ثم ذكر جميع
 المهارب ، في المشارق والمغارب ، فأشار الى أنه يبلغ حيث يبلغ الضياء والظلام ، وذلك مما لم ترد
 عبارته على المعنى المندرج تحته ولا قصرت عنه .

ومن هذا النحو ما جاء في كتاب النوادر (٢) . قول بعضهم :

ما أقرب الأشياء حين يسوقها قدر وأبعدها إذا لم تقدر !
 فصل اللبيب تكن لبيناً مثله من يسع في علم بلب يهر
 وتدبر الأمر الذي تعنى به لا خير في عمل بغير تدبر
 فلقد يجد المرء وهو مقصر ويخيب سعي المرء غير مقصر
 ذهب الرجال المقتدى بفعالهم (٣) والمذكرون لكل أمر منكر
 وبقيت في خلف يزين بعضهم بعضاً ليدفع معور عن معور
 فهذا النمط الرضي ، والكلام العلي ، والمنهج القويم ، والصراط المستقيم تروك بهجته ،
 إذا قرع سمعك ، ويؤنسك اذا سكن قلبك ، قدرقي درجات الایجاز ، الى أن يكاد ينزل
 بساحة العجاز ، وأمثال ذلك كثير في كلام البلغاء ، وفيما ذكرته كفاية ومقنع .

الضرب الثاني من القسم الثاني من النوع الرابع

فما زاد معناه (٤) على لفظه

ويسمى هذا الضرب « الایجاز بالقصر » ، والقرآن الكريم ، لأن من ذلك ، كقوله
 = وتاريخ الخطيب البغدادي « ج ١١ ص ٣٥٩ » وطبقات الشعراء لابن المعتز « ص ٧٦ » والوفيات
 « ج ١ ص ٣٨٣ » طبعة بلاد العجم ، ونسكت الهميان في نسكت الهميان للصفدي « ص ٢٠٩ » .
 (١) زيادة اقتضاها السياق .
 (٢) النوادر اسم عدة كتب منها « النوادر » في اللغة لأبي زيد الأنصاري وهو مطبوع ونوادر
 الأعراب للأصمعي .

(٣) في الأصل « بافعالهم » ولا يستقيم به وزن الشعر .

(٤) في الأصل « فيما زاد معناه على معناه في لفظه » ولا وجه له .

تعالى « من كفر فعليه كفره »^(١) كلمة جامعة لما لا غاية وراءه ولا أمدّ فوقه من المضارّ ، لأن من ضاره كفره فقد أحاطت به كل مضرة ، وكذلك قوله تعالى « ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي ... »^(٢) الى قوله « ... وما هدى » فقوله تعالى « فغشيه من اليم ما غشيه » من جوامع الكلم التي تستقل مع قلبها بالمعاني الكثيرة . أي غشيه من الأمور الهائلة ، والخطوب الفادحة ما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى ، ولا يحيط به غيره ، وعلى نحو من ذلك قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان »^(٣) الآية فإن هذه الآية من أجمع آية في القرآن الكريم ، وقيل إن النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأها على الوليد بن المغيرة^(٤) فقال له : « يا ابن أخي أعد » فأعاد النبي - عليه السلام - قراءتها عليه . فقال له « إنَّ له لحلاوة ، وإنَّ عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول بشر » . ومن هذا الضرب أيضاً قوله تعالى « فاصدع بما تؤمر »^(٥) فانها ثلاث كلمات تشتملُ على أمر الرسالة وشرائعها وأحكامها على الاستقضاء . وأما قوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »^(٦) فانه قد جمع في هذه جميع مكارم الأخلاق ، لأن في الأمر بالمعروف صلة الرحم ، ومنع اللسان عن الريبة ، وعن الكذب ، وغضَّ الطرف عن المحرمات » وغير ذلك من أشياء لا تحصى . وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وغيرها . وقد قال بعض الأعراب في الدعاء : « اللهم هب لي حقك وأرض عني خلقك » . ألا ترى الى هذه الكلمات (و)^(٧) ما حوت من المعاني

(١) سورة « الروم » والآية « ٤٤ » .

(٢) سورة « طه » والآية ٧٧ ، وتكملة الآية : « ... فاضرب لهم طريقاً في البحر يبسا لا تخاف دركاً ولا تخشى ، فأتبهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيه » وأضل فرعون قومه وما هدى ... » .

(٣) سورة النحل الآية « ٩٠ » وتكملة الآية . « ... وإتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعالمكم تذكرون ... » .

(٤) الوليد بن المغيرة : هو الوليد بن المغيرة المخزومي كان موسراً وكان له عشرة من البنين ، ناصب الاسلام العداء ، وكان يقول لأبنائه وللجمته : « من أسلم منكم منعتهم مني » أنظر الكشف للزمخشري

ج ٤ ص ٥٨٧ طبعة مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٤٦ .

(٥) السورة « الحجر » والآية « ٩٤ » وتكملة الآية « ... وأعرض عن المشركين ... » .

(٦) السورة « الأعراف » والآية « ١٩٩ » . (٧) زيادة يقتضيها السياق .

الكثيرة من العفو عن الزلل ، والتجاوز عن الذنب ، وغير ذلك مما جرى هذا المجرى . وأما إرضاء الخلق فينطوي على أشياء طائلة لا يستغفرها الذكر .

ومن ذلك قوله تعالى : « أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ^(١) » فانه أدخل تحت الأمن جميع المخوفات ^(٢) ، لأنه نفى به أن يخافوا شيئاً من الفقر والموت وزوال النعمة ونزول النقمة ، وأضاف ذلك من أضاف المكاره .

وسمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رجلاً يقول لآخر : كفاك الله ما أهمك . فقال : هذه البلاغة . فاعرف ذلك .

وأعلم أن الأصل المعتبر في الإيجاز بالقصر أنك تذكر شيئاً يقع على محتملات متعددة ، ألا ترى إلى قوله (تعالى) : « فغشيه من اليمّ ما غشيه » . وقوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ... » . الآية ، وقوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر » . وقوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، وقوله تعالى : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » . فان هذه الآيات جميعها جارية في النهاج الذي أشرنا إليه ، من أنك تذكر شيئاً يقع على محتملات متعددة ، وأمثال ذلك في القرآن الكريم كثيرة .

ومن الإيجاز بالقصر بابٌ يسمى « باب أفعل » ، وهو التفضيل بين شيئين لا يشتركان في الصفة التي يفضل بهما أحدهما على الآخر . فمن ذلك قوله تعالى : « قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدّاً ^(٣) » . إلى قوله : « .. وخيرٌ مهرداً » فقوله ، « خير عند ربك ثواباً » من مفاخرات الكفار ، وإنما قال « خيرٌ ثواباً » وقد علم أن مفاخرات الكفار ليس لها

(١) السورة « الأنعام » والآية « ٨٢ » .

(٢) في المثل السائر « جميع المحبوبات » « ج ٢ ص ١٢٤ » .

(٣) السورة « مريم » والآية « ٧٥ » وتكملة الآية : « ... حتى إذا رأوا ما يوعدون ، أما العذاب واما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً واضعف جنداً ، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مهرداً » .

ثواب حتى يجعل ثواب الصالحات خيراً منه ، لأن ذلك على طريقة قولهم :

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

فَكَانَتْهُ قَالَ : ثَوَابُهُمُ النَّارُ ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ « خَيْرٌ ثَوَاباً » . وفي ذلك ضرب من التهمك الذي هو أغبط للتهدد من أن يقال له « عقابك النار » . فان قيل : فما وجه التفضيل في الخير بين مفاخرات الكفار وثواب الصالحات ؟ قلت : هذا من أوجز كلام العرب . ومثله قولهم « الصيف أحرّ من الشتاء » . أي أبلغ في حرّه من الشتاء في برده . وهذا جائز ، لأن الحر لا شك تتفاوت درجاته ، فيكون بعضها أشد من بعض ، وكذلك البرد أيضاً ، فتقول العرب « الصيف أحرّ من الشتاء » أي إن حر الصيف في بابه أبلغ من برد الشتاء في بابه ، مثال ذلك : أن حر الصيف قد بلغ أنهي درجاته ، بل يكون قد بقى بينه وبين نهاية البرد درجة أو درجتان ، فيكون حر الصيف بالنسبة إلى أصل الحر أبلغ من برد الشتاء بالنسبة إلى أصل البرد . وهذا مثل قولهم « العسل أحلى من الخلل » وليس في الخلل حلاوة حتى تفضّل حلاوة العسل عليها ، وإعنا المعنى في ذلك كلمعني في الآية الأولى .. وأمثال هذا كثيرة ، وقد ورد في القرآن الكريم في مواضع منه ، كقوله تعالى في سورة الفرقان : « وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُّقْرَّنِينَ ، دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ^(١) .. » إلى قوله « ... جزاء ومصيراً » وقد علم أن جهنم ليس فيها خير حتى يجعل الجنة خيراً منها ، بل هي شر محض ، وعذاب لاخير فيه .

والأصل في هذه الآية ما أشرنا إليه أولاً .. فأعرفه انشاء الله - تعالى - .

النوع الخامس

من الباب الأول من الفن الثاني في الاطناب

إعلم أن هذا النوع من أنواع علم البيان ، شديد الالتباس . كثير الاعتياص وذلك أن

(١) سورة الفرقان آية : ١٣ وتكملة الآية : « ... لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً » .

جماعة من الأئمة المشهورين في هذه الصناعة قد جعلوه بمنزلة التتويل الذي هو ضد الایجاز . وهذا غلط فاحش .

فن جملة الأئمة الذين ذكروا ذلك ، أبو هلال العسكري^(١) صاحب كتاب الصناعتين . فانه قال في كتابه : « الإطناب في الكلام إنما هو بيان ، والبيان لا يكون إلا للشباع ، وأفضل الكلام أبينه ، والایجاز للخواص ، والاطناب يشترك فيه الخواص والعوام ، ولأمر ما أطنب في السكتب السلطانية في إفهام الرعايا . وكما أن الایجاز له موضع ، فكذلك الاطناب له موضع ، والحاجة إلى الایجاز في موضعه ، كالحاجة إلى الاطناب في موضعه^(٢) » .

« وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » . ومن استعمل الایجاز في موضع الاطناب أو الاطناب في موضع الایجاز فقد أخطأ .

ولا شك أن الكتب الصادرة عن السلطان في الأمور العظيمة في الفتوح والتفخيم (في)^(٣) مواقع النعم المتجددة ، أو في الترغيب في الطاعة ، والتحذير من العصيان ، وغير ذلك ، ينبغي أن تكون مشبعة مستقصاة » ، ألا ترى أن كتاب المهلب إلى الحجاج في فتح الأزارقة : « الحمد لله الذي كفى الاسلام فقد ما سواه ، وجعل الحمد متصلاً بنعمته ، وقضى أن لا ينقطع المزيد من فضله ، حتى ينقطع الشكر من خلقه . ثم إننا وعدونا على حالين مختلفتين ، نرى فيهم ما يسرنا أكثر مما يسوؤنا ويرون فينا ما يسوؤهم وأكثر مما يسرهم . فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم : ينصرنا الله ويخذلهم ، ويمحّصنا ويمحقهم حتى بلغ الكتاب بنا وبهم أجله فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » .

(١) أنظر حاشية الصفحة الثانية من هذا الكتاب .

(٢) انظر كتاب الصناعتين ص ١٨٣ وما بعدها من الطبعة الثانية من طبعة محمد علي صبيح بالأزهر بمصر ، والكلام قد لحصه ابن الأثير تلخيصاً عن العسكري .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

وإنما يحسن هذا الكتاب لكونه في موضعه ، فأما لو كتب الى العامة ، وقد تطلعت نفوسهم الى معرفة ذلك الفتح العظيم ، وتصرفت بهم ظنونهم في أمره ، لجاء في أقبح صورة عندهم وأهجنها » .

« واعلم ، أن الإطناب بلاغة ، والتطويل عيٌّ ؛ فإن الإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيدة نزهة ، تحتوي على زيادة فائدة ، بما تأخذ النفس فيه من اللذة ، والتطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب » .

فهذا حكاية كلام أبي هلال العسكري^(١) . ولندكر نحن ما عندنا في ذلك ، فنقول :
أما قول أبي هلال : « الإطناب في الكلام ، إنما هو بيان » فان البيان في أصل اللغة : هو الظهور والوضوح ؛ فيكون الإطناب ، على قوله ، ظهوراً في الكلام ووضوحاً لا غير ، ويلزم على ذلك ؛ أن يكون كل كلام ظاهري واضح إطناباً ، سواء كان ذلك الكلام ، إيجازاً أو غيره من أصناف علم البيان . وهذا مما لم يذهب اليه أحد ، لأن أبا هلال قد جعل الإطناب وصفاً من الأوصاف التي يشترك فيها جميع ضروب الكلام . وذلك أن البيان وصف يعم كل كلام ظاهر واضح ، عن إيجاز أو تطويل أو تكرير أو غير ذلك . وليس الأمر كما وقع له ، بل الإطناب نوع واحد من أنواع الكلام ، فإن أصله (في)^(٢) وضع اللغة من « أطنب في الكلام » إذا بالغ فيه . والمبالغة لها وجوه وطرق ، كالإخبار بالفعل الماضي عن المضارع ، وبالمضارع عن الماضي ، وتوكيد الضمير المتصل بالمنفصل ، وغير ذلك مما أشرنا اليه في كتابنا .

ومن جملة الوجوه والطرق التي للمبالغة الإطناب ، وسيأتي ذكره وتحقيق القول فيه ، عند الفراغ من الاعتراض على كلام أبي هلال . وأما قوله : « إن البيان لا يكون إلا بالإشباع » لأنه جعل الإطناب بياناً في القول الأول ، وهذا لا يخلو من حالين : إما أنه يعني بالإشباع أن يوصل المعنى الى حقه ، مأخوذاً ذلك من « الشَّبع » يقال « شبع فلان » ، إذا وصل في أكله الى حقه ، وقدر كفايته ، فان كان يعني بالإشباع ما ذكرناه فإن ذلك أمر عام لجميع ضروب الكلام

(١) انظر حاشية ص ٢ من هذا الكتاب . (٢) زيادة اقضاهما السياق .

من الإيجاز ، والتكرير ، والمقابلة ، والتفسير ، وغيرها ، مما أشرنا اليه ، فإن كل ضرب من هذه الضروب المذكورة ، إذا وصل الكلام فيه الى حقه ، يكون إطناباً ، فذلك من أعجب الأشياء وأطرفها . وإن كان يعني بالإشباع الزيادة على قدر ما يستحقه الكلام ويحتاج اليه ، وذلك هو التطويل بعينه ، فانه يلزم من هذا القول ، أنّ التطويل في الكلام ، إذا كان واضحاً بيناً ، يكون من أفضل الكلام ، وذلك ما لا يوافق عليه ، بحال من الأحوال ، بل كان يحتاج في قوله : « إنّ أفضل الكلام أبينه » الى قرينة أخرى ، وهو أن كان قال « أفضل الكلام أوجزه وأبينه » ، فانه لو قال ذلك ، لكان قوله صواباً لا يخالف فيه ، وأما قوله « وكما أن الإيجاز له موضع ، فكذلك الاطناب له موضع ، والحاجة الى الإيجاز في موضعه كالحاجة الى الاطناب في موضعه ، ومن استعمل الإيجاز في موضع الاطناب والاطناب في موضع الإيجاز فقد أخطأ » فكانه توهم من هذا القول ، أن الاطناب ضد الإيجاز ، وإذا كان الأمر كذلك فهو التطويل بعينه .

ومما يقوى هذا الوهم قوله أيضاً (إن الإيجاز للخواص ، والاطناب يشترك فيه الخواص والعوام) . وأما قوله إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » فان كان غرضه من قول النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة كل فريق من الناس بما يفهمونه فهذا لا يتعلق بصنف واحد من صنوف الكلام ، إطناباً كان ذلك أو إيجازاً أو غيرها ، إذ الإيهام يشتمل على انواع الكلام جميعها ، ومتى لم يكن الكلام مفهوماً واضح المعاني فليس عندنا محسوباً في جملة علم البيان ، ولا نعهده من صناعة التأليف بشيء .

وقد يخاطب مؤلف الكلام العامة بأوحش الخطاب وأحقره ، ويفهمون من ذلك قوله ، ويعرفون خطابه . فان الأصل في الكلام : انما هو كشف معانيه للمخاطب وإيضاحها له ، وسواء عند ذلك خوطب به الخاصة أو العامة ، فاعرف هذا وقس عليه .

ومعنى قول النبي — صلى الله عليه وسلم — : « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » أي كلوهم بما يعرفونه من الألفاظ ويعتادونه بينهم من الكلام ، كما كتب عليه السلام الى كسرى

أبرويز فقال : « من محمد رسول الله الى كسرى أبرويز عظيم فارس ، سلام الله على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله [وشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمدًا عبده ورسوله ^(١)] ، وبعد ، فإني رسول الله الى الناس كافة . لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فأَسْلِمَ تسليماً وان أبيت فاثم المجوس عليك » ^(٢) وكتب — عليه السلام — أيضاً الى قوم من العرب فقال لوائل بن حجر : « من محمد رسول الله إلى الأقبال العباهلة أهل حضرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة على التبعة شاة والقيمة لصاحبها وفي السيوب الخُمُسُ لا خلّاط ولا وراط ولا شنّاق ولا شغار ومن اجبى فقد أرْبى ، وكل مسكر حرام » ^(٣) . فسهل الألفاظ الى كسرى أبرويز غاية التسهيل بحيث إنها لا تخفى على من له تشبّث باللغة ^(٤) العربية ، ولما كتب الى أولئك القوم من العرب خاطبهم بما تقوى عليه قدرتهم ، وهم معتادون لسماح مثله ، فهذا هو المقصود بقوله — صلى الله عليه وسلم — « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » ، وليس المقصود من ذلك ما ذهب اليه أبو هلال العسكري (من مخاطبة قوم بالابحاز ، وقوم بالاطناب) الذي هو على قياسه محض التطويل .

وإذا كان الأصل في الكلام إنما هو بيانه ووضوحه فا الفائدة من تطويله ، مع القدرة على اختصاره وإيجازه ؟!

وأما قوله : « إنَّ الإطناب البلاغة ، والتطويل عي » فهو لعمري كذلك ، الا أنه على أصله يكون قد جعل البيان بلاغة ؛ لأن الاطناب عنده إنما هو بيان ، ويلزم على ذلك أن التطويل في الكلام إذا كان ذا بيان ، يكون بليغاً . وهذا ما لم يذهب اليه أحد البتة ، لأنه بضد الصواب وأما قوله « إن الاطناب بمنزلة سلوك طريق بعيدة ، نزهة ، تحتوي على زيادة الفائدة ، بما تأخذ النفس فيه من اللذة . والتطويل بمنزلة سلوك ما يبعد ، جهلاً بما يقرب » فإن هذا تمثيل صحيح

(١) زيادة من تاريخ الطبري ، وقد سقطت من النسخ ، ج ٢ ص ٢٩٥ طبعة مطبعة الاستقامة بمصر .

(٢) راجع حاشية ص ٢٤ من هذا الكتاب .

(٣) راجع حاشية ص ٢٤ وما بعدها ، وقد شرحت فيها ألفاظ الحديث الشريف .

(٤) في الأصل « بلغة العربية » .

مناسب لما مثل به الا أنه كان يحتاج الى زيادة إيضاح . وهو أن يجعل المعنى المراد في كلام ما بمنزلة المقصد الذي يتوجه إليه السائر ، ويجعل الى ذلك المقصد ثلاثة طرق : أحدها قريب إليه ، والآخران بعيدان عنه ، متساويان في البعد . ويجعل الدلالة على ذلك المعنى المراد بالايجاز بمنزلة الطريق القريب ، ويجعل الدلالة عليه بالاطناب بمنزلة أحد الطريقين البعيدين ، ويجعل الدلالة عليه بالاطناب بمنزلة الطريق الآخر المساوي له في البعد ، الا أنه نزه يحتوي على زيادة فائدة ، بما تأخذ النفس منه من اللذة . فهذه ثلاث تمثيلات مناسبة لما مثلت به فاعرفها .

وحيث انتهى بنا القول الى هذا الموضع وفرغنا من الكلام على ما ذكره أبو هلال في باب الاطناب ، فلنورد نحن ما عندنا من ذلك فنقول :

اعلم أن الاطناب في أصل اللغة مأخوذ من « أطنب في الكلام : اذا بالغ فيه » . وقد ذكرنا ذلك أولاً في الاعتراض على كلام أبي هلال .

واعلم أن المبالغة تنقسم الى أقسام كثيرة ، وقد سبق ذكر شيء منها ، كالأخبار بالفعل الماضي عن المضارع ، وبالمضارع عن الماضي . وسأبني ذكر الباقي في كتابنا هذا .

ومن جملة أقسام المبالغة الاطناب ، وفائدته زيادة التصوّر للمعنى المقصود وإما حقيقة وإما مجازاً . وهو على الحقيقة ضرب من ضروب التأكيد ، فأما ما جاء من ذلك على سبيل الحقيقة فقوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ^(١) » فإن الفائدة في قوله تعالى « في جوفه » كالفائدة في قوله « القلوب التي في الصدور ^(٢) » وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصوّر للمدلول عليه ، لأنه اذا سمع به صور نفسه جوفاً (يحتوي) على قلبين . فكان ذلك أسرع للانكار .

وأما الذي جاء منه على سبيل المجاز فقوله تعالى : « فأنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ففائدة ذكر الصدور ها هنا أنه قد تعورف وعلم أن العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها ، واستعماله في القلب استعارة ومثل .

(١) سورة الأحزاب ، الآية « ٤ » . (٢) سورة الحج ، الآية « ٤٦ » .

فلما أريد إثبات ما هو بخلاف المتعارف من نسبة العمى الى القلوب حقيقة ، ونفيه عن الأبصار . احتاج هذا الأمر الى زيادة تصوير وتعريف ، ليتقرر أن مكان العمى إنما هو القلوب لا الأبصار . وهذا نوع من أنواع علم البيان ، وافر اللطائف ، كثير المحاسن . فينبغي لمؤلف الكلام العناية به والمراعاة له ، فاعرفه .

النوع السادس من الباب الأول من الفن الثاني

في تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل

وانما يفعل ذلك لضرب من المبالغة

فما جاء منه قوله تعالى : « قالوا يا موسى إما أن تُلقِيَا وإما أن نكون نحن الملقين ^(١) » . فقولهم « يا موسى إما أن تلقي » تخيير منهم له ، وحسن أدب راعوه معه ، كما يفعل أرباب الصناعات اذا تلاقوا في تقديم بعضهم على بعض كالمتناظرين قبل أن يتخاضوا في الجدل . وانما قالوا « واما أن نكون نحن الملقين » ولم يقولوا « واما أن تلقي » كما قالوا « يا موسى ، اما أن تلقي » لرغبتهم في أن يلقوا قبله وتشوقهم الى التقدم عليه وذلك لما فيه من تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل .

ومما يجري على هذا المنهاج قوله عز وجل : « فأوجس في نفسه خيفةً موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ^(٢) » . فتوكيد الضمير ههنا في قوله : « إنك أنت الأعلى » أنفى للخوف من قلب موسى ، وأثبت في نفسه للغلبة والقهر ، ولو قال : « لا تخف إنك الأعلى » أو « لا تخف فأنت الأعلى » لم يكن له من التقرير والاثبات لنفي الخوف من قلب موسى ، ما لقوله : « إنك أنت الأعلى » .

والدليل على ذلك ، أن في هذه الثلاث كلمات وهو قوله تعالى : « إنك أنت الأعلى » . ست فوائد : الأولة : « أن » المشددة التي من شأنها الاثبات لما يأتي بعدها ، كقولك : « زيد

(١) سورة « الأعراف » والآية « ١١٥ » . (٢) سورة « طه » والآية « ٦٧ » .

قائمٌ» ، ثم تقول « إنَّ زيدا قائمٌ » . ففي قولك : « إن زيدا قائمٌ » . من الاثبات لقيام زيد والتقرير له ، ما ليس في قولك : « زيد قائمٌ » .

الثانية : تكرير الضمير في قوله تعالى : « إنك أنت الأعلى » . ولو اقتصر على أحد الضميرين ، فقال : إنك الأعلى ، أو على : « فأنت الأعلى » ، لما كان بهذه المثابة من التقرير لغلبة موسى ، والاثبات لقهره .

الثالثة : التمرير في قوله « الأعلى » ، ولم يقل : إنك أنت أعلى أو عال ؛ لأنه لو قال ذلك لكان قد نكَّره ، وكان صالحاً لكل واحد من جنسه ، كقولك : « رجل » فانه يصلح أن يقع على كل واحد من الرجال . وإذا قلت : « الرجل » فقد خصصته من بين الرجال بالتعريف ، وجعلته عاماً فيهم . وكذلك قولك : « إنك أنت الأعلى » : أي أنت الأعلى دون غيرك .

الرابعة : لفظة « أفعل » الذي من شأنه التفضيل ، ولم يقل العالي .

الخامسة : إثبات الغلبة له من العلو ، لأن الغرض من قوله « الأعلى » ، أي الأغلب ، إلا أن في الأعلى زيادة وهي الغلبة من « عال » .

السادسة : الاستئناف ، وهي قوله : « إنك أنت الأعلى » . ولم يقل : « لأنك أنت الأعلى » لأنه لم يجعل علّة انتفاء الخوف عنه كونه غالباً ، وإنما نفي الخوف عنه أولاً بقوله : « لا تخف » ، ثم استأنف الكلام ، فقال : « إنك أنت الأعلى » فكان ذلك أبلغ في إيقان موسى — عليه السلام — بالغلبة والاستعلاء ، وأثبت لذلك في نفسه .

فهذه ست فوائد في هذه الكلمات ^(١) الثلاث . فانظر أيها المتأمل إلى هذه البلاغة العجيبة ، التي تحيّر العقول ، وتذهبُ بالألباب . ولا أمر ما أعجز هذا الكلام العزيز البلغاء ، وأخف الفصحاء ، ورجلَ فرسان الكلام .

فان قيل : لو كان تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ من الاقتصار على أحدهما ، لورد ذلك

(١) أشار الزمخشري في كشفه الى هذه الفوائد الست وزاد ابن الأثير أن شرحها ووضحها انظر « الكشاف » ج ٣ ص ٧٤ طبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٦٥ هـ وسنة ١٩٤٦ م .

عند ذكر الله نفسه في كتابه ، (لأنه) ^(١) هو أحق بما هو أبلغ من الكلام . وقد رأينا في القرآن الكريم مواضع تختص بذكر الله تعالى ، وقد ورد فيها أحد الضميرين دون الآخر ، كقوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتُعزّ من تشاء ، وتُذلّ من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير ^(٢) » . فما الموجب لذلك إن كان تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ في بابه من الافتصار على أحدهما دون الآخر ؟ فقد كان يجب أن يرد ذلك عند ذكر الله تعالى نفسه ، لأنه أحق بالأبلغ من الكلام . وإن كان الأمر بخلاف ذلك ، فكيف قلت : إن تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ ؟

الجواب عن ذلك أنا نقول : تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل إنما يرد في الكلام لتقرير المعنى المقصود ، وإثباته في النفس ، وما يختص بالله تعالى لا يفتقر إلى تقرير ولا إثبات ، لأنه إذا قيل عنه : « إنك على كل شيء قدير » ، لم يحتج في ذلك إلى تأكيد حتى يتحقق ويتبين أنه على كل شيء قدير ، بل قد عُلِمَ وعرف أن قدرته تتعلق بكل شيء ، وأنها جارية على كل مخلوق ، فصار هذا الأمر المعروف المشهور ، الذي لا شكّ يعتريه ، ولا مِرية تعترضه . وما هذا سبيله في الوضوح والبيان ، فما الحاجة فيه إلى التوكيد ؟ إذ التوكيد من شأنه تقرير المعنى المراد ، وإثباته في النفس ، وقوله تعالى : « إنك على كل شيء قدير » لا يحتاج فيه إلى تقرير ولا إثبات .

فإن قيل : فقد ورد في القرآن الكريم أيضاً ، عند ذكر الله تعالى نفسه ، كلا الضميرين : المنفصل والمتصل ، كقوله تعالى : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس ، اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ^(٣) ؟ » إلى « ... علام الغيوب ^(٤) » كما قال : « إنك على كل شيء قدير » فما السبب في هذا ؟ وهلا كان الجميع نوعاً واحداً ؟!

الجواب عن ذلك أنا نقول : تأكيد الضميرين أحدهما بالآخر في هذه الآية لا ينفق علينا

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) السورة آل عمران ، الآية ٢٦ .

(٣) السورة : المائدة ، الآية : ١١٦ ، وتكملة الآية : « ... قال : سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب » .

ما أشرنا إليه أولاً ؛ لأنه إن وقع الاختصار على أحدهما دون الآخر ، كان القول في ذلك ما تقدم في الآية ، وإنما جيء بهما معاً فلأن ذلك أبلغ في بابه وآكد ، والله تعالى أحق بما هو أبلغ من الكلام وآكد .

ولننزل لك في أسـتعمال الضميرين معاً والاختصار على أحدهما دون الآخر ، مثلاً تتبعه ، فنقول : إذا كان المعنى المقصود ظاهراً معلوماً قد ثبت في النفوس ، ورسخ في الألباب فانت بالخيار : بين أن تؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه وبين أن تقتصر على أحدهما دون الآخر . لأنك أن وكدت الكلام فيه فقد أعطيت المعنى حقه . وإن لم تؤكد الكلام فيه فلائنه لا يحتاج الى تأكيد لبيانه وظهوره ، وإذا كان المعنى المقصود خافياً ليس بظاهر ولا معلوم . فالاولى تأكيد أحد الضميرين فيه بالآخر ، ليقرره ويكسبه وضوحاً وبياناً . ألا ترى إلى قوله تعالى في حق موسى عليه السلام : « قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ^(١) » . فانه لما كان ظهور موسى على السحرة وقهره لهم أمراً مستتراً في ضمن الغيب ، لا يعلم ولا يعرف وأراد الله عز وجل - أن يخبره بذلك ؛ لينذهب عنه الخوف والحذر ، آتى بالأبلغ من الكلام ، ليكون ذلك أثبت في نفس موسى ، وأقوى دليلاً عليه في انتفاء الخوف عنه . فوكّد الضمير المتصل بالمنفصل . فجاء المعنى كما ترى . ولو قال « إنك الأعلى » أو « فأنت الأعلى » ، لكان ذلك أيضاً إخباراً لموسى بنفي الخوف عنه ، واستظهاره على السحرة ، ولكن ليس له من التقرير في نفس موسى ما لقوله : « إنك أنت الأعلى » . فاعرف ذلك وقس عليه .

وعلى نحو من هذا قوله تعالى : « قالوا يا موسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمَلِيقِينَ » . فان إرادة السحرة الالتقاء قبل موسى - عليه السلام - لم تكن معلومة عنده . لأنهم لم يصرحوا بما في أنفسهم من ذلك ، لكنهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم لموسى بمثله إلى ما هو تأكيد مما هو لهم ، بالضمير المتصل بالمنفصل ، علم أنهم يريدون التقدم عليه والالتقاء قبله ، لأن

من شأن مقابلة خطابهم لموسى بمثله أن كان ، قالوا : إما أن تلقني وإما أن نلقى . لتكون الجملةتان متقابلتين . فحيث قالوا عن أنفسهم « وإما ان نكون نحن الملقين » استدلل بذلك على رغبتهم في الإلقاء قبله .

وهذه معان لطيفة ورموز غامضة لا ينتبه لها إلا الفطن اللبيب ، فاعرفها .

النوع السابع من الباب الأول من الفن الثاني

في الكناية والتعريض

اعلم أن لهذا النوع من الكلام موقفاً شريفاً ، ومحلاً كريماً . وهو مقصور على الميل مع المعنى ، وترك اللفظ جانباً . وذلك نوع من علم البيان لطيف . وقد تكلم جماعة المؤلفين في هذا الفن فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض ، ولم يفرقوا ^(١) بينهما ، بل أوردوا لها [أمثلة] ^(٢) من النظم والنثر ، وأدخلوا أحد القسمين في الآخر ، فذكروا للكناية أمثلة من التعريض ، وللتعريض أمثلة من الكناية ، فمنهم أبو محمد بن سنان الخفاجي ^(٣) ، وأبو هلال العسكري ^(٤) ، والفانمي ^(٥) . فأما ابن سنان ، فإنه ذكر في كتابه قول امرئ القيس :

فصرنا إلى الحسنى ورق كلاهها ورضتُ فذلتُ صعبة أي إذلال ^(٦)

وهذا مثال ضربه للكناية عن المباذمة ، وهو مثال للتعريض . وسنورد لك أيها الناظر في كتابنا فرق ما بين الكناية والتعريض ، وتمييز أحدهما عن الآخر ، ونعرف كلا منهما على انفراد فنقول :

أما الكناية فهي : أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كما كنى الله تعالى عن الجماع :

(١) في الأصل تكرار اللفظة « لم يفرقوا » وهو من تحريف النسخ .

(٢) زيادة لما يقتضيه السياق .

(٣) انظر حاشية ص ٣ من هذا الكتاب . (٤) انظر حاشية ص ٢ من هذا الكتاب .

(٥) انظر حاشية ص ٢ من هذا الكتاب .

(٦) هذا البيت من قصيدة له مطلعها :

الا عم صباحاً أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

ديوان امرئ القيس طبعة « مطبعة الاستقامة بالقاهرة » ص ١٣٨ .

« باللمس » فإن حقيقة « اللمس » هي « الملامسة » يقال : لمست الشيء إذا لامسته ^(١) ، ولما كان الجماع « ملامسة بالأبدان وزيادة أمر آخر » أطلق عليه اسم : « اللمس » مجازاً . وضد الكناية التصريح .

وأما التعريض : فهو أن تذكر شيئاً يدل على شيء لم تذكره وأصله : التلويح من عرض الشيء ؛ أي من جانبه ، وأعلم أن (بيت) ^(٢) امرؤ القيس الذي ذكره ابن سنان الخفاجي مثالا للكناية ، هو عين التعريض ، فإن غرضه من ذلك أن يذكر الجماع ، غير أنه لما استقبح ذكره لم يذكره بل ذكر كلاماً آخر ، ودل به عليه ؛ لأن المصير الى الحسنى ورقة الكلام ، لا يفهم منها ما أراد امرؤ القيس من المعنى ، وذلك مما لا خفاء به ، فاعرفه .

وحيث فرقنا بين الكناية والتعريض ، وهما يتركان كلياً عن الآخر ، فلنفصلهما ونذكر أقسامهما ، ولنبدأ أولاً بالكناية فنقول :

اعلم أن الكناية على ضربين : أحدها ما يحسن استعماله (والآخر ما يقبح استعماله) ^(٣) ، وهو عيب في صناعة التأليف . فأما الضرب الأول الذي يحسن استعماله فإنه ينقسم الى أربعة أقسام :

الأول : التمثيل : وهو التشبيه على سبيل الكناية ، وذلك أن تراد الإشارة إلى معنى ، فتوضح ألفاظ (تدل) على معنى آخر ، وتكون تلك الألفاظ وذلك المعنى مثلاً للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه كقولنا « فلان نقي الثوب » . أي منزعه عن العيوب .

وللكلام بها ، فائدة لا تكون لو قصدت المعنى بلفظه الخاص ، وذلك لما يحصل للسامع من زيادة التصور للمدلول عليه ؛ لأنه اذا صور نفسه مثال ما خوطب به كان أسرع الى الرغبة فيه أو الرغبة عنه . فمن بديع التمثيل قوله تعالى : « أيجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » ^(٤) . فأما تمثيله الاغتياب بأكل لحم إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله لحم الأخ ولم يقتصر على لحم الأخ حتى جعله ميتاً ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالحب ،

(١) في الأصل « فإن حقيقة المس هي الملامسة يقال مسست الشيء .. »

(٢) زيادة اقتضاها السياق .

(٤) السورة « المجرات » والآية « ١٢ » .

(٣) زيادة اقتضاها السياق .

وهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة المعنى الذي وردت لأجله^(١) فشديد المناسبة جداً ، وذلك لأن الإغتياب ، إنما هو ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم (وتمزيق العرض^(٢)) مماثل لأكل (الإنسان)^(٣) لحم من يغتابه ، لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة . وأما قوله « لحم أخيه » فلما في الإغتياب من الكراهة ، لأن العقل والشرع معاً قد أجمعا على استكراهه وأمرنا بتركه ، والبعد عنه . ولما كان كذلك جعل بمنزلة لحم الأخ في كراهته . ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر مثله ، إلا أنه لا يكون مثل كراهته (لحم)^(٤) أخيه ، فهذا القول مبالغ في استكراه الغيبة ، لا أمد فوقها . وأما قوله « ميتاً » فلا أجل أن الغتاب لا يشعر بغيبته ، ولا يحسن .

وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالحبة ، فلما جبلت عليه النفوس من الميل الى الغيبة والشهوة لها . مع العلم بأنها من أذى الخلال ، ومكروه الأفعال ، عند الله تعالى والناس . فأُنظر أيها المتأمل لهذا التمثيل كيف مطابقة لما مُثِّلَ به تجده من أبلغ التمثيلات وأندرها^(٥) مثلاً ، لأنك متى نظرت الى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع ، التي أوردناها رأيتها مناسبة لما قصدت له ؛ فتمزيق العرض مثل أكل الإنسان لحم من يغتابه : لأن ذلك تمزيق على الحقيقة ، و (جَمِلَ بمنزلة) لحم الأخ لأجل المبالغة في الكراهة . و « الميت » لامتناع الإحساس به . واتصال ما هو مستكره بالحبة لما في طبع النفس من الشهوة للغيبة والميل اليها ، فاعرف ذلك .

ومن هذا القسم قوله - تعالى - « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط^(٦) » فثل البخل بأحسن تمثيل لأن البخيل ، لا يمد يده بالعطية ، كالغلول الذي لا يستطيع أن يمد يده . وإنما قال : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » ولم يقل « ولا تجعل يدك مغلولة^(٧) » من

(١) قدم الناسخ في قول المؤلف وآخر وكرر حذفنا المكرر ورتبنا الكلام .

(٢) زيادة من المثل السائر « ج ٢ ص ٢٠٣ » .

(٣) في الأصل « وأبدعها » وهو غير مستقيم .

(٤) السورة « الإسراء » والآية « ٢٩ » . (٥) زيادة اقتضاها السياق .

غير العنق ، لأنه قال « ولا تبسطها كل البسط » فكأنه أراد ، ولا تجعل يدك مغولة كل الغل ولا تبسطها كل البسط ، فناب ذكر العنق عن قوله « كل الغل » ، لأن غل اليد الى العنق ، هو أقصى الغايات التي جرت العادة بغل اليد اليها .

ومن أمثال العرب « إياك وعقيلة الملح » وذلك تمثيل المرأة الحسنة ، في منبت السوء ، لأن عقيلة الملح هي الدرة ^(١) . ومن التمثيل قول ابن الدُمَيْنة ^(٢) :

أُبَيِّنِي أَفِي يُعْنَى ' يَدَبُكَ جَعَلْتَنِي فَافْرَحَ أَمْ صَيَّرْتَنِي فِي شِمَالِكِ ؟

فذكر اليمين ، وجعلها مثلاً للإكرام المنزلة ، وذكر الشمال وجعلها مثلاً لهوان المنزلة ؛ لأن اليمين أشرف منزلة من الشمال أو أكرم محلاً .

وفي القرآن العزيز ما يدل على ذلك ، وهو قوله تعالى : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود ... » ^(٣) (الآية فلما جاء الى ذكر الشمال قال تعالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ^(٤)) الآية ، فاعرف ذلك وقس عليه .

(١) في الأصل « الدرة » وفي المثل السائر « فان عقيلة الملح هي اللؤلؤة تكون في البحر » .

(٢) هذا البيت من كلمة له مطلعها :

قفي يا أميم القلب نقض لبانة ونشك الهوى ثم افعلي ما بدا لك

« راجع ديوان ابن الدمينه ص ١٥ طبعة مطبعة المنار بشرح محمد الهاشمي البغدادي . وانظر الكلام على هذا البيت في « دلائل الإعجاز » للجرجاني « ص ٧١ » الطبعة الرابعة بدار المنار بمصر سنة ١٣٦٧ وبعده في دلائل الإعجاز :

أبيت كَأَنِّي بين شقين من عصاً حذار الردى او خيفة من زياك
تعالت كي اشجى ، وما بك علة تريدن قتلي قد ظفرت بذلك

(٣) السورة : الواقعة ، الآية ٢٨ ، وبعد هذه الآية قوله تعالى : « وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة » .

(٤) السورة الواقعة الآية ٤١ ، وبعدها قوله تعالى : « ... في سموم وحيم وظل من يحوم ، لا بارد ولا كريم ... » .

القسم الثاني

من الكناية في الادراف ^(١)

وهو أسم سماه به قدامة بن جعفر الكاتب ^(٢) .

اعلم أن أكثر علماء هذه الصناعة قد أدخلوا « الادراف » في التمثيل ، وفي الفرق بينها إشكال ودقة .

فأما التمثيل فقد سبق الاعلام به وهو أن ترد الإشارة إلى معنى فتوضع الألفاظ ^(٣) على معنى آخر ، وتكون تلك الألفاظ وذلك المعنى مثلاً للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه كقولنا « فلان نقي الثوب » أي منزله عن العيوب .

وأما الادراف فهو أن تراد الإشارة الى معنى فيترك اللفظ الدال عليه ويؤتى بما هو دليل عليه ومرادف له كقولنا « فلان طويل النجاد » والمراد به طويل القامة ، إلا أنه لم يتلفظ بطول القامة الذي هو الغرض ، ولكن ذكر ما هو دليل على طول القامة ، وليس نقاء الثوب دليلاً على النزاهة عن العيوب ، وإنما هو تمثيل لها ، فاعرف ذلك .

واعلم أن الادراف يتفرع إلى خمسة فروع :

الأول : فعل المبادهة كقوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه ^(٤) » فإن المراد بقوله تعالى « لما جاءه » أي أنه سفيه الرأي ، يعني : أنه لم يتوقف في تكذيب وقت ما سمعه ، ولم يفعل كما يفعل المراجيح ^(٥) العقول ، المثبتون في الأشياء ؛ فإن من شأنهم اذا ورد عليهم أمر أو سمعوا خبراً أن يستعملوا فيه الروية والفكر ، ويتأنوا في تدبره الى

(١) في الأصل « في الأراف » وهو من تحريف الناسخ .

(٢) قدما ذكره في حواشي هذا الكتاب .

(٣) قال فيما تقدم « فتوضع ألفاظ » وهو أوضح .

(٤) السورة « العنكبوت » الآية « ٦٨ » .

(٥) المراجيح جمع المراجح أي الكثير الاهتزاز ولعله أخذه من « نخل مراحيح » أي موقرة بكثرة التمر .

أن يصح لهم صدقه أو كذبه ، ألا ترى الى قوله تعالى « لما جاءه » أي أنه ضعيف العقل عازب الرأي فعدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه وأرَدَفَ له و (هو)^(١) قوله تعالى « لما جاءه » وذلك أكد وأبلغ ومن هذا الباب أيضاً . « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ، إن هذا إلا سحر مبين »^(٢) والكلام على ذلك كالكلام على الذي قبله فاعرفه .

الفرع الثاني من الرداف

وهو باب « مثل » وذلك دقيق الصفة لطيف المغزى ، اعلم أن العرب تأتي « بمثل » في هذا الموضع تأكيداً للكلام وتثبيتاً لأمره^(٣) . يقول الرجل إذا نفى عن نفسه القبيح : « مثلي لا يفعل هذا » أي أنا لا أفعله فنفي ذلك عن مثله وهو يريد نفيه عن نفسه ، قصداً للمبالغة ، فسلك به طريق الكناية ، لأنه إذا نفاه عن يماثله أو يشابهه فقد نفاه عنه لا محالة .

وكذلك أيضاً قولهم « مثلك إذا سئل أعطى » أي أنت كذلك ، وهو كثير في الشعر القديم والمولد والكلام المنثور . وسبب تأكيد هذه المواضع بـ « مثل » أنه يراد أن يجعل من جماعة هذه أوصافهم ، تثبيتاً للأمر ، وتمكيناً له ولو كان فيه وحده لقلق منه موضعه ، ولم ترس فيه قدمه . ومثل ذلك قولهم في مدح الانسان : « أنت من القوم الكرام » أي لك في هذا الفعل سابقة ، وأنت حقيق به ، ولست دخيلاً فيه . وقد ورد هذا الباب في القرآن الكريم ، كقوله تعالى « ليس كمثل شيء وهو السميع البصير »^(٤) . وهذا كقولهم « مثلك لا يبخل » فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصداً للمبالغة : لأنهم إذا نفوه عن يسد مسده ، وهو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه . ونظير ذلك قولك للعربي « العرب لا تحفر الذمم » .

(١) زيادة اقتضاها السياق . (٢) السورة « سبأ » الآية « ٤٢ ، ٤٣ » .

(٣) في الأصل « وتشيداً من أمره » وفي المثل السائر « تثبيتاً للأمر وتوكيداً » .

(٤) السورة : « الشورى » الآية « ١١ » . قال ابن فارس في فقه اللغة — ص ٨٣ — وتكون الكاف زائدة كقوله : ليس كمثل شيء » .

وهذا أبلغ من قولك « أنت لا تخفر الذمم » . وليس فرق بين قوله تعالى « ليس كئله شيء » وبين قوله « ليس كالله شيء » إلا من الجهة التي نهينا عليها فاعرفها .

الفرع الثالث من الرداف

وهو ما يأتي في جواب الشرط ، وذلك من أطف الكنايات وأحسنها ، فمن هذا قوله - تعالى - : « وقال الذين أوتوا العلم والايان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ^(١) » كأنه قال « إن كنتم منكرين يوم البعث فهذا يوم البعث » فكفى بقوله « فهذا يوم البعث » عن بطلان قولهم وكذبهم فيما ادعوه ، وذلك رادف له ونظيره قولك « تنكر حضور زيد فهاهو » أي فانت كاذب . وهذا من دقائق الكناية ، فاعرفه .

الفرع الرابع من الرداف

وهو الاستثناء من غير موجب : وذلك من غرائب الكناية كقوله - تعالى - : ليس لهم طعام إلا من ضريع ^(٢) « الآية ، والضريع نبت ذو شك تسميه قریش « الشبرق » في حالة خضرته وطرأوته فإذا يبس سمته العرب « الضريع » والابل ترعاه طرياً ولا تقربه يابساً ^(٣) . والمعنى ليس لهم طعام أصلاً ، لأن الضريع ليس بطعام البهائم فضلاً عن الانس . وهذا مثل قولك : « ليس لفلان ظل إلا الشمس » تريد ذلك نفى الظل عنه كما هو . وذكر الضريع ، رادف لانتفاء الطعام . وعلى نحو من هذا جاء قول بعضهم :

وتفردوا بالمكرمات فلم يكن لسواهم منها سوى الحرمان

والمراد نفى المكرمات عن سواهم ، لأنه إذا كان لهم الحرمان من المكرمات فما لهم منها شيء البتة ، وأمثال ذلك كثير فاعرفها .

(١) السورة « الروم » الآية : « ٥٦ » . (٢) السورة « الفاشية » الآية « ٦ » .

(٣) في القاموس : « الضريع كأمير . الشبرق أو يبيسه . لا تقربه دابة لحبسه ، والسلاء والعوسج الرطب ، أو نبات في الماء الآجن له عروق لا تصل الى الأرض » .

الفرع الخامس من الرداء

ليس مما تقدم بشيء وذلك نحو قوله — تعالى : « عفا الله عنك لمَ أذنت لهم ^(١) » والمعنى المراد من هذا الكلام : أنك أخطأت وبئسما فعلت وقوله : « لم أذنت لهم » بيان لما كنى عنه بالعمو ، أي مالك أذنت لهم ، وهلا استأنيت ؟ فذكر العفو دليل على الذنب ورادف له وإن لم يذكره . وكذلك جاء قوله — تعالى — : « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس ، والحجارة أعدت للكافرين ^(٢) » قيل لهم : إن استبنتم العجز عن المعارضة فأتروا العناد . فوضع قوله « فاتقوا النار » موضعه ، لأن اتقاء النار لصيقه وصميمه من حيث إنه من نتائج روادفه ، لأن من اتقى النار ترك المعاندة . ونظيره أن يقول الملك لحشمه : « إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطي » يريد فأطيعوني واتبعوا أمري ، وافعلوا ما ينتج عنه حذر السخط و (ذلك ^(٣)) رادف له . ومن هذا الباب قوله — تعالى — : « قالت الأعهراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ^(٤) » . ألا ترى إلى لطافة هذه الكناية ؛ فإنها أفادت تكذيب دعواهم ، ورفع ما انتحلوه . وفائدتها ها هنا : أنه روعي في تكذيبهم أدب حسن ، حيث لم يصرح بلفظه ، فلم يقل « كذبتهم » لأن فيه نوع استقباح في الخطاب ، ووضع قوله — تعالى — « لم تؤمنوا » الذي هو نفي ما ادَّعوا بيانه موضعه ، لأن ذلك رادف له . ومما يجري هذا المجرى قوله — تعالى — : « قال ^(٥) الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا من آمن منهم . . » إلى قوله « ... مؤمنون » فإن الغرض بقولهم « إنا بما أرسل به مؤمنون » جواباً عن سؤالهم : « أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربّه ؟ » إثبات العلم بارساله ، وأنه من الأمور الظاهرة المسلمة ، التي لا يدخلها ريب ، ولا يعترضها شك ، لكن عدل عن ذلك إلى ما هو دليل عليه ، ورادف له ، وهو الايمان به : أعني بصالح ، وإثبات صح منهم بعد ثبوت نبوته عندهم ،

(١) السورة : التوبة الآية : ٤٣ . (٢) السورة : البقرة الآية : ٢٤

(٣) زيادة اقتضاها السياق . (٤) السورة : الحجرات الآية : ١٤ .

(٥) السورة : الأعراف الآية : ٧٥ وتكملتها « .. أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربّه ، قالوا : انا

بما أرسل به مؤمنون ... » .

والعلم بإرساله إليهم ، فالإيمان به إذن دليل على العلم بأنه نبي مرسل . وهذا من دقائق الأدواف ولطائفه .

وأمثال ذلك كثيرة كقول الاعرابية في حديث أم زرع^(١) : « له إبل قليلات المسارح ، كثيرات المبارك . إذا سمعن صوت المزهَر أيقنَّ أنهنَّ هوالك » فان الظاهر من هذا القول أن إبله تنزل بفنائهم ، ولا تبرح ليقرب عليه نحرها للأضياف . فإذا ضرب المزهَر للّقيا (ن) نحرها لضيوفه . لقد اعتادت هذه الحالة وألفتها . وغرض الأعرابية من هذا الكلام أن تصف زوجها بالجود والكرم ، ولكنها لم تذكر ذلك بلفظه الدال عليه وإنما أتت بعمان ، هي أدلة على ذلك من غير تصريح بمرادها . وكذلك قال بعضهم^(٢) :

وددت - وما تعني الودادة - أنني بما في ضمير الحاجبية عالم
فان كان خيراً سرّني وعلمته وإن كان شراً لم تلُمني اللوائم
فان المراد من قوله « لم تلُمني اللوائم » أنني أهرها ، فأضرب عن ذلك جانباً ، ولم يذكر اللفظ المختصّ به ، ولكنه ذكر ما هو دليل عليه ورادف له . وفيما أشرنا اليه من ذلك كفاية للمتعامل .

والقسم الثالث من الكناية وهو المجاورة . وذلك أن يريد المؤلف ذكر شيء فيترك ذكره جانباً إلى ما جاوره ، فيقتصر عليه ، اكتفاءً بدلالته على المعنى المقصود ، كقول عنتره :
وشككت بالرمح الأصمّ ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرّم
أراد بالثياب هاهنا نفسه ؛ لأنه وصف المشكوك بالكرم ولا توصف الثياب به ، فثبت حينئذ أنه أراد ما تشتمل عليه الثياب ، وفي ذلك من الحسن ما لا ينكره العارف بهذه الصنعة ، وقال أيضاً :

(١) زاد في المثل السائر عبارة : « في وصف زوجها » ج ٢ ص ٢٠١ .

(٢) القائل هو كثير عزة الشاعر المشهور .

زجاجة صفراء ذات أسرة قرت بأزهر في الشمال مقدم (١)

الصفراء هاهنا الخمر والذكر للزجاجة حيث هي مجاورة لها ، ومشملة عليها . وذهب بعض المفسرين في قوله تعالى : « وثيابك فطهر » (٢) أنه أزداد بالثياب القلب والجسد أي قلبك فطهر أو جسدك . وأمثال هذا كثيرة فاعرفه .

القسم الرابع في الكناية : ما ليس بتمثيل ولا إرداف ولا مجاورة كقوله - تعالى - : « أَوَمَنْ يُنَشِّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ » (٣) فكفى عن النساء أنهم يترنون في الحلية أي الزينة والنعمة وهو إذا احتاج الى مجاورة (٤) الخصوم كان غير مبين ، أي ليس عنده بيان ، ولا يأتي ببرهان يحتاج به من يخاصمه . وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهن عن فطرة الرجال . ومن هذا الباب قول أبي نواس :

تقول التي من بيتها خف محلي عزيز علينا أن نراك تسير (٥)
ألا ترى إلى حسن هذه الكناية عن ذكر امرأته بقوله « التي من بيتها خف محلي » فانه من أطفها مندها ، وكذلك قول نصيب (٦) :

فما جئوا فأتوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق (٧)

(١) جاء هذا البيت مصحفاً على النحو الآتي :

زجاجة صفراء رادت أسرة قرت بأزهر في الشمال مقدم

والبيت مشهور متداول .

(٢) السورة « المدثر » الآية : ٤ وانظر : باب « الحكم على المعاني » في المثل السائر « ج ١ ص ٣٢ » .

(٣) السورة « الزخرف » الآية « ١٨ » .

(٤) هذا التفسير نظر فيه ابن الأثير الى ما جاء به الرخمشري . وفي الكشف « مجاعة » بدلا من

« مجارة » وفي حاشية الكشف : مجاعة : مفاعلة من جثا يجثو : اذا برك على ركبتيه « ج ٤ ص ٢٤٣ » طبعة مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٤٦ .

(٥) في الديوان « خف مركي ... » ص ٤٨١ مطبعة مصر سنة ١٩٥٣ .

(٦) نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان ، أمه أمة سوداء وأبوه من كنانة . كان شاعراً خلا مقدماً في النسيب والمدح ولم يكن له حظ في الهجاء . انظر الأغاني « ج ١ ص ١٢٥ » طبعة الساسي ، بمطبعة التقدم بمصر . وذكره المبرد في الكامل « ١ : ١٢٥ » قال « وهذا في باب المدح حسن ومتجاوز ومتدع لم يسبق إليه » .

(٧) هذا البيت من أبيات يمدح بها سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي ، وقبل هذا البيت :

قال الجاحظ : « نحن قوم نسحر بالبيان ، ونموّه بالقول ، والناس ينظرون الى الحال ويقضون بالعيان فأثر ذلك في أمرنا أثراً ينطق إذا سكتنا ، فان المدعي بغير بينة متعرض للتكذيب » . فهذا معنى قول نصيب فعل به ما ترى . وأمثال الكناية كثيرة ، فاعرفها .
وأما الضرب الثاني من الكناية فهو الذي يقبح ذكره ولا يحسن استعماله كقول أبي الطيب :

إني على شغفي بما في فُحْرِها لأعفّ عما في سراويلاتها^(١)
فان هذه كناية عن الزاهة والعفة^(٢) . وعلم الله - عز وجل - أن الفجور لأحسن منها .
ولقد ذكر الشريف الرضي هذا المعنى فأبرزه في أجل صورة فقال :
أحنُّ الى ما تضمن الحُر والحلى وأصدف عما في ضمان المآزر^(٣)
ألا ترى الى هذه الكناية ما أطفها ، والمعنيان سواء . وبهذا تعلم فضل الشاعرين أحدهما على الآخر ؛ وذلك إذا أخذنا معنى واحداً فصاغه أحدهما في صياغة مفردة عن صياغة الآخر ، فاعرف ذلك .
وأما التعريض فقد جوّزه - الله تعالى - في خطبة النساء كقوله - تعالى - : « ولا جناح

-
- = أقول لركب صادرين لقيتهم قفا ذات أوشال ومولاك قارب
 فقوا خبروني عن سليمان إنني لمعرفه من أهل ودان طالب
الكامل « ج ١ ص ١٢٤ - ٥ » والأغاني « ج ١ ص ١٣٠ طبعة الساسي بمطبعة التقدم .
(١) هذا البيت من قصيدة يمدح بها أبا أيوب احمد بن عمران مطلعها :
سرب محاسنه حرمت ذواتها ذاتي الصفات بعيد موصفاتها
« ج ١ ص ٢٢٥ شرح ديوانه المنسوب غلطاً إلى العكبري ، طبعة الحلبي سنة ١٩٣٦ بمصر .
(٢) في المثل السائر : « وهذه كناية عن الزاهة والعفة ، الا أن الفجور أحسن منها » ج ٢ ص ٢١١ .
(٣) من قصيدة يمدح فيها أباه ، أولها قوله :
بغير شفيع نال عفو المقادر أخو الجد ، لا مستنصراً بالمعادر
ورواية الديوان للبيت هي :
ولله قلبي ما أرق على الهوى وأصبي الى لثم الحدود النواضر
يحن الى ما تضمن الحُر والحلى ويصدف عما في ضمان المآزر

عليكم فيما ^(١) عرّضتم به من خطبة النساء » ، فقال المفسرون : التعريض بالخطبة لها أن يقول لها ، وهي في عدة الوفاة « إنك لجميلة وإنك لحسنة » وما أشبه ذلك . ومما جاء من التعريض قوله - تعالى - : « أنت ^(٢) فعلت هذا بالهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » يعني أن كبير الأصنام غضب أن تعبد هذه الأصنام الصغار ، فكسرها ، وغرض ابراهيم - صلوات الله عليه - من هذا الكلام إقامة الحجة عليهم لأنه قال : « فاسألوهم إن كانوا ينطقون » وذلك على سبيل الاستهزاء بهم وهذا من رموز الكلام ، والقول فيه أن قصد ابراهيم لم يكن الفعل الصادر عنه ، الى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على اسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من الزام الحجة عليهم ، وتبكيهم والاستهزاء بهم .

ومن بديع التعريض قوله - تعالى - : « قال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ^(٣) » فقلوه - تعالى - « ما نراك إلا بشراً مثلنا » تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم . فقالوا : هب أنك واحد من الملأ وهوازيهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم بها ؟ ألا ترى الى قوله - تعالى - : « وما نرى لكم علينا من فضل » .

ومن مشكلات التعريض حديث عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - قال : حكى المرأة الصالحة خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون أن النبي - ص - خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابني بنته وهو يقول : « والله إنكم لتجنبون وتبخلون وتجهلون وإنكم لمن ربحان الله وإن آخر وطأة وطئها الله بوج ^(٤) » واعلم أن « وج » واد بالطائف والمراد غزاة حنين . وحنين واد

(١) السورة : البقرة والآية : ٢٣٥ . (٢) السورة : الأنبياء والآية : ٦٢ .

(٣) السورة « هود » والآية « ٢٧ » .

(٤) ذكر هذا الحديث الشريف الرضي في كتاب « المجازات النبوية » - ص ٥٦ - من طبعة مصطفى البابي . عصر سنة ١٩٣٧ والزمخشري في « الفائق » ج ١ ص ١٦٦ من الطبعة المصرية ، قال الرضي « وج جبل بالطائف » . وفي مرصده الاطلاع على الأمكنة والبقاع لابن عبد الحق البغدادي ص ٤١٣ « من طبعة ايران » وج : بالفتح ثم التشديد موضع بالطائف به كانت غزاة النبي - ص - .

قبل وج لأن غزاة حنين^(١) آخر غزاة أوقع بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على^(٢) المشركين .
وأما غزوات الطائف وتبوك ، اللتان كانتا بعد حنين فلم يكن فيها وطأة أي قتال ، وإنما كانتا مجرد
خروج إلى الغزاة حسب ومن غير ملاقة العدو ، أعني المشركين ، ولا قتال لهم .
ووجه عطف^(٣) هذا الكلام ، وهو قوله - صلى الله عليه وسلم - : « وإن آخر وطأة
وطئها الله بوج » على ما قبله من الحديث ، هو التأسف على مفارقة أولاده ؛ لقرب وفاته ؛
لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان ، ووفاته - صلى الله عليه وسلم - كانت في ربيع
الأول من سنة إحدى عشرة ، وبينهما سنتان ونصف ، فكأنه قال : « وإنكم لمن ريحان الله :
أي من رزقه ، وأنا مفارقكم عن قريب [إلا أنه صانع عن قوله : « وأنا مفارقكم عن قريب »]^(٤)
بقوله : « وإن آخر وطأة وطئها الله بوج » فكان ذلك تعريضاً بما أراده ، وقصده من قرب وفاته
- صلى الله عليه وسلم - ومفارقتة لإياهم ، أعني أولاده . وهذا من أغرب التعريضات وأعجبها ،
فأعرفه .

ومن هذا الباب قول الشَّامِي دَر^(٥) الحارثي :

بني عمن لا تذكروا الشعر بمد ما دفنتم بصحراء الغمير^(٥) القوافيا

(١) قال الزمخشري : والمراد غزاة حنين وحنين واد قبل وج لأنها آخر غزوة أوقع بها رسول الله
- ص - على المشركين « إلى أن قال « لأن غزوة حنين كانت في شوال سنة ثمان ، ووفاته في شهر ربيع
الأول من سنة إحدى عشرة » . « الفائق ج ١ ص ١٦٦ » .

(٢) في « المثل السائر » ج ٢ ص ٢١٤ « مع المشركين » ، وفي القاموس « أوقع بهم : بالغ في قتالهم »
وقد تكلم الشريف الرضي على المجاز في « ريحان » و « وطئها » .

(٣) في الأصل « عاطف » والتصحيح من المثل السائر .

(٤) الزيادة من المثل السائر ج ٢ ص ١١٤ ، ويبدو أنها سقطت من قلم الناسخ .

(٥) في الأصل « السمبر » والشمير الحارثي : من شعراء الحماسة ، وقد اختار له أبو تمام في حماسته
كلته ، والبيت الذي أورده ابن الأثير هو أولها . وجاء في شرح التبريزي تعليق على هذا البيت نصه « وقيل
اسم هذا الشاعر الشمير » . ويقول : « وقال البرقي : هذا الشعر لسويد بن صميع المرثدي ، من بني الحارث
وكان قتل أخوه غيلة .. » « شرح ديوان الحماسة » ج ١ ص ١١٨ مطبعة حجازي بالقاهرة . وفي المطبوع
من كتاب « المؤلفات والمختلَف للآمدي » « ص ٤٠ » أنه « الشمير » بالدال من بني الحارث بن كعب
وكان شاعراً فارساً .

(٥) في الأصل : « الغمير » وفي الحماسة : الغمير : موضع ، وفي كتاب الآمدي « الغمير » وأحال
شارحه على عيون الأخبار والبكري . وقد ذكر التبريزي وجهاً آخر لتفسير البيت انظره في ص ١١٩
ج ٢ من « شرح ديوان الحماسة » المشار إليه .

فانه ليس قصده الشعر بل قصده ما جرى بينهم بهذا الموضع من الغلبة لهم ، والقوة عليهم إلا أنه لم يذكر ذلك ، بل ذكر الشعر وجعله تعريضاً عنه . أي : لاتفتخروا بعد تلك الوقعة ، التي جرت لنا ولكم بذلك المكان .

ومن أحسن التعريضات ما كتبه عمرو بن ^(١) مسعدة إلى المأمون ، في حق بعض أصحابه « اما بعد فقد استشفع بي فلان الى أمير المؤمنين ، ليتطوّل في الحاقه بنظرائه من الخاصة ، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تمدّي طاعته » . [فوقع المأمون في ظهر كتابه : قد عرفت تصريحك له ، وتعميضك لنفسك] فأجبتك إليهما « وأمثال هذا كثيرة ، وفيما أثمرنا اليه الكفاية .

النوع الثامن من الباب الأول من الفن الثاني

في استعمال العام والخاص في الاثبات

وهو باب من علم البيان تتكاثر فوائده .

اعلم أنه اذا كان الشئان أحدهما ^(٢) خاص والآخر عام فإن استعمال العام في حالة النفي ، أبلغ من استعماله في حالة الاثبات ، وكذلك استعمال الخاص في حالة الاثبات أبلغ من استعماله في حالة النفي .

مثال ذلك الإنسانية والحيوانية ^(٣) . فإن إثبات الإنسانية يوجب اثبات الحيوانية ، ولا يوجب نفيها نفي الحيوانية . وكذلك نفي الحيوانية يوجب منه نفي الإنسانية ولا يوجب من إثباتها إثبات الإنسانية .

(١) أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول التركي الأصل ، فإن جده مسعدة من كتاب خالد بن برمك ثم كتب بعده لأبي أيوب الموراني وزير المنصور على ديوان الرسائل ، وكان عمرو هذا من أكابر كتاب المأمون وأهل الفضل والبراعة في النثر والشعر وكان كاتباً بليغاً ، توفي سنة « ٢١٤ » وقيل سنة « ٢١٧ » في أيام المأمون « معجم الأدباء ج ٦ ص ٨٨ » من طبعة مرغلين والوزراء للجيشياري « ص ٢٥٨ ، ٢١٦ » من طبعة البابي ومعجم الشعراء للمرزباني « ص ٢١٩ » .

(٢) التكملة من « المثل السائر » ج ٢ ص ٢١٥ .

(٣) في المثل السائر « أحدهما خاصاً والآخر عاماً » ص ٣٢ ج ٢ .

(٤) في الأصل « والحيوانية ولا يوجب نفيها » وهي من سبق قلم النسخ .

ومما يدخل في هذا الباب الأسماء المفردة الواقعة على الجنس ، التي يكون بينها وبين واحدتها تاء التأنيث ، فانه متى أريد النفي كان استعمال واحدتها أبلغ ، ومتى أريد الإثبات ، كان استعمالها أبلغ .

فالأول وهو الخاص والعام نحو قوله تعالى : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ^(١) ... » ولم يقل : « بضوئهم » ، لأن ^(٢) ذكر النور في حالة النفي أبلغ ، من حيث إن الضوء قيسه الدلالة على النور وزيادة ، فلو قال : ذهب الله بضوئهم ، لكان المعنى يعطي ذهاب تلك الزيادة ^(٣) ويقاء ما يسمى نوراً ، لأن الإضاءة ، هي فرط الانارة دليل (ذلك) قوله تعالى : « وهو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ، وقدره منازل ... » فكل ضوء نور ، وليس كل نور ضوءاً . فالغرض من قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » إنما هو إزالة النور عنهم رأساً ^(٤) ، فهو إذا أزاله فقد أزال الضوء . وكذلك أيضاً قوله : « ذهب الله بنورهم » (ولم يقل : أذهب نورهم ^(٥)) لأن كل من ذهب بشيء فقد أذهب ، وليس كل من أذهب شيئاً فقد ذهب به ، لأن الذهاب بالشيء هو استصحاب له ، ومضي به ، وفي ذلك نوع احتجار بالمذهوب به ، وإمساك له عن الرجوع إلى حالته ، والعود إلى مكانه ^(٦) وليس كذلك الإذهب للشيء ، لزوال معنى الاحتجار منه .

(١) سورة « البقرة » الآية « ١٧ » . وتام الآية « ... وتركهم في ظلمات لا يبصرون » .

(٢) في الأصل : « لأن ذلك النور » والتصحيح من المثل السائر .

(٣) زيادة يقتضيها السياق . (٤) في المثل السائر : « أصلاً » .

(٥) التكملة من المثل السائر « ج ٢ ص ٣٣٠ » .

(٦) قال ابن أبي الحديد في كتابه « الفلك الدائر على المثل السائر » — ص ١٢٦ — : « إن قوله :

إن ذهب الله بنورهم ، يعني أنه استصحبه ومضى كما يقول القائل « مررت بزيد وعنده سيف » فذهبت به أي أخذته ومضيت وكما قال سبحانه « فلما ذهبوا به وأجمعوا » معناه أخذوا يوسف صحتهم ومضوا ، فات قال : نعم هكذا فسرت الآية فهذا كفر وتجسيم ، فأما قوله « كل من ذهب بشيء فقد أذهب » فهو على إطلاقه غير صحيح لأن ليس كل من ذهب بشيء فقد أذهب به ، أعني أعدمه عن الوجود أصلاً ، لكنه قد أذهب به عن موضعه الأول الذي أخذه منه . واعلم أن التلظ دخول عليه من اشتراك لفظة « ذهب » فانها تستعمل في معنيين أحدهما قوله : ذهب فلان في الطريق فلان في أي مضى فيه ونفذ فيه ومنه سمي السبيل مذهباً لأنه يذهب فيه أي يعضى فيه وسمي قول الشاعر وغيره مذهباً لأنه صار طريقاً فسلكه الفقهاء وغيرهم والمعنى الثاني =

وهذا كلام دقيق يحتاج إلى زيادة تأمل ومراجعة . ومما يحمل على ذلك الأوصاف الخاصة إذا وقعت على شيئين ، وكان يلزم وصف أحدها وصف الآخر ، ولا يلزم عكس ذلك ؛ نحو الطول والعرض ؛ فإنه إذا قيل : مربع^(١) عرضه مائة ذراع ، لزم أن يكون طوله إما مثلها أو أكثر منها^(٢) . قال الله تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض »^(٣) فإنه إنما خص العرض بالذكر دون الطول ؛ لأن الطول أكثر من العرض . والمعنى : أنه إذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها ؟ هذا في حالة الاثبات ، ولو أريد النفي لكان له أسلوب غير ما ذكرنا ؛ وهو أن كان يخص به الطول دون العرض ؛ وذلك موضع كثير الاشكال ؛ فينبغي أن يكون المؤلف بصيراً باستعماله ؛ على اختلاف حالاته وتشعب مذاهبه .

وأما الأسماء المفردة الواقعة على الجنس ، فنحو قوله تعالى في قصة نوح - عليه السلام - : « قال الملائكة من قومنا إننا لنراك في ضلال مبين قال : يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين »^(٤) فإنه إنما قال : « ليس بي ضلالة » ولم يقل : ضلال لأن (نفي) الضلالة أبلغ في نفي الضلال عنه ؛ كما لو قيل لك : « ألك تمر ؟ » فقلت في الجواب : ما لي تمر « كأن ذلك أنفي للتمر . ولو قلت : « ما لي تمر » لما كان مؤدياً من المعنى ما كان يؤديه القول

= (كذا) والصواب الآخر) : ذهب بمعنى عدم وفقد ، وقولهم ذهب الشباب وذهب العمر أي فني وعدم ولعل الاعتبار الثاني هو الحقيقة الأصلية ، والمحمل الأول هو المجاز لأنه لما مضى زيد في تلك الطريق فقد تقدم بالنسبة إلى غيرها فسمي مضيه ذهاباً ، وإذا بان لك اشتراك اللفظ ظهر غلطه لأنه توهم أن قوله تعالى « ذهب الله بنورهم » مثل قولنا « ذهب زيد بثياب عمره » أي احتملها ومضى وقد صرح بتفسير الآية على هذا الوجه ، وهذا معنى لا يجوز أن ينسب إلى الله تعالى لأنه لا تصح عليه الحركة ولا استصحاب الأشياء واحتمالها من مكان إلى مكان . وعلى أنه لو صح عليه ذلك لكان قوله « أذهب الله نورهم » أبلغ في المعنى من قوله « ذهب الله بنورهم » على هذا التفسير لأن اعدام النور بالكلية أبلغ من قوله « وتركهم في ظلمات لا يبصرون » ومن أين يذهب بالنور ؟ بالتفسير الذي زعمه فيكون للنور وجود في الجملة ، وإنما نقل من موضع إلى موضع « إلى أن قال » كلا اللفظين يدل على معنى واحد .

(١) أراد بالربيع ذا أربع أضلاع .

(٢) هذه العبارة مكررة في الأصل وذلك من سهو الناسخ .

(٣) « آل عمران » الآية « ١٣٣ » وتامها « ... أعدت للمتقين » .

(٤) « الأعراف » الآية « ٥٩ ، ٦٠ » .

(الأول) ^(١) ، فاعرف ذلك .

النوع التاسع من الباب الأول من الفن الثاني في التفسير بعد الإبهام

يفعل ذلك لتفخيم المبهم وإعظامه ؛ لأنه هو الذي يطرق السمع أولاً ، فيذهب السامع كل مذهب كقوله تعالى : « وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » ^(٢) ففسر « ذلك الأمر » بقوله : « دابر هؤلاء مقطوع » . وفي إبهامه أولاً ، وتفسيره بعد ذلك تفخيم للأمر ، وتعظيم لشأنه ، فإنه لو قال تعالى : « وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع .. » لما كان بهذه المثابة من الفخامة ، فإن الإبهام أولاً يوقع السامع في حيرة وتفكير ، واستعظام لما قرع سمعه ، وتشويق إلى معرفة كنهه ، والاطلاع على حقيقة .

ومن هذا الباب قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ... » (فإنه إنما قال ذلك ، ولم يقل : اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم ^(٣)) لما في الأول من التنبيه ، والاشعار بأن الصراط المستقيم هو صراط المؤمن ، فدل عليه بأبلغ وجه ، كما تقول : « هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم ! ؟ » ثم تقول : « فلان » فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك : « هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل » لانك تثبت ^(٤) ذكره مجملًا ومفصلاً ، فجعلته علماً في الكرم والفضل ، كأنك قلت : من أراد رجلاً جامعاً للخصلتين فعمليه بفلان .

وعلى نحو من هذا جاء قوله تعالى : « وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد

(١) يقال له : إنما استشهدت باسم جنس جمعي وذلك أمر معروف أن تنفي مفردة فيشمل النفي جميع جنسه ، وأما « الضلال » فلم يقل أحد إنه اسم جنس جمعي له « ضلال » قال ابن فارس في المقاييس : « والضلالة والضلال بمعنى » . وكذلك القول في الجلال والجلالة والسماحة والسفالة والسفالة والظاهر لنا من استعمال القرآن الكريم « الضلال » و « الضلالة » أن الأول استعمل للجسم استعارة والثاني استعمل للنفس استعارة أيضاً . فهو كاللحاجة ، تقول « مضيت في حاجة » عندما تريد السلوك ، و « في نفسي حاجة » إذا أردت النفس .

(٢) المثل السائر ج ٢ ص ٢٧ . (٣) التكملة من المثل السائر ج ٢ ص ٢٧ .

(٤) في الأصل : « تبينت » وهو من تحريف النسخ .

يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثاها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغية حساب ^(١) ألا ترى كيف قال : « أهدكم سبيل الرشاد » فأبهم : « سبيل الرشاد » ولم يبين أي سبيل هو ، ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بدم الدنيا ، وتصغير شأنها ، لأن الاحلال اليها أصل الشر كله ، ثم ثنى ذلك بتمظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها ، وأنها هي الوطن والمستقر ، ثم ثلث بذكر الأعمال ، سيئها وحسنها ، وعاقبة كل منها ، ليثبت ^(٢) عما يتلف ، وينشط لما يزلف ، فكأنه قال : سبيل الرشاد هو الاعراض عن الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، والامتناع من الأعمال السيئة ، خوف المقابلة عليها ، والمسارة الى الأعمال الصالحة ، رجاء المجازاة عليها . وكذلك (جاء) قوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ^(٣) ... » ولم يقل : قواعد البيت ، لما في إبهام القواعد ، وتبيينها بعد ذلك من الايضاح ، وتفخيم حال المبين ^(٤) مما ليس في الاضافة .

ومن هذا الباب قوله تعالى : « وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي ابلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع الى إله موسى ^(٥) . » الآية (فإنه) لما أراد تفخيم ما أمّل فرعون من بلوغه أسباب السموات ، أبهمها أولاً ثم فسرّها ثانياً ، ولأنها لما كان بلوغها أمراً عجبياً ، أراد أن يورده على نفس متشوفة اليه ، ليعطيه السامع حقه من التعجب فأبهمه ليشوق اليه نفس هامان ، ثم أوضحه بعد ذلك .

ومما يدخل في هذا الباب الابتداء بذكر الضمير ثم الافصاح بذكر صاحبه بعده ، كقوله

(١) سورة « غافر » الآية « ٤٠ » .

(٢) في الأصل الثبوت ، والتصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ٢٨ » .

(٣) السورة « البقرة » والآية « ١٢٧ » وتامها « ... واسماعيل ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم » .

(٤) في الأصل « التبين » والتصحيح من المثل السائر .

(٥) السورة « غافر » والآية « ٣٦ ، ٣٧ » وتامها « . ولاني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون

سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب » .

تعالى : « وما تكون في شأنٍ وما تتلو منه من قرآن »^(١) فانه لما أتى بالضمير ، الذي هو « منه » قبل صاحبه الذي هو القرآن ، كان ذلك تفخيماً له ، وتعظيماً من أمره . ولو قال : وما تكون في شأنٍ وما تتلو من قرآن ، ولم يذكر الضمير لما كان للسلام تلك الفخامة التي كانت له مع ذكر الضمير ، وهذا مثل قولهم « الكريم العالم الفاضل » ثم يقال : فلان وقد سبق الكلام عليه ، فاعرف ذلك وقس عليه .

وأما الابهام من غير تفسير ، فكثير شائع في القرآن العزيز ، كقوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم »^(٢) فقوله : التي هي أقوم أي الطريقة أو الحالة أو المسألة هي أقومها وأسدها ، وأي ذلك قدرت لم تجد له مع الافصاح ذوق البلاغة الذي تجده مع الابهام ، وذلك لذهاب الوهم فيه كل مذهب ، وإيقاعه على محتملات كثيرة ، وهذا لا يخفى على العارف برموز صناعة التأليف فاعرفه .

ومما يدخل في هذا الباب الاستثناء العددي وهو ضرب من التسايف لطيف المأخذ عجيب المغزى . وانما يفعل ذلك طلباً للمبالغة ؛ لأن له تأثيراً شديداً في القلب ، وموقفاً عظيماً في النفس وفائدته [أن] أول ما يطرق سمع المخاطب ذكرُ العدد فيكبر موقع ذلك عنده ، وهو شبهه بما ذكرناه من الابهام أولاً ثم التفسير بعده ثانياً ، فن ذلك قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً^(٣) » فانه إنما قيل « ألف سنة إلا خمسين عاماً » ولم يقل تسعمائة وخمسين عاماً لفائدة حسنة ، وهي ذكر ما ابتلي به نوح من أمته ، وما كابدته من طول المصايرة ، ليكون ذلك تسليّة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتثبيتاً له ، فان ذلك رأس العدد الذي هو منتهى العقود وأعظمها أوقع وأوصل الى الغرض من استطرالة السامع

(١) السورة « يونس » والآية « ٦١ » وتامها « ... ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » .

(٢) السورة « الاسراء » والآية « ٩ » وتامها « ... ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » .

(٣) العنكبوت الآية « ١٤ » وتامها « ... فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » .

مُدّة صبره وما لاقاه من قومه ، فأعرف ذلك وقس عليه .

النوع العاشر من الباب الأول من الفن الثاني

في التعميق المصدري

وإنما يعتمد الى ذلك لضرب من التأكيد لما تقدمه ، والاشعار بتعظيم شأنه أو بالصد من ذلك ، فمثال الأول قوله تعالى « ويوم ينفخ في الصور ، ففرع من في السموات ومن في الأرض ^(١) » الى قوله « ... وهم من فرع يومئذ آمنون » و « من جاء بالسيئة فكُتبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » . « فصنع الله » من المصادر المؤكدة لما قبلها ، كقوله « وعند الله ، وصبغة الله » ، ألا ترى أنه لما جاء ذكر هذا الأمر العظيم ، الدال على القدرة الباهرة ، من النفخ في الصور ، وإحياء الأموات ، والفرع . وإحضار الناس للحساب ومسير الجبال كالسحاب في سرعتها ، وهي عند الرؤية لها والمشاهدة كأنها جامدة ، عقب ذلك أن قال « صنع الله » والمعنى أن هذا الأمر العجيب البديع صنع الله ، والمعنى « ويوم ينفخ في الصور ، وكان كيت وكيت من الأشياء الباهرة ، وأثاب الله المحسنين ، وعاقب المجرمين » فجعل هذا الصنع من جملة الأمور التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والثواب ، حيث قال : « صنع الله الذي أتقن كل شيء » يعنى أن مقابلة الحسنه بالثواب ، والسيئة بالعقاب من إحكامه للأشياء وإتقانه لها ، وإجرائه إياها على قضايا الحكمة ، أي إنه عالم بما تفعل العباد وبما يستوجبون عليه ، فيكافئهم على حسب أفعالهم ، ثم لخص ذلك بقوله تعالى : « من جاء بالحسنة ... » الى آخر الآيتين .

فانظر أيها المتأمل إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ، ومكانة إضماره ، وورصانه تفسيره ، وأخذ بعضه برقاب بعض ، كأنما أفرغ إفراغاً واحداً . ولأمر ما أعجز القوي وأخرس

(١) النمل « ٨٧ ، ٩٠ » والتمام « ... » إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ، من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فرع يومئذ آمنون » .

ونحو هذا « المصدر » إذا جاء عقيب (٢) السلام كان الشاهد بصحته ، والمنادي على سداده وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان . ألا ترى الى قوله : صنع الله وصبغة الله ، ووعد الله ، وفطرة الله ... بعدما وسمها بإضافتها اليه ، بسمه التعظيم ، كيف تلاها بقوله : « الذي أتقن كل شيء » .

وأما الثاني ، وهو ضد الأول ، وذلك ما يراد به تصغير الشأن ، فكقولك إذا أخرت ذكر إنسان تريد ذمه : « قدر كبح هواه ، واستمر على غيئه ، وتمادى في جهله ، وسحب ذيل عجيبه ... » وما أشبه ذلك . ثم تقول : « صنع الشيطان : الذي يخلب النفوس ، ويسلب الأبواب ... » وأمثال هذا كثيرة فاعرفها .

النوع الحادي عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في التقديم والتأخير مما لا يتعلق بعلم النحو

كتقديم المفعول على الفاعل ، وتقديم الحال والظرف ، أو غير ذلك ، فان هذا قد أفردنا له باباً ، وجعلناه مقصوداً عليه ، ومرّ ذكره في باب « شجاعة العربية » .

وأما هذا الباب فانه يتعلق بتقديم الأشياء بعضها على بعض في الذكر ؛ لاختصاص أحدها بما يوجب له التقدم على الآخر ، وذلك مما لا يحصره حد ، ولا يأتي عليه شرح . وقد أشرنا نحن الى نبذة منه ، إذا تأملها الناظر في كتابنا هذا ، يستدل بها على غيرها .

فمن ذلك تقديم السبب على المسبب ؛ كقوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين .. » فانه

(١) يقال للفيصيح « هدرت شفشقته » والجمع شفاشق وهي مستعارة من شفشقة البعير وهي كالرثة يخرجها اذا هاج ورغا .

(٢) جاء في المصباح المنير « وأما عقيب مثال كريم فاسم فاعل من قولهم : عاقبه معاقبة وعقبه تعقيباً فهو معاقب ومعقب وعقيب إذا جاء بعده ، قال الأزهري أيضاً : والليل والنهار يتعاقبان : كل واحد منهما عقيب صاحبه والسلام يعقب النشهد أي يتلوهُ فهو عقيب له ، والعدة تعقب الطلاق أي تتلوهُ وتتبعه فهي عقيب له أيضاً ، فقول الفقهاء « يفعل ذلك عقيب الصلاة » ونحوه بالياء لا وجه له إلا على تقدير محذوف والمعنى « في وقت عقيب وقت الصلاة » فيكون عقيب صفة وقت ثم حذف من السلام حتى صار : عقيب الصلاة » .

إنما قدم العبادة على الاستعانة ؛ لأن تقديم القرية والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح لحصول المطلوب ، وأسرع لوقوع الاجابة . ولو قال : إياك نستعين ، وإياك نعبد ، لكان جائزاً ، إلا أنه لا يسد ذلك المسد ولا يقع ذلك الموقع ، وهذا لا يخفى على النصف من أرباب هذه الصناعة . وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى « وأزلنا ^(١) من السماء ماء طهوراً لنحیی به بلدة ميتا ، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً ، وأناسی كثيرا » .

ألا ترى كيف قدم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس ؟ وإن كان الناس أشرف محلاً وأعلى مكاناً . وسبب ذلك ما أذكره لك وهو أن حياة الأرض سبب لحياة الأنعام والناس . ولما كانت الأنعام أيضاً من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها على الناس في الذكر ، ولأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم ، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم . فهذه نكت القرآن العجيبة ورموز أسرارہ اللطيفة التي إذا مرّ الانسان عليها من غير أن يتدبرها ، ويمطيتها أفضل تأمل وتفكر لا يقع على خباياها ، ولا يظفر بغرائبها .

ومن هذا النوع تقديم الأقل على الأقل ، كقوله تعالى « تم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات ^(٢) » فانه انما قدم الظالم لنفسه للايذان بكثرتة وأن معظم الخلق عليه ثم أتى بعده بالمقتصدین ؛ لأنهم قليل بالاضافة اليه ^(٣) ، وآخر السابقين بالخيرات ، إذ كانوا أقل من القليل أعني من المقتصدین ، فقدم الاكثر ثم جاء بعده ؛ بالأوسط ثم ذكر الأقل أخيراً ، وذلك لائق في بابه . ولو عكست القضية لكان المعنى أيضاً واقعاً في موقعه لأنه يكون قدم الأفضل فالأفضل ؛ وذلك أن السابقين بالخيرات أفضل من المقتصدین ، والمقتصدین أفضل من الظالمين ؛ ولنوضح في ذلك طريقاً يعرفه مؤلف

(١) أول الآية « الفرقان : ٤٩ » هو « وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا ... » وقد سقطت هذه الآية من فهرست القرآن المسمى بنجوم الفرقان في أطراف القرآن الذي صنعه كستاف فلوجل الألماني في مادة « مات » فقط .

(٢) السورة « فاطر » والآية ٣٢ « وتامها » ... باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير .

(٣) أي بالنسبة اليه ، وكثير من كتاب العصر الناشئين يستعملون « بالاضافة إليه » مكان « مضافاً إليه » و « يضاف اليه » و « زيادة عليه » و « يزداد عليه » وهو خطأ .

الكلام ، فنقول :

اعلم أنه متى كان الشيئان أحدهما كثير والآخر أقل منه ، وكان الأقل أفضل من الأكثر فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت ، لأن في كل واحد منهما ما يوجب له التقدم ، فاعرف ذلك وقس عليه نظائره وأمثاله .

ومن هذا النحو قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » (١) .

فانه إنما قدم الماشي على بطنه لأنه أدلّ على القدرة من الماشي على رجلين ؛ إذ هو ماش بغير الآلة المخلوقة للمشي ، ثم ذكر الماشي على رجلين بعده ، وقدمه على الماشي على أربع ؛ لأنه أدلّ على القدرة أيضاً حيث كثرت آلات المشي في الأربع ، وهذا من باب تقديم الأعجب فالأعجب فاعرف ، ذلك .

ومن هذا النوع في التقديم والتأخير أنه إذا كان مطلع الكلام في معنى من المعاني ثم يجيء بعده ذكر شيئين أحدهما أفضل من الآخر ، وكان معنى المفضول مناسباً لمطلع الكلام فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت ؛ لأنك إذا قدمت الأفضل فهو في موضع التقديم ، وإن قدمت المفضول فلأن مطلع الكلام يناسبه ، وذكر الشيء مع ما يناسبه أيضاً وارد في موضعه فمن هذا الأسلوب قوله تعالى : « وإنا إذا (٢) أذقنا الانسان منّا رحمة فرح بها وإن تُصَبِّههم سيئة بما قدمت أيديهم فإنّ الانسان كفُور » إلى قوله : « عليهم قدير » فانه إنما قدم الإناث أولاً على الذكور ، مع تقدمهم عليهن ، ثم رجع فقدم الذكور وأخر الإناث بعدما نكرهنّ وعرف الذكور ؛ لأنه ذكر البلاء في آخر الآية ، وكفران الانسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده ، ثم عقب ذلك بذكر مُلْكِهِ ومشْيِهِ ، وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث ؛

(١) السورة « النور » والآية ٤٥ .

(٢) السورة « الشورى » والآية « ٤٨ — ٥٠ » وأولها « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا ... » وتامها « لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير » .

لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء ، لا ما يشاؤه الانسان ، وكان ذكر الاناث ، اللاتي هن من جملة ما لا يشاؤه الانسان ولا يختار أهم ، فلاهم واجب التقديم ، ولبلاء الجنس الثاني [الذي] ^(١) كانت العرب تعدّه بلاءً ، ذكر البلاء ، ولما أخرّ الذكور وهم أحق بالتقديم ثم تدارك ذلك بتعريفه إيّاهم ؛ لأنّ التعريف تنويه بالذكر ، [كان] ^(٢) كأنه قال « ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم » ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرف أنّ تقديم الاناث لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتضى آخر ، فقال : [أوزو جهم] ^(٣) ذكرانا وإناثا ، وهذه دقائق لطيفة ، قلما يتنبه لها أو يثر على رموزها .

ومن هذا الباب قوله تعالى : « وما تكون في شأن وما تتلو من قرآن ولا ... » إلى قوله « ... وما يعزبُ عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء » ^(٤) فانه إنما قدم الأرض في الذكر على السماء ، ومن حقها التأخير ؛ لأنه إنما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم ، ووصل ذلك بقوله : « لا يعزب عنه » لآم بين ... وأمثال هذا كثيرة فاعرفه .

النوع الثاني عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في عطف المظهر على ضميره والافصاح به بعده

وهذا إنما يعتمد اليه لفائدة ؛ وهي إما تعظيم حال المعطوف عليه ، والتفخيم من شأنه ، وإما ضد ذلك ونقيضه ، مثال التعميم قولك .. « ولما تلاقينا ^(٥) وبنو تميم ، أقبلوا إلينا يوفضون ^(٦) » وابتدروا نحونا يركضون . وجأؤوا كأنهم في تكاثفهم ليل ، وفي سرعتهم سيل . فرأينا منهم

(١) زيادة اقتضاها السياق .

(٢) راجع « ص ١٧٤ س ١ » من هذا الكتاب .

(٣) كذا ورد تعبير المؤلف : بعطف الظاهر على الضمير المرفوع بلا ضمير ولا فاصل لفظي وهو ضعيف في العربية . والفصيح « تلاقينا نحن وبنو تميم » .

(٤) أوفضوا : أسرعوا وعدوا ومنه قوله تعالى « كأنهم الى نصب يوفضون » .

أسوداً في المقاتلة ، وثماناً في المحادعة والمخاتلة ، وتناجد ^(١) بنو تميم علينا بحملة ، فلذنا بالفرار ، واستبقنا الى تولية الأدبار » فانك إنما قلت : « وتناجد بنو تميم » مصرحاً بذكرهم ، ولم تقل : وتناجدوا ، كما قلت : « أقبلوا » و « ابتدروا » و « جاؤوا » للدلالة على التعجب من شجاعتهم والتعظيم لشدتهم وإقدامهم . ولا سيما وقد أضفت الى ذلك قولك : « لذنا بالفرار » و « استبقنا الى تولية الأدبار » فكأنك قلت : وتناجد أوأئك الفرسان المشاهير ، والحكمة المذكورون ^(٢) ، وحملوا علينا حملة واحدة ، فولينا مدبرين منهزمين .

ومن هذا الباب قوله تعالى : « أولم يروا كيف يُبْدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئُ النشأةَ الآخرة ^(٣) ... » . ألا ترى كيف صرح باسمه تعالى في قوله : « ثم الله ينشئُ النشأةَ الآخرة » . مع إيهامه ^(٤) مبتدئاً في قوله « كيف بدأ الخلق ثم ينشئُ النشأةَ الآخرة » ؟ والفائدة في ذلك ما ذكرناه ونَبَّهنا عليه ؛ وهو أنه لما كانت الاعادة عندهم من الأمور العظيمة والأشياء المستصعبة ، وكان صدر الكلام واقعاً معهم في الابداء ، وقَرَّ رأيهم أن ذلك من الله — عز وجل — احتج عليهم بأن الاعادة إنشاءً مثل الابداء ، وإذا كان الله لا يعجزه شيء ^(٥) هو الذي لا يعجزه الابداء فوجب أن لا تعجزه الإعادة ؛ فللدلالة والتنبيه على عظم هذا الأمر الذي هو الاعادة أبرز اسمه — تعالى — الى [العبارة] وأوقعه مبتدئاً ثانياً ، فاعرف ذلك وقس عليه .

وأما الثاني وهو ضد الأول فانه يقصد به الذم كقوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا يَتَّبِعُونَ قالوا ما هذا إلا رجلٌ يريد أن يصدَّكم عما كنتم عبُدُّونَ آبائكم وقالوا ما هذا إلا إفكٌ مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحرٌ مبين ^(٦) » فإنه إنما قال : « وقال الذين كفروا »

(١) تناجدوا : تعاونوا .

(٢) في المثل السائر « ج ٢ ص ٢٤ » « المناكير » جمع المنكر .

(٣) السورة « العنكبوت » والآية « ١٩ — ٢٠ » وتامها « إن الله على كل شيء قدير » .

(٤) في المثل السائر « مع ليقاعه » .

(٥) كذا وردت وفي المثل السائر أيضاً . « ج ٢ ص ٢٥ » ولعل الأصل « وهو الذي » .

(٦) السورة « سبأ » والآية « ٤٣ » .

ولم يقل : « وقالوا » كالذي قبله ، للدلالة على صدور الكلام عن إنكار عظيم ، وغضب شديد ، وتعجب من كفرهم ببلغ . ولا سيما ^(١) وقد انضاف الى ذلك قوله تعالى : « وقالوا للحق لما جاءهم ... » وما فيه من الاشارة إلى القائلين ، والقول فيهم ، وما في ذلك من المبادهة ؛ كأنه قال تعالى « وقال أولئك الكفرة ، المتمردون بجرأتهم على الله ، ومكابرتهم لمثل ذلك الحق المنير ^(٢) ، قبل أن يذوقوه : إن هذا إلا سحرٌ مبين » . وأمثال هذا كثيرة ، فاعرفها .

النوع الثالث عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في التخلص والاقتضاب

ولهذا النوع من الكلام ، محل كريم ، وموقع لطيف .

فأما التخلص ، فهو أن يأخذ المؤلف في معنى من المعاني ، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر ، وجعل الأول سبباً إليه ، فيكون بعضه أخذاً برقاب بعض ، من غير أن يقطع المؤلف كلامه ، ويستأنف كلاماً آخر ، بل يكون جميع كلامه ، كأنما أفرغ إفراغاً ، وذلك مما يدل على حذق الشاعر ، وقوة تصرفه ، وطول باعه ، واتساع قدرته ، من أجل أن الشاعر يضيق عليه نطاق الكلام ، ويكون متبعاً للوزن والقافية ، فلا توافيه الألفاظ على حسب إرادته ، ولا تنزله .

وأما النثر فإنه مطلق العنان ، يمضي حيث شاء فلذلك يشق التخلص على الشاعر أكثر مما يشق على النثر .

وأما الاقتضاب فهو ضد التخلص ، وذلك أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ويستأنف كلاماً آخر غيره من مدح أو هجاء أو غير ذلك . ولا يكون للثاني علاقة بالأول ، ولا تلفيق بينهما وبينه ، وهو مذهب القدماء من صنعة ^(٣) الشعر ، وسيأتي بيانه . وأما المحدثون فإنهم تصرفوا

(١) لا تدخل « قد » بين لا سيما وما يليها ، فضلاً عن أن يكون ما يليها فعلاً كما جاء في كلام المؤلف .

(٢) وفي المثل السائر « المبين » . (٣) الصنعة : بالتحريك جمع الصانم .

في التخلص وأبدعوا فيه فآظفروا من ذلك العجائب والغرائب كقول علي بن الجهم^(١) :
 وليلة كحلت بالنفس^(٢) مقلتها ألفت قناع الدجى في كل أهدود
 قد كاد يُغرقني أمواج ظلمتها لولا اقتباس سناً^(٣) من وجه داود
 ألا ترى ما أطف هذا التخلص وأحسنه ؛ فانه ذكر أولاً الليلة وسوادها ، وابتداء
 دجائها ، وأنه في غمرات من ظلمتها كالغريق . ثم أدرج في ضمن كلامه ، بعد ذلك ، ذكر
 المدح بما يناسب ما هو من الظلمة ، فذكر الانارة والاضاءة بقوله : « سنا من وجه داود »
 فصار الكلام كأنما أفرغ إفراغاً واحداً ، ومن هذا النحو قول ابن نباتة :

كمن الشموع وقد أطلعت من النار في كل رأس لسانا
 أنامل أعدائك الخائفين تَصْرَعُ تطلبُ منك الأمانا

فهذا هو التخلص البديع في الصنعة الذي استحوذ على مجامع الحسن والرونق ، فاعرفه .
 وقال أبو العلاء محمد^(٤) بن غانم المعروف بالفناني : « إن كتاب الله العزيز خال من
 الاقتضاب والتخلص » . وهذا القول فاسد ، لأن حقيقة التخلص إنما هي الخروج من كلام الى
 كلام آخر غيره بلطفية تناسب بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج إليه ، وفي
 القرآن العظيم مواضع كثيرة من ذلك ، كالخروج من الوعظ والتذكير بالانذار والبشارة بالجنة

(١) هو أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر القرشي السامي ، كان أحد الشعراء المشهورين في المدح والوصف
 والفرز بألفاظ عذبة وأوزان متتجة وهو أول من نظم في التاريخ من الشعراء ، مدح التوكل على الله وغيره
 وتوفي سنة ٢٤٩ هـ جريحاً من وقعة بينه وبين أعراب بني كلب . وقد طبع الأستاذ الكبير خليل مرمدم ديوانه
 بالشام « في دمشق » « تاريخ بغداد للخطيب ج ١١ ص ٣٦٧ » و « معجم المرزباني ص ٢٨٦ » والأغاني
 « ج ١ ص ٢٠٣ » وطبقات الشعراء لابن المعتز « ص ١٥١ » ووفيات الأعيان لابن خلكان « ج ١
 ص ٣٨٤ » من طبعة بلاد العجم .

(٢) في الأصل « النفس » من تحريف النسخ ، والتصحيح من « ديوان علي بن الجهم » « ص ١٢٨ »
 طبعة الأستاذ خليل مرمدم .

(٣) في زهر الآداب « ٣ : ١٨ » « عن كل » كما جاء في حاشية الديوان ، وفيه أيضاً « سنا
 وجه داود » .

(٤) راجع حاشية « ص ٢ » من هذا الكتاب .

الى أمر ونهي ووعد ووعيد ومن يحكم الى متشابه ، ومن صفة لثبي مرسل وملك منزل الى ذم
 لشيطان مرید ، وجبار عنيد بلطائف دقيقة ، ومعان آخذة بالقلب ؛ فما جاء من التخلص في
 القرآن الكريم قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد
 أصناماً فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون » ^(١) . إلى قوله تعالى : « فلو أن لنا
 كرة فنكون من المؤمنين » هذا كلام يذهل العقول ويحير الألباب ، وفيه كفاية لطالب البلاغة
 والمنتصب لهذه الصناعة ، فانه متى أنعم فيه النظر وتدبر أثنائه ^(٢) ، ومطاوي حكمته علم
 أن في ذلك غنى عن تصفح الكتب المؤلفة في هذا الفن ألا ترى أيها التأمل ما أحسن
 ما رتب إبراهيم — عليه السلام — كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال
 مقرر لا سؤال مستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ،
 ولا تبصر ولا تسمع . وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين ، فكسره وأخرجه من أن يكون
 شبهة فضلاً عن أن يكون حجة . ثم أراد الخروج من ذلك إلى ذكر الإله ، الذي
 لا تجب العبادة لإلهه ، ولا ينبغي الرجوع والانابة إلا اليه ، فصور المسألة في نفسه دونهم
 بقوله « فإنهم عدو لي إلا رب العالمين » على معنى أنني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة
 العدو وهو الشيطان ، فاجتنبتها ، وآثرت عبادة من الخير كله منه . وأراه بذلك أنها نصيحة
 ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا ما نصحننا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، فيكون ذلك أدعى لهم

(١) السورة « الشعراء » والآية « ٦٩-١٠٢ » وتامها : « ... أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل
 وجدنا عليه آباءنا كذلك يفعلون ، قل أفرايتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فانهم عدو لي إلا
 رب العالمين ، الذي خلقتني فهو يهديني ، والذي يطعني ويسقيني ، وإذا مرضت فهو يشفيني ، والذي يميتني ثم
 يحييني ، والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ، رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ، واجعل لي لسان
 صدق في الآخرين ، واجعلني من ورثة جنة النعيم ، وأغفر لأبي إنه كان من الضالين ، ولا تخزني يوم
 يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ، وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم
 للغاوين ، وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون ، من دون الله هل ينصرونكم أو ينصرون ، فكبكبوها فهاهم
 والعاوون ، وجنود إبليس أجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون ، تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب
 العالمين ، وما أضلنا إلا الحجرمون ، فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم ، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين » .
 (٢) في الأصل « أبناء » وهو غير مستقيم .

الى القبول لقوله ، وأبعث على الاستماع منه . ولو قال : « فانهم عدو لكم » لم يكن بتلك المثابة ، فتخلص عند تصويره المسألة في نفسه الى ذكر الله عز وجل ، وأجرى عليه تلك الصفات العظام من تفخيم شأنه ، وتعدد نعمه [عليه] من لدن خلقته وإنشائه الى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ليعلم بذلك أن من هذه صفاته تحقيق العبادة وواجب على الخلق الخضوع له ، والاستكانة لعظمته ، ثم خرج من ذلك الى ما يلائمه ويناسبه فدعى بدعوات المخلصين ، وابتهل اليه ابتهاج الأوابين ، لأن الطالب (إلى) مولاه ، والراغب اليه إذا قدم قبل سؤاله وضارعتة الاعتراف بالنعمة والاقرار بالاحسان كان ذلك أسرع للإجابة ، وأنجح لحصول الطلبة ، ثم أدرج في ضمن دعائه ذكر البعث ، ويوم القيامة ومجازاة الله لمن آمن به واتقاه بالجنة ، ولمن ضل عن عبادة بالنار ، فجمع الترغيب في طاعته والترهيب من معصيته ، ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون من الأصنام سؤال موبخ لهم ، مستهزئ بهم ، وذكر ما يُدفعون اليه عند ذلك من الندم والحسرة ^(١) على ما كانوا فيه من الضلال وتمني العود ليؤمنوا .

فانظر أيها المتأمل الى هذا الكلام الشريف الآخذ بمضه برقاب بعض مع احتوائه على ضروب من المعاني فيتخلص من كل واحد منها الى الآخر بلطفية دقيقة حتى كأنه معنى واحد ، فخرج من ذكر الأصنام وتقريعه لأبيه وقومه من عبادتهم إياها مع ما هي عليه من التعرّي عن صفات الالهية حيث لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، الى ذكر الله تعالى ، فوصفه بصفات الآلهية ، فعظم شأنه وعدد نعمه ، ليعلم بذلك أن العبادة لا تصح إلا له . ثم خرج من هذا الى دعائه إياه وخضوعه له ثم خرج منه الى ذكر يوم القيامة ، وثواب الله وعقابه ، فتدبر هذه التخلصات اللطيفة ، هذا الى غيره من تضمن هذا الكلام لأنواع من صناعة التأليف ، وهي الإيجاز والكناية والتقديم والتأخير وإنابة الفعل الماضي عن الفعل المضارع .

فأما الإيجاز فلا خفاء به على العارف بما أشرنا اليه في باب الذي سبق ذكره إلا أن من جملته قوله تعالى : « وأزلف الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين » فانه جمع الترغيب في طاعته

(١) كذا جاء في الأصل ولو قال « من الحسرة والندم على ... » لكان أحسن .

والترهيب من معصيته مع عظمها ، ونفخامة شأنها في هذه الكلمات اليسيرة . وأما الكناية فقوله تعالى « وبرزت الجحيم للغاوين » فالغاوون ها هنا كناية عن أبيه وقومه ، ويدل على ذلك قوله « وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله » لأن كلامه في الأول كان معهم في عبادتهم إلا صنام .

وأما التقديم والتأخير فإن ذكر إبراهيم النعمة وتعدد الاحسان قبل الدعاء وطلب الحاجة .
وأما إنابة الفعل الماضي عن المضارع فقوله تعالى : وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون » بمد قوله « ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » ، وفي ذلك من الفائدة ما أشرنا إليه في بابه ، وقد سبق ذكره ، فاعرفه .

ومما استطرف من هذا النوع قول ابن^(١) الزمكدم :

وليل كوجه البرقعدي ظلمة	وبرد أغانيه وطول قرونيه
سريت ونومي فيه نوم مشرد	كعقل سليمان بن فهد ودينه
على أولق ^(٢) فيه التفات كأنه	أبو جابر في خبطه وجنونه
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه	سنا وجهه قرواش وضوء جبينه

وهذه الأبيات لها حكاية وذلك أن هذا المدوح كان جالساً مع ندائه في ليلة من ليالي الشتاء ، وفي جملتهم هؤلاء الذين هجاهم الشاعر ، وكان البرقعدي مغنياً وسليمان بن فهد وزيراً ، وأبو جابر صاحباً ، فالتمس المدوح من الشاعر أن يهجو المذكورين ويمدحه فأنشد هذه الأبيات . وقد قال بعض أرباب هذه الصناعات إن هذا الشاعر لو تحدى بهذه الأبيات لأعجز

(١) لم نقف على ترجمته والظاهر أنه من أهل القرن الخامس للهجرة فقد ذكر ياقوت الحموي في رسم « برقيد » من معجم البلدان أنها « بفتح الباء وكسر العين وياء ساكنة ودال وأنها بليدة في طرف بقعاء الموصل من جهة نصيبين وباشري » وإن شاعراً قال يهجو سليمان بن فهد الموصل مستطرداً ويمدح قرواش بن المقلد أمير بني عقيل : « وليل كوجه البرقعدي ظلمة ... » . وفي المعجم :

على أولق فيه الهباب كأنه أبو جابر في خبطه وجنونه
(٢) الأولق : الجنون .

الشعراء أن يأتوا بمثلها ، لأنه مع إتيانه بهذا النوع من علم البيان لم يقنع بذلك حق رقي في معانيه المقصودة إلى أقصى المنازل ؛ فابتدأ في البيت الأول بهجو البرقعدي ، فجاء في ضمن مراده ذكر أوصاف ليل الشتاء جميعها ، ولم يخل منها بشيء وهي الظلمة والبرد والطول ، ثم إن هذه الأوصاف لليلة جاءت ملائمة لما وقعت عليه ، مطابقة له : وكذلك البيت الثاني والثالث . ثم خرج إلى المدح بألف وجه وأرق صنعة ، فاعرف ذلك فانه لم يقل في هذا الباب أبدع من هذه الأبيات .

ومما جاء على نحو ذلك قول إسحاق^(١) بن ابراهيم الموصلي :

وصافية تغشى الميون بنورها رهينة عامر في الدنان وعام
أدّرنا بها الكأس الروية بيننا من الليل حتى انجباب كل ظلام
فما ذرّ قرنُ الشمس حتى رأيتنا من العي نحكي أحمد بن هشام^(٢)

ألا ترى ما أحسن ما خرج هذا الشاعر في الهجاء ، فانه أوهم في الأول الخوض في صفة الخمر ثم استدريج المعنى الذي قصده في صفة الخمر ، من حيث لا يعلم السامع لمطلع كلامه أنه يريد ذلك ؛ وأمثال هذا كثيرة فاعرفها .

وأما الاقتضاب فهو الذي أشرنا إليه في صدر هذا النوع ، وهو أن يقطع المؤلف كلامه ويستأنف كلاماً آخر غيره ، من غير علاقة تكون بينه وبين ما قبله ، فمن ذلك ما هو أحسن من

(١) هو أبو محمد إسحاق بن ابراهيم بن ماهان بن بهمن بن بشك التميمي بالولاء الأرجاني الأصل المعروف بابن النديم الموصلي ، كان من كبار الغنين والظرفاء والخلفاء ، زيادة على علمه باللغة والشعر وأخبار الشعراء وأيام العرب وبده الطولي في الفقه والحديث وعلم الكلام ، وكانت دائرة علومه وفنونه واسعة ، نادم الخلفاء كالرشيد والمأمون والمعتصم والأمين والهادي وكان المعتصم يقول : ما غناني إسحاق قط إلا خيل لي أنه زيد في ملكي « وله كتاب كبير في الفناء مذكور في كتب التاريخ توفي سنة ٢٣٥ هـ على أصح القولين ، راجع الأغاني ج ٥ ص ٢٥٨ — ٤٣٥ » طبعة دار الكتب المصرية ، وغيره من الأجزاء وتاريخ بغداد للخطيب « ج ٦ ص ٢٣٨ » ووفيات الأعيان « ج ١ ص ٦٩ » طبعة بلاد العجم .

(٢) أحمد بن هشام من قواد الخليفة المأمون وله ذكر في أخبار الدولة العباسية « أخبار بغداد لأحمد بن طاهر ص ٥٩ ، ١١٩ » والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي « ج ٢ ص ١٤٩ ، ٢١٣ » . وفي الأغاني « ج ٥ ص ٣٠١ » أنه أهدى إلى إسحاق الموصلي زعفراناً وكتب إليه شعراً فرد الجواب شعراً .

التخلص ، وهو فصل الخطاب ، ولذين في ذلك ما يوقفك عليه ، ويأخذ بمجامع قلبك فتقول : إن أريد فصل الخطاب ، الفاصل في الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفساد ، والحق والباطل ، والصواب والخطأ فهو « فَعَلَ » بمعنى فاعل كالفَوْم والزَّوْر ، وقال بعضهم هو « أما بعد » لأن المتكلم يفتتح ، اذا تكلم في الأمر الذي له شأن ؛ بذكر الله عز وجل وتمجيده ، فاذا أراد أن يخرج المسوق اليه فصل بينه وبين ذكر الله عز وجل « « أما بعد » وهذا مذهب المحققين من علماء البيان . قالوا في الفصل الذي هو أحسن من الوصل هذا ، وهي علامة وكيدة من الخروج من كلام الى كلام آخر غيره كقوله تعالى : « واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » ^(١) إلى قوله : « مفتحة لهم الأبواب » ألا ترى ما ذكر قبل « هذا ذكر » في الأنبياء ، وأراد أن يذكر على عقبه باباً آخر وهو ذكر الجنة وأهلها فقال « هذا ذكر » ثم قال « وإن للمتقين لحسن مآب » . ويدل عليه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال « وإن للطاغين لشر مآب » وذلك من فصل الخطاب الذي هو ألطف موقعاً من التخلص فاعرفه .

النوع الرابع عشر من الباب الأول

من الفن الثاني في المبادئ والافتتاحات

وهو نوع من صناعة التأليف جمّة فوائده ، وذلك أن يجعل مطلع الكلام من الشعر والخطب والرسائل دالاً على المعنى المقصود بذلك الشعر أو تلك الخطبة أو تلك الرسائل . ومن أدب ذلك أن لا يذكر الشاعر في افتتاح القصيدة المديح بما يتطّير به وقال بعض علماء البيان « أحسنوا معاشر الكتاب الابتداء فأنهم دلائل البيان » . وينبغي للشاعر أن يحتز في المدح مما يتطير به من وصف إفغار الديار ، ودثور المنازل والأطلال ، وتشئت الألف ، وذم الزمان ،

(١) السورة « م » والآية « ٤٥ ، ٥٠ » وتمامها « ولهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ، واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ، هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب » .

وأشباه ذلك ، ولا سيما إذا كان في التهاني ، فانه يكون أشد قبحاً ، وإنما يستعمل ذلك في الخطوب النازلة ، والنوائب الحادثة ، ومتى كان الكلام في المدح مؤسساً على هذا المثال تطير منه سامعه ، فان رأس صناعة التأليف وضع كل شيء مكانه ، وإنما خصصت الابتدآت بالاختيار لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام ، فانه متى كان الابتداء لائئماً بالمعنى الوارد بعده توفرت^(١) الدواعي على استماعه وتزايدت البواعث على الاصغاء إليه ، ومن أقبح الابتدآت قول ذي الرمة « ما بال عينيك منها الماء ينسكب »^(٢)

لأن مقابلة المدوح بهذا الخطاب لا خفاء بقبحه ، وقد أنكر الفضل بن يحيى على أبي نواس قوله فيه :

« أربيع البلى إنَّ الخشوع لبادي »

فلما انتهى الى قوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بني بربك من راحلين وغادي

استحكم تطير الفضل بن يحيى ، وقيل إنه لم يمس على ذلك اسبوع واحد حتى نكبوا^(٣) ، وحكي^(٤) أنه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان^(٥) جلس فيه وجمع أهله وأصحابه وأمرهم أن

(١) أي تمت وكملت ، وقد أوقع الناس في الغلط مؤلف « تذكرة الكتائب » حين دعاهم أن يقولوا « توافر » مكان « توفر » وشتان ما بينهما ، فتوافر معناه « تكاثر » وليس المراد التكاثر هاهنا .

(٢) قال ابن رشيق في العمدة « ج ١ ص ١٤٨ » : « ودخل ذو الرمة على عبد الملك بن مروان فأستنشه شيئاً من شعره فأنشده قصيدته « ما بال عينيك منها الماء ينسكب » وكانت بعين عبد الملك رمشة وهي تدمع أبداً فتوهم أنه خاطبه أو عرض به فقال : وما سؤالك عن هذا يا جاهل ؟! ففتته وأمره باخراجه . ولا نظن هذا من العيوب الأصلية في الشعر فقد قال جرير « الموشح ص ١٧١ » : لو خرس ذو الرمة بعد قوله : ما بال عينيك ... كان أشعر الناس .

(٣) ذكر ذلك ابن رشيق في العمدة « ج ١ ص ١٥٠ » .

(٤) الموشح للمرزباني « ص ٣٠١-٣٠٢ » والخبر فيه مبسوط بأكثر مما ههنا .

(٥) الميدان قال ياقوت الحموي في معجم البلدان « شارع الميدان : من محال بغداد أيضاً بالجانب الشرقي خارج الرصافة وكان شارعاً ماداً من الشماسية الى سوق الثلاثاء وفيه قصر أم حبيب بنت الرشيد » . وسوق الثلاثاء هو سوق الحيدرخان الحالي وسوق باب الأغا . والشماسية هي الصليبخ الحالية ، فالميدان كان بينهما ، وكان فيه قصر المعتصم . والقصة المذكورة في كتاب « الموشح » للمرزباني « ص ٣٠١ » .

يلبسوا أسنى الملابس ، ويظهروا محاسن الزينة ، وجلس على سرير مرصع بالجواهر وإلى جانبه أسرة ، فكلما دخل عليه رجل من أكابر دولته أجلس في الموضع الذي يليق به فما^(١) رأى الناس أحسن من ذلك اليوم ، فاستأذن إسحق بن إبراهيم الموصلي في الانشاد فاذن له ، فانشد شعراً ما سمع بأحسن منه في صفته وصفة المجلس إلا أنه استفتتح بذكر الديار القديمة وبقية آثارها فقال :

يا دار غيرك البلى ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك ؟ !
فتطير المعتصم من ذلك وتغامر الناس على إسحق بن إبراهيم ، وعجبوا كيف ذهب عليه مثل ذلك مع علمه ومعرفته وطول خدمته للملوك ، ثم أقاموا يومهم وانصرفوا فما عاد منهم اثنان الى ذلك المجلس ، وخرج المعتصم إلى^(٢) سر من ، رأى وخرب القصر ، فاذا أراد الشاعر أن يذكر داراً في مديحه فليذكر كما ذكر الحريري^(٣) :

ألا يا دار دام لك السرور وساعدك الفسارة والجبور
وكما قال أشجع^(٤) ...

قصر عليه تحية وسلام نشرت عليه جماله الأيام

(١) في الأصل « فلما » والتصحيح من الموشح .
(٢) في الأصل « من » وهو خطأ في التأريخ لأن المعتصم ترك بغداد الى سامراء ولأن القصر المذكور كان ببغداد .

(٣) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان بن قومي ، عرف بالحريري لأنه كان متصلاً بخريم بن عامر المري أو ابنه عثمان . وأصله من خراسان من أبناء السعد . كان شاعراً محسناً ، له مدائح في يحيى بن خالد بن برمك وغيره وكان أعور « تاريخ بغداد للخطيب » ج ٦ ص ٣٣٦ « والشعر والشعراء » ص ٣٥٣ « طبعة المكتبة التجارية ، عصر سنة ١٩٣٢ وتاج العروس في « خرم » والأغاني » ج ٣ ص ١٩٦ ، ج ٦ ص ٨٣ ، ج ١١ ص ٣٤٤ ، ج ١٣ ص ١٥٠ « من طبعة دار الكتب المصرية .

(٤) هو أشجع بن عمرو بن بني سليم ولذلك عرف بالسلمي ، كان من أهل الرقة وقدم البصرة فتأدب بها ثم ورد بغداد . وكان شاعراً بارعاً ظريفاً جيد المعاني جزل الباني ، اتصل بالبرامكة وأكثر من مدحهم ومدح الرشيد ، وهذا البيت من قصيدة يمدحه فيها مطلعها :

قصر عليه تحية وسلام خامت عليه جماله الأيام
« الشعر والشعراء » ص ٣٧٣ « من الطبعة المذكورة » وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ١١٧ « والأغاني » ج ١٧ ص ٣٠ — ٥١ « طبعة سامي و » تاريخ بغداد للخطيب ج ٧ ص ٤٥ .

وما أجدر هذا البيت بفتح شعر إسحاق بن إبراهيم الذي أنشده للمعتصم في ذلك القصر ،
فانه لو ذكر هذا وما يجري مجراه لكان حسناً لائقاً .

وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء ، فقال من أجاد الابتداء والمقطع ، ألا ترى أن قصيدة
أبي نواس التي هي :

يا دار ما فعلت بك الأيام لم يبق فيك بشاشة تستام
قد قيل إنها من أشرف شعره وأعلاه منزلة ، وأن أبا تمام مع تقدمه في صناعة الشعر أتعب
نفسه في الاتيان بما يماثلها أو يشابهها فلم يقدر على ذلك ، وهي مع شرفها وعلو منزلتها في الشعر
مستكرهة الابتداء من حيث النظر ، لأنها في مدح الخليفة الأمين . وافتتاح المديح بذكر
الديار ودروسها يتطير به ، ولا سيما في حق الخلفاء والملوك ، ولهذا يختار من ذكر الأماكن
والمنازل ما راق لفظه ، وحسن التلغظ به كالغوير والعقيق وزرود^(١) وأشباه ذلك ، ويختار أيضاً
من أسماء النساء في الغزل نحو « سعاد وأمام وفوز » وما يجري هذا المجرى . ولقد عيب على
الأخطل من أجل تغزله باسم « قدور »^(٢) وهي امرأة كان يحبها فإنه مستقبح في الذكر ،
وأمثال هذه الأشياء تجب مراعاتها والاعتناء بها فاعرف ذلك .
ولما نظر أبو العَمَيْشَل^(٣) في قصيدة أبي تمام وهي :

(١) الغوير والعقيق وزرود أسماء مواضع في بلاد العرب .

(٢) كذا ورد في الأصل وفي الأغاني « ج ٨ ص ٣٠٢ » من طبعة دار الكتب المصرية أنه كان ينسب
بزعم وأمانة ابنتي سعيد بن إلياس بن هانيء بن قبيصة ، وكانت زعوم تعرف بأمر الأخماس .

(٣) هو عبد الله بن خليل ، مولى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي . قيل إن
أصله من الري ، وكان كاتب عبد الله بن طاهر الخزاعي وشاعره وهؤدب أبنائه وكاتب أبيه من قبله ، وكان
يفخم الكلام ويعربه ، ويكثر من نقل اللغة وله علم بها وصنف كتباً مفيدة منها « ما اتفق لفظه واختلف
معنا » وقد طبعه المستشرق فريتس كرنكو بلندن سنة ١٩٢٥ باسم « الكتاب المأثور عن أبي العميشل
الأعرابي » وله كتاب « الشباب » وكتاب « الآيات السائرة » و « معاني الشعر » وغير ذلك . وتوفي
سنة « ٢٤٠ » هـ الفهرست لابن النديم « ص ٧٢ من طبعة مصر » والوفيات « ج ١ ص ٢٨٤ » طبعة
بلاد العجم ، والمجموع اللقيف « نسخة مصورة ، الورقة ٣ - ٤ » وله شعر جيد .

« أهن عوادي يوسفٍ وصواحيبه ^(١) »

استرذل ابتداءها فاسقط القصيدة كلها حتى عاد إليه أبو تمام ووقفه على موقع الاختيار منها

وهو :

إليك جزعنا مغرب الشمس كلما أجزنا ^(٢) ملأ صلتك عليك سبابه
وغير ذلك مما ذكره أبو تمام في قصيدته ، فلما وقف أبو العميش عليه راجع عبد الله بن
طاهر فأجازها له . ولأبي تمام ابتداء آت كثيرة تجري هذا المجرى كقوله :

« قدك انتد ^(٣) أريت في الغلواء ^(٤) »

فإن الابتداء المستكره ليس من شرطه أن يكون مما يتطير به فقط وإنما يكون مستكرها كما
أشرنا إليه من قول أبي تمام وما جانسه ، فاعرف ذلك .

واعلم أن الابتداء البديع البارع يكون داعياً الى الاصفاء الى ما بعده من الكلام ، ألا ترى
أن الله تعالى قال : « حَم ، أَلَمْ ، وَطَسَمْ ، وَكُهَيْعَص » . فيقرع الأسماع شيء بديع ، ليس لها
بمثله عادة فيكون ذلك داعياً لها الى الاستماع ، ولذلك استحسن من الابتداء آت في الكتب
« الحمد لله » لأن النفوس تتشوف الى تعجيد الله — عز وجل — والثناء عليه ، وتميل إلى معرفة
ما يأتي بعده من الكلام .

ومن أحسن الابتداء آت ما ذكره مهيار فإنه أتى بالمعنى المقصود من أول كلامه فقال :
أما وهواها عذرةً وتنصلاً
لقد نقل الواشي إليها فأحلاً ^(٥)
سعى جهده لكن تجاوز حده
وكثر فارتابت ولو شاء قللاً
ألا ترى ما أطف هذا الاعتذار الذي قد أبرزه في هيئة القول ، وأخرجه في ممرض النسيب ،

(١) من قصيدة يمدح بها أبا العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين ، والشرط الثاني « فعزماً فقد ما أدرك
السؤل طالبه » (الديوان ص ٣٦) .

(٢) في الديوان « و سطنا » . (٣) في الأصل « قدكئتد » مزوجة .

(٤) من قصيدة يمدح بها يحيى بن ثابت ، والشرط الثاني « كم تعذلون وأنتم سجرائي ؟ ! »

(٥) أحل : قال المحال وهو فعل مشتق من مشتق غير الفعل مثل « تمسكن » من السكين .

والمراد به الاعتذار الى المدوح ، وذلك من أبداع ما يكون في هذا الباب . ومما جاء على نحو منه قول بعض المتأخرين في أنوشروان ^(١) الوزير وقد خلع عليه :

خُلِمَتْ من الحَدَثَانِ أَحْصَنُ أَدْرَعِي فَلَئِنْ سُوِّنَ عَلَى الْكَرِيمِ الْأَرْوَعُ
وكذلك قوله وقد وشي في حقه الى المدوح :

وراءك أحوال الوشاة الفواجر ودونك أحوال الغرام المُخَامِر
فلولا وَكُوعُ منك بالصدق ما وشوا ولولا الهوى لم أُنْتَدِبَ للمعاذر
فسلك في هذا القول مذهب مهيار إلا أن في هذا زيادة على ما قاله مهيار ، وهي في المعاتبه على الالتفات الى الوشاة ، والاستماع منهم وذلك من أغرب ما قيل في هذا المعنى ، فاعرفه .

ومن الابتدآت في الكتب قول مؤلف الكتاب « الحمد لله رافع لواء الايمان ، وقامع أولياء الشرك والبهتان ، الذي نصر الاسلام وأطلع نجومه ، وخذل الكفر وطمس رسومه » ، فانه قد جيء بالمعنى المقصود وهو البشرى بهزيمة الكفار من أول الكتاب ، ومتى سمع الانسان

(١) هو معين الدين شرف الدولة أبو نصر أنوشروان بن خالد بن محمد الفيني القاشي الوزير ، ولد بالري سنة « ٤٥٩ هـ » ونشأ نشأة الكتاب وتقلت به الأحوال الى أن ولي الوزارة لسلطان مغيث الدين محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي في جمادى الآخرة سنة « ٥١٧ هـ » وقدم معه بغداد واستوطنها وعزل عن الوزارة ثم أعيد اليها في رجب سنة « ٥٢١ هـ » واستوزره الخليفة المسترشد بالله في أواخر رجب سنة « ٥٢٦ هـ » وعزله في شهر ربيع الأول سنة « ٥٢٨ هـ » ثم استوزره السلطان مسعود أخو محمود المذكور ، ثم عزله سنة « ٥٣٠ هـ » فعاد الى بغداد وأقام معزولا مكرماً في داره بالحريم الطاهري بالجانب الغربي من بغداد الى أن توفي ثاني عشر صفر سنة « ٥٣٢ هـ » . وقيل في شهر رمضان قال ابن الجوزي « كان عاقلاً مهيباً عظيم الحلقة دخلت عليه فرأيت من هيئته ما أدهشني وهو كان السبب في جمع المقامات التي أنشأها أبو محمد الحريري » وقال ابن الأثير « كان يستقيل من الوزارة فيجاب الى ذلك ثم يخطب اليها فيجيب كارهاً » . وقال السمعاني « وكان قد جمع الله فيه الفضل الوافر والعقل الكامل والتواضع والرعاية للحقوق » . وفي الحق أن سلامته من الأذى والقتل في ذلك العصر تدل وحدها على حسن سيرته وفضله ، وله كتاب « فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور » في تاريخ السلجوقيين ، بالفارسية ، أخذ منه العماد الأصفهاني في كتابه « نصره الفترة » (تلخيص معجم الألقاب) لابن الفوطي ، والمتنظم لابن الجوزي « ج ١ ص ٧٧ » و « الكامل في سنة » « ٥٣٣ هـ » وغيرها ، وأنساب السمعاني في « الفيني » و « نصره الفترة وعصره الفترة » للعماد الأصفهاني « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس » « ٢١٤٥ » والنجوم الزاهرة « ج ٥ ص ٢٦١ » و « شذرات الذهب » ج ٤ ص ١٠١ . و « خريدة القصر وجريدة العصر » نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٣٣٢٦ الورقة ٦٠ ، ٦٤ » و « الفخري » « ٢٢٥ » . وكشف الظنون في « فتور » .

هذا المطلع علم أنه يتضمن البشرى بادالة المسلمين على المشركين من غير أن يحتاج إلى وقوف على حديث الوقعة . ومن ذلك قول بعض الكتاب في زمن المأمون وقد نُتِجَتْ ناقةٌ شخصَ آدمي ، فأمر أن يكتب بذلك الى البلاد فقال « الحمد لله خالق الأنام في بطون الأنعام » ، فعبّر عن المراد في أول كلامه . وأمثال ذلك كثيرة فاعرفها .

النوع الخامس عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في قوة اللفظ لقوة المعنى

وهو نوع من علم البيان شريف المحل ، لطيف المأخذ ، وإنما يعتمد اليه لضرب من المبالغة . اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل الى وزن آخر أكثر منه فلا بد و^(١) أن يتضمن من المعنى أكثر مما كان يتضمنه أولاً ، والدليل على ذلك أن الألفاظ هي أدلة على المعاني وأمثلة للإبانة عنها ، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني بقدر ما زيد في الألفاظ . وهذا لا نزاع فيه ، لبيانه ووضوحه . فمن ذلك « خشن » و « اخشوشن » فمعنى « خشن » دون معنى « اخشوشن » لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو . ونحو « فعل » و « افعمول » وكذلك قولهم « أعشب المكان » فإذا أرادوا كثرة العشب قالوا « اعشوشب » ومثله « فعل » و « افتمعل » نحو « قدر » و « اقتدر » فاقترأ أقوى معنى من قولهم « قدر » قال الله — تعالى — « أخذ عزيز مقتدر »^(٢) « فقتدر هنا أبلغ من « قادر » من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ الذي لا يصدر الا عن وفور الغضب ، وكثرة السخط ، ومما ينتظم في هذه الأوزان من أسماء الفاعلين ، فإن بعضها أبلغ من بعض ، نحو « فاعل » و « فاعيل » وما جرى مجراها .

ولقد سألتني بعض الأخوان عن « فاعل » و « فاعيل » وأيها أبلغ ؟ فقلت في الجواب

(١) زيادة الواو ها هنا ليست من الفصاحة في شيء ، وهي تفسد العبارة .

(٢) السورة « القمر » والآية « ٤٢ » وهي « كذبوا بآياتنا فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » .

ما أذكره ههنا وهو إن كانت العرب قد قالت إن « فاعلاً » أبلغ من « فاعيل » أو إن « فاعلاً » أبلغ من « فاعل » بغير علة أوجبت ذلك ولا سبب اقتضى تمييز أحدهما عن الآخر ، إلا تحكما محضاً ، فذلك مُسَلَّم اليهم ، لأنه لغة القوم وكلامهم ، وهم المتحكمون فيه ، وإن كانت العرب لم تميز « فاعلاً » على « فاعيل » ولا « فاعلاً » على « فاعل » ولا قالت إن أحدهما أبلغ من الآخر فلنا نحن أن نبحث عن ذلك ، فإن وجدنا لأحدهما مزية على الآخر ذكرناها ، وإن لم نجد كان لذلك أسوة بباقي لغتهم ، التي لا نعرف لها علة ، وإنما نأخذ عنهم بالنقل والتقليد ، ولما سألت ، أيها الأخ ، عن الفرق بين « فاعل » و « فاعيل » وأيهما أبلغ ؟ أنعمت النظر في ذلك مستعيناً بالله ، فسنح الفرق بينهما بما أذكره ، والله الموفق ، فأقول : أما الحكم على أن أحدهما أبلغ من الآخر فهو أن « فاعلاً » أبلغ من « فاعيل » . وأما علة الحكم فن وجهين :

الأول : أن « فاعلاً » لم يرد في كلام العرب إلا اسماً للفاعل فقط نحو « ضارب » اسم فاعل من « ضَرَبَ » و « قاتِل » اسم فاعل من قَتَلَ ، وهذا مطَّرد في بابه لم يأت غيره وأما « فاعيل » فانه يكون اسماً للفاعل وبمعنى « المفعول » فأما كونه اسماً للفاعل فنحو « ظريف » اسم فاعل من « ظَرَفَ » و « كريم » اسم فاعل من « كَرُمَ » وكذلك ما جرى هذا المجرى . وأما كونه بمعنى « المفعول » فهو نحو « قَتيل وجريح » اللذين هما بمعنى المقتول والجروح . فلما كان « فاعل » مختصاً باسم الفاعل لا يشاركه فيه غيره ، وفعل يشترك فيه اسم الفاعل والمفعول كان ما هو مختص بالفاعل وحده أبلغ مما يشترك فيه الفاعل والمفعول ، وذلك لقوة الفاعل على المفعول وضعف المفعول عن الفاعل ، وما يختص بأمر قوي أبلغ مما يتردد بين أمرين قوي وضعيف . فان قيل إن « فاعلاً » قد جاء بمعنى المفعول كما جاء « فاعيل » بمعنى المفعول في قوله تعالى « ماءٍ دافقٍ » أي مدفوق قلنا : أما قولك إن « فاعلاً » قد جاء بمعنى المفعول واستدلالك عليه بالآية فانه ضعيف شاذ ، لأن ذلك لم ينقل جوازه عن العرب ولم يذهب إليه أحد من العلماء ، غير أن بعض^(١) المفسرين قد ذكره وزيف قوله الجمهور ، وأجمعوا على مخالفته

(١) لم ينفرد بذلك واحد ففي الصحاح للجوهري « دفت الماء أدفقه دفقاً أي صبته فهو ماء دافق أي =

وقالوا إن معنى قوله تعالى « ماء دافق » أي مندفق وذلك أيضاً اسم « فاعل » . من « أُنْفَعِلَ » نحو « أُنْطَلَقَ فهو منطلق » و « انْعَكفَ فهو منعكف » وما جرى هذا المجرى ، ثم لو نقل جواز هذا عن العرب وصح عنهم لما كان ناقضاً لدعوانا نحن في « فَعِيل » وأنه يجيء بمعنى « المفعول » شائعاً كثيراً في كلامهم ويصح عليه القياس . وما ذكرته أيها المعترض شاذ قليل لا يعتد به ولا يقاس عليه ، لأنه لم يأت منه إلا لفظة واحدة أو لفظتان أو لفظات كماء دافق وعيشة راضية « والشائع الكثير في كلام العرب وغيره أرجح جانباً من الشاذ القليل ، وما يقاس عليه أبلغ مما ليس بمقيس (عليه) . وأما الوجه الثاني في إثبات أن « فاعلاً » أبلغ من « فاعيل » فهو أن « فاعلاً » يكون اسماً للفاعل متعدياً كان أو قاصراً فهو إذا يعمها جميعاً نحو « غالب وجالس » ، وأما « فاعيل » فانه لا يكون اسماً إلا للفاعل فعله قاصر غير متعد نحو « شريف ونبية وغليظ » وهو مطرد في هذا الباب لم يأت في كلام العرب غيره ، فلما كان « فاعل » اسماً للفاعل المتعدي فعله والقاصر معاً ، و « فاعيل » اسماً للفاعل القاصر فعله فقط كان « فاعل » أبلغ من « فاعيل » المتعدي فعل فاعله إلى مفعوله ، وقصور فعل « فاعيل » عن معموله فان قيل إن « فاعلاً » جاء اسماً للفاعل المتعدي فعله على غير وزن « فَعُلَ » نحو « خطبَ فهو خطيب » و « علم فهو عليم » وهذا يدل على أن « فاعلاً » مساو « لفاعل » في التعدي لأن « فاعلاً » قد جاء اسماً للفاعل متعدياً كان فعله أو قاصراً ، وكذلك قد جاء « فاعيل » أيضاً كما رأينا .

قلنا هذا الذي أشرت اليه من أن فاعلاً قد جاء اسماً للفاعل المتعدي فعله على غير وزن « فَعُلَ » نحو « خطبَ فهو خطيب وعلم فهو عليم » مسلم اليك إلا أن ذلك لا يكون ناقضاً لما ذكرناه ولا اعتراضاً

= مدفوق كما قالوا سر كاتم أي مكتوم . لأنه من قولك : دفق الماء على ما لم يسم فاعله ، ولا يقال : دفق الماء « . وفي المصباح النير « دفق الماء دفقاً من باب قتل : انصب بشدة ، ودفقته أنا ، يتعدى ولا يتعدي فهو دافق مدفوق . وأنكر الأصمعي استعماله لازماً . قال : وأما قوله - تعالى - « من ماء دافق » فهو على اسلوب لأهل الحجاز وهو أنهم يحولون المفعول فاعلاً إذا كان في محل نعت والمعنى من ماء مدفوق . قال ابن القوطية : ما يوافقه ، سر كاتم أي مكتوم وعارف أي معروف ودافق أي مدفوق وعاصم أي معصوم . وقال الزجاج : المعنى « من ماء ذى دفق » . قلنا : والصحيح قول الزجاج ، وهو الذي أثبتته المحققون .

عليه ، لأن الذي أوردته إنما كان يصح لك الاعتراض به على ما أشرنا إليه أن لو كان « خطيب » وحده اسم فاعل من « خطب » ولا يجوز فيه « خاطب » أو كان « عليم » اسم فاعل من عليم ولا يجوز فيه « عالم » وكذا الأصل في « خَطَبَ » أن يكون اسم فاعله « خاطب » ولهذا لا ترى وزن « فعيل » أبداً وهو اسم فاعل من « فَعَلَ أو فَعِلَ » الا وهو دخيل على « فاعل » لأنه الأصل وعليه القياس . والدليل على ذلك الاطراد والغلبة ، لأن من شروط القياس الاطراد والغالب عليه أن يكون كذلك . وهذا موجود في « فَعَلَ » و « فَعِلَ » فهو « فاعل » وأما « فعيل » منها فهو شاذ نادر والشاذ النادر لا ينقض القياس ، والدليل على أن « فعيلاً » شاذ في « فَعَلَ وفَعِلَ » فانه قد جاء فيها ألفاظ معدودة لا غير ، وانما اطراده وغلبته (في) « فَعُلَ » نحو « شَرُفَ فهو شريف » و « كَرَّمَ فهو كريم » و « نَبَّهَ فهو نبيه » وكذلك ما جرى هذا المجرى ، على أنه قد شذ منه « فاعل » أيضاً نحو « طَهَّرَ » فهو طاهر ولا يقال فيه « طَهِيرَ » فاعرفه .

فان قيل : إن « فعيلاً » هو اسم فاعل من الصفات الذوية ^(١) ، ولسنا نعني بذلك ما كان مقوماً للذات ، نحو الحياة التي لا تقوم الذات إلا بها ، وانما نعني بذلك ما كان ملازماً للذات نحو « عليم وقدير وسميع وبصير » و « فاعل » هو اسم فاعل من الصفات العرضية نحو « ضارب وآكل وشارب » وما يكون مختصاً بصفة الذوات أبلغ مما يكون مختصاً بصفة الأعراض ، وأشرف محلاً ، الجواب عن ذلك : أنا نقول لو سلم لك يوماً المعارض ما ذكرته واطرد في بابيه لكان ناقضاً لما ذكرناه نحن وادعيناه من أن « فاعلاً » أبلغ من « فعيل » وإنما قد جاء « فاعل » وهو أيضاً اسم الفاعل من صفات الذات نحو « عالم وقادر وسامع » وأشبه ذلك ، فقد عم « فاعل » إذن صفات الذوات وصفات الأعراض . وما

(١) نسبة إلى « الذات » ، وفي المصباح المنير « .. قال ابن برهان من النحاة : قول المتكلمين « ذات الله » جهل لأن أسمائه لا تلحقها تاء التأنيث فلا يقال علامة وان كان أعلم العالمين . قال : وقولهم « الصفات الذاتية » خطأ أيضاً فان النسبة الى ذات « ذووي » لأن النسبة ترد الاسم الى أصله » . ثم نقل صاحب المصباح « وقد صار استعمالها بمعنى نفس الشيء عرفاً مشهوراً حتى قال الناس « ذات متميزة » و « ذات محدثة » ونسبوا اليها على لفظها من غير تغيير فقالوا « عيب ذاتي » بمعنى جبلي وخلقي » .

كان عاماً للأمرين جميعاً كان أبلغ مما اختص بأحدهما دون الآخر .

فإن قيل قد قلت في كتابك : إن ما كان مختصاً بأمر قوى في بابه أبلغ مما تردد بين أمرين أحدهما قوي والآخر ضعيف ، وهذا الحكم قد وجدناه ههنا في « فَعِيلٌ وفاعِلٌ » ففَعِيلٌ مختص باسم الفاعل من الصفات الذويّة واسم الفاعل من الصفات العرضية ، فالذي يختص بالأشرف الأقوى وحده أبلغ من الذي يترد بينه وبين ضده ، وهو الأُذْنِي الأضعف . الجواب عن ذلك : أنا نقول قد سلمنا اليك أن « فاعلاً » الذي هو اسم الفاعل ها هنا متردد بين صفات الذوات والأعراض ولكن من أين لك ، أيها المعترض [الشاهد] ، بصحة ما ذكرته من أن « فَعِيلًا » الذي هو اسم الفاعل ها هنا يخصّ صفات الذوات دون صفات الأعراض ، فإن هذا شيء لم ينظم لك سلكه ، ولا رسا لك أصله ، لأنه قد جاء « فَعِيلٌ » أيضاً وهو « فاعِلٌ » من صفات الأعراض نحو « نبيه ووجيهه وبصير وفقير » وأشباه (ذلك) . فقد استوى إذن « فاعِلٌ » و « فَعِيلٌ » في عمومهما لصفات الذوات والأعراض ، ولم يكن لأحدهما مزية على الآخر في هذا المعنى ، وتفرد « فاعِلٌ » بالمزية على « فَعِيلٌ » فيما أشرنا إليه قبل هذا الموضع في هذا الباب من تعديده إلى معموله واختصاصه باسم الفاعل دون معنى المفعول ، وقد مرّ ذلك مستوفىً في مكانه ، فاعرفه .

هذا ما صح لنا في الفرق (بين) « فاعِلٌ وفَعِيلٌ » وأيهما أبلغ . والله الموفق ^(١) . ومما أشرنا إليه من ذلك كفاية للمعارف بهذه الصناعة ، فانه ينبغي أن يكون خبيراً بقياس هذه الأشياء على نظائرها وأشباهها .

النوع السادس عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في خذلان المخاطب

وهو الأمر بعكس المراد ، ويدل ذلك على الاستهانة بالأمور ، وقلة المبالاة بأمره أي أي

(١) فات المؤلف الكلام على « فَعِيلٌ » المشتق من « فاعِلٌ يفعل » الرباعي وهو نحو « القريع » من قارعه و « الشريك » من شاركه وهو لا يحصى كثرة .

مقابلتك على فعلك ومجازيك بحسنه ، فمن ذلك قوله تعالى « واذا مسَّ الانسانَ ضرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَجَعَلَ اللَّهُ آتِدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ^(١) » فقوله « تمتع بكفرك » من باب الخذلان ، كأنه قال له : إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الايمان والطاعة فمن حقك أن لا تؤمر به بعد ذلك ، وتؤمرَ بتركه ، وهذا مبالغة في خذلانه لأن المبالغة في الخذلان أشد من أن يُبعث على ضدِّ ما أمر به .

ومن هذا الباب قوله تعالى « قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ^(٢) » . الآية ، فان المراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير المبالغة في الخذلان ، على ما سبق ذكره ، وفي هذا الكلام معنيان لطيفان : الأول رأى أن عبادتكم لله وعبادتكم لغيره إنما تنفع أو تضر لكم لا لسواكم ^(٣) والله — تعالى — لا يؤثر ذلك عنده شيئاً ، لأن مستغن عن عبادتكم له . الثاني توعده لهم بالمقابلة على فعلهم من غير إصرار بالوعيد ، وذلك أبلغ من الإصرار به ؛ لوقوع الموعود في حيرة من أمره ، وتراخي وهمه عند ذلك إلى كل خطب عظيم من المجازاة والمقابلة ، كقولك لمن عصى « افعل ما شئت إني مقابلك » وهذا نوع من علم البيان شريف ^(٤) .

النوع السابع عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في الاشتقاق

اعلم أن جماعة علماء هذه الصناعة يفضلون الاشتقاق على التجنيس ، وليس الأمر كما وقع لهم ، بل التجنيس أمر عام لهذه النوعين من الكلام ؛ وذلك لأن التجانس ^(٥) في أصل الوضع

(١) السورة « الزمر » والآية « ٨ » .

(٢) السورة « الزمر » والآية « ١٤ — ١٥ » وتامها « ... قل إن الخاسرين الذين خسروا

أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين » .

(٣) الفصيح « لا لمن سواكم » بإضافة « من » الموصولة كقوله — ص — « وهم يد على من سواهم » .

(٤) في الأصل « الشريف » وهو لا يناسب سياق الكلام .

(٥) في المثل السائر « ج ٢ ص ٣٣٧ » التجنيس .

هو التماثل والتشابه ، يقال « جانس الشيء (الشيء^(١)) إذا ماثله وشابهه ، ولما كان الحال كذلك ، ورأينا من الألفاظ ما يتماثل ويتشابه في صيغته وبيانه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم « التجانس » . وكذلك لما رأينا من المعاني ما يتماثل ويتشابه علمنا أن ذلك يطلق عليه اسم « التجانس » ، أيضاً ، فالتجانس ينقسم قسمين أحدهما تجانس في اللفظ والآخر تجانس في المعنى ، فأما التجانس في اللفظ فهو على باب تجانس لم يجعل له اسم آخر كما جعل للتجانس في المعنى فانه يسمى « الاشتقاق » أي أن أحد المعنيين مشتق من الآخر ، فهذا الموضع الذي كنا بصدد ذكره لا يليق أن نورد فيه إلا ما يختص بالمعاني ، لأنه من باب الصناعة المعنوية ، ولذلك أفردنا « الاشتقاق » وذكرناه هاهنا . وأما التجانس في الألفاظ . فسيأتي ذكره في باب الصناعة اللفظية .

واعلم أن الاشتقاق على ضربين : صغير وكبير ، فالصغير : أن يأخذ أصلاً من الأصول فيجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغته ومبانيه ، كتركيب « س ل م » فانك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه نحو « سلم وسالم وسلمان وسلمى والسليم » اللديغ : أطلق عليه ذلك تفاؤلاً بسلامته ، وعلى هذا جاء غيره من الأصول كقولك « هسمتك هاشم » و « حاربك محارب » و « سالمك سالم » و « أصاب الأرض صيب » لأن الصيب هو المطر الذي يشد صوبه أي وقعه على الأرض ، وأمثال ذلك كثيرة ، ولهذا الضرب من الكلام رونق لا يخفى على العارف بهذه الصناعة ، فما جاء منه قول بعضهم^(٢) :

« أمحلتني سلمى لكاطمة اسماً »

وكذلك قول الآخر وهو جرير بن عطية^(٣) :

(١) زيادة ضرورية من التل السائر .

(٢) هو البحري وهو مطلع قصيدة له يمدح بها أحمد وإبراهيم ابني المدبر وتمت البيت :

« وتعلما أن الهوى ما هجتا »

انظر الديوان « ج ٢ ص ٢٣٩ » طبعة مصر ، وانظر حاشية التل السائر « ج ٢ ص ٣٣٩ » .

(٣) هذا البيت من كلمة لجرير يهجو بها الفرزدق أولها قوله :

وما ذات أرواق تصدى لجؤذر بحيث تلاقى عازب فالأوعس

وما زال معقولاً عقال عن الندى وما زال محبوباً عن الخير حابس
وقال غيره (١) :

لقد علم القبائل أن قومي لهم حدّ إذا لبس الحديد
وأمثال هذه كثيرة ، فاعرفها .

وأما الاشتقاق الكبير فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول فتعقد عليه وعلى تراكيبه معنى واحداً يجمع تلك التراكيب وما تصرف منها وإن تباعد شيء من ذلك رد بلطف الصنعة والتأويل إليها ، كما يفعل الاشتقاقيون . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول : إن لفظة « ق ر م » من الثلاثي لها ستة تراكيب وهي « ق ر م . ق م ر . م ق ر . م ر ق . ق ر م . ر م ق » فهذه التراكيب الستة يجمعها معنى واحد . وهو القوة والشدة ، فالقمر شدة شهوة اللحم وقمر الرجل « إذا غلب من يقامره » و « الرقم » الداهية وهي الشدة التي تلحق الإنسان من أمره « وعيش مرمق » أي ضيق ، وذلك نوع من الشدة أيضاً « والمقر » شبه الصبر يقال « أقرر الشيء إذا أمر » وفي ذلك شدة على الذائق وكراهة « ومرق السهم » إذا نفر من الرمية ، وذلك لشدة مضائه وقوته . واعلم أنه إذا أسقط من تراكيب الكلمة شيء ففائز ذلك في الاشتقاق ، لأن الاشتقاق ليس من شرطه كمال تراكيب الكلمة بل من شرطه أن الكلمة كيف تقلبت بها تراكيبها ، من تقديم حروفها أو تأخيرها أدت الى معنى واحد يجمعها . فمثال ما سقط من تراكيب الثلاثي لفظه « و س ق » فإن لها خمسة تراكيب وهي : و س ق . و ق س . س و ق . ق س و . ق و س . وسقط من جملة التراكيب قسم واحد وهو « س ق و » وجميع هذه الكلمات المذكورة تدل على القوة والشدة أيضاً ، فالوسق (٢) من قولهم « استوسق الأمر » أي اجتمع وقوي . والوقس : ابتداء الجرب ، وفي ذلك شدة على من يصيب وبلاء . والسوق :

(١) هذا البيت للحيان بن ربيعة الطائي وهو من شعر الحماسة « التبريزي ج ١ ص ٢٧٩ » والصناعتين لأبي هلال « ٢٥٦ » وحاشية المثل السائر « ج ٢ ص ٣٣٩ » وفي رواية الحماسة « لهم جد » وذكر التبريزي أنه يروى « لهم حد » .

(٢) كذا ورد في الأصل المصور ولعله « منه » لأن الجرد أصل المزيد وهذا من بديهيات الاشتقاق .

متابعة السيرة وفي هذا عناء وشدة للسائق والمسوق . والقَسْوَة : شدة القلب وغلظه .
والقَوْسُ : معروف ، وفيه نوع من الشدة والقوة لنزعه السهم وإخراجه الى ذلك المرمى
المتباعد .

واعلم أنا لا ندعي أن هذا يطرد في جميع اللغة بل قد جاء شيء منها كذلك ، وهذا مما يدل
على شرفها وحكمتها ، لأن الكلمة الواحدة تتقلب على ضروب من التقليل ، وهي مع ذلك دالة
على معنى واحد . وهذا من أعجب الأسرار التي توجد في لغة العرب وأغربها ، فاعرفه .

النوع الثالث من الباب الأول من الفن الثاني

في الحروف العاطفة والجارة

وهو نوع ينبغي لمؤلف الكلام مراعاته والعناية به ، لأن معانيه ودقائقه ، لا يتنبه لها إلا
الفطن اللبيب ، وما رأيت أحداً من علماء هذه الصناعة تعرض له ولا ذكره ولا أقول إنهم لم
يعرفوا ذلك أصلاً ، لأن هذا النوع من الكلام أشهر من أن يخفى ؛ لأنه مذكور في كتب
العربية جميعها ، ولست أعني بإيرادها هنا ما يذكره النحويون من أن الحروف العاطفة تتبع
المعطوف (المعطوف^(١)) عليه في الاعراب ، ولا أن الحروف الجارة تجر ما تدخل عليه بل أمراً
وراء ذلك ، وإن كان المرجع فيه الى الأصل الذي ذكره علماء العربية في كتبهم فأقول :

إن أكثر الناس يجعلون ما ينبغي أن يعطّف بالواو معطوفاً بالفاء ، وما ينبغي أن يعطف
بالفاء معطوفاً بـثم ، وكذلك يجعلون ما ينبغي أن يكون « بعلى » « بفي » في حروف الجر . وفي
هذه الأشياء دقائق ، أذكرها لك أيها المتأمل ، لتعلم السر فيها . فأما حرف العطف فنحو قوله
تعالى « قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ، مِنْ نَظْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ، ثُمَّ
السَّبِيلَ يَسْرُهُ ، ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ، ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ^(٢) » ألا ترى أنه لما قال « مِنْ
نَظْفَةٍ خَلَقَهُ » كيف قال « فَقَدَرَهُ » ولم يقل « ثُمَّ قَدَرَهُ » لأن التقدير لما كان تابعاً للخلقة ،
وملازماً لها ، عطفه عليها بالفاء ، وذلك بخلاف قوله « ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ » لأن بين خلقة

(١) زيادة اقتضاها السياق . (٢) السورة « عبس » الآية « ١٧ — ٢٣ » .

وتقديره في بطن أمه وبين إخراجها منها وتسهيل سبيله مهلة وزماناً ، فلذلك عطفه « ثم » وعلى هذا جاء قوله تعالى « ثم أماته فأقبره » وقوله « ثم إذا شاء أنشره » لأن بين إخراجها من بطن أمه وبين موته تراخياً وفسحة ، وكذلك بين موته ونشوره أيضاً ، ولهذا عطفها « ثم » . ولما لم يكن بين موت الإنسان وإقباره تراخ ولا مهلة عطفه بالفاء ، وأمثال هذا كثيرة ، فينبغي لمؤلف الكلام تدبرها والالتيان بها في أماكنها .

واعلم أن في حروف العطف موضعاً تلتبس فيه الفاء بالواو ، وهو موضع يحتاج الى فضل تأمل لأنه شديد الاشتباه والالتباس ؛ وذلك أن فعل المطاوعة لا يعطف عليه إلا بالفاء دون الواو ، وقد يجيء من الأفعال ما يلتبس بفعل المطاوعة ويمطي ظهراً أنه كذلك ، إلا أن معناه يكون مخالفاً لمعنى فعل المطاوعة ، فينعطف حينئذٍ بالواو لا بالفاء . وهذا موضع غامض يجب على المؤلف التحرز من الوقوع فيه ، فن ذلك قوله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ^(١) » فقوله تعالى « أغفلنا قلبه » ها هنا بمعنى صادفناه (غافلاً ^(٢)) ، لأنه لو كان كذلك لكان معطوفاً عليه بالفاء وقيل ^(٣) « فاتبع هواه » وذلك أنه يكون مطاوعاً وفعل المطاوعة إنما يكون معطوفاً بالفاء دون الواو كقولك « أعطيتَه فأخذ ودعوتَه فأجاب » ولا تقول « أعطيتَه وأخذ ولادعوتَه وأجاب » كما لا تقول « كسرتَه وانكسر » وكذلك لو كان معنى « أغفلنا » في الآية « صددنا » و « منعنا » لكان معطوفاً بالفاء ، وكان يقال « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه » [فلما لم يكن كذلك وكان العطف عليه بالواو ؛ فطريقه أنه لما قال : « أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه ^(٣) » أن يكون معناه « وجدناه غافلاً » وإذا وجد غافلاً فقد غفل لا محالة ، وكأنه قال « ولا تطع من أغفلنا ^(٤) » قلبه عن ذكرنا

(١) السورة « الكهف » والآية « ٢٨ » .

(٢) زيادة ضرورية من المثل السائر « ج ٢ ص ٥٣ » وبلي ذلك فيه « وليس منقولاً عن « غفل » حتى يكون معناه : صدده » .

(٣) زيادة من المثل السائر .

(٤) في المثل السائر « ولا تطع من غفل قلبه » وهو الموافق للعقلم .

واتبع هواه « أي لا تطع من فعل كذا وكذا . يُمدّد أفعاله ، التي توجب ترك طاعته ، فاعرف ذلك وقس عليه .

وأما حرف الجر فنحو قوله تعالى : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ »^(١) ألا ترى إلى بداعة هذا المعنى المقصود بمخالفة حرفي الجر هاهنا فانه إنما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل لأن صاحب الحق كأنه مستعمل على فرس جواد يركض^(٢) حيث يشاء ، وصاحب الضلال كأنه منغمس في ضلاله مرتبك فيه فلا يدري أين يتوجه ، وهذا معنى دقيق قلما يراعى في الكلام وكثيراً ما سمعت إذا كان الرجل يلوم صديقه أو يُعاتب خليله على أمر من الأمور فيقول له « أنت على ضلالك القديم كما أعهدك » وهذا وإن كان جائزاً في الكلام إلا أن استعمال « في » هاهنا أولى لما أشرنا إليه ، ومن هذا النوع قوله تعالى : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ »^(٣) فانه إنما عدل عن اللام إلى « في » في الثلاثة الأخيرة للايدان بأنهم أرسخ في الاستحقاق والتصدق عليهم ممن سبق ذكره ، لأن « في » للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويُجْعَلُوا مِظَنَةً^(٤) لها وذلك لما في فك الرقاب وفي الغرم من التخلص وتكرير « في » في قوله تعالى « وفي السبيل » فيه فضل وترجيح له على الرقاب وعلى الغارمين ، وأمثال هذا مما يوجب مراعاته والاعتناء به [كثيرة] فاعرفه .

(١) السورة « سبأ » الآية « ٢٤ » وانظر المثل السائر « ج ٢ ص ٥٣ » فقد قدم لهذه الآية ما يوضح المراد من إيرادها .

(٢) في مختار الصحاح « الركض » تحريك الرجل ومنه قوله تعالى « اركض برجلك » ، وبابه نصر وركض الفرس برجله : استحثه ليعدو ثم كثر حتى قيل : ركض الفرس ، إذا عدا وليس بالأصل والصواب : ركض الفرس ، على ما لم يسم فاعله فهو مركوض .

(٣) السورة « التوبة » والآية « ٦٠ » وتامها « فريضة من الله والله عليم حكيم » .

(٤) في الأصل « وتجعل مِظَنَةً لها » ولا معنى له والصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ٥٤ » .

النوع التاسع عشر من الباب الأول من الفن الثاني

في التكرير

وهو قسمان : أحدهما يوجد في اللفظ والمعنى ، والآخر يوجد في المعنى دون اللفظ
فأما الذي يوجد في اللفظ والمعنى فكقولك لمن تستدعيه « أَسْرِعْ أَسْرِعْ » ومنه قول
أبي الطيب المتنبي :

ولم أرَ مثلَ جِئْراني ومِثلي لثلي عند مثلهم مقام^(١)
وأما الذي يوجد في المعنى دون اللفظ فكقولك « أتعني ولا تعصني » فإن الأمر بالطاعة
هي عن المعصية . وكل من هذين القسمين ينقسم الى مفيد وغير ذلك . فالفيد يأتي في الكلام
تأكيداً له وتشبيهاً من أمره ، وإنما يفعل ذلك للدلالة على عظم محل الشيء ، الذي كررت فيه
كلامك ، والإشعار بفخامته شأنه وعلو قدره ، أو الدلالة على حقارته والإعلام بهوانه واتضاعه^(٢) .
وغير المفيد لا يأتي في الكلام إلا عَبَثًا وَخَطَلًا ، من غير حاجة اليه .

فأما الأول وهو الذي يوجد في اللفظ والمعنى ويدل على معنى فهو ضربان : مفيد وغير مفيد .
فالضرب الأول وهو المفيد فرعان : الأول إذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدل على معنى
واحد المقصود به غرضان مختلفان كقوله تعالى « وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ،
وَوَدَّوْنَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ
دَابِرَ الْكَافِرِينَ ، لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »^(٣) هذا تكرير في
اللفظ والمعنى [وهو قوله]^(٤) « يحق الحق وليحق الحق » وإنما جيء به هاهنا لاختلاف
المراد ، وذلك أن الأول تمييز بين الارادتين ، والثاني بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة
على غيرها لهم ، ونصرتهم عليها ، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض .

(١) من كلمة له يمدح بها المغيث بي علي العجلي ومطلعها :

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تهب اللثام

(٢) في الأصل « وايضاه » وهو من غلط الناسخ لبعده عن المراد .

(٣) السورة « الأفعال » والآية « ٧-٨ » . (٤) زيادة واجبة من المثل السائر .

ومن هذا الباب قوله تعالى « قل إني أمرتُ أَنْ أعبد الله مخلصاً له الدين ^(١) .. إلى قوله « فاتقون » ألا ترى الى هذا التكرير في قوله « قل إني أمرتُ أَنْ أعبد الله مخلصاً له الدين » وقوله « قل الله أعبد مخلصاً له ديني » والمراد به غرضان مختلفان وذلك أن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله عز وجل بإحداث العبادة له والإخلاص في دينه . والثاني إخبار بأنه يخص الله وحده دون غيره بالعبادة ، مخلصاً له دينه ، ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة في الثاني وأخبره في الأول ؛ لأن الكلام أولاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده ، وثانياً فيمن يُفْعَلُ الفعل لأجله ، ولذلك رتب عليه « فاعبدوا له شئتم من دونه » .

ومما أورد على نحو من ذلك قوله تعالى : « قل يا أيها الكافرون ... ^(٢) » إلى آخرها فقوله « لا أعبد » يعني في المستقبل لا تطلبوا مني عبادة إلهكم ، ولا أنتم فاعلمون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهين . « ولا أنا عابد ما عبدتم » أي « وما كنتُ قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه ، يعني أنه لم يُعْهَد في عبادة صنم في الجاهلية في وقت ما ، فكيف يرجى ذلك في الإسلام ؟ ! ولا أنتم عابدون في الماضي في وقت ما أنا على عبادته الآن » . وأمثال هذا كثيرة فاعرفه .

ومن هذا الجنس قوله تعالى : « كَذَّبَتْ قَوْمُ نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعوني ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين ، فاتقوا الله وأطيعوني ^(٣) » فإنه إنما كرر ^(٤) قوله « فاتقوا الله وأطيعوني » ليؤكد عندهم وليقرره في نفوسهم مع تعليق كل واحد منهما بعلّة ؛ فجعل علّة الأول كونه أميناً فيما بينهم ، وجعل علّة الثاني حسم طمعه عنهم وخلوّه من الأغراض فيما يدعوه اليه .

(١) السورة « الزمر » والآية « ١١ ، ١٢ » وتامها « وأمرت لأكون أول المسلمين قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين ، لهم من فوقهم ظلال من النار ومن تحتهم ظلال . ذلك يخوف الله به عباده ، يا عبادي اتقوني » .

(٢) السورة « الكافرون » وهي « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي ديني » .

(٣) السورة « نوح » والآية « ١٠٥ - ١١٠ » .

(٤) في الأصل « قرر » وليس بمناسب للمراد .

من هذا النحو قوله تعالى «كذبت»^(١) قبلهم قومُ نوح وعادُ وفرعون ذو الأوتاد ، وثمودُ وقومُ لوطٍ وأصحاب الأيكة أولئك الأحزابُ ، إنَّ كُلَّ إِلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فحقَّ عقابي » وإنما كرر تكذيبهم ها هنا لأنه لم يأت به على أسلوب واحد ، بل تنوع فيه بضروب من الصنعة فذكره أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام ، ثم جاء به بالجملة الاستثنائية ، فأوضحه بأن كلَّ واحد من الأحزاب كَذَّبَ جميع الرسل لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوا جميعهم . وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه ، والتنوع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً وبلاستثنائية ثانياً ، وما في الاستثناء من الوضع على جهة التأكيد والتخصيص من المبالغة المسجلة عليهم ، باستحقاق أشد العذاب في أبلغه [من البيان ما لا خفاء فيه] .

وهذا باب من تكرير اللفظ والمعنى غامض ، وبه يعرف مواقع التكرير والفرق بينه وبين غيره ، فافهمه .

الفرع الثاني من الضرب الأول

إذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمراد به غرض واحد كقوله تعالى : « والله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء »^(٢) إلى قوله : «... لمبلسين»^(٣) فقوله « من قبله » بعد قوله « من قبل » فيه الدلالة على أنَّ عهدهم بالمطر قد بعد وتطاول فاستحكم بأسهم ، وتماذى إبلاصهم ، فكان الاستبشار على قدر اهتمامهم . ومثل هذا قوله تعالى : « فكان عاقبتهم أنَّهما في النار خالدين فيها »^(٤) وكذلك قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُحْمَدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم

(١) السورة « ص » والآية « ١٢ » وما بعدها .

(٢) السورة « الروم » والآية « ٤٨-٤٩ » وبعد ذلك « ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين » .

(٣) في الأصل « بمبتلين » وهو تصحيف .

(٤) السورة « الحشر » والآية « ١٧ » وتامها « وذلك جزاء الظالمين » .

بمفازة من العذاب ، ولهم عذاب أليم ^(١) » ومن هذا الجنس قوله تعالى : « وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ^(٢) » فإنه إنما كرر نداء قومه ها هنا لزيادة التنبيه لهم ، والايقاظ ^(٣) من سنة الغفلة ، ولأنهم قومه وعشيرته وهم فيما يورثهم من الضلال ، وهو يعلم وجه صلاحهم ، ونصيحتهم عليه واجبة ، فهو يَتَحَزَنُ لهم ، ويقلطف بهم ، ويستدعي بذلك أن لا يهتموه ، فان سرورهم سروره ونعمتهم غمه وإن لم ينزلوا على نصيحتهم لهم . وهذا من التكرير الذي هو أبلغ من الایجاز وأشدّ موقعاً من الاختصار ، فاعرفه .

وعلى نحو منه جاء قوله تعالى في سورة القمر ^(٤) « فذوقوا عذابي ونذري » وقوله « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ^(٥) » فانه تكرر ذلك في السورة كثيراً ، وفائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين اذكرا واتعظا ، وأن يستأنفوا تنبيهاً واستيقاظاً ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث إليه ^(٦) وأن تُقرع لهم العصامرات ، لئلا يغلبهم السهو ، وتستولي عليهم الغفلة .

وهكذا حكم التكرير في قوله تعالى في سورة الرحمن - جلّ وعلا - « فبأي آلاء ربكما تكذبان » وذلك عند ذكر كل نعمة عددها على عباده ، وأمثال هذا في القرآن الكريم كثيرة فاعرفها .

الضرب الثاني من التكرير في اللفظ والمعنى

وهو غير المفيد

وهو الذي يكون وجوده وعدمه سواءً لأنه لا يأتي (إلا) بمعنى واحد فقط ، فن ذلك

(١) السورة « آل عمران » والآية « ١٨٨ » .

(٢) السورة « غافر » والآية « ٣٨ — ٩ » .

(٣) في الأصل « عن سنة » وهو خلاف المسموع .

(٤) السورة « القمر » والآية « ١٧ » .

(٦) المشهور عند الفصحاء « بعثه عليه » أي حمّله عليه ، قال الزخمرى في أساس البلاغة « وبعثه على الأمر وتواصوا بالخير وتباعثوا عليه » .

ما أوردناه في صدر هذا الباب قول أبي الطيب المتنبي :

ولم أرَ مثلَ جِراني ومثلي لمثلي عند مثلهم مُقام
إنه يقول : لم أرَ مثلَ جِراني في سوء الجوار وقلة المراعاة ، ولا مثلي في مصابرتهم ومقامي
عندهم ، إلا أنه قد كرر هذا المعنى في الببت مرتين ، وعلى نحو ذلك جاء قوله :
فَقَلَقَلْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَقَلَ الْحِشَا قَلَا قَلَّ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلَا قَلَّ (١)
فإن صاحب اسماعيل (٢) بن عباد أنكر على أبي الطيب هذا البيت لأجل التكرير الذي
فيه (٣) ورأيت الواحدي (٤) ذكر في شرحه لشعر أبي الطيب أنه لا يلزمه من هذا عيب وأنه
قد جرت عادة الشعراء بمثل هذا كقول أبي منصور الثعالبي :

وإذا البَلَابِلُ أَطْرَبَتْ بِهِدِيلِهَا فَأَنْفَ الْبَلَابِلِ بِاحْتِسَاءِ بَلَابِلِ
ولقد أصاب صاحب بن عباد في استقباح بيت أبي الطيب ، وأخطأ الواحدي في الاعتذار
عنه ، وتمثيل ذلك بقول الثعالبي . وبيانه أن بيت أبي الطيب قد ورد فيه ذكر القلقلة والقلقل
أربع مرات ، وهن دلائل معنى واحد لا غير (٤) وهو الحركة يقول « وحركت بالهم الذي حرك

(١) من كلمة له قالها في صباه أولها :

قفاتريا ودقي فهاتا المخايل ولا تخشيا خلفاً لما أنا قائل

(٢) هو الوزير الأديب المشهور « ٣٢٦ — ٣٨٥ » .

(٣) لم نجد هذا في الرسالة التي وسمها بالكشف عن مساوئ شعر المتنبي . وقد طبعها حسام الدين
القدسي بمصر سنة ١٣٤٩ هـ ووجدنا قول صاحب - ص ١٣ - وكان الناس يستبشعون قول مسلم « سلت
وسلت ثم سل سليلها » حتى جاء هذا المبدع بقوله :

وأَجْعُ من فقدنا من وجدنا قبيل الفقد مفقود المثال

فالمصيبة في الرائي أعظم منها في المرئي . وقد نقل الثعالبي ذلك في البيضة « ج ١ ص ١٣٩ » طبعة
الساوي بمصر سنة ١٩٣٤ . ونقل غير ذلك ولم يذكر معه بيت القلائل . وقال غفيف الدين علي بن عدلات
الموصلي تلمذ المؤلف في شرح ديوان المتنبي « المنسوب غلطاً إلى أبي البقاء العكبري » ج ١ ص ١٣١ « من
طبعة المطبعة الشرفية بمصر سنة ١٣٠٨ هـ » وعاب صاحب اسماعيل بن عباد أبا الطيب بهذا البيت وقال :
ماله قلقل الله أحشاءه وهذه القافيات الباردة ؟ ولا يلزمه من هذا عيب فقد جرت العادة بذلك .

(٤) قال ابن عدلان في شرحه « ٢ : ١٣١ » : « وقلائل عيس جمع قلقل وهي الناقة الخفيفة ، وناقاة
قلقل وفرس قلقل : إذا كانا سريعَي الحركة والقلائل الثانية : جمع قلقلة وهي الحركة . قال أبو الفتح بن جني : =

الحشا نوقاً سراع الحركة كلهن متحركات » وهذا من أقيح ما يكون من التكرير ، وأما بيت
 الثعالبي الذي مثله الواحدي بيت أبي الطيب فليس مثالاً لأن لفظة « البلابل » قد وردت فيه
 ثلاث مرات . وكل منها دال على معنى ، والبلابل الأولى جمع بلبل ، وهو طائر حسن الصوت ،
 والبلابل الثانية جمع بلبله ، وهي وسواس الصدر ، والبلابل الثالثة جمع بلبله وهي مخرج الماء
 من الأبريق ، فهو يقول : وإذا الأطيار من البلابل هددتْ وغردتْ فانفِ البلابل من قلبك
 باحتساء الخمر من بلابل الأبريق ، وهذا من أخف ما يكون من التجنيس . ومن ها هنا وقع
 السهو للواحدى ، وهو أن « البلابل » فى شعر الثعالبي تدل على معانٍ مختلفة و « القلاقل » فى
 شعر أبي الطيب تدل على معنى واحد ، فاعرف ذلك وقس عليه .

القسم الثانى من النوع الأول فى التكرير

وهو الذى يوجد فى المعنى دون اللفظ ، وهو ضربان : مفيد وغير مفيد

الضرب الأول المفيد وهو فرعاه :-

الأول إذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنيين مختلفين كدلالته على الجنس والعدد ، وهو
 باب من التكرير مشكل ؛ لأنه يسبق الى الوهم أنه تكرير محض ، يدل على معنى واحد فقط ،
 وليس كذلك . فما جاء منه قوله تعالى « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إلهٌ
 واحد^(١) » ألا ترى أن العرب إنما جمعت بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا
 « عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة » لأن المعدود عارٍ من الدلالة على العدد المخصوص ، فأما
 « رجل ورجلان وفرس وفرسان » فمعدودان . فالفائدة إذن فى قوله تعالى : « إلهين اثنين
 وإله واحد » وهو أن الاسم الحامل للمعنى الافراد والتثنية [يدل] على الجنسية والعدد المخصوص ،

= الضمير فى « كلهن » للعيس لا للقلاقل ، يقول « قلاقل القلاقل » كما تقول « سراع السراع وخفاف الخفاف
 وكقولك « أفضل الفضلاء » وهو أبلغ فى الوصف من أن يعود على القلاقل . ثم ذكر بيت الثعالبي وقال
 وفى هذا الذى ذكرناه ما يرد قول ابن عباد ، ويطله ما جاء عن رؤساء الشعراء .
 (١) السورة « النحل » والآية « ٥١ » . وتامها « فايها فارهبوني » .

فاذا أريدت الدلالة على أنَّ المعنى به واحد منها وكان الذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكد ، فدل به على القصد اليه والعناية به . ألا ترى أنك لو قلت « إنما هو إله » ولم تؤكد بواحد لم يحسن ، وخيّل إنك ثبتت الإلهية لا الوجدانية . وهذا باب من تكرير المعاني وعبر المسلك دقيق المغزى وبه تحل مشكلات من التكرير فاعرفه .

ومن هذا النحو إذا كان التكرير في المعنى يدل على معنيين : أحدهما خاص والآخر عام كقوله تعالى : « ولتكن منكم أمةٌ يُدْعُونَ إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ^(١) » الآية . فإن الأمر بالمعروف داخل تحت الدعاء إلى الخير ، لأن الأمر بالمعروف خاص والخير عام . فكل أمر بالمعروف خير وليس كل خير أمراً بالمعروف ؛ لأن الخير أنواع كثيرة ، من جملتها الأمر بالمعروف ، ففائدة التكرير هنا أنه ذكر الخاص بعد ذكر العام ، للتنبيه على فضله كقوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ^(٢) » الآية . وأمثال ذلك كثيرة ، فاعرفها .

الفرع الثاني من الضرب الأول من القسم الثاني

إذا كان التكرير في المعنى يدل معنى واحد . وقد سبق مثاله ، في أول هذا الباب ، كقولك « أطيعني ولا تعصني » لأن الأمر بالطاعة نهى عن المعصية ، والفائدة في ذلك تثبيت الطاعة في نفس المخاطب ، والتقرير لها في قلبه . والكلام في هذا الموضع من التكرير كالكلام في الموضع الذي قبله من تكرير اللفظ والمعنى ؛ إذ كان المراد به غرضاً واحداً .

الضرب الثاني من القسم الثاني

في تكرير المعنى دون اللفظ

وهو غير المفيد فن ذلك قول ابن هاني المغربي :

سارت به صيغ القصائد شراً فكأنما كانت صَباً ^(٣) وقبولا

(١) السورة « آل عمران » والآية « ١٠٤ » . وتامها « وأولئك هم المفلحون » .

(٢) السورة « البقرة » والآية « ٢٣٨ » . وتامها « وقوموا فائقين » .

(٣) في مختار الصحاح « الصبا : ريع ومهبها المستوي أن تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار ومقابلتها الدبور » . وفيه أيضاً « والقبول أيضاً : الصبا وهي ريع تقابل الدبور » .

فكأنه قد قال « فكأنما كانت صَباً وَصَباً » لأن الصَّبَّاء هي القبول ، وليس ذلك مثل التكرير في قوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى » فيما يرجع الى تكرير اللفظ والمعنى . ولا مثل التكرير في قوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف » فيما يرجع الى تكرير المعنى دون اللفظ ؛ لأن كل واحدة من هاتين الآيتين تشتمل على معنيين : خاص وعام ، وقول ابن هاني « صَباً وقبولاً » لا يعطى إلا معنى واحداً لا غير ، وهذا لا يخفى على العارف بصناعة التأليف .

ومن هذا النحو قول الصابي في كتاب : « وصل كتابك بعد تأخير وإبطاء » وانتظار له واستبطاء » فان التأخير والابطاء بمعنى واحد ، وقد يكون لهذا وجه في التجويز ، وهو التقرير في نفس المخاطب لبعده الأمد ، وتطاول المدة في انقطاع كتابه عنه ، وذلك مما لا بأس به في هذا الموضع ، وأمثال ذلك كثيرة ، فاعرفها .

النوع العشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في تناسب المعاني وهو ثلاثة أضرب :

الضرب الأول المطابقة وهي المقابلة :

اعلم أن جماعة العلماء من أرباب هذه الصناعة قد أجمعوا على أن المطابقة في الكلام : هي الجمع بين الشيء وضده ، كالسواد والبياض والليل والنهار ، وخالفهم في ذلك أبو الفرج قدامة ابن جعفر الكاتب فقال : « المطابقة إيراد لفظتين متساويتين في البناء والصيغة مختلفتين في المعنى » . وهذا الذي ذكره قدامة هو (التجنيس) بعينه ، غير أن الأسماء لا مشاحة منها إلا اذا كانت مشتقة ، ولننظر نحن في مخالفة قدامة لجماعة العلماء في اسم المطابقة ليعلم الحق في أي الجهتين مقرر ، وذلك أننا ننظر الى أصل المطابقة في وضع اللغة فان كانت مناسبة لما أجمع عليه العلماء تحققنا أن الحق معهم ، وإن كانت مناسبة لما ذكره قدامة تحققنا أن الحق في يده فرائنا : أصل الطباق في اللغة من « طابق البعير في سيره » إذا وضع رجله موضع يده ، وهذا يقوي

ما ذكره قدامة ، لأن اليد غير الرجل لا ضدها ، والموضع الذي يقعان منه واحد ، وكذلك المعنيان يكونان غيرَين أي مختلفين ، واللفظ الذي يجمعهما واحد ، فقدامة سُمي هذا النوع من الكلام المطابقة ، حيث كان الاسم مشتقاً مما سمي به ، وذلك مناسب وواقع (موقعه) إلا أنه قد جعل للتجنيس اسماً آخر هو المطابقة ، ولا بأس به . وأما جماعة العلماء فكأنهم سموا هذا الضرب من الكلام مطابقاً ، بغير اشتقاق ، ولا مناسبة بينه وبين مسماه . كذا هو الظاهر لنا من هذا الأمر ، إلا أن يكونوا قد عدوا لذلك مناسبة لطيفة ، لم نطلع نحن عليها ، ولنزجع نحن إلى هذا النوع من التأليف ونحقق الكلام فيه فنقول :

اعلم أن الالتيق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع « المقابلة » لأنه لا يخلو الحال في ذلك من ثلاثة أقسام : إما أن يقابل الشيء بضده أو بغيره (أو بمثله) ^(١) وليس لنا قسم رابع . فأما القسم الأول وهو مقابلة الشيء بضده ، كالسواد والبياض وما جرى مجراه فكقوله تعالى « فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً » ^(٢) . ألا ترى الى صحة هذه المقابلة البديعة ؛ حيث قابل الضحك بالبكاء والقليل بالكثير ؟ . وكذلك قوله تعالى : « لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » ^(٣) . وهذا من أحسن ما يجيء في هذا الباب . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » ^(٤) . ومن هذا قول بعضهم في السحاب :

وله بلا حزن ولا بمسرة ضحك يراوح بينه وبكاء

(١) زيادة يؤيدها ما جاء في تفصيل المؤلف للكلام .

(٢) السورة « التوبة » والآية « ٨١ »

(٣) السورة « الحديد » والآية « ٢٣ » وتامها « والله لا يجب كل غنثال غفور » . وقد جاء في الأصل « لَكَيْلًا تَحْزَنُوا » وهو تحريف . وتامها جاء في الآية ١٥٣ من آل عمران « لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا آصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

(٤) ورد في المجازات النبوية « ٧٩ » والفائق « ج ١ ص ٦٢٨ » والنهاية « ج ٢ ص ١٩٦ » قال الشريف الرضي « وهذه استعارة لأن المراد بذلك عين الماء الجارية التي لا ينقطع جريها ليلاً كما لا ينقطع نهاراً ، فسماها ساهرة ، لهذا المعنى ، لأنها في ليالها دائبة وعين صاحبها نائمة ، ولفظ السير في هذا الكلام أحسن ما حفل بهذا المعنى متلبساً ، وصب عليها ملبساً » .

فقابل الضحك بالبكاء ، والحزن بالسرور في بيت واحد إلا أن في ذلك نظراً ، من حيث ترتيب التفسير ، لا من حيث المقابلة ، لأن ترتيب التفسير يقتضي أن كان قال « فله بلا حزن ولا بمسرة » « بكاء يراوح بينه وضحك » . وهذا لا كبير عيب فيه ، وإنما الأولى والأليق ما أشرنا إليه ، فاعرفه ، وسيأتي بيانه ، وقال آخر :

فلا الجودُ يُفني المالَ والجُدُّ مُقبِلٌ ولا البخلُ يُبقي المالَ والجُدُّ مدبر

ألا ترى إلى هذه المقابلة البديعة التي قد أتى بها هذا الشاعر ؛ فانه قابل الجود بالبخل ويُفني يُبقي ومُقْبِلٌ بمدبر ؟ وهذا الكلام هو السهل الممتنع ، الذي هو كالنجم تراه قريباً على صفحات الماء وهو بأفق السماء . ومن هذا النوع أيضاً قول البحري :

وأمة كان قُبْحُ الجورِ يُسْخِطُها دهرًا فأصبح حُسْنُ العدلِ يُرضيها^(١)

فقابل الحسن بالقبح ، والجور بالعدل ، والسخط بالرضى ، وذلك بديع في بابه ، فاعرفه . وأما القسم الثاني وهو مقابلة الشيء بغيره فهو ضربان أحدهما ما كان بين المقابل والمقابل له مناسبة وتقابل ، كقول بعضهم .

يَجْزُونَ مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا

فقابل الظلم بالمغفرة ، والظلم ليس ضدَّ المغفرة ، وإنما هو ضد العدل إلا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل مناسبة له حسنت المقابلة بينها وبين الظلم ، وأمثال هذه كثيرة .

الضرب الثاني من القسم الثاني :

في المقابلة وهو أن يقابل الشيء بما بينه وبينه بعد ولا مناسبة (بينهما) بحال من الأحوال وذلك مما لا يحسن استعماله في التأليف ، مما جاء منه قول بعضهم :

أَمْ هَلْ ظَعَائِنُ الْعَالِيَاءِ رَافِعَةٌ وَإِنْ تَكَامَلُ فِيهَا الدَّلُّ وَالشَّنْبُ

(١) الديوان « ص ٢٩ » طبعة رزق الله سركيس ببيروت سنة ١٩١١ ، وهذا البيت من قصيدة يصف فيها بركة المتوكل على الله العباسي بسامرا أولها :

ميلوا الى النار من ليلي تحميمها نعم ونسألها عن بعض أهلها

فإن ذلك غير مناسب ، لأنه إنما يكون يحسن الدل مع العنجد والشنب مع اللّعس^(١) أو ما يجري مجراه من أوصاف الثغر والفم .

وأما القسم الثالث من النوع العشرين فهو أن يقابل الشيء بمثله ، وهو ضربان : أحدهما التقابل في اللفظ والمعنى ، والآخر التقابل في المعنى دون اللفظ ، فالضرب الأول كقوله تعالى : « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »^(٢) . وكقوله تعالى « وَكَرُّوا مَكْرًا وَكَرَّرْنَا مَكْرًا »^(٣) وأمثال هذا كثيرة ، والضرب الثاني فهو أن تقابل الجملة بمثلها : إن كانت مستقبلية (بمستقبلة)^(٤) وإن كانت ماضية قوبلت بـماضية ، وربما قوبل الماضي بالمستقبل ، والمستقبل بالماضي ، وذلك إذا كان أحدهما في معنى الآخر : فن ذلك قوله تعالى « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَأَمِّلْ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي »^(٥) فإن هذا تقابل من جهة المعنى ، ولو كان التقابل من جهة اللفظ لقال « وإن اهتديت فأما اهتدي لها » . وبيان تقابل هذا الكلام من جهة المعنى هو أن النفس كل ما هو عليها فهو بها ، أعني أن كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بسببها ومنها ، لأنها الأمانة بالسوء ، وكل ما حولها مما ينفى فيها فبهدياة ربها وتوفيقه إياها . وهذا حكم عام لكل مكلف ، وإنما أمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يسنده الى نفسه ، لأن الرسول إذا دخل تحتته مع علو محله وسداد طريقه كان غيره أولى به ، ومن هذا الضرب أيضاً قوله تعالى « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »^(٦) فإنه لم يراع التقابل في قوله « ليسكنوا فيه والنهار مبصرًا » لأن القياس

(١) يشير المؤلف الى قول ذي الرمة :

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب

قال مؤلف جهرة أشعار العرب — ص ٣٥٢ — « اللوى واللّس والحوة شيء واحد وهو سواد في الشفة . والشنب : رقة الأسنان . وقيل : حمرة تضرب الى السواد » .

(٢) السورة « التوبة » والآية « ٦٧ » . وتامها « إن المنافقين هم الفاسقون » .

(٣) السورة « النمل » والآية « ٥٠ » . وتامها « وهم لا يشعرون » .

(٤) زيادة اقتضاها السياق .

(٥) السورة « سبأ » والآية « ٥٠ » . وتامها « إنه سميع قريب » .

(٦) السورة « النمل » والآية « ٨٦ » .

يقضي أن يكون « والنهار ليصروا فيه » وإنما هو مراعى من جهة المعنى ، لا من حيث اللفظ ، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف ، لأن معنى قوله « مبصراً » ليصروا فيه طُرُقَ التقلب في الحاجات .

ومن مقابلة الشيء بمثله أنه إذا ذكر المؤلف ألفاظاً تقتضي جواباً فالمرضي عندنا أن يأتي بتلك الألفاظ في الجواب من غير عدول عنها إلى غيرها مما هو في معناها ، فمن ذلك قوله تعالى « وجزاء سيئةً سيئةً مثاها » ^(١) . ومما عيب في هذا الباب قول بعضهم « من افترى ذنباً عامداً أو اكتسب جرماً قاصداً لزمه ما جناه وحق به ما توخاه » . والأليق أن كان قال « لزمه ما اقترف وحق به ما اكتسب » ليكون أحسن طباقاً وإن كان ذلك جائزاً في الكلام من حيث إن معناه صواب ، لكنه عدول عن الأليق والأولى في هذا الباب . وأمثال هذا كثيرة فأعمرها .

واعلم أن في تقابل المعاني باباً عجيب الأمر يحتاج إلى فضل تأمل وزيادة نظر وتدبر ، وهو تخليص بالفواصل من الكلام المنشور ، وبالأعجاز من أبيات الشعر ، مما جاء من ذلك قوله تعالى في حق المنافقين « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » ^(٢) وقوله تعالى « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » ^(٣) ألا ترى كيف فصل الآية الأخيرة « يَسْعُهُمُونَ » والآية التي قبلها « يشعرون » وإنما فعل ذلك لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال ، حتى يكتسب الناظر العلم والمعرفة بذلك . وأما النفاق وما فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دينوي مبني على العادات ، معلوم عند الناس ، خصوصاً عند العرب ، وما كان فيهم من التجارب والتعاود ، فهو كالحسوس عندهم فلذلك قال فيه « يَشْعُرُونَ » وأيضاً فإنه لما ذكر السفه في الآية الأخيرة وهو جهل كان ذكر العلم معه أحسن طباقاً ، فقال « لا يعلمون » .

(٢) السورة « الشورى » والآية « ٣٨ » .

(٢) السورة « البقرة » والآية « ١١-١٢ » . (٣) السورة « البقرة » والآية « ١٣ » .

وآيات القرآن الكريم جميعها فصلت هكذا ، كقوله تعالى « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » (١) . وكقوله « وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » (٢) وكقوله « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » (٣) إلى قوله « ... لِرُؤُوفٍ رَحِيمٍ » فانه إنما فَصَلَتِ الْآيَةُ الْأُولَى « بِلَطِيفٍ خَبِيرٍ » لِأَنَّهُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِ الرَّحْمَةِ لِخَلْقِهِ بِإِزَالِ الْغَيْثِ ، وَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَأنَّهُ خَبِيرٌ بِمَنْفَعَتِهِمْ وَهَضْرَتِهِمْ ، فِي إِزَالِ الْغَيْثِ وَغَيْرِهِ ، فَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ فَانَّمَا فَصَلَتْ « بَغْنِي حَمِيدٌ » لِأنَّهُ قَالَ « مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » فَعَرَفَ النَّاسَ بِأَنِّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَهُ لَا لِحَاجَةٍ بَلْ هُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا ، جَوَادٌ بِهَا ، لِأنَّهُ لَيْسَ كُلُّ غَنِيٍّ نَافِعًا بَغْنَاهُ إِلَّا إِذَا كَانَ جَوَادًا مِنْهَا ، وَإِذَا جَادَ وَأَنْعَمَ حَمْدُهُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِ ، وَاسْتَحَقَّ عَلَيْهِ الْحَمْدُ ، فَذَكَرَ الْحَمْدَ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ الْغَنِيُّ النَّافِعُ بَغْنَاهُ خَلْقَهُ . وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّالِثَةُ فَانَّمَا فَصَلَتْ « بِرُؤُوفٍ رَحِيمٍ » لِأنَّهُ لَمَّا عَدَّدَ لِلنَّاسِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ تَسْخِيرِ مَا فِي الْأَرْضِ لَهُمْ ، وَإِجْرَاءِ الْفُلْكِ فِي الْبَحْرِ بِهِمْ ، وَتَسْيِيرِهِمْ فِي ذَلِكَ الْهَوْلِ الْعَظِيمِ ، وَجَعْلِهِ السَّمَاءَ فَوْقَهُمْ ، وَإِمْسَاكِهَا عَنْ الْوُقُوعِ حَسُنَ أَنْ يَفْصَلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ « رُؤُوفٍ رَحِيمٍ » أَيِ إِنْ هَذَا الْفِعْلُ فَعَلَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ .

وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمُتَأَمِّلُ لِكِتَابِنَا هَذَا أَنَّهُ قَلَّمَا تَوْجَدَ هَذِهِ الْمَلَأَمَةُ وَالْمُنَاسِبَةُ فِي كَلَامٍ نَازِمٍ أَوْ نَائِرٍ . وَهَذَا الْبَابُ لَيْسَ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ أَكْثَرَ نَفْعًا مِنْهُ ، وَلَا أَعْظَمَ فَائِدَةً ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ دَقِيقُ الْمَسَلِّكِ ضَيْقُ الْمَذْهَبِ ، فَعَلَيْكُمْ - مَعْشَرَ الْمُتَقَصِّبِينَ لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ - بِتَدَبُّرِ مَطَاوِيهِ ، وَإِمْعَانِ النَّظَرِ فِي مُشْكَلَاتِهِ . وَكَفَى بِمَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مَثَلًا لِمَنْ لَهُ لُبٌّ .

وَمِمَّا جَاءَ مِنْ هَذَا الْبَابِ فِي الشُّعْرِ قَوْلُ الْمُتَنَبِّي :

(١) السورة « الحج » والآية « ٦٣ » . (٢) السورة « الحج » والآية « ٦٤ » .

(٣) السورة « الحج » والآية « ٦٥ » وَتَمَامُهَا « وَيَسْكَتُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ » .

وَقَفْتُ وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم^(١)
 تمر بك الأبطال كلهم هزيمة^(٢) ووجهك وضاح وثغرك باسم
 ولقد أخذ عليه ذلك ، وقيل : لو جعل آخر البيت الثاني آخر الأول لكان أولى ؛ وحكاية
 أخذه عليه أنه استنشه سيف الدولة يوما قصيدته التي أولها :

« على قدر أهل العزم تأتي العزائم » . فلما بلغ إلى قوله : « وقفت وما في الموت شك لواقف »
 البيتين قال له : وقد انتقدت عليك هذين البيتين كما أنتقد على امرئ القيس قوله :
 كأي لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
 ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل خلي كرى كرة بعد إفعال
 فبيتاك لم يلتم شطراهما كما لم يلتم بيتا امرئ القيس ، وكان ينبغي أن يقول :
 كأي لم أركب جواداً ولم أقل خلي ...
 ولم أسبأ الزق الروي ...
 وكذلك ينبغي أن تقول :

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم
 تمر بك الأبطال كلهم هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم
 فقال المتنبي : إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا وهو أعلم بالشعر منه فقد
 أخطأ امرؤ القيس وأخطأت ، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك ؛ لأن البزاز
 يعلم جلته ، والحائك يعلم تفاصيله . وإنما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد وقرن
 السباحة بسباء الخمر للاتصاف بالشجاعة في مُنازلة الأعداء ، وكذلك لما ذكرت الموت في صدر

(١) من كلمة له في مدح سيف الدولة الحمداني وقد سار نحو قلعة الحدث سنة « ٣٤٣ » هـ ومطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
 « الديوان ، طبعته لجنة التأليف والترجمة بعصر ، ص ٣٧٤ — ٣٧٩ » .

(٢) كلهم : جمع كلهم وهو الجريح .

البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره ، ليكون أحسن طباقاً وتلازماً . ولما كان وجه الجريح المهزوم يكون عبوساً وعينه باكية قلت « وجهك وضاح وثرثرك باسم » لأجمع بين الأضداد في المعنى . فأعجب سيف الدولة كلامه . وأمثال ذلك كثيرة الا أنه يحتاج الناقد لها والمميز بين جيدها ورديتها إلى فكرة صافية ، وروية زائدة .

الضرب الثاني من النوع العشرين

في صحة التقسيم وفساده

اعلم أننا لم نرد بالتقسيم هاهنا ما تقتضيه القسمة العقلية كما يذهب اليه المتكاملون ؛ فان القسمة العقلية تقتضي أشياء مستحيلة ، كما قالوا « الجواهر لا تخلو إما أن تكون مجتمعة أو مفترقة . أو لا مجتمعة ولا مفترقة . أو مجتمعة مفترقة معاً . أو بعضها مجتمعة ، وبعضها مفترقة » . ألا ترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل لاستيفاء الاقسام جميعها ، وإن كان من جملتها ما يستحيل وجوده ، فإن الشيء لا يكون مجتمعاً مفترقاً في حالة واحدة ، وإنما يزيد نحن بالتقسيم هاهنا ما يقتضيه المعنى ، مما يمكن وجوده ؛ وهو أن يأتي المؤلف إلى جميع أقسام الكلام المحتملة فيستوفياها ، غير تارك منها قسماً واحداً . فمن ذلك قوله تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات »^(١) فانه لا يخلو العالم من هذه الأقسام الثلاثة : إما عاص ظالم لنفسه وإما مطيع مبادر الى الخيرات وإما مقتصد بينها ، وهذا من أصح التقسيمات وأكملها ، فاعرفه .

ومن هذا النحو قوله تعالى « وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون »^(٢) الآية . واعلم أن هذه الآية ماثلة في

(١) السورة « فاطر » والآية « ٣٢ » وتامها « باذن الله ذلك هو الفضل الكبير » .

(٢) السورة « الواقعة » والآية « ٩-١٢ » والتام « أولئك المقربون ، في جنات النعيم » .

المعنى لما سبق ذكره ، فأحباب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم . وأحباب الميمنة هم المقتصدون والسابقون هم السابقون بالخيرات . وعلى نحو من ذلك جاء قوله تعالى « هو الذي يُريكم البرق خوفاً وطمعاً »^(١) . ألا ترى الى بداعة هذه القسمة ؟ فان الناس عند رؤية البرق بين خائف وطماع ، وليس لهم ثالث .

وكان جماعة من أرباب هذه الصناعة المنتصبين في صدرها يعجبون بقول بعض الأعراب في هذا المعنى ، ويقولون إنَّ ذلك من أصح التفسيرات وهو قوله « النعم ثلاث : نعمة في حال كونها نعمة ونعمة تُرجى مستقبله ، ونعمة تأتي غير محتسبة . فأبقى الله عليك ما أنت فيه ، وحقق ظنك فيما ترجيه ، وتفضل عليك بما لم تحتسبه » . فقالوا إنه ليس في أقسام النعم التي يقع الانتفاع بها قسم رابع سوى ما ذكره الأعرابي . وهذا القول فاسد ؛ وهو أنَّ في أقسام النعم التي قسمها هاهنا نقصاً لا بد منه ، وزيادة لا حاجة إليها ، فأما النقص فإغفاله ذكر النعمة الماضية ، وأما الزيادة فقوله بعد النعمة المستقبلية : التي تأتي غير محتسبة ، وهذا خطأ لأن النعمة التي تأتي غير محتسبة هي داخلة في قسم المستقبل ، وذلك أنَّ النعمة المستقبلية تنقسم الى قسمين : أحدهما يرجى حصوله ويتوقع بلوغه ، والآخر لا يحتسب ولا يشعر بوجوده ، فقوله « ونعمة تأتي غير محتسبة » يوهم أنَّ هذا القسم غير المستقبل ، وهو داخل في جملته ، ولو قال « ونعمة مستقبله » من غير أن يقول « ونعمة تأتي غير محتسبة » لكان قوله كافياً ، إذ النعمة التي يرجى والنعمة التي لا تحتسب تدخلان تحت قسم المستقبل . وكان ينبغي أن يقول « النعم ثلاث نعمة ماضية ، ونعمة في حال كونها ، ونعمة تأتي مستقبله ، فأحسن الله آثار النعمة الماضية وأبقى عليك النعمة التي أنت فيها ، ووفر حظك من النعمة التي تستقبلها » . ألا ترى لو قال ذلك لكان قد طبق به مفصل الصواب ، فافهم ما ذكرناه وقس عليه .

ووقف أعرابي على مجلس الحسن فقال : « رحم الله من أعطى من سعة أو واسى من كفاف أو آثر من قلة » . فقال الحسن : ما ترك لأحد عذراً ؛ فانصرف الأعرابي بخير كثير .

(١) السورة « الرعد » والآية « ١٢ » وتامها « وينشأ السحاب الثقال » .

ومن هذا الضرب ما ذكره أبو هلال العسكري في كتابه ^(١) وذلك أنه أخذ على جميل ^(٢) قوله :

لو أن في قلبي كقدر قلامه حُباً وَصَلْتُكَ أَوْ أَتَيْتُكَ رَسَائِلِي

فقال أبو هلال : إن إتيان الرسائل داخل في جملة الوصل . وليس الأمر كما وقع له ، فإن

« جميلاً » أراد به « وصلتك » أي أتيتك زائراً أو قاصداً أو « كنت راسلتك مراسلة » .

والوصل لا يخرج عن هذين القسمين إما رسالة وإما زيارة .

ومن أعجب ما شاهدته في هذا الباب ما ذكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي ، وهو

قول العباس بن الأحنف :

وَصَالُكُمْ هَجْرٌ وَهَجْرُكُمْ قَلْبٌ وَعَظْفُكُمْ صَدٌّ وَسَلَامُكُمْ حَرْبٌ

ثم روى المشار إليه عن أبي القاسم الآمدي - رحمه الله - أنه قال إن بعض تَقْدَةِ

الكلام من البلاء لما سمع هذا البيت قال : « والله هذا أحسن من تقسيمات إقليدس ^(٣) » .

(١) يعني كتاب الصنائع .

(٢) قال حاجي خليفة في باب الهزة من كتاب « كشف الظنون » : « إقليدس في أصول الهندسة والحساب وهو بضم الهزة وكسر الدال وبالعكس ، لفظ يوناني مركب من « اقلي » بمعنى المفتاح و « دس » بمعنى المقدار وقيل الهندسة أي مفتاح الهندسة . وفي القاموس « إقليدس اسم رجل وضع كتاباً في هذا العلم وقول ابن عباد : إقليدس اسم كتاب غلط (انتهى) . وفي شرح الأشكال للفاضل قاضي زاده الرومي : حكى أن بعض ملوك اليونان مال إلى تحصيل ذلك الكتاب فاستعصى عليه فآخذ يتوسم أخبار الكتاب من كل وارد عليه فأخبره بعضهم بأن في بلدة صور رجلاً مبرزاً في علمي الهندسة والحساب يقال له « إقليدس » فطلبه والتس منه تهذيب الكتاب وترتيبه فرتبه وهذبه فاشتهر باسمه بحيث إذا قيل « كتاب إقليدس » يفهم منه هذا الكتاب دون غيره من الكتب المنسوبة إليه » (انتهى) بل صار هذا اللفظ حقيقة عرضية في الكتاب ... فيقال : كتبت إقليدس وطالعتنه ... » . وجاء في معجم الأدباء « ج ٢ ص ٤٤ » طبعة مرغليوث نقلاً من كتاب « الوزيرين » لأبي حيان التوحيدي أن بعضهم قال « قرأت إقليدس » فقال له أحمد بن ثوابة الكاتب « وما كان إقليدس ؟ ومن هو ؟ » قال : رجل من علماء الروم . تسمى بهذا الاسم وضع كتاباً فيه أشكال كثيرة مختلفة ندل على حقائق الأشياء المعلومة والمغنية ، يشد الذهن ويدقق الفهم ، ويلطف المعرفة ويصفي الحاسة ويثبت الروية ومنه افتتح الخط ، وعرفت مقادير حروف المعجم » . وفي كشف الظنون أن مؤلف الكتاب هو « أبولونيوس النجار » . وقد ترجم القفطى « إقليدس المهندس النجار الصوري » في تاريخ الحكماء « ص ٤٥ » طبعة مصر ، وأبولونيوس النجار « ص ٤٤ » .

ومن العجب كيف ذكر الغامبي ذلك في كتابه وفاته النظر فيه مع تقدمه في هذه الصناعة .
وأعجب من ذلك قول أبي القاسم الآمدي ، وأعجب منها جميعاً استحسان ناقد الكلام لهذا
التقسيم ، ألا ترى أن هذا البيت قد بني عليه شيء آخر من جنسه فانه لو أضيف له بيت غيره
فقال :

وَلَيْسَ كُمْ عُنْفٌ وَقُرْبُكُمْ نَوًى وَإِعْطَاؤُكُمْ مَنَعٌ وَصِدْقُكُمْ كَذِبٌ

لجاز ذلك وربما يحتمل أن يزداد على هذا البيت الثاني بيت ثالث ورابع ، ولو كان ذلك
التقسيم في البيت الأول صحيحاً لما احتمل أن يضاف إليه شيء آخر البتة ، لأن من شرط صحة
التقسيم أن لا يحتمل الزيادة .

ومما جاء على نحو من هذا قول بعضهم في حق مكسورين في الحرب ، « فن بين جريح
مضرج بدمائه ، وهارب لا يلتفت إلى ورائه » . فان الجريح قد يكون هارباً ، والهارب قد
يكون جريحاً ، ولو قال « فن بين قتيل ومأسور وناج » لصح له التقسيم لأن المكسورين في
الحرب ، الذين دارت عليهم الدائرة ، لا يخرجون عن هذه الأقسام الثلاثة ، فاما قتيل أو مأسور
أو نازح ، وأما الجريح فانه يدخل في جملة الناجي ، والمأسور ، لأن كلاهما يجوز أن يكون
جريحاً أو أن لا يكون ، فاعرف ذلك ، وقس عليه ^(١) .

الضرب الثالث من النوع العثمري

وترتيبه في التفسير وما يصح من ذلك وما يفسد

اعلم أن صحة ترتيب التفسير هي أن يذكر المؤلف في كلامه معاني مختلفة ، فاذا عاد إليها
بالذكر ليفسرهما ، قدم القدم وأخر المؤخر ، وإذا لم يراع المؤلف ذلك كان مأخوذاً عليه ، لأنه
يخل بشطر من الصناعة ، فن ذلك قول بعضهم :

غَيْثٌ وَلَيْثٌ فَغَيْثٌ حِينَ تَسْأَلُهُ عُرْفَا وَلَيْثٌ لَدَى الْهَيْجَاءِ ضَرْغَامُ
تَحِيَا الْأُنَامُ بِهِ فِي الْجَدْبِ إِنْ قُحِطُوا جُوداً وَيَشْقَى بِهِ يَوْمَ الْوَعَى الْهَامُ

(١) كررها هنا شيئاً مما كتب خذناه .

ومن هذا الباب قوله تعالى « وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مُبصرة^(١) » وكذلك قوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله^(٢) » . فلما قدم الليل في الذكر على النهار قدر سبب الليل ، وهو السكون على سبب النهار ، وهو التعيش ، وذلك في غاية الحسن . ومن هذا النحو قول بعضهم :

يوم المُتيمِّمِ فيكَ حَولٌ كاملٌ يتعاقبُ الفصلانِ فيه إذا أتى
ما بينَ حرٍّ جوىٍّ وماءٍ مدامعٍ إنَّ حنَّ صافٍ وإنَّ بكى وجداً شتا

وهذا من أصح التفسير فاعرفه ، ومن ذلك قول الآخر وهو غاية في بابه :

شَكَوتُ^(٣) فقات كلُّ هذا تبرُّمُ^(٤) بحُبِّي أراح الله قلبَكَ من حُبِّي
فلما كتمتُ الحبَّ قالت كشدَّ ما صَبَرْتَ وما هذا بفعلٍ شجي القلب
وأدنو فتقصيني فأبعدُ طالباً رضاها فتعتدُّ التباعدُ من ذنبي
فشكواي تُؤذيها وصبري يسوؤها وتجزعُ من بُعدي وتنفِرُ من قُرْبِي
فيا قومُ هل من حيلةٍ تعرفونها أعينوا بها^(٥) واستوجبوا الأجرَ من ربي
فما ترك هذا الشاعر شيئاً من المعاني التي ذكرها أولاً فيما يلاقيه من الحب والبلوى إلا فسرّها على هذا الترتيب ، فاعرف ذلك .

ومما أخذ على الفرزدق من هذا النحو قوله^(٦) :

(١) السورة « الاسراء » والآية « ١٢ » وتامها « لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شيء فصلناه تفصيلا » .

(٢) السورة « القصص » والآية « ٧٣ » وتامها « ولعلكم تشكرون » .

(٣) ذكر المبرد هذه الأبيات في الكامل لأحد الأعراب « ج ١ ص ٢٠٠ طبعة الدجوني بالقاهرة » وقد غنتها المغنية منيرة المهدي المصرية .

(٤) رواية الكامل « كل هذا تبرماً » قال المبرد : قوله « كل هذا تبرماً » مرادود على كلامه ، كأنها تقول له : أشكوتني كل هذا تبرماً « ولو رفع « كلا » لكان جيداً ، يكون « كل » هذا مبتدأ و « تبرم » خبره . (٥) في الكامل « أشيروا بها » .

(٦) من كلمة له في قتل القعقاع بن عوف التميمي أولها « الديوان ص ٧٤٩ » .

وقائلة والدمع يحدر كلهما لبئس المدى أجرى اليه ابن ضمض

لقد خنتَ ^(١) قوماً لو لجأت إليهم طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم
لألفت منهم معطياً أو مطاعناً وراءك شزرأً بالشويح المقوم

لأنه أصاب في التفسير وأخطأ في الترتيب ، وذلك أنه أتى بتفسير ما هو أول في البيت الأول ، ثانياً في البيت الثاني ، وهو قوله : « طريد دم » فقال : (أو مطاعناً) ، وكذلك أتى بتفسير ما هو ثان في البيت الأول أولاً في البيت الثاني ، وهو قوله : (حاملاً ثقل مغرم) فقال : (لألفت منهم معطياً) والأولى أن كان أتى بتفسير ذلك مرتباً ، ففسر ما هو أول في البيت الأول بما هو ثان في البيت الثاني ، وما هو ثان في البيت الأول بما هو ثان في البيت الثاني ، وذلك لو سَلِمَ له الوزن . إلا أن هذا لا كبير عيب فيه . وإنما الأحسن ما أشرنا إليه .

واعلم أن الناظم إذ أتى بمثل ما أتى به الفرزدق لا ينكر عليه ذلك ، كما ينكر على الناثر ، وذلك أن الناظم يضطره الوزن والقافية الى اعتماد غير الواجب في تأليفه ، وترك الأولى في صناعته ، كما اضطر الوزن والقافية الفرزدق ، فانه لو أراد ان يأتي بمقتضى الصنعة لقال :

لقد خنتَ قوماً لو لجأت إليهم طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم
« لألفت منهم طاعناً بالشويح المقوم أو معطياً »

وهذا ما يفسد به الوزن والقافية . وأما الناثر فانه لا يضطرُّ الى مثل ذلك لتصرفه كيف شاء ، ولهذا كان الناثر مؤاخذاً بأداء هذه الصناعة أكثر مما يؤاخذ الشاعر ، فاعرف ذلك .
ومما أخذ على الفرزدق قوله أيضاً :

كيف أسلو وأنتِ حَقْفٌ وغُصْنٌ وغزالٌ لحظاً وردفاً وقدّا ^(٢)

والأصل في هذا أن قال : رِدْفًا وقدًا ولحظًا « وأمثال هذا كثيرة ، فاعرفها .
وأما فساد التفسير في هذا الباب فهو أن يأتي المؤلف بكلام يفسره تفسيراً لا يناسبه ، وذلك عيب لا يسامح فيه بحال من الأحوال كقول بعضهم :

(١) في الأصل « جئت » وهو غير مستقيم والتصحيح من الديوان .

(٢) لم نجد في ديوان شعر الفرزدق جمع عبد الله اسماعيل الصاوي وأثر التوليد ظاهر عليه .

فيا أيها الحيران في ظلمة الدجي و من خاف أن يلقاه بغني من العدا
تعال إليه تلق من نور وجهه ضياءً ومن كفّيه بحرّاً من الندى

وكان يجب لهذا الشاعر أن يجعل بازاء « بغني من العدا » ما يناسبه من النصرة أو الادالة أو الاعانة أو ما جرى هذا المجرى ، ليكون ذلك تفسيراً كما جعل بازاء الظلمة الضياء وفسرها به ، فأما أن وضع بازاء ما يتخوف منه « بحرّاً من الندى » [فانه] لا يكون تفسيراً له وأمثال هذا كثيرة ، فلتجنب .

النوع الحادي والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية المؤكدة بأنّ الشدّة وتفضيل أحدهما على الآخر .

وذلك كقولنا « قام زيد » ، و « إن زيدا قائم » فقولنا : قام زيد . معناه ؛ الاخبار عن زيد بالقيام . وقولنا : إن زيدا قائم ، معناه ؛ الاخبار عن زيد بالقيام أيضاً . الا أن في الثاني زيادة كُتبت في الأول ، وهو توكيده بأنّ الشدّة التي من شأنها الاثبات لما يأتي بعدها من الكلام ، فن هذا النحو قوله تعالى : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن ^(١) مستهزؤن) . فانهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية ، وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بأنّ الشدّة ، فقالوا : في خطاب المؤمنين (آمناً) ولأخوانهم (إنا معكم) لأنهم في مخاطبة أخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزلوا على صدق ورغبة ووفور نشاط ، وكان ذلك متقبلاً منهم ورائجاً عند إخوانهم . وما قالوه المؤمنين فانما قالوه تكلفاً وإظهاراً للإيمان ، خوفاً ومداجاة ، وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأوكد لفظ وأشدّه لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجاً ظاهراً لا باطنياً ، ولأنهم ليس لهم من عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم ،

(١) السورة « البقرة » والآية « ١٤ » .

« إنا معكم » وهذه نكت دقيقة ولطائف خفية ^(١) لا توجد في نوع من الكلام العربي إلا في القرآن الكريم ، وما أكثر ذلك وأمثاله في أثنائه وأوفره ! مودعاً في ^(٢) غضونه ، فاعرفه وقس عليه .

النوع الثاني والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في ورود لام التأكيد في الكلام

ولا يجيء ذلك إلا لضرب من المبالغة ، وفائدتها في التأليف أنه إذا عبر عن أمر يعز وجوده ، أو فِعْلٍ يعظم إحداثه ووقوعه ، جيء بها محققة لذلك ، وشاهدة ، فن هذا الباب قوله عز وجل : « أفرأيت ما تحزرون ، أأنتم تزرعون أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتكم أنفسكم ، إنا كمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفرأيت الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء لجعلناه أجاباً فلولاً تشكرون » ^(٣) . ألا ترى كيف أدخلت « اللام » في آية المغموم دون آية المشروب ، وإنما جاءت كذلك لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً ، والموجود من الماء الملح أكثر من الموجود من الماء العذب ، وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها الى الملوحة والمرارة ، فلم يحتاج في جعل الماء العذب ملحاً الى زيادة تأكيد ، فلذلك لم تدخل عليه « لام التأكيد » المفيدة زيادةً للتحقيق ، وأما المغموم فان جعله حطاماً لما كان خارجاً عن المعتاد أو هو غير مألوف ، وإذا وقع فلا يكون إلا عن سخط شديد وغضب زائد ، لذلك قرن ^(٤) بلام التأكيد زيادة في تحقيق أمره وتقرير إيجاده وكونه . وهكذا يفعل بكل أمر فيه خصوصية ، فاعرفه .

(١) في الأصل « خفيفة » وهي من أوهام النساخ .

(٢) يقال « أودعه الشيء » بنصبه المفعولين ، وفي مختار الصحاح « يقال : أودعه مالا أي دفعه اليه ليكون ودية عنده ، وأودعه مالا أيضاً : قبله منه ودية وهو من الأضداد » . وفي المصباح النير « أودعت زيدا مالا : دفعته اليه ليكون عنده ودية ... أو أخذته منه ودية فيكون الفعل من الأضداد لكن الفعل في الدفع أشهر » . وقد استعير « أودع » لغير الودية فاستجاز المولدون استعمال « في » و « مع » في جلته ، كما استعملوا « ورد فيه » .

(٣) السورة « الواقعة » والآية « ٦٣-٧٠ » . (٤) « لذلك » زائدة بعد قوله « لما كان » .

النوع الثالث والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في الاقتصاد والافراط والتفريط

فأما الاقتصاد فهو أن يكون المعنى المضمّن في العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه في منزلته .

وأما التفريط ، والافراط ، فهو أن يكون المعنى المضمّن في العبارة بخلاف ما يقتضيه منزلة المعبر عنه ، فأما انحطاطاً دونها وهو التفريط ، وإما تجاوزاً عنها ^(١) ، وهو الافراط ، لأن أصل التفريط في وضع اللغة من « فرط في الأمر إذا قصّر فيه وضيمه » ، وأصل الافراط في وضع اللغة من « أفرط في الأمر إذا تجاوز فيه الحد » فالتفريط عيب في الكلام فاحش ، وذلك كقول الأعشى : -

وما مُنِ بِيْدُ مِنْ حَلِيحِ الْفِرَاتِ جَوْنُ غَوَارِبُهُ تَلْتَطِمُ ^(٢)
بَأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَاعُونِهِ ^(٣) إِذَا مَاسَمَاؤُهُمْ لَمْ تَفْهَمِ

فإنه قد مدح ملكاً بأنه مجودٌ بماعونه ، والماعون هو كل ما يستعار من قدوم أو قصمة أو قدر أو ما أشبه ذلك . وليس للملوك في بذله مدح البتة ^(٣) ، بل هو الى الذي أقرب منه الى المدح ، فهذا من أقبح التفريط .

(١) قال الجوهري في الصحاح « وجاوزت الشيء الى غيره وتجاوزته بمعنى أي جزته ، وتجاوز الله عنه أي عفا » وكذلك ما في المصباح المنير : « وجاوزت الشيء ، وتجاوزته : تعديته وتجاوزت عن الشيء : عفوت عنه وصفحته » ، ومنه يعلم أن المؤلف استعمل « التجاوز » الذي هو بمعنى العفو والصفح بمعنى الجواز وليس ذلك بصحيح .

(٢) من قصيدة يمدح بها قيس بن معدي كرب مطلعها :

أتهجر غانية أم تلم أم الحبل واه بها منجذم ؟ !

« ديوان الأعشى والأعاشي الآخرين » ص ٢٨-٣٤ .

(٣) في الديوان « ص ٣١ » « بأجود منه بما عنده » . وفي الشرح « روى أبو عبيدة : بماعونه وقال الماعون في الجاهلية : كل عطية » وعلى رواية الديوان لا يصح الانتقاد على المؤلف . وفي مختار الصحاح « الماعون : اسم جامع لمنافع البيت كالقدر والفأس ونحوهما . والماعون أيضاً : الماء ، والماعون أيضاً : الطاعة ، وقوله تعالى « ويمنون الماعون » قال أبو عبيدة : الماعون في الجاهلية كل منفعة وعطية ، وفي الاسلام : الطاعة والزكاة .

ومن هذا الباب قول أبي تمام :

ما زال يَهْزِي بالمكارم والعُلا حتى ظننّا أَنَّهُ مَحْمُومٌ (١)

فانه أراد أن يبالغ في ذكر الممدوح باللهج بالمكارم (٢) والعلا ، فقال « ما زال يهزني » ولا أعلم ما كانت حال أبي تمام ، عند قوله هذا البيت ، ولا أعلم أيُّ أمر اضطره اليه ، مع سعة مجال العربية ، وأنفساح مداها ؟! ثم ما كفاه ذلك ، حتى قال : « ظننت أنه محموم » وعلى نحو من ذلك ، قول بعضهم :

وتلحقه عند المكارم هزة كما انتفض المجهود من أم مِلْدَم (٣)

ومن أقبح ما رأيناه في هذا الفن ، قول أبي تمام :

أنت دَلُوْ وذو السَّحاح أبو مرو سى قليب ، وأنت دلو القَلَيْبِ (٤)

ومُراد أبي تمام من ذلك ، أنه سبب لعطاء المشار اليه ، كما أن الدلو سبب في امتياح الماء من القليب . فهذا وأمثاله ، مما لا يجوز استعماله ، وإن كان المعنى المقصود به حسناً . ولهذا كانت للمدح ألفاظ ، لا يجوز استعمالها في الذم ، وللذم ألفاظ لا يجوز استعمالها في المدح ، ألا ترى أن من المعاني ما يعبر عنه بالألفاظ متعددة ، ويكون المعنى المدرج تحتها واحداً ؛ فمن الألفاظ ، ما يحسن استعماله في المدح ، ومنها ما لا يحسن استعماله في الذم ، ولو كان هذا الأمر يرجع الى المعنى فقط لكانت جميع الألفاظ الدالة عليه شَرَعاً (٥) سواءً في الاستعمال ، وإنما هذا يعود فيه الى العرف ، دون الأصل . ولنضرب لذلك مثلاً ، فنقول : هل يجوز أن يخاطب الملك ،

(١) من قصيدة له يمدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابه أولها :

أسقى طولهم أجش هزيم وغسدت عابهم نضرة ونعيم

الديوان ص ٢٢٦-٨ طبعة محمد علي صبيح و « ج ١ ص ٢٩٩ » طبعة محي الدين الحياط .

(٢) في الأصل « باللهج والمكارم » وهو غير متسق . (٣) أم ملدم : الحمى .

(٤) لم تقف على هذا البيت في الديوان وعلاه استبدل به قوله :

لم أزل بارد الجوانح منذ خض خضت دلوي في ماء ذاك القليب

« الديوان ص ٣٢ » .

(٥) أي أمثالا وأشباهها .

فيقال له « وحق دماغك » . قياساً على أن يقال له « وحق رأسك » ؟ . فإن هذا مما لا يجيزه أحد البتة . ألا ترى أن المؤلف ، إذا أراد المدح ، ذكر الرأس والهامة والكاهل وما جرى هذا المجرى ، وإذا أراد الهجو ، ذكر الدماغ والقفا والقذال ، وما جرى هذا المجرى ، وإن كانت معاني الجميع متقاربة . ولا أجل ذلك حسنت الكناية في الموضع الذي يقبح فيه التصريح . وأمثال هذا الضرب من الكلام كثيرة ، فاعرفه .

وأما الإفراط ، فهو بمنزلة ما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وذلك أن رجلاً جاءه ، فكلمه فقال « ما شاء الله وشئت » . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . أجعلتني لله ندّاً ؟ قل « ما شاء الله وحده » ، ومن هذا الباب قول عنترة :

وأنا المنيةُ ، في المواطنِ كلّها والطَّعنُ مني سابقُ الآجالِ
فإنَّ الطعنَ ، لا يسبقُ الأجلُ ، إذ الأجلُ لا يتقدم ولا يتأخر . وقد قيل « سابق » أقرب
أهراً من كونه تالياً ، غير أن كليهما إفراط في القول . ومما جاء على نحو من هذا قول بشار (١) .
إذا ما غَضِبْنَا (٢) غَضِبَةً مُضَرَّةً

هتَكُنَّا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ (٣) دَمًا
وقال أبو عثمان الجاحظ في كتاب الحيوان (٤) « لم نعلم أحد أسرف (٥) في القول كالنابغة

(١) في الأغاني « ج ٣ ص ١٦٢ » طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) غَضِبَةً (بكسر الغين) مصدر هَيَأَ ، وهو على وزن « فعله » بكسر الفاء وتسكين العين . وقد ضبطته لجنة التصحيح في دار الكتب المصرية بفتح الغين وذلك خطأ . وكذلك في « المختار من شعر بشار » ص ١٦٣ .

(٣) في الأغاني « أو تَطَرَّ الدَّمَا » وفي المختار « أو مطرت دما » .

(٤) في « الحيوان » ج ٦ ص ٣٢٥ من طبعة عبد السلام هارون « ولا نعلم أحداً منهم (من الشعراء) أسرف في هذا القول وقال قولاً يرغب عنه إلا النابغة فانه قال :

جوانح قد أيقن أن قبيله
إذا ما التقى الجمعان أول غالب

وهذا لا تثبته ، وليس عند الطبر والسباع في اتباع الجوع إلا ما يسقط من ركابهم ودوابهم وتوقع القتل إذا كانوا قد رأوا من تلك الجوع صرّة أو صراراً . فأما أن نقصد بالأمل أو اليقين إلى أحد الجمعين فهذا لم يقله أحد .

(٥) في الأصل « أسرق » والتصحيح من كتاب الحيوان .

حبث يقول :

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقه عصائب طير تهتدي بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيلة إذا ما التقى الجمعان أول غالب
لأنه ليس عند الطيور في اتباع الجوع والعساكر إلا ما يسقط من ركابهم ودوابهم إذ كانوا
قد رأوا ذلك من تلك الجوع ، والفوه ^(١) منها ، فأما أن يقصدوا بالأمل واليقين لأحد ^(٢)
الجمعين بالادالة والغلبة فهذا لم يقله أحد . وقيل إن بعض أفراد هذه الصناعة لما سمع قول قيس
ابن الخطيم .

ملكته بها كفي فأنهت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها ^(٣)
قال : هذا لم يطعنه وإنما فتح فيه باباً أو دربا .

واعلم أن علماء البيان في استعمال الافراط على ثلاثة أضرب :

(١) فمنهم من يكرهه ولا يراه صواباً كأبي عثمان الجاحظ فيما روي عنه .

(٢) ومنهم من يختاره ويؤثر كقدامة بن جعفر الكاتب فإنه كان يقول :
« الغلو عندي كان أجود المذهبين فإن أحسن الشعر أ كذبه ^(٤) » .

(٣) ومنهم من يذهب الى التوسط بين الغلو والتفريط ، وهو الاقتصاد ، وذلك أن
يجعل الغلو وهو الافراط مثلاً ثم يُستثنى فيه بـ (لو) أو بـ (كاد) أو ما جرى هذا المجرى ،
فيدرك مراده ويسلم من عيب عائب ، أو طعن طاعن ؛ وذلك كقول بعضهم :

يكاد يمسه عرفان راحته ركن الخطيم إذا ما جاء يستلم

(١) في الأصل « والقوة » والتصحيح من الحيوان .

(٢) في الأصل « لأجل » والتصحيح منه .

(٣) في صحاح الجوهري « وأنهرت الدم أي أسلته وأنهرت الطاعة أي وسعته قال قيس بن الخطيم
« ملكته بها كفي فأنهت فتقها . . » .

(٤) قال ابن خلكان في ترجمة « أبي علي دعلج بن علي الخزاعي » إنه قال « من فضل الشعر أنه لم
يكذب أحد قط إلا اجتواه الناس إلا الشاعر فإنه كلما زاد كذبه زاد المدح له ثم لا يقنع بذلك حتى يقال له :
أحسن والله . فلا يشهد له شادة زور إلا ومعها يمين بالله تعالى » . « ج ١ ص ١٩٨ » طبعة بلاد العجم .

وكقول أبي عبادة البحري :

ولو أنَّ مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسمى اليك المنبر ^(١)
وهذا المذهب المتوسط ألقى المذاهب الثلاثة ، وأدخلها في الصنعة ، فأعرفه .

النوع الرابع والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في المعاظة

وهو نوع من التأليف يجب اجتنابه ؛ لأنه عيب في الكلام فاحش . وأصل المعاظة في اللغة ؛ من تعاضلت الجرادتان : إذا ركبت إحداهما الأخرى ، فسمى [تأليف] الكلام الذي تداخلت معانيه ، وركب بعضها فوق بعض ، المعاظة ، مأخوذاً من ذلك وهو اسم لائق بمسماه . ووصف عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — زهير بن أبي سلمى فقال : « كان لا يعاظم بين الكلام » .

واعلم أن هذا الباب يجب تدبره لاختلاف أهل هذه الصنعة فيه ، فقال قدامة :
التعاظم ^(٢) : تداخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه ، ولا أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة كقول أوس ^(٣) بن حجر :
وذات هدمٍ عارٍ نواشرها تصمت بالماءِ توكِّباً جدعاً ^(٤)

(١) الديوان « ج ١ ص ١٨ » طبعة رزق الله سركيس بيروت .

(٢) أنظر كتاب « نقد الشعر » « ص ٦٩ » بمطبعة الجوانب ، وحاشية المثل السائر « ج ١ : ٢٩٣ » .

(٣) البيت من قصيدة للشاعر يرثي بها فضالة بن كعدة ، انظر ذيل الأمالي ص ٣٤ طبعة دار الكتب المصرية . وأولها :

أيها النفس أجلي جزعاً إن الذي تحذرين قد وقعا

والهدم بكسر فسكون الخلق من الدياب . والنواشر : عروض ظاهر الكنف ، وتصمت تسكت ، والجذع يفتح الجيم وكسر الدال : السبيء الغداء .

(٤) قال الجوهري في الصحاح « وصي جدع : سبيء الغداء وقد جدع بالكسر جدعاً وأجدعته أنا : أسأت غداءه قال أوس بن حجر « وذات هوم عار نواشرها . . » .

فسمّى الظبي^(١) «تولباً» والتولبُ : ولد الحمار . هذا ما ذكره قدامة ، وهو خطأ ؛ لأنه لو كان ما ذهب إليه صحيحاً ، لكان أصلُ المعاطلةِ ، في وضع اللغة دخول الشيء فيما ليس من جنسه . وليس أصلها في وضع اللغة كذلك ، بل هو التداخلُ والتراكبُ .

وهذا المثال الذي مثل به قدامة لا تداخل في معانيه ولا تراكب ، وإنما هو استعارة فاحشة فقط ، فوجب حينئذٍ أن لا تسمى معاطلة « لأن حقيقة المعاطلة ليست موجودة فيه .

وأما جماعة الأصحاب من علماء البيان ، فإنهم خالفوا قدامة فيما ذهب إليه ، والحق في أيديهم ، لا تبعاعهم في ذلك حقيقة هذا الاسم ، الذي وضع له في أصل اللغة .

وقد مثله الغانمي بقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملّكاً أبو أمّـه حيّ أبوه يقاربه^(٢)

وهذا مثال حسن لوقوعه على ما مثل به ، ألا ترى الى تداخل معاني هذا البيت بتقديم ما كان يجب تأخيرهُ ، وتأخير ما كان يجب تقديمه ؟ لأن الأصل في معنى هذا البيت . « وما مثله في الناس حي يقاربه ، إلا مملّكاً ، أبو أمّه أبوه » .

واعلم أن هذا الذي أشرنا اليه من المعاطلة بأبه التقديم والتأخير ، وقد سبق ذكره في كتابنا هذا . إلا أن المعاطلة ، قد جعل لها أهل هذه الصناعة ؛ باباً مفرداً في كتبهم ، فلم نَرَ مخالفتهم في هذا القدر ، لكننا بينّا حقيقتها في بابها وأشرنا إليها بأوضح إشارةٍ وألحظها ليعرف موضعها من التأليف .

(٥) في الأصل « الصي » والتصحيح من المراجع الأدبية .

(٢) من قصيدة للفرزدق مدح بها إبراهيم بن هشام بن اسماعيل الخزومي خال هشام بن عبد الملك بن مروان ، قال أبو العباس المبرد في الكامل « ١ : ٢١ - ٢ » طبعة الدجوني « يعني بالملك هشاماً . أبو أمّ ذلك الملك : أبو هذا الممدوح . ولو كان الكلام على وجهه لكان قبيحاً وكان يكون إذا وضع الكلام في موضعه أن يقول « وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملك ، أبو أمّ هذا الملك أبو هذا الممدوح » فدل على أنه خاله بهذا اللفظ البعيد وهجنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير حتى كأن هذا الشعر لم يجتمع في صدر رجل واحد مع قوله :

وما كاد مني ودهم يتصرم
وقد علا القطار الاناء فيفعم

تصرم مني ود بكر بن وائل
قوارس تأتيه فيحتقرونها

النوع الخامس والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في التضمين

وهو مما يزداد به الكلامُ حلاوةً ، ويكتسب به رونقاً وطلاوةً ، ولا سيما إذا كان التضمين بآيات من القرآن الكريم فإنها تكون في الكلام كاشاهدة له ، والمنادية على سداده .

واعلم أن التضمين على ضربين : أحدهما ، تضمين الاسناد وذلك يقعُ في بيتين من الشعر وفقرتين من الكلام المنشور ، على أن يكون الأول مسنداً الى الثاني ، فلا يقوم الأول بنفسه ، ولا يتم معناه إلا بالثاني . فما جاء من ذلك قول بعضهم :

وَمِنَ الْبُلُوغِ الَّتِي لَيْد . . . س لَهَا فِي النَّاسِ كُنْهُ
أَنَّ مَنْ يَعْرِفُ شَيْئًا يَدْعِي أَكْثَرَ مِنْهُ
ألا ترى أن البيت الأول لم يقم بنفسه ولا تم معناه إلا بالبيت الثاني ؟ ويجوز أن يكون البيت الثاني لغير قائل البيت الأول كقول بعضهم :

ولما أتاني من حِمَاكَ تَحِيَّةٌ تَضَوَّعُ مِنْ أَثْنَائِهَا الْمَسْكُ وَالْفَدُّ
وَقَفْتُ فَأُعِييْتُ الرَّسُولَ تَسَاوُلًا وَأُنْشَدْتَهُ بَيْتًا لَهُ الْمَثَلُ الْفَرْدُ
« وَحَدَّثَنِي يَا سَعْدُ عَنْهُمْ فَرَدْتَنِي جَنُودًا فَرَدَنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ »

وأمثال هذا الضرب من الكلام كثيرة ، فاعرفها .

الضرب الآخر من التضمين : وهو أن يضمّن الشاعر شعره ، أو الناثر نثره ، بكلام^(١) لغيره قصداً للاستعانة^(٢) على إتمام المراد ، وتأكيدها لمعناه ، ولو لم يذكر ذلك التضمين لكان المعنى صحيحاً لا يحتاج إلى تمام . وربما ضمّن^(١) الشاعر شعره بنصف بيت أو أقل منه كما قال

(١) في مختار الصحاح « وكل شيء جعلته في وعاء فقد ضمته إياه ، والمضمّن من الشعر ما ضمته بيتاً والمضمّن من البيت ما لا يتم معناه إلا بالذي يليه » وبهذا يعلم أن المؤلف قد جاوز الفصيح في تعديته « ضمن » الى مفعوله الثاني بالباء .

(٢) في الأصل « للاستعانة » والتصحيح من المثل السائر « ج ٢ ص ٣٤٤ » .

جحظة (١) :

قم فاسقنيها يا غلامٌ وغني
« ذهب الذين يُعاش في أكنافهم » (٢)
ألا ترى أنه لو لم يقل في هذا البيت :

« ذهب الذين يعاش في أكنافهم »

لكان المعنى صحيحاً لا يفتقر إلى شيء آخر يتممه ؟ فإن قوله :

قم فاسقنيها يا غلامٌ وغني

فيه كفاية ، إذ لا حاجة إلى تعيين الغناء أي شيء هو ؛ لأن في ذلك زيادة على المعنى الفهوم
لأعلى الغرض المقصود . وقد استعمل هذا الضرب كثيراً الخطيب عبد الرحيم بن نباتة
كقوله في بعض خطبه : « فيا أيها الغفلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون !! مالكم
منه لا تشفقون ؟! فَوَرَبِّ السَّما والارض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » (٣) .

وكقوله في ذكر يوم القيامة : « فيومئذٍ تَفِدُّ الخلائق على الله بُهْماً ، فيحاسُبهم على
ما أحاط به علماً ، ويُنفذ في كل عاملٍ بعمله مُحْكماً ؛ وَعَنْتِ الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب

(١) بفتح الجيم وسكون الحاء المهملة وفتح الظاء المعجمة وبعدها هاء ، وهي صفة من في عينه نتوء كثير ،
وهو لقب أبي الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد البرمكي النديم الأديب الظريف الشاعر المنجم
الراوية الغني الطنبوري ، له عدة كتب في عدة فنون ، ولد سنة ٢٢٤ هـ وتوفي سنة ٣٢٤ أو ٣٢٦ هـ
« تاريخ بغداد للخطيب ج ٤ ص ٦٥ » ، ومعجم الأدباء « ج ١ ص ٣٨٣ » طبعة مرغليوث ، والوفيات
« ج ١ ص ٤٣ » طبعة بلاد العجم .

(٢) أحد أبيات ثلاثة هي :

أصبحت بين معاشر هجروا الندى	وتقبلوا الأخلاق من أسلافهم
قوم أحاول نولهم فكأنما	حاولت تنف الشعر من آناهم
هات أسقنيها بالكبير وغني	« ذهب الذين يعاش في أكنافهم »

والشطر الثاني للبيد بن ربيعة وهو صدر بيت له ، هو :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

« الوفيات ١ : ٤٣ » .

(٣) السورة « الذاريات » ، الآية « ٢٣ » .

من حمل ظمأً»^(١). ألا ترى إلى براعة هذا التضمين ، الذي كأنه رَصِعٌ^(٢) في هذا الموضع رَصْعاً؟! وكذلك قوله في ذكر يوم القيامة . « هنالك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتاباً ، وتكون الأعمال المشوبة بالتَّفَاق سَراباً . يوم يقوم الروح والملائكة صفاً . لا يتكلمون إلا مَنْ أذن له الرحمن وقال صواباً »^(٣) .

وعلى نحو من ذلك جاء قوله : « أسكتهم ، والله ، الذي أنطقهم ، وأبادهم الذي خلقهم ، وسيُجذِّمهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يَوْمَ يُعِيدُ اللهُ العالمين خَلْقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ، يوم تكونون شهداء على الناس » ويكون الرسول عليكم شهيداً^(٤) . يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وبينه أمدًا بعيداً »^(٥) . وكقوله في صفة أهل الجنة : « قد أنسوا بجوار الجبار ، وكوشفوا بحقائق الأسرار ، وتبوؤا منازل الشهداء والأبرار ، والملائكة يدخُلون^(٦) عليهم من كلِّ بابٍ ، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعِمَ عُقْبَى الدار »^(٧) .

وعلى هذا النهج ورد قوله في ذكر القيامة « هناك يرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، ويجمع من وجب له الثواب ، ومن حق عليه العقاب ، فَضْرَبَ بينهم بسُورٍ له بابٌ باطنه فيه الرحمة وظاهره فيه من قبله العذاب »^(٨) .

وأمثال هذه التضمينات في الخطب التي للشيخ عبد الرحيم^(٩) كثيرة ، فاعرفها ، فهي من

(١) السورة « طه » والآية « ١١١ » .

(٢) في الأصل « وضع » ولا يفيد المراد ، يقال « رصم بالشيء كفرح ، رصعاً كفرح أي لصق به » .

(٣) السورة « النبأ » والآية « ٣٨ » . (٤) السورة « البقرة » والآية « ١٤٣ » .

(٥) السورة « آل عمران » والآية « ٣٠ » .

(٦) في الأصل « يدخلونها » وفي الآية « يدخلون » .

(٧) السورة « الرعد » والآية « ٢٣ - ٢٤ » .

(٨) السورة « الحديد » والآية « ١٣ » .

(٩) لعز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني كلام جيد في خطب ابن نباتة هذا تجده في : « شرح

نهج البلاغة » ج ١ ص ١٤٢ وج ٢ ص ٢٣٣ .

عجب ما يجيء في هذا الباب .

النوع السادس والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني في الاستدراج

وهو التوصل إلى وصول الغرض من المخاطب ، والملاطفة له في بلوغ المعنى المقصود ، من حيث لا يشعر به ، وفي ذلك من الغرائب ، والدقائق ما يوثق السامع ، ويطر به ^(١) ؛ لأن مبنى صناعة التأليف عليه ، ومنشأها منه ، فما جاء من هذا الباب ، قوله تعالى : « واذكُر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيّاً ، إذ قال لأبيه : يا أبتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يسمَعُ ، ولا يُبصرُ ، ولا يُغني عنك شيئاً ، يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ، يا أبتِ لا تعبد الشيطان إنَّ الشيطان كان للرحمان عَصِيّاً ، يا أبتِ إني أخافُ أن يمسَّكَ عذابٌ من الرحمن ، فتكون للشيطان ولياً » ^(٢) . هذا كلام ، يهز أعطاف السامعين ، ويهيج نفوس المتأملين ، فعليك ، أيها المترشح لهذه الصناعة ، بامعان النظر في مطاويه ، وترداد الفكر في أمثاله ، واتخاذ قدوةً ونهجاً تقتفيه ، ألا ترى حين أراد إبراهيم ، أن ينصح ^(٣) أباه ، ويعظه مما كان متورطاً فيه ، من الخطأ العظيم ، الذي عصى به أمر العقل ، كيف رتب الكلام معه ، في أحسن انساق وانتظام ، مع استعمال المجاملة ، واللاطف ، واللين ، والأدب الجميل ، والخلق الحسن ؟! مستنصحاً في ذلك بنصيحة ربه ؛ وذلك أنه طلب منه أولاً العلة في خطيئته طلب مُنبَه على تماديه ، مُوقظ (له) لافراطه (في غفلته) وتناهيه ، لأن المعبود لو كان حياً ، متميزاً ، سميعاً بصيراً ، مقتدرّاً على الثواب ، والعقاب ، إلا أنه بعض الخلق ، لا يستسخر ^(٤) عقل من أهله للعبادة ، ووصفه بالربوبية ، ولو كان أشرف الخلق ، كالملائكة ، والنبیین فكيف لمن جعل المعبود جهاداً ، لا يسمع ، ولا يبصر ؟! ثم تثنى ذلك بدعوته الى الحق ، مترقفاً به ، متطلعاً ، فلم يسمِ أباه بالجهل المطلق ، ولا نعتته بالعلم الفائق ، ولكنه قال : « إن معي

(١) كذا ورد بالباء ومنه الاطراب وفيه بعد . (٢) السورة « حريم » والآية « ٤١ - ٥٠ » .

(٣) في مختار الصحاح « نصحه ونصح له ينصح بالفتح فيها نصحاً ونصاحت به بالفتح وهو باللام أفصح

قال الله تعالى : وأنصح لكم » . (٤) في التل السائر « ج ٢ ص ٧٠ » « لستخف » .

لطائف^(١) من العلم ، وشيئاً منه . وذلك علم الدلالة على الطريق السوي . فلا تستنكف ، وهب
أنى^(٢) وإياك فى مسير ، وعندى معرفة بالهداية دونك ، فاتبعنى أنجيك من أن تضل وتتيه .
ثم ثلث ذلك بتبسيطه ونهيه عما كان عليه ، بأنّ الشيطان الذى استعصى على ربك الرحمن ، الذى
جميع ما عندك من النعم من عنده ، وهو عدوك وعدوّ أهلك آدم ، هو الذى ورطك فى هذه
الورطة ، وألقاك فى هذه الضلالة . إلّا أن إبراهيم — عليه السلام — لامعانه فى الاخلاص ،
لم يذكر من جنابى الشيطان ، إلّا التى تختصّ منها بالله — عز وجل — : عصيانه
واستكباره^(٣) . ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم — عليه السلام — وذريّته . ثمّ ربّع
ذلك بتخويفه سوء العاقبة وما يُنتجُ عليه من الوبال . ولم يخل هذا الكلام من حسن أدب ،
بمّ حيث لم يصرّح بأنّ العقاب لا حقّ لأبيه ولكن قال « إني أخافُ أن يمسّك عذاب » فذكر
الخوف والمسّ إعظاماً لهما ، ونكر العذاب^(٤) ، وجعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة

(١) المثل السائر « ج ٢ ص ٧٠ » « لطائفه » والذي فى المتن أوّل منه لأنه جمع « لطيفة » وهى
الدقيقة التى تصدر عن ذهن وقاد وتفكير مستجاد .
(٢) قال الحريرى فى « درة الغواص فى أوهام الخواص » .
« ويقولون : هب أنى فعلت ، وهب أنه فعل . والصواب : هبى فعلت وهبى فعل . كما فى قول عروة
ابن أذينة :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدي أقبلت نحو سقاء القوم أبترد
هبى بردت يرد الماء ظاهره فن لئار على الأحشاء تنقد ؟

وهب : فعل غير متصرف بمعنى عد واحسب . قال شهاب الدين محمود الآلوسى « فعنى « هبى » مثلاً
« عدنى واحسبى » وفيه على ما قال ابن برى أنه إذا كان بمعنى « احسب » وهو مما يتعدى الى مفعولين
كسائر أفعال باب « علم » جاز أن يدخل على « أن » ومعمولها فيسدان مسد مفعوليه كما فى أخواته ، على
أنه قد سمع ذلك فلا مانع مما أنكره قياساً واستعمالاً ، وفى المتن : هب بمعنى ظن ، الغالب تعديده الى صريح
المفعولين كقوله :

فقلت أجزنى أبا خالد وإلا فهبني امرءاً هالكاً

ووقعه على « أن » وصلتها نادر حتى زعم الحريرى أن قول الخواص « هب أن زبداً قائم » لحن .
وذهب عن قول القائل أى لعمر — رضى — فى المسألة المشهورة بالمشركة وبالحجارة وبالحجرية « هب أن
أبانا كان حمراً » وفى رواية « كان حجراً » .

(٣) فى المثل السائر « وهى عصيانه ... » .

(٤) فى الأصل « العقاب » وهو من سبق قلم الناسخ .

أُشِيعَهُ ، أَكْبَرُ مِنَ الْعَذَابِ ، وَصَدَّرَ كُلَّ نَصِيحَةٍ مِنَ النَّصَائِحِ الْأَرْبَعِ بِقَوْلِهِ : « يَا أَبْتَ »
تَوَسَّلًا إِلَيْهِ وَاسْتِعْطَافًا ، فَقَالَ لَهُ فِي الْجَوَابِ « قَالَ أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ : لَئِنْ لَمْ
تَنْتَهِ لَا رَجُوعَ لَكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ^(١) » .

أَلَا تَرَى كَيْفَ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ بِفِظَاظَةِ الْكُفْرِ وَغِلَظِ الْعِنَادِ ، فَسَادَهُ بِاسْمِهِ وَلَمْ يُقَابِلْ
قَوْلَهُ « يَا أَبْتَ » بِابْنِي ؟ وَقَدَّمَ الْخَبَرَ عَلَى الْبِتْدَاءِ فِي قَوْلِهِ : « أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ »
لَأَنَّهُ كَانَ أَهَمُّ عِنْدَهُ وَفِيهِ ضُرُوبٌ مِنَ التَّعَجُّبِ وَالْإِنْكَارِ ، لِرَغْبَةِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ آلِهَتِهِ وَأَنَّ آلِهَتَهُ
لَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْغَبَ أَحَدٌ عَنْهَا .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : « قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونِ
رُجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ
يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُّكُمْ . إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ^(٢) » أَلَا تَرَى
مَا أَحْسَنَ مَا أَخَذَ هَذَا الْكَلَامَ وَالطَّفَّ مِغْزَاهُ ؟ فَانْهَ أَخَذَهُمْ بِالْإِحْتِجَاجِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّقْسِيمِ فَقَالَ :
لَا يَخْلُو هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا ، فَيَكْذِبُهُ يَعُودُ عَلَيْهِ وَلَا يَتَخَطَّاهُ ، أَوْ يَكُونَ صَادِقًا
فَيُصِيبُكُمْ بَعْضُ مَا يَعِدُّكُمْ إِنْ تَعَرَّضْتُمْ لَهُ . وَفِي هَذَا الْكَلَامِ مِنْ حَسَنِ الْأَدَبِ وَالْإِنْصَافِ
مَا أَذْكَرُهُ لَكُمْ ، أَيُّهَا الْمُتَأَمِّلُ ، فَأَقُولُ : إِنَّمَا قَالَ « يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُّكُمْ » وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ نَبِيٌّ
صَادِقٌ وَأَنَّ كُلَّ مَا يَعِدُّكُمْ بِهِ ، لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يُصِيبَكُمْ (كُلَّهُ) لَأَنَّهُ لَابَعْضُهُ ، لَأَنَّهُ احْتِجَاجٌ فِي مَقَاوِلَةِ خُصُومِ
مُوسَى أَنْ يَسْلُكَ مَعَهُمْ طَرِيقَ الْإِنْصَافِ وَالْمَلَاظِفَةِ فِي الْقَوْلِ ، وَيَأْتِيَهُمْ مِنْ جِهَةِ الْمُنَاصَحَةِ ، فَنَجَاءَ بِمَا
عَلِمَ أَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى تَسْلِيمِهِمْ لِقَوْلِهِ ، وَأَدْخَلَ فِي تَصْدِيقِهِمْ لَهُ ، وَقَبُولِهِمْ مِنْهُ ، فَقَالَ « وَإِنْ يَكُ
صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُّكُمْ » . وَهُوَ كَلَامُ الْمُنْصَفِ فِي مَقَابِلَةِ غَيْرِ الْمُشْتَطِّ فِيهِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ
فَرَضَهُ صَادِقًا فَقَدْ أَثْبَتَ أَنَّهُ صَادِقٌ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُّكُمْ بِهِ ، لَكِنَّهُ أَرْدَفَهُ بِقَوْلِهِ : « يُصِيبْكُمْ بَعْضُ
الَّذِي يَعِدُّكُمْ » لِيَهْضِمَهُ بَعْضُ حَقِّهِ فِي ظَاهِرِ الْكَلَامِ ، فَيَرِيَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامٍ مِنْ أَعْطَاهُ

(١) السُّورَةُ « مَرْيَمَ » وَالْآيَةُ « ٤٦ » .

(٢) السُّورَةُ « غَافِرٍ » وَالْآيَةُ « ٢٨ » .

حقه وافيًا ، فضلاً عن ^(١) أن يتمصّب له . وتقديم الكاذب على الصادق من (هذا) القبيل ، وكذلك قوله تعالى : « إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » أي لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه للنبوة ولا عضده بالبينات .

فتدبر أيها المتأمل لهذه الدقائق اللطيفة تضع يدك على النقط في صناعة التأليف .

النوع السابع والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في الإحصاء

وهو نوع من أنواع علم البيان ، لطيف المأخذ ، دقيق الصنعة ؛ وذلك أن يبني الشاعر البيت على قافية قد أرسدها له أي أعدها في نفسه ، فاذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتي به في قافيته ؛ وذلك من محاسن التأليف ، لأن خير الكلام ما دلّ بعمسه على بعض . وفي هذه الصناعة يقول ابن نباتة :

خذها إذا أنشِدْتَ للقومِ من طَرَبٍ صدورها عرفت منها قوافيها
يَنسَى لها الرَّاكِبُ العَجَلان حاجتهُ ويُصبِحُ الحاسدُ الغضبان يُطريها
فمن هذا الباب قول النابغة :

فداء لأمريء سارت إليه بمسندة ربها عمي وخالي ^(٢)

(١) في الأصل « فضلاً من » والصحيح من المثل السائر ومن كلام العرب المألوف ، قال الفيومي في المصباح المنير « وقولهم : لا يملك درهماً فضلاً عن دينار وشبيهه ، معناه : لا يملك درهماً ولا ديناراً وعدم ملكه للدينار أولى بالانتفاء وكأنه قال : لا يملك درهماً فكيف يملك ديناراً . وانتصابه على المصدر ، والتقدير فقد ملك درهم تقدماً يفضل عن فقد ملك دينار . قال قطب الدين الشيرازي في شرح المفتاح : اعلم أن فضلاً يستعمل في موضع يستبعد فيه الأدنى ويراد به استحالة ما فوقه ولهذا يقع بين كلامين متغايري المعنى وأكثر استعماله أن يجيء بعد نفي . قال شيخنا أبو حيان الأندلسي نزيل مصر المحروسة — أبقاه الله تعالى — : ولم أظفر بنص على أن مثل هذا التركيب من كلام العرب . وبسط القول في هذه المسألة وهو قريب مما تقدم .

(٢) البيتان من كلة للنابغة يمدح بها النعمان بن المنذر وأولها :

أمن ظلامسة الدمن البوالي بمرفض الحبي إلى وعال

« الديوان ص ٩١ طبعه مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩١٠ » .

ولو كفي اليمين^(١) بنتك خوفاً لأفردت اليمين من الشمال
 ألا ترى أنه يُعلم ، إذا عرفت الفافية في البيت الأول ، أن في البيت الثاني يكون ذكرُ
 الشمال .

وقال البحرى :

أحلت دي من غير جرم وحرمت^(٢) بلا سبب يوم اللقاء كلاي
 فليس الذي حَلَّتْهُ بِمَحَلِّهِ وليس الذي حرَّمَتْهُ بِحَرَامِ
 فليس يذهب على السامع وقد عرف البيت الأول ، والمصراع الأول من البيت الثاني منه
 [أن عجزه هو^(٣) ما] قاله البحرى ، فاعرف ذلك ، وقس عليه .

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى : « وما كان الناس إلا أُمَّةً واحدةً فاختلفوا ، فلولا كلمةٌ
 سَبَقَتْ من ربك لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فيما فيه يختلفون^(٤) » . فاذا وقف السامع على قوله « فيما فيه »
 عرف أن بعده « يختلفون » لما تقدم من الدلالة عليه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « ومنهم من خَسَفْنَا به الأرض ، ومنهم من أغْرَقْنَا ،
 وما كان الله ليظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون^(٥) » . وعلى نحو منه ورد قوله — عز
 من قائل — « كَتَلِ الْعَنْكَبُوتُ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبِثَتْ
 الْعَنْكَبُوتُ^(٦) » فاذا وقف السامع على قوله : (وإن أوهن البيوت) يعلم أن بعده « لَبِثَتْ
 الْعَنْكَبُوتُ » .

(١) في الأصل « اليمين » والتصحيح من الديوان .

(٢) في الأصل « وحلت » وهو من سبق قلم الناسخ .

(٣) زيادة من المثل السائر يقتضيا السياق .

(٤) السورة « يونس » والآية « ١٩ » .

(٥) السورة « العنكبوت » والآية « ٤٠ » .

(٦) السورة « العنكبوت » والآية « ٤١ » وهي : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت
 اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبث العنكبوت » .

وأمثال هذا كثيرة فاعرفها ؛ إلا أن أبا هلال^(١) العسكري قد سمي هذا النوع « التوشيح » ،
وليس كذلك لأن تسميته : « الارصاد » أولى ، وذلك حيث ناسب الاسم سماه ولاق به . وأما
« التوشيح » فهو نوع آخر من التأليف وسيأتي ذكره في بابه .

واعلم أنه قد اختلف أرباب هذه الصناعة في تسمية أنواع علم البيان ، حتى إن أحدهم يضع
لنوع واحد اسمين ، اعتقاداً منه ان ذلك النوع نوعان مختلفان ، وليس الأمر كما وقع له بل هما
نوع واحد . فمن فعل ذلك « الغامبي »^(٢) فإنه ذكر في كتابه باباً من أبواب علم البيان وسماه
« التبليغ » وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاماً من غير أن يكون للقافية فيما ذكر صنع ،
ثم يأتي بها لحاجة الشمر إليها حتى يُتم وزنه ، فيبلغ بذلك الغاية القصوى^(٣) [في الجودة] ،
كقول امرئ القيس : —

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزعُ الذي لم يُثَقِّبِ^(٤)

فانه قد أتى بالبيت كاملاً^(٥) قبل القافية ثم لما جاء بها ، بلغ بها الأمد الأقصى في
التأكيد . ثم إنه ذكر بعد هذا الباب باباً آخر وسماه « الاشباع » فقال : هو أن يأتي الشاعر
بالبيت معلقاً بالقافية على آخر أجزائه ، ولا يكاد يفعل ذلك إلا حذاق الشعراء : وذلك أن
الشاعر إذا كان بارعاً جلب بقدرته وذكائه وفطنته إلى البيت ، وقد تمت معانيه واستغنى^(٦)
عن الزيادة فيه ، قافية متممة لأعاريضه ووزنه ، فجعلها نعمتاً للمذكور ، كقول ذي الرمة : —

قف العيس من أطلال مية فاسأل رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل^(٧)

(١) أنظر حاشية ص ٢ من هذا الكتاب . (٢) أنظر حاشية ص ٢ من هذا الكتاب .

(٣) زيادة إيضاح من المثل السائر « ج ٢ ص ٣٥٠ » .

(٤) الجزع : بفتح الجيم وسكون الزاي : خرزيمان فيه سواد وياض وتشبه به العيون .

(٥) في الأصل « كلاماً » وهو من وهم النسخ .

(٦) في الأصل « ويستغنى » والتصحيح من المثل السائر .

(٧) وفي كتاب الصناعاتين « ٣٠١ » وفي « العمدة ج ٢ ص ٥٤ » رسوماً كتبتيد الجان

هذا كلام الغانمي بعينه ، والبابان المذكوران سواء ، لافرق بينهما بحال من الأحوال ،
والدليل على ذلك أن بيت امرئ القيس يتم معناه قبل الاتيان بقافيته . وكذلك بيت ذي الرمة .
ألا ترى أن امرأ القيس لما قال :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع
أتى بالتشبيه قبل القافية ؟ ولما احتاج إليها جاء بزيادة حسنة وهو قوله : « لم يثقب » ؟ !
وهكذا ذو الرمة فانه لما قال : —

قف العيس في أطلال مية فأسأل رسوماً كأخلاق الرءاء ...
أتى بالتشبيه أيضاً قبل الاتيان بالقافية . ولما احتاج إليها أتى بزيادة حسنة ؛ وهو قوله :
« المسلسل » .

واعلم أن أبا هلال العسكري قد سمي هذين القسمين بعينهما « الايغال » ^(١) .
وقال : هو أن يستوفي (الشاعر ^(٢)) معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ثم يأتي بالمقطع
فيزيد فيه معنى آخر .

وأصل « الايغال » من « أوغل في الأمر ، اذا أبعد في الذهاب فيه » .
ثم مثل أبو هلال ذلك بقول ذي الرمة :

« قف العيس »

وهذا أقرب أمراً من الغانمي ، لأنه ذكره في باب واحد ، وسماه باسم واحد : ولم يذكره في
باب آخر ، كما فعل الغانمي — رحمه الله — وليس الأخذ على الغانمي في ذلك مناقشة على الأسماء
وانما المناقشة له على أن ينتصب لايراد علم البيان ، وتفصيل ابوابه . ويكون أحد الأبواب التي
ذكرها داخلاً في الآخر ، فيذهب عليه ذلك ، ويخفى عنه ، وهو أشهر من فلق الصبح .

(١) انظر كتاب الصناعتين — « ج ٣٠١ » وانظر العمدة « ج ٢ ص ٥٤ » وما بعدها . وحاشية
المثل السائر « ج ٢ ص ٣٥٢ » .

(٢) زيادة من المثل السائر « ج ٢ ص ٣٥٢ » .

النوع الثامن والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في التوشيح

وهو أن يبني الشاعر أبيات قصيدته على بحرین مختلفین . فاذا وقف من البيت على القافية الأولى ، كان شعراً مستقيماً من بحر على عروض . وإذا أضاف الى ذلك ما بنى عليه شعره من القافية الأخرى ، كان أيضاً شعراً مستقيماً من بحر آخر على عروض ، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى كالوشاح ، فن ذلك قول بعضهم :

أسلم ودمت على الحوادث مارسا رُكْنَا ثَبِيرٍ أَوْ هَضَابُ حِرَاءِ
ونل المراد ممكناً منه على رغم الدهور وفز بطول بقاء

وهذا من محاسن صناعة التأليف فاعرفه ، ألا ترى إلى هذين البيتين يذكران على قافية أخرى وبحر آخر ، نحو قولنا :

أسلم ودمت على الحوا دث مارسا ركنا ثبير
ونل المراد ممكناً منه على رغم الدهور
وأمثال هذا كثيرة ، فاعرفه ، إلا أن فيه نوع إشكال ، وصعوبة .

النوع التاسع والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

في الأخذ والسرقة والإشارة إلى الجيد من ذلك الذي لا بأس به . والردى الذي

لا فسحة في استعماله . لأنه عيب في الكلام فاحش

اعلم أنه لا يخلو المؤلف السارق معنى من المعاني المسبوق هو إليها من أحد قسمين . إما أن يذكر ذلك المعنى بلفظه من غير تغيير له ، وهذا يسمى « النسخ » مأخوذاً من « نسخ الكتاب : إذا نقله على هيئته وصورته » . وإما أن يغير لفظه الأول ، ويبدله بغيره . وهو ضربان : أحدهما أن يخرج في معرض جميل وهيئة حسنة ، وذلك يسمى « السلخ » مأخوذاً من « سلخ جلد الشاة » : لأنه أخذ بعض الشيء المسلوخ . والآخر أن يخرج من معرض ردي ، وهيئة قبيحة ،

وذلك يسمى « المسخ » مأخوذاً من « مسخ الصورة صورة أخرى دونها » كما مسخ الله الأدميين
قردة .

فأما القسم الأول وهو « النسخ » فإن أرباب هذه الصنعة يسمونه « وقوع الحافر على
الحافر » كقول امرئ القيس :

وقوفاً بها حجي عليّ مطيَّهم يقولون لا تهلك أسيّ وتحمل
وقول طرفة بن العبد البكريّ :

وقوفاً بها حجي عليّ مطيَّهم يقولون لا تهلك أسيّ وتجلد
والأخذ إذا كان كذلك كان معيباً وإن ادعى الآخر ، أنه لم يسمع قول الأول ، بل وقع له كما
وقع لذلك ؛ فإن صحّة ذلك لا يعلمها ^(١) إلا الله — عز وجل — والعيب لازم للآخر في ظاهر
الأمر وإن كان فيما ^(٢) ادعاه صادقاً .

ولعمري إن القوم إذا كانوا من قبيلة واحدة فإنّ خواطهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم
وشمائلهم تكون متقاربة ، إلا أن الظاهر ما قلناه فإنه ليس لنا ، إلا الظاهر ، والله يتولى السرائر .
فاعرف ذلك .

واعلم أن من هذا القسم الذي هو « النسخ » ما يعمد المؤلّف الآخر فيأخذ ما ذكره المؤلّف
الأول ، لفظاً ومعنى ، ولكنه يغير هيئة ذلك ؛ بتقديم بعض الألفاظ التي كانت مقدمة في
الأول . وذلك أيضاً من قبيل الأخذ وفاحشه . أو أن المؤلّف الآخر يأخذ المعنى من المؤلّف
الأول ويأتي على أكثر ألفاظه ، غير تارك منها إلا القليل . وهذا مما يقبح ذكره ولا يجوز
استعماله .

وأما القسم الثاني وهو ضربان : الأول : « السليخ » ولا عيب فيه لأحد من أرباب التأليف
[فليس للمؤلّف ^(٣)] غنى عن تناول المعاني من تقدمه . ولكن يجب عليه أنه إذا أخذها أن

(١) في الأصل « لا يعلمه » وهو غير متسق . (٢) في الأصل « ما ادعاه » وهو غير مستقيم .

(٣) زيادة ضرورية اقتضاها السياق .

يكسوها ألفاظاً جميلة ويخرجها في معرض أنيق وصورة حسنة ، ويزيد في بداعة تركيبها وجوده تأليفها ، فانه إذا فعل ذلك صار أولى بها ممن تقدمه ، وأحق بها ممن سبقه اليها . قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : « لو لا أن الكلام يعاد لنفد » .

واعلم أن المعاني مشتركة بين أرباب هذه الصناعة وإنما يتفاضلون في تركيبها واختلاف صورها ، وقد قيل : « إن ابا عذر الكلام من سبك لفظه على معناه » . والمعنى الجيد جيد وإن كان مسبوqاً إليه ، وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم ، وليس على أحد منهم عيب في ذلك إلا اذا أخذ المعنى بلفظه [أخذة] ^(١) واحدة فأفسده ، وقصر فيه عن تقدمه . وأما إذا أخذه فأبرزه في لباس جميل وركبه تركيباً أنيقاً وأخرجه في معرض جميل حسن فإنه يكون أحق من مبتدعه ، فمن ذلك قول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك ^(٢) اللهج
أخذه سلم الخامس ^(٣) بعده فقال :

من راقب الناس مات همّاً وفاز باللذة الجسور
وهذا البيت أوجز من الأول وأخصر ، ولما سمع بذلك بشار قال : « ذهب به ابن الفاعلة » ومن هذا النحو قول بعضهم نثراً « أحق من أثبت لك العذر في حال شغلك من لم يحل ساعة من برك وقت فراغك » أخذه آخر بعده فقال « شكر ما تقدم من إحسانك شاغل عن استبطاء ما تأخر منه » فأتى بالمعنى الذي ذكره الأول ، وزاد عليه زيادة مع الابهجاز والاختصار ؛ فأما

(١) زيادة اقتضاها السياق .

(٢) هذا البيت من قصيدة له مطلعها : —

خشاب هل لحب عندكم فرج أو لا فإني بحبل الموت معتلج

ديوان بشار ج ٢ ص ٧٥ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، سنة ١٩٥٤ بتحقيق محمد رفعت فتح الله ومحمد شوقي أمين .

(٣) هو سلم بن عمرو بن حماد ، شاعر بصري الأصل خليف ماجن ، له مدائح في المهدي والهادي والرشيد العباسيين واختص بالبرامكة وله اختراع في العروض . وأخبره مع بشار ابن برد وأبي العتاهية مشهورة . شعره رقيق رصين ، وسمي « الخامس » لأنه باع مصحفاً واشترى بثمانه طنبراً وقيل : دفترأ فيه شعر وقيل : لأنه أنفق ما خلفه له أبوه على الأدب . توفي سنة ١٨٦ هـ انظر : الأغاني « ٢١ : ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٦ » وتاريخ بغداد للخطيب « ٩ : ١٣٦ » ومعجم الأدباء « ٤ : ٢٤٧ » طبعة مرغلوث . وفيات الأعيان ج ٢ ص ٩٥ طبعة محمد محي الدين سنة ١٩٤٨ والأعلام للزركلي .

الزيادة فهي الذكر والشكر لما أولاه من الجليل وأسداه إليه من الاحسان ؛ وذلك واجب ذكره لأنه من فروض الأعيان على النعم عليه ، وأما الإيجاز فهو أن الكلام الثاني اثنتا عشرة كلمة ، والكلام الأول سبع عشرة كلمة . ولما جاء أبو نواس صاغ هذا المعنى صياغة أخرى أكثر اختصاراً فقال : —

لا تُسدينَّ إليَّ عارفةً حتى أقومَ بيمضٍ ما سلفا^(١)

وذلك من بديع هذا الباب .

ومما ورد من هذا الأسلوب قول العرب : « القتل أنفى للقتل » فجاء القرآن الكريم بهذا المعنى وزاد عليه أشياء عجيبة فقال تعالى : « ولكم في القصاص حياة » . فما زادت به الآية على قول العرب : أنه ليس كل قتل ينفي القتل ، وإنما القتل الذي ينفي القتل ما كان على وجه القصاص والعدل . ففي ذكر الحياة من إيضاح المعنى المرغوب ما ليس في قول العرب : « القتل أنفى للقتل » . ومن ذلك أن قوله تعالى : « القصاص حياة » نظير قولهم : القتل أنفى للقتل ، و « القصاص حياة » أوجز وأخصر لأن « القصاص حياة » عشرة أحرف ، و « القتل أنفى للقتل » أربعة عشر حرفاً ، ومن ذلك أن في قولهم « القتل أنفى للقتل » تكريراً يثقل النطق به على اللسان ؛ وليس في قوله تعالى : « القصاص حياة » تكرير^(٢) . فهذه أربع زيادات تفضل بها الآية على قول العرب ؛ وكذلك أيضاً قول بعض الأعراب : —

فحيّ ذوي الأضغان تسب عقولهم تحية ذي الحسنى وقد يُرفع النفل^(٣)

وإن دَحَسُوا^(٤) بالقول فاعفُ تكرماً وإن كتموا عنك الحديث فلا تسلم

(١) في الديوان :

حتى أقوم بشكر ما سلفا

وهذا البيت من قصيدة مطلعها :

حلت سعاد وأهلها سرفا قوماً عدى ومحلة قذفا

أنظر ص ٤٣٢ من « ديوان أبي نواس » مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية القاهرة سنة ١٩٥٣ .

(٢) راجع شروح التلخيص ج ٣ ص ١٨٥ طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٣٤ هـ .

(٣) النفل والنافلة : ما يفعله الإنسان مما لا يجب عليه (لسان العرب) .

(٤) دَحَسَ بينهم : أفسد ، ودَحَسَ بالشر : دسه من حيث لا يعلم .

فَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وَإِنَّ الَّذِي قَالُوا وَرَاءَكَ لَمْ يُقَلِّ
فورد في القرآن الكريم هذا المعنى المذكور في كلمات مختصرات ، وهي قوله تعالى : « ولا^(١)
تستوي الحسنه ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌ حميم » .
ألا ترى إلى هذه الآية (فهي) حاوية للمعنى المشار اليه في الأبيات مع الإيجاز ، فهو أن الشاعر
ذكر هذه المعاني في ثلاثة أبيات فيها ثلاث وثلاثون كلمة ، والقرآن العزيز أتى بالمعنى في آية
واحدة فيها ثلاث عشرة كلمة . وأما حسن التركيب فلا خفاء به . ومن جملته المقابلة بين الأضداد
نحو ذكر السيء والحسن ، والعدو والصديق .

ومن هذا الباب قول النابغة : -

إِذَا مَا غَزَا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُ عَصَابُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَابِ^(٢)
جَوَانِحٍ قَدْ أَيقَنَ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا اتَّقَى الْجَعْمَانِ أَوَّلُ غَالِبِ
أَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى الْآفُوهُ^(٣) فَقَالَ : -

وَتَرَى الطَّيْرَ عَلَى آثَارِنَا رَأَى عَيْنَ ثَقَةٍ أَنْ سَتَمَارَ

فذكر المعاني المشار إليها في بيت واحد ، فحاز فضيلة الإيجاز ، التي هي أعلى درجات الكلام
وصار أحق بذلك المعنى من النابغة ، وإن سبقه إليه وتقدمه فيه .

(١) السورة : فصلت ، الآية : ٣٤ .

(٢) هذان البيتان من قصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث الأصغر مطلعها :
كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب
أنظر ص ١٣ من ديوان النابغة طبعة مكتبة صادر بيروت .

(٣) الآفوه الأودي : صلاة بن عمرو من بني أود من صعب المذحجي ، والآفوه لقبه ، من كبار
الشعراء الجاهليين ، وكان سيد قومه وقائدهم في حروبهم ... وبعده العرب من حكمائهم . « الشعراء والشعراء »
ص ١١١ و « شعراء النصرانية » ص ٧٠ . وأنظر ديوان الآفوه الأودي في مجموعة الطرائف الأدبية
لعبد العزيز الميمني .

وهذا البيت من قصيدة مطلعها :

لَنْ تَرَى رَأْسِي فِيهِ قَرْعٌ وَشَوَاتِي خَلَّةٌ فِيهَا دَوَارٌ

أنظر ص ١٣ من كتاب « الطرائف الأدبية » جمع عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر بالقاهرة سنة ١٩٣٧ .

ومما جرى هذا المجرى قول أبي العتاهية : -

كم نعمة لا تستقل بشكرها لله في طي الكاره كامنه
أخذه أبو تمام فقال :

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعمة^(١)
فذكر المعنى الذي ذكره أبو العتاهية ، وعكسه . وهذا من غرائب ما يوجد في باب الأخذ ،
فاعرفه .

ومن هذا الباب قول أبي تمام أيضاً : -

فإن لم يجد في قسمة العمر حيلة وجاز له الاعطاء من حسنة^(٢)
لجاد بها من غير شرك بربه وأشركهم في صومه وصلاته
أخذه المتنبى فقال :

فلو يمتهم في الحشر تجددوا لأعطوك الذي صَلَّوا وصاموا^(٣)
فاتى بالمعنى الذي ذكره أبو تمام ، وزاد عليه بقوله « في الحشر » لأن الانسان يكون في
ذلك اليوم أشد احتياجاً الى صلاته وصيامه ، وأعظم افتقاراً . وأمثال هذا كثيرة فاعرفها .
وفد يتساوى المؤلفان في اراد المعنى باللفظ ، كقول بشار :

(١) هذا البيت من قصيدة قالها في مرض الياس بن أسد ، مطلعها :
الياس كن في ضمان الله والذمم ذا مهجة عن ملحات الردى حرم
الديوان ص ٢٣٩ طبعة محمد علي صبيح بمصر سنة ١٣٦١ هـ ، سنة ١٩٤٢ م .
(٢) هذان البيتان من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق ، مطلعها :
أقول لمرئاة الندى عند مالك تعوذ بجدوى مالك وصلاته
ورواية الديوان :

ولو لم يجد في قسمة العمر حيلة
لجاد بها من غير كفر لربه وواساهم من صومه وصلاته
ص ٥٠ من الديوان نفسه ، والطبعة نفسها .

(٣) هذا البيت من قصيدة يمدح بها المغيث العجلي ، مطلعها :
فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تهب اللثام
وفي الديوان : « ولو يمتهم » ج ٤ ص ٧٧ من شرح العكبري ، طبعة الحلبي سنة ١٩٣٦ بالقاهرة .

يسقط الطير حيث يلتقط الحب
أخذه غيره فقال ، ولم يزد عليه شيئاً :
يزدحم الناس على بابـه
وعلى نحو من ذلك قول الآخر :
وإنَّ يقوم سودوكَّ لحاجةً
إلى سيد لو يظفرون بسيد

الضرب الثاني من القسم الثاني

وهو « المسخ » وذلك عيب في الكلام فاحش ، فما جاء منه قول الشريف الرضي :
أحن إلى ما تضمّن الحمُرُ والحلى وأصـدِف عما في ضمان المآزر^(٢)
وقال المتنبي :

اني على شغفي بما في مُخمرها لأعفُ عما في سرراويلاتها^(٣)
ألا ترى إلى هذا المسخ ما أقبحه ، وذلك لو تأخر زمان المتنبي عن زمان الشريف الرضي .
وبمثل ذلك يعرف التفاضل بين الشعاعين ، وبين الكلامين ؛ فقول الشريف على ما تراه من
اللطافة والحسن ، وقول أبي الطيب على ما تراه من الرداءة والقبح ، قال تعالى : « وفوق كلِّ
ذي علم عليم^(٤) » واعلم أنَّ ما كان من هذا الباب على سبيل « المسخ » فإنه كان على نحو من
قول أبي الطيب ، وفيما اشرنا اليه كفاية للتأمل .

(١) هذا البيت من قصيدة يمدح بها عقبة بن سلم ، مطلعها :
حيا صاحبي أم العلاء واحذرا طرف عينها الحوراء
ورواية البيت في الديوان :

يسقط الطير حيث ينتثر الحب وتنفش منازل الكرماء
الديوان ج ١ ص ١١١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٠ بالقاهرة .
(٢) البيت من قصيدة مطلعها :

بغير شفيق نال غفو المقادر اخو الجدد لا مستنصر بالمعاذر
ورواية الديوان : يحن الى ما ... البيت « ص ٣٤٣ طبعة بيروت سنة ١٣٠٧ .

(٣) ديوان المتنبي ، شرح علي بن عدلان الموصلي المنسوب غلطاً إلى العكبري ج ١ ص ٢٢٦ طبعة الحلبي
سنة ١٩٣٦ بالقاهرة .

(٤) السورة « يوسف » والآية « ٧٦ » ،

وهذا النوع خاتمة الأنواع من باب الصناعة المعنوية ، وذلك مبلغ ما عرفناه من علم البيان ، فيما يختص بالمعاني . إلا أنني رأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجي قد ذكر في كتابه نوعاً آخر فقال : « لا يستعمل في الشعر ^(١) المنظوم والكلام المنشور ^(٢) ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم ، والألفاظ التي تختص بها بعض المهن والعلوم ، لأن الانسان اذا خاض في علم وتكلم في صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ ذلك العلم . و (كلام) ^(٣) أصحاب تلك الصناعة » ، ثم مثل ذلك بقول أبي تمام :

مودّةٌ ذهبٌ أثمارها شَبَهٌ وهمةٌ جوهرٌ معروفيها عَرَضٌ ^(٤)
وبقوله أيضاً :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلعّب الأفعال بالأسماء ^(٥)
هذا ما ذكره الخفاجي في كتابه . ولنا عليه اعتراض وهو أنا نقول له : ما الموجب لجملك هذا القسم مما يرفض ولا يستعمل ؟ وما السبب في اجتنابه ؟ فان قال : إني إنما أنكرت استعماله وآثرت تركه واجتنابه ، لأنه غير مفهوم . قلنا له في الجواب :

لا يخلو الأمر في هذا من حالين : إما انه غير مفهوم للعامة أو للخاصة . فان كان غير مفهوم للعامة فقط ، فليس جهل العامة بهذا النوع من الكلام داعياً الى اجتنابه . ولو كان فهم العامة معتبراً في اختيار الكلام لكان ما تبتذله من ألفاظها مقدماً على غيره في الاختيار (لأنهم)

(١) انظر كتاب « سر الفصاحة » ص ١٥٩ الطبعة الأولى بالمطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٢ .

(٢) في سر الفصاحة « من الرسائل والخطب » .

(٣) زيادة من « سر الفصاحة » يقتضيها السياق .

(٤) هذا البيت من قصيدة مطلعها :

ذل السوآل شجى في الحلق معترض من دونه شرق من تحته جرض

ص ٣٤٤ طبعة محمد علي صبيح بالأزهر سنة ١٩٤٢ بالقاهرة ، و ص ٤٠٠ من الديوان طبعة محي الدين الحياط ببيروت .

(٥) من قصيدة له في مدح خالد بن يزيد الشيباني ، مطلعها :

يا موضع الشدنية الوجناء ومصارع الإدلاج والإسراء

الديوان ص ٣ طبعة محي الدين الحياط ، ببيروت .

الى فهمه أقرب من فهم غيره ؛ وذلك شيء مدفوع لا يذهب إليه أحد البتة . وإن قال : إن هذا النوع غير مفهوم للخاصة ، قلنا له : فأنت أيها الشيخ الامام قد فهمته وعرفته ، ولولا فهمك له ومعرفتك به (لما أنكرته) وإلا فكيف^(١) كنت تنكره وتبعث على اجتنابه ؟ ! وهذا يدل على أنك لست من العامة ولا من الخاصة ؛ لأنك قد فهمت ما لا يفهمه الفريقان ، وذلك من أعجب الأشياء .

فان قال : إني ما انكرت هذا النوع الا لأن صناعة التأليف من المنظوم والمنثور لا تستعمل فيها ما ليس من جنسها ، قلت له في الجواب : يَبْطُلُ عَمَلُكَ ذلك باستعمال الفقه من الاحكام السلطانية في المكاتبات ، واستعمال الحساب مما يحتاج إليه في الكتابة الى المال وأرباب الخراج ، واستعمال النجوم في كبس سني الخراج بعضها على بعض ، فيكون لما انكرته أيها الشيخ الامام من استعمال تلك العلوم أسوة بالفقه والحساب والنجوم . ثم ماذا تنكر من شيء يدل على فضل صاحبه ووزارة علمه ؟ أليس من الواجب في صناعة التأليف أن الناظم والناثر ينبغي له أن يستعمل في كل معنى يقصده ، ما يليق به وينخرط في سلكه ؛ فان كان ذلك المعنى يحتاج الى النحو استعمل فيه النحو ، وإن كان شيئاً يحتاج الى الحساب استعمل فيه الحساب ، وكذلك باقي العلوم . فاذا أخذ المؤلف معنى يحتاج فيه إلى ذكر أحد هذه العلوم المذكورة ولم يذكره ، كان ذلك المعنى ناقصاً عما يحتاج اليه ، وهذا ليس بخافٍ على اللبيب النصف ، فاعرفه .

(١) في الأصل « وإلا كيف » وربط الجواب بالفاء واجب هاهنا .

الباب الثاني

من الفن الثاني من القطب الثاني

في الصناعة اللفظية

وينقسم إلى سبعة أنواع :

النوع الأول في : السجع والازدواج

وهو تواطؤ الفواصل من الكلام المنثور على حرف واحد

إعلم ان السجع قد ذمه بعض أصحابنا من أبواب هذه الصناعة ^(١) ، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم عن الاتيان به وقصورهم عن سلوك مذهبه ، وإلا فلو كان مذموماً ، كما ذكر ، لما ورد في القرآن الكريم ؛ فانه قد أتى منه شيء كثير ، كقوله تعالى : « إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً ، خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً ^(٢) » وكقوله تعالى في سورة « ق » : « بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم في أمر مريج ^(٣) » أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها كل زوج بهيج . وكقوله تعالى : « والعاديات ضبحاً ، فالمريات قدحاً ^(٤) » الى قوله : « ... جمعاً » . وأمثال هذا كثيرة فاعرفه .

وورد على هذا الاسلوب من كلام النبي — صلى الله عليه وسلم — شيء كثير أيضاً ؛ فن

(١) جاء في « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجي « ... فأما قول الرمانى إن السجع عيب والفواصل بلاغة على الإطلاق فغلط ... » ص ١٦٦ المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٥٠ هـ ، ١٩٣٢ م .
(٢) السورة « الأحزاب » والآية « ٦٤ » . (٣) الآية « ٥ » وما بعدها .
(٤) السورة « العاديات » والآية « ١ » وما بعدها .

ذلك ما رواه عبد الله بن سلام قال : لما ورد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة أنجفل الناس قبله ، وقيل : قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجئت في الناس لأنظر اليه ، فلما تبينت وجهه عرفت انه ليس بوجه كذاب ، وكان أول شيء تكلم به أن قال : « أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » فان قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعضهم منكرأ عليه ، وقد كلفه بكلام مسجوع ^(١) : « أسجماً كسجع الكهّان » ولولا أن السجع مكروه لما أنكره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الجواب عن ذلك أنا نقول : لو كره النبي — صلى الله عليه وسلم — السجع أصلاً لقال أسجماً؟! ثم سكت ، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لم كان ، فلما قال « أسجماً كسجع الكهّان ؟ » صار المعنى معلقاً على أمر آخر ؛ وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه ، فلم أنه إنما ذمّ من السجع ما كان مثل سجع الكهّان ، لا غير ، وأنه لم يذمّ السجع على الإطلاق . ومحال أن يذمه على الإطلاق ؛ لأنّ القرآن الكريم ، قد أتى به . وهو — صلى الله عليه وسلم — قد نطق به في كثير من كلامه ، حتى أنه غيّر الكلمة عن وجهها ، اتباعاً لها باخواتها لأجل السجع ؛ فقال لابن ^(٢) ابنته — عليها السلام — : « أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة ^(٣) » وإنما أراد مُلَمّه ، لأن الأصل فيها من « ألم فهو ملم » ، وكذلك قوله — صلى الله عليه وسلم — : « ليرجمن مأزورات ^(٤) غير مأجورات » طلباً للتوازن والسجع ، وهذا من أدلّ دليل على فضيلة السجع .

واعلم أن الأصل في هذا هو الاعتدال في مقاطع الكلام ، والطبع يميل الى الاعتدال في

(١) جاء في لسان العرب في مادة « سجع » روى عنه — صلى الله عليه وسلم — انه كره السجع في الكلام والدعاء لما شكلته كلام الكهنة وسجعهم ...

(٢) في « سر القصاحة » للخفاجي ... « وحدثني زيد بن علي بهذا الاسناد عن أبي عبيد القاسم بن سلام عن يزيد بن أبي سفيان عن منصور عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام فيقول : « اعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » س ١٦٩ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٢ .

(٣) في سر القصاحة : « ترجعن مأزورات غير مأجورات » س : ١٦٩ .

جميع الأشياء . وحيث انتهى بنا القول الى هذا الموضع ، فلنتبعه بذكر أقسام السجع ، وما يحمد منه في الاستعمال ، وما يذم ، فنقول :

إعلم أولاً : أن السجع لا يحمد على كل حال ، ولا في كل موضع ، حتى يتوخاه المؤلف في كلامه ، بحيث يذهب بفضيلة المعاني لأجله ، وذلك ، أنه اذا صور في نفسه معنى من المعاني ، ثم أراد أن يصوغه بلفظ مسجوع ، ولم يأت ذلك إلا بزيادة على ذلك المعنى ، أو نقصان منه ، ولا يكون محتاجاً إلى الزيادة ولا الى النقصان ، وإنما يضطر الى ذلك اضطراراً ، لأن المعنى الذي يكون قد قصده يحتاج الى لفظ يدل عليه ، واذا دلّ عليه بذلك اللفظ لا يكون مسجوعاً ، إلا أن يضيف اليه شيئاً آخر ، وينقص لأجل الفقرة المطلوبة ، فاذا فعل ذلك ، فلا بد وأن يزداد الكلام الذي قصده ، زيادة لا حاجة اليها ، او ينقص نقصاً لا حاجة اليه ؛ وهذا الذي يذم من السجع ويُستقبح ، لما فيه من التكلف والتعسف .

وأما اذا كان محمولاً على الطبع غير متكلف ، فانه يجيء في غاية الحسن ، وهو أعلى درجات الكلام .

واعلم أن السجع ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون الفصلان متساويين ، لا يزيد أحدهما على الآخر ، كقوله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ^(١) » وقوله تعالى : « والمعاديات ضبحاً ، فالغوريات قدحاً ، فالغفريات صبحاً ، فأثرن به نقماً ، فوسطن به جمعاً ^(٢) » . ألا ترى كيف جاءت هذه الفصول متساوية الأجزاء حتى كأنها خرطت في قالب واحد ؟ وأمثال ذلك في القرآن الكريم (كثيرة) ، وهو أشرف السجع منزلةً ، وأعلاه درجةً للاعتدال الذي فيه .

القسم الثاني : أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول ، لا طويلاً يخرج به عن الاعتدال خروجاً كثيراً ، فانه يقبح عند ذلك ويستكره ، ، فمن جيد هذا القسم قوله تعالى ^(٣) : « بل

(١) السورة « الضحى » ، الآية « ٩ » . (٢) السورة « المعاديات » ، الآية « ١ » وما بعدها .

(٣) السورة « ق » الآية : « ٥ » .

كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمرٍ مريج ، أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج .
 ألا ترى أن الفصل الأول تسع كلمات ، والفصل الثاني إثنتا عشرة لفظة ، والفصل الثالث إحدى عشرة لفظة ؟ ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة مريم : « وقالوا اتخذ^(١) الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً جديداً تكادُ السمواتُ يفتطرن منه وتنشقُ الأرضُ وتخرُّ الجبالُ هداً ، أن دعوا للرحمن ولداً ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذَ ولداً » ... الى قوله : « ... وتُنذِرُ به قوماً لداً » وأمثالُ هذا في القرآن كثيرة ، فاعرفها :

القسم الثالث : أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول وهو عيب عند أرباب هذه الصناعة فاحش . وسبب ذلك أن السمع يكون قد استوفى مدة من الفصل الأول بحكم طوله ، ثم يجيء الفصل الثاني قصيراً عن الأول ، فيكون كالشيء المبتور ، فيبقى الانسان عند سماعه كمن يريد المضي إلى غايةٍ فيعثر دونها . وإن شك أحدٌ فيما أشرنا إليه من هذا المثال ، فليصنع فصلين من الكلام وليكن الأول منها أطول من الثاني ، ثم يعرضهما على نفسه ؛ فانه يجد صحة ما ذكرناه .

واعلم أن التصريح^(٢) في الشعر بمنزلة السجع في الفصلين من الكلام المنثور ، وفائدته في الشعر أنه يفهم منه قبل كمال^(٣) البيت الأول من القصيدة قافيتها ، وشبه البيت المصراع يباب له مصراعان متشاكلان ، وقد فعل ذلك القدماء والمحدثون وفيه دلالة على سعة القدرة ، وفسحة المجال في أفانين الكلام .

فأما إذا كثُرَ التصريح في القصيدة فلست أراه مختاراً ، لأن هذه الاصناف من التصريح ،

(١) سورة « مريم » الآية ٨٩ وما بعدها ، وتكلمة الآية : « ... إن كل من في السموات والأرض ، إلا أنا الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدتهم عداً ، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سيجعل لهم الرحمن وداً ، فإنما يسرناه بلسانك لننبشرك به المؤمنين وتندبر بهم قوماً لداً ... » .

(٢) في اللسان : « التصريح في الشعر : تقفية المصراع الأول ، مأخوذ من مصراع الباب .

(٣) في الأصل « كما أن » والتصحيح من المثل السائر « ج ١ ص ٢٤٢ » .

والترصيع ، والتجنييس ، وغيرها ، إنما يحسن منها في الكلام ما قلَّ وجرى مجرى اللمعة وكان كالطراز في الثوب ، فأما إذا تواتر وكثر فإنه لا يكون مرضياً لما فيه من أمارات الكلفة . وقد استعمل التصريع كثيراً امرؤ القيس ، فما جاء منه في شعره قوله :

قفأ نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فغومل
ثم قال :

أفأطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قدأزمت هجري ^(١) فأجلي
ثم قال :

ألا يا أيها الليل الطويل ألا أنجلي بصبح وما إلا صباح منك بأمثل
وقال حاتم بن عبيد الله الطائي :

أتعرف أطلالاً ونوياً مهدماً كخطك في رقي كتاباً منمماً ^(٢)
ألا لا تلوماني على ما تقدمما كفى بصروف الدهر للمرء محكماً

وهذا وأمثاله هو التصريع الحسن المشار اليه في هذا الباب ، لأنه بكلمتين غيرين ، وأما التصريع بكلمة واحدة فغير لائق وإن كان جائزاً كقول بعضهم ^(٣) :

فكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب
وأمثال هذا كثيرة فاعرفه .

(١) في المعلقة السبع شرح الزوزني : « وإن كنت قد ازمت صرماً فأجلي » ص ١٣ مطبعة حجازي بالقاهرة سنة ١٩٥٢ .
وفي المثل السائر « وإن كنت قد أزمت هجراً فأجلي » .
(٢) وبعد هذا البيت قوله :

أذاعت به الأرواح بعد أنيسها شهوراً وأياماً وحولاً مجرماً
والنوئى : الحفير حول الحباء ، أو الحيمة يمنح السيل (القاموس) .
والنم : من قولهم : نغم الشيء أي رفته وزخرفته ، وثوب منم أي موشى (مختار الصحاح) .

وبين البتين الذي أوردهما ابن الأثير عشرة أبيات .
(٣) القائل هو عبيد بن الأبرص ، الشاعر الجاهلي المعروف ، وأحد أصحاب المعلقة ، والبيت من معلقة التي أولها :

أقفر من أهله ملحوب فالقطيبات فالذنوب
انظر شرح المعلقة العشر ، للتبريزي ص ٣٢٥ طبعة محمد علي صبيح بالقاهرة سنة ١٣٦٧ .

النوع الثاني من الباب الثاني

في التجنيس

إعلم أن التجنيس غرة شاذخة في وجه الكلام ، وقد تصرف العلماء من أرباب هذه الصناعة فيه ففرّبوا وشرّقوا ، ولا سيما المحدثين ، منهم من صنف للناس فيه كتباً كثيرة وجملوه أبواباً متعددة ، واختلفوا في ذلك (وأدخلوا بمض تلك الأبواب في بمض ففهم^(١)) عبد الله بن المعتز وأبو علي الحاتمي^(٢) وأبو القاسم الآمدي^(٣) والقاضي أبو الحسن^(٤) الجرجاني ، وقدامة بن جعفر^(٥) الكاتب وغيرهم ، وافاضوا فيه وأطالوا القول في شرحه .

وإنما سمي هذا النوع من الكلام مجانساً ، لأن الكلام يكون تركيبه من جنس واحد .

واعلم ان التجانس ينقسم إلى سبعة أقسام :

الأول — وهو أشرفها وأعلاها قدرًا ، وذلك إذا تساوت ألفاظ الكلام في تركيبها ووزنها ويسمى « التجنيس المطلق » ، كقوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة^(٦) » وليس في القرآن الكريم من هذا القسم من التجنيس سوى هذه الآية ، فاعرفها . ومن ذلك أيضاً قول بعضهم :

(١) الزيادة من المثل السائر ، ج ١ ص ٢٤٦ طبعة الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٣٩ .

(٢) الحاتمي : هو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي جاء في بغية الوعاة عنه : « ... كان من حذاق أهل اللغة والأدب ، له من التصانيف : « حلية المحاضرة في صناعة الشعر » و « الموضحة في مساويء المتنبي » و « سر الصناعة في الشعر » و « الحالي والعاقل » وغير ذلك من الكتب . انظر : « بغية الوعاة » للسيوطي ، ص ٣٥ طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٦ وانظر : « وفيات الأعيان » و « وارشاد الأريب » .

(٣) انظر ص ٢ من هذا الكتاب .

(٤) أبو الحسن الجرجاني : هو علي بن عبد العزيز الجرجاني ، المشهور بالقاضي ولد بمرجان سنة ٢٩٠ هـ ونشأ بها ، واشتهر بالفقه وقد ترجم له الشيرازي في طبقات الفقهاء ، وله آثار في التفسير والتأريخ ، وهو شاعر كاتب ، وأشهر كتبه « الوساطة بين المتنبي وخصومه » .

(٥) انظر حاشية « ص ٢ » من هذا الكتاب .

(٦) السورة : الروم ، الآية : ٥٥ .

ومرى سوابق دمعها فتوا كفت ساق يجاذب فوق ساق ساقاً^(١)
وكذلك أيضاً قول أبي إسحاق بن عثمان المغربي^(٢) :

لم يبق غيرك إنسان يلاذُ به فلا بَرَحْتَ لعين الدهر إنسانا
فهذا هو التجانس البديع الذي هو أعلى المراتب وأسمى المنازل .
وقال الآخر :

وإذا البلابل أطربت بهديلها فانف البلابل باحتساء بلابل^(٣)
وقال الآخر :

هل لما فات من تلافٍ تلافٍ أو لشاكٍ من الصبابة شاكٍ^(٤)
وقال الآخر :

لقاؤك يسدني من المرتجى^١ ويفتح باب الهوى المرتجى
وأشال هذا كثيرة كقول بعضهم :

قلت للقلب ما دهاك أجني قال لي بائع الفراني فراني^(٥)
ناظراه فيما جنى ناظراه أودعاني أمْتُ بما أودعاني

(١) ورد هذا البيت في المثل السائر « ج ١ ص ٢٥١ » على هذه الصورة .

وترى سوابق دمعها فتوا كفت ساق تجاوب فوق ساق ساقاً

واضاف المؤلف بعده : فالساق : ساق الشجرة . والساق : القمري من الطيور . وساق حر : هو ذكر القماري خاصة . كما في مختار الصحاح .

(٢) في المثل السائر المطبوع « ج ١ ص ٢٥١ » « وهو الشاعر المعروف بالمعري » ونرى الاسم مصحفاً وأن الأصل هو « الغزي » وهو أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن عثمان وقيل إنه إبراهيم بن عثمان « راجع الوفيات ج ١ ص ١٧ » ، وما بعدها من طبعة مكتبة النهضة بمصر .

(٣) انظر « ص ٢٠٨ » من هذا الكتاب .

(٤) « تلاف » الأول مصدر مولد « لتلف يتلف » بمعنى التلف و « تلافٍ » الثانية بمعنى التدارك و « شاكٍ » الأول من « الشكوى » و « شاكٍ » الثاني من شاكى السلاح أي مستائم .

(٥) نسب البتتين صاحب يتيمة الدهر الى شمسويه البصري وقال : « قالها في غلام يبيع الفراني » « ج ٣ ص ٤١٥ » طبعة حجازي بالقاهرة ، وفي حاشية اسرار البلاغة « ص ١٢ » : « نسبة في زهر الآداب الى أبي الفتح البستي » طبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٦٧ . والفراني : جمع فرنية أو فرنيه ، وهو نوع من الحلوى تخبز في الأفران . (حاشية اليتيمة) .

وعلى هذا الإسلوب جاء قول بعضهم :

إلى حتفي مشى قـدي أرى قـدي أراقـ دي
ورأيت الغانمي^(١) — رحمه الله — قد ذكر في كتابه باباً وسماه « ردّ الأعجاز على الصدور »
خارجاً عن باب التجنيس ، وهو ضرب منه وقسم من جملة أقسامه كالذي نحن بصدد ذكره
ها هنا . فما أورده الغانمي من الأمثلة في ذلك قول بعضهم :

ونشري بجميل الصند مع ذكراً طيب النشر

ونفري بسيوف الهند يد من أسرف في النفر^(٢)

ونجري في شرا الحمد على شاكلة النجر^(٣)

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم في الشيب : —

يا بياضاً أذرى دموعي حتى عاد منها سوادُ عيني بياضاً

وكذلك قول البحري : —

وأغرّ في الزّمن البهيم مُحجّلٍ قد رحت منه على أغرّ مُحجّلٍ^(٤)

كالهيكَل^(٥) المبنيّ إلا أنه في الحسن جاء كصورة في هيكَل

وليس الأخذ على الغانمي^(٦) في ذلك مناقشته^(٧) على الأسماء وإنما المناقشة له على أنه

(١) انظر حاشية ص ٢ من هذا الكتاب .

(٢) كما في النسخة المطبوعة من المثل السائر وفي الأصل « تقري ... والنقر » .

(٣) في الأصل « نجر » بغير ألف ولام وهو غير واضح المعنى . والنجر : الأصل . وفي المثل السائر
النسخة المطبوعة « ج ١ ص ٢٥٢ » ،

ونجري في شري الحمد على شاكلة البحر

ولا نراه يستقيم .

(٤) البيتان من قصيدة يمدح بها محمد بن علي بن عيسى القمي ، مطلعها :

أهلاً بذككم الخيال المقبل فعل الذي نهواه أولم يفعل

انظر « ديوان البحري » ص ٧٣٠ من طبعة المطبعة الأدبية ببيروت ١٩١١ .

(٥) في الأصل « كالهكيل » وهو من سبق قلم النساخ ، والتصويب من الديوان .

(٦) في المثل السائر « ج ١ ص ٢٥٢ » طبعة محمد محي الدين عبد الحميد « ... وليس الأخذ على

الغانمي ... » ولا نراه يستقيم .

(٧) في الأصل « مناقشة » وهي غير مستقيمة .

يُنْتَصَب لآيِرَاد عِلْم الْبَيَان وَتَفْصِيل أَبْوَابِهِ ، وَيَكُون أَحَدُ الْآبَوَابِ الَّتِي ذَكَرَهَا (١) دَاخِلًا فِي الْآخِرِ ؛ فَيَذْهَب عَلَيْهِ ذَلِكَ وَيَخْفَى عَنْهُ ، وَهُوَ أَشْهَرُ مِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ .

القسم الثاني

من النوع الثاني في التجنيس

وهو أن تكون الألفاظ متساوية التراكيب ، مختلفة الوزن ، وذلك دون الأول في المنزلة كقول النبي — صلى الله عليه وسلم — « اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي » .
ألا ترى الى (أن) هاتين اللفظتين متساويتان في التراكيب مختلفتان في الوزن ، لأنه تركيب « الخلق » و « الخلق » من ثلاثة أحرف هي الخاء واللام والقاف إلا أنها قد اختلفا في الوزن إذ وزن الخلق ، « فَعْل » ووزن الخلق « فُعْل » ، ومن هذا القسم قول بعض الكتاب في صفة كتاب وصل اليه من صديق له : « فَلَزُهُرُ وَالزَّهْرُ مِنْ نُورٍ بِدَاعَتِهِ ، وَنَوْرُ بَرَاعَتِهِ إِشْرَاقٌ » .

وكذلك قول بعضهم : « لَا تُنَالُ غُرْرُ (٢) الْمَعَالِي إِلَّا بِرُكُوبِ الْغُرْرِ وَاهْتِبَالِ الْغُرْرِ (٣) »

وقال ابن العميد :

قَدْ ذُبْتُ غَيْرُ (٤) حَشَاشَةٍ وَذَمَاءُ (٥) مَا بَيْنَ حَرِّ هَوَى وَحَرِّ هَوَاءٍ

وأمثال هذا كثيرة ، فاعرفها .

(١) في المثل السائر : « التي ذكرناها » وهي غير مستقيمة . « ج ١ ص ٢٥٢ » طبعة محمد محي الدين عبد الحميد .

(٢) الغرر : جمع الغرة ، وهي من الشهر : ليلة استهلال القمر ومن الهلال طلعتة ، ومن القوم شريفهم ومن الرجل وجهه ومن كل شيء : أجله وأبهاء . والغرر : التعريض للهلاك . والغرر بكسر الفين جمع الغرة ، وهم الجماعة الذين لا خبرة لهم .

(٣) اهتبل الصيد : احتال عليه ، واهتبل لأهله : تكسب .

(٤) في الأصل ، وفي المثل السائر « ج ١ ص ٢٥٤ » : « قد ذبت بين حشاشة ... » وفي القيمة « ج ٣ ص ١٧٢ طبعة مكتبة الحسين التجارية قد ذبت غير حشاشة ... » .

(٥) في الأصل « الذماء » بضم الذال وهو من سبق قلم النساخ وفي القاموس « الذماء بفتح الذال : بقية النفس » .

القسم الثالث

من النوع الثاني من التجنيس

وهو أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير . فإن زاد على ذلك خرج من باب التجنيس وهذا القسم دون الذي مثله في المنزلة . فمن ذلك قوله تعالى : « وجوه يومئذٍ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » ^(١) .

ألا ترى أن وزن هاتين اللفظتين واحد ، وأما تركيبها فإنه مختلف ؛ لأن تركيب « ناضرة » من النون والضاد والراء ، وتركيب « ناظرة » من النون والطاء والراء : وكذلك قوله تعالى : « ذلك بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون » ^(٢) . وقال تعالى : « وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد » ^(٣) .

وعلى نحو من هذا ورد قول النبي صلى الله عليه وسلم وهو « الخليل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة » ^(٤) . وقال أبو تمام :

يعدّون من أيدٍ عواصٍ عواصم تصول بأسياف قواض قواضب ^(٥)
وقال البحتري :

من كل ساجي الطرف أغيد أجيدٍ ومهفّف الكشحين أحوى أحور ^(٦)
وقال بعضهم « لا تنال المكارم إلا بالمكاره » . وأشباه ذلك كثيرة لا تحصى .

(١) السورة : القيامة ، الآية : ٢٢ . (٢) السورة : « غافق » ، الآية : ٧٥ .

(٣) السورة : العاديات ، الآية : ٧ ، ٨ .

(٤) راجع هذا الحديث والوجه البلاغي فيه ، في كتاب « المجازات النبوية » للشريف الرضي « ص ٤٩ » طبعة مصر .

(٥) البيت من قصيدة يمدح بها أبا داف القاسم بن عيسى العجلي ، مطلعها :
على مثلها من أربعم وملعب أذليت مصونات الدموع السواكب
ديوان أبي تمام طبعة بيروت ص « ٤٢ » .
(٦) البيت من قصيدة مطلعها :

ان الظباء غداة سفّح بحجر هيّجن حر جوى وفرط تذكر
ديوان البحتري ج ١ ص ٣١ طبعة المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٩١١ .

القسم الرابع

من النوع الثاني من التجنيس

وهو أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن ، مختلفة في التركيب بحرف واحد كقوله تعالى : « والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق ^(١) » وقال — عز اسمه — « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ^(٢) » . ومن هذا القسم قول البحري :

نسيم الروض في ربح شمال وصب المزن في راح شمول ^(٣)
وذم أعرابي رجلاً فقال : « كان إذا سأل ألحف ، وإذا سئل سوّف ، يحسد على الفضل ،
ويزهد في الافضال » .

وقال بعض الشعراء : —

تقاصرت همم الأملاك عن ملك أضحى الثناء عليه وهو مقصور
فوفره بين أيدي العرف منتهب وعرضه عن لسان الذم موفور
وأمثال هذا كثيرة في التأليف .

القسم الخامس

من النوع الثاني من التجنيس وهو المعكوس

وهو ضربان : أحدها عكس الألفاظ ، والآخر عكس الحروف . فالأول كقول بعضهم :

« عادات السادات سادات العادات » . وكقول الآخر : « شيم الأحرار أحرار الشيم » وقيل
للحسن بن سهل : « لا خير في السرف » ، فقال : « لا سرف في الخير ^(٤) » فرد اللفظ
واستوفى المعنى ، وفي هذا القسم قول عتاب بن ورقاء ^(٥) :

(١) السورة : القيامة ، الآية ، ٢٩ ، ٣٠ . (٢) السورة : الكهف ، الآية : ١٠٤ .

(٣) من قصيدة له يمدح بها الفتح بن خافان ، مطلعها :

أ كنت معنفي يوم الرحيل وقد لجت دموعي في الممول

(٤) في الأصل « لا خير في السرف » وهو من سبق قلم الناسخ .

(٥) عتاب بن ورقاء الرياحي : من أبطال العرب ، وأحد القادة الأمراء ولاء مصعب بن الزبير لمارة

أصبهان ، وندبه لقتال الحارثيين عليه في الري — فغلبهم ومهد الأمر . وندبه الحجاج لقتال شبيب بن
يزيد ، فقتل في وقعة له معه سنة ٧٧ هـ .

إنَّ الليالي للأنام مناهل تُطوى وتُنشَرُ دونها الأعمار
فقصارهنَّ مع الهموم طويلة وطوالهن مع السُرور قصار
وقال الآخر :

كم من حمار على جوادٍ ومن جوادٍ على حمار
وهذا ضرب من التجانس له حلاوة ورونق ، فاعرفه ، وقد سماه قدامة^(١) بن جعفر
السكرتير « التبديل » . وذلك اسم مناسب لسماء لأن المؤلف يأتي بما كان مقدماً في جزء كلامه
الأول مؤخراً في الثاني ، وبما كان مؤخراً في الأول مقدماً في الثاني ومثله قدامة بقول بعضهم :
« أشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك » ومن هذا القسم قوله تعالى : « يخرج الحيَّ
من الميت ويخرج الميت من الحيَّ »^(٢) وقوله — تعالى — « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا
ممسك لها ، وما يسك فلا مرسل له من بعده »^(٣) . وقال بعضهم :

تلك الثنايا من عقدها نُظمت أم نظم العيقدُ من ثناياها
وأشبه ذلك كثيرة فاعرفها .

وأما الضرب الثاني من القسم وهو « عكس »^(٤) الحروف فكقول بعضهم :
أهديت شيئاً يقل لولا أحدوثة الفأل والتبركُ
كرسي تفاءلت فيه لما رأيت مقلوبه « يسرك »
وكذلك قول الآخر :

كيف السُرور باقبالٍ وآخرُهُ — اذا تأملتُه — مقلوب إقبال^(٥)
وهذا الضرب نادر الاستعمال ؛ لأنه قلما تقع كلمة تقلب حروفها فيجيء معناها صواباً ،
فاعرف ذلك .

(١) أنظر حاشية س ٢ من هذا الكتاب . (٢) السورة : الروم ، الآية : ١٩ .

(٣) السورة : فاطر . الآية : ٢ وما بعدها .

(٤) في الأصل « كعس » . وهو من خطأ النسخ .

(٥) مقلوب إقبال « لابقاء » .

القسم السادس

من النوع الثاني في التجنيس وهو المجنب

وذلك أن يجمع المؤلف بين كلمتين : احداها كالتبعية للأخرى والجنبية ، كقول بعضهم :

أبا العباس لا تحسب لساني لشيء من حلى الأشعار عاري^(١)

فلي طبع كسلسال معين زلال من ذرى الأحجار جاري

وهذا القسم له رونق وطلاوة ، فاعرفه .

القسم السابع

من النوع الثاني من التجنيس

وهو ما تساوى وزنه وتركيبه ، غير أن حروفه تتقدم وتتأخر ، وذلك كقول أبي تمام :

بيض الصفايح لا سود الصخائف في متوهنن جلاء الشك والريب^(٢)

وأمثال هذا كثيرة ، فاعرفه .

النوع الثالث من الباب الثاني في الترصيع

وهو نوع من علم البيان وعر المسلك قلما يختل المؤلف بشرك فكره أو ابد ألفاظه ، وأصله من « ترصيع العقد » وذلك أن يكون في إحدى جانبي العقد من اللآلئ والجواهر مثل ما في الجانب الآخر ، ولذلك جعل هذا في الكلام ، وهو أن يكون كل لفظة من الفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من الفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية ، وهذا هو أعلى درجات الترصيع وأصعبها مرأماً . واعلم أن علماء هذه الصناعة قد جعلوا الترصيع منقسماً إلى قسمين : أحدهما ما ذكرناه ، والآخر أن يكون أحد الفاظ الفصل الأول مخالفاً لما يوازنه من الفاظ

(١) في المثل السائر ج ١ ص ٢٦٣ طبعة الحلبي سنة ١٩٣٩ بمصر .

أبا العباس لا تحسب بأني

(٢) من قصيدة له يمدح فيها الخليفة المعتصم ويذكر فيها فنج عمورية ، مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحدين الجد واللعب

انظر ص ٧ من الديوان طبعة محي الدين الحياط .

فالقسم الأول كقول الحريري في مقاماته : « فهو يَطْبَعُ الأسجاع بجواهر لفظه ، [ويقرع الأسماع بزواجر وعظه ، فانه جمل ألفاظ الفصل الأول ^(١)] » مساوية لالفاظ الفصل الثاني وزناً وقافية ، فجعل « يطبع » بازاء « يقرع » و « الاسجاع » بازاء « الأسماع » و « جواهر » بازاء « زواجر » و « لفظه » بازاء « وعظه » ، وهذا هو الكلام السهل الممتنع الذي تخاله قريباً وهو بعيد المنال ، عسير الحصول . وقد ورد هذا القسم كثيراً في الخطب التي أنشأها الشيخ الخطيب عبد الرحيم ^(٢) ابن نباتة ، فن ذلك قوله في أول خطبة : « الحمد لله ، عاقد أزيمة الأمور بعزائم (أمهه) ^(٣) ، وحاصد أئمة الغرور بقواصم مكره ، وموفق عبيده لغنائم ذكره ، ومحقق مواعيده بلوازم شكره » . ومن ذلك قوله في ذكر الزمان وتقلبه بأهله : « أولئك الذين آفلوا فنجتم ، ورحلوا فاقتم ، وأبادهم الموت ، كما علمتم ، وأنتم الطامعون في البقاء بعدهم ، فيما ^(٤) زعمتم ، كلا والله ما أشخصوا لتقرئوا ، ولا نُفِصُّوا لتسرُّوا ، ولا بُدَّ أن تمروا ^(٥) حيث مرّوا ، فلا تثقوا بخُدع الدنية ، ولا تفتروا » . ومن ذلك ما جاءنا في بعض خطبه : « أيها الناس ، أسيّموا القلوب في رياض الحكم ، وأديعوا النحيب على ابيضاض اللّسم ، واطلبوا ^(٦) الاعتبار بانتقاض النعم ، وأجبلوا الأفكار في انقراض الامم » . وأمثال هذا في كلامه كثير ، وأما ما ورد على نحو ذلك نظماً ، فقول ذي الرُّمّة :

كحلاء في بَرَج صفراء في دَعَج كأنها فضّة قد شابها ذهب ^(٧)

(١) الزيادة من المثل السائر ج ١ ص ٢٦٤ من طبعة الحلبي . وانظر « المقامة الصغانية » من مقامات الحريري ج ١ ص ١٥ من طبعة باريس سنة ١٨٤٧ .

(٢) انظر حاشية ص ١٩ من هذا الكتاب . (٣) زيادة من المثل السائر ج ١ ص ٢٦٥ .

(٤) في المثل السائر « كما زعمتم » ج ١ ص ٢٦٥ . (٥) كذا في المثل السائر وفي الأصل « نمر » .

(٦) في المثل السائر « وأطبلوا » وهو أكثر مناسبة .

(٧) هذا البيت من قصيدته المشهورة :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلّي مفرية سرب

ورواية الديوان :

كحلاء في دَعَج صفراء في نَعَج كأنها فضة قد مسها ذهب

وهذا القسم قليل الاستعمال في الشعر جداً ، فاعرفه إن شاء الله .

القسم الثاني

من النوع الثالث من الترصيع

وهو أن يكون أحد الفاظ الفصل الأول مخالفاً لما يوازيه من الفصل الثاني ، وذلك كقول
تأبط شراً^(١) :

حَمَل أَلْوِيَّة ، شَهَاد أُنْدِيَّة قَوَالَ مُحْكَمَةٌ جَوَابَ آفَاقٍ^(٢)
أَلَا تَرَى أَنَّ « أَلْوِيَّة » مِثْل « أُنْدِيَّة » فِي الْوِزْنِ وَالْقَافِيَةِ ، وَلَكِنْ حَمَل لَا يَمِثِل « شَهَاد »
قَافِيَةً وَإِنَّمَا يَمِثِلُهُ وَزْنًا ، وَكَذَلِكَ « قَوَالَ » مُوَازِن « لْجَوَاب » وَ« مُحْكَمَةٌ » لَا يَوازِن « آفَاق »
وَمِنْ هَذَا الْقِسْمِ أَيْضًا قَوْلُ الْخَنَسَاءِ :

حَامِي الْحَقِيقَةِ مَحْمُودِ الْخَلِيقَةِ مَهْ .. دِيَّ الطَّرِيقَةِ نَفَاقِ وَضَرَّارِ
وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْآخَرِ :

سُودُ ذَوَائِبِهَا بَيِضُ تَرَائِبِهَا مَحْضُ ضَرَائِبِهَا صَيِغَتْ مِنَ الْكَرَمِ
وَأُمَثَالُ هَذَا كَثِيرَةٌ فَاعْرِفْهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

النوع الرابع من الباب الثاني

فِي لَزُومٍ مَا لَا يَلْزَمُ

وهو نوع من أشق هذه الصناعات مذهبا ، وأوعرها طريقاً ، لأن المؤلف يلزم في تأليفه
ما لا يجب عليه ليدل به على قوته في الصنعة ، واتساع باعه فيها ، وانطلاق عنانه .

وقد جمع أبو العلاء (أحمد بن)^(٣) عبد الله بن سليمان في ذلك كتاباً ، وذكر فيه الجيد

(١) تأبط شراً : هو ثابت بن جابر بن سفيان ، أحد لصوص العرب المغيرين ، وأحد عدائهما المشهورين
انظر لسان العرب ج ٧ ص ١٧٦ عنه .

(٢) في الأصل « قول محملة » والتصحيح من الفضليات للضي ص ٢٩ طبعة دار المعارف بمصر سنة
١٩٤٢ . وقد فسر المحكمة بالكلمة الفاصلة .

(٣) الزيادة من المثل السائر ، ج ١ ص ٢٦٧ طبعة الحلبي سنة ١٩٣٩ بمصر .

الذي لا مطلع فوقه ، والرديء الذي لا مهوى تحته ، وسند كر من ذلك طرفاً .

واعلم أن حقيقة هذا النوع هي : أن تكون الحروف التي قبل رويّ الأبيات من الشعر حرفاً واحداً ، وهذا أيضاً موجود في فواصل الكلام المنثور . ومن أراد معرفة ذلك والاطلاع عليه ، فليطلبه من كتاب « الزوم » لأبي العلاء ، وغيره من الكتب المؤلفة في هذا الفن ، فإن كتابنا هذا ليس موضوعاً لشرح هذه الأسباب ، وإنما وضع لمن عرف الأصل فيها ، فنبين له نحن الجيد منها والرديء ونفرق بينهما ، ليعلم أين يضع يده في استعمال ذلك وأطراحه .

فما جاء في هذا الباب قولي في حصار قلعة : « فلما رأونا بساحتهم حاضرين ، ولهم في عقر دارهم حاضرين ، وهم من بأسنا حذرين ، تفادوا : الاساء صباح المنذرين » .

ألا ترى الى الفقرتين الآخرتين كيف قد لزم فيها « الذال والراء » نحو « حذر ومنذر » ، وأما الفقرتان الأولىان فليستتا من هذا القبيل ، لأنه يجب أن يكون بازاء « حاضر » كلمة أخرى في آخرها ضاد وراء ، إلا أن ذلك كأنه شبيه بما لا يلزم ، والسبب فيه ورود الباء والنون المختصة بالجمع بعد الراء ، ولو كان هذا معتبراً في لزوم ما لا يلزم ، لوجب أن يكون التأثير للباء والنون ، من غير نظر الى ما قبلها . وعلى هذا التقدير فلو قال القائل « فلما رأونا بساحتهم نازلين ، ولهم في عقر دارهم حاضرين » ، لكان ذلك من باب لزوم ما لا يلزم . وهذا مما لم يذهب اليه أحد . وإنما الأصل ما أشرنا اليه أولاً فاعرفه .

واعلم أنه متى صغرت الكلمة الأخيرة من الشعر والكلام المنثور ، وجب أن يصغر الباقي اتباعاً للوزن . فمن ذلك قول بعضهم :

عزّ على ليلي بذى سُدير ^(١)	سوءُ مَبِيتي ليلة الغُمير
مقبضاً ^(٢) نفسي في طُمير	تنهض الرعدة في ظهيري
يهفو الي الزورُ من صديري	ظمآن في ربح وفي مُطير

(١) في الأصل « بد سدير » والتصحيح من المثل السائر ج ١ ص ٢٧٦ وذو سدير قرية لبني العرب من جزيرة العرب والغمير عدة مواضع منها .

(٢) في الأصل « مقضاً » ولا معنى له هنا وفي المثل السائر « مقضباً » ورنى أن الصواب ما ذكرناه وهو من شواهد العيني .

وأزرقى ليس بالقدير^(١) من لدُ ما ظهر الى سحير^(٢)
 حتى بدت لي جبهة القُمير لأربع خلون من شهر
 ألا ترى الى هذا الشاعر ، كيف لزم التصغير في هذه الأبيات جميعها ؟ فان ذلك من
 محاسن الصنعة فاعرفه .

واعلم أننا لا نبعث المؤلف على استعمال هذا القسم من الكلام حتى يجيء به متكلفاً وحشياً
 فيكون قد قصد جودة الصنعة وإظهار القدرة عليها ، والقوة فيها ، فيلقيه ذلك فيما يستكره من
 الألفاظ ، وتعافه الأسماع . وما مثل المتكلف لهذا الضرب من الكلام حتى يأتي به في صورة
 قبيحة ، إلا مثل الصائغ الذي يأخذ مصوغاً ردياً فيجيد فيه عمله ، ويخرج فيه بديع صنعته
 فيكون عند ذلك قد راعى الفرع ، وأهمل الأصل ، فتذهب جودة الصنعة في رداءة المصوغ .
 وأما إذا أتى المؤلف بهذا الضرب من الكلام ، غير متكلف ولا وحشي كان له رونق
 وطلاوة ، وقد استعمل ذلك أبو العلاء المعري في كتابه فأتى منه بشيء ينبو عنه الطبع كقوله
 في قافية التاء مع الخاء :

رَبْتُ عَنِ الدُّنْيَا وَلَا بِنْتُ لِي فِيهَا وَلَا عَرَسٌ وَلَا أُخْتُ
 وَقَدْ تَحَمَلْتُ مِنَ الْوِزْرِ مَا تَعْجِزُ أَنْ تَحْمِلَهُ الْبُسْتُ
 إِنْ مَدَحُونِي سَاءَ نِي مَدَحِهِمْ وَخَلْتُ أَنِي فِي الثَّرَى سُبُخْتُ^(٣)

وقال في الخاء المضمومة مع الباء :

لَا يَفْقَدُنْ خَيْرَكُمْ مَجَانِسَكُمْ^(٤) وَلَا تَكُونُوا كَأَنْكُمْ سَبَخُ

-
- (١) في الأصل و « أرزقي » . و « القدير » لعله تصغير ترخيم لأغر أي « غرير » .
 (٢) وفي شواهد العيني « من لدن الظهر الى العصور . انظر حاشية للثل السائر » ج ١ ص ٢٧٧
 وفي حاشية الألفية ، شرح ابن عقيل : « هذا الشاهد من الأبيات المجهولة نسبتها ، وكل ما قيل فيه لأنه لراجز
 من طيء » « ج ٢ ص ٥٧ طبعة مطبعة السعادة سنة ١٣٦٧ بمصر .
 (٣) لزوم ما لا يلزم ج ١ ص ١٧٣ طبعة مطبعة الخروسة بمصر سنة ١٨٩١ .
 (٤) في الأصل « مجالسكم » والتصحيح من اللزومات ج ١ ص ٢٣٨ .

ولا كقوم حديث يومهم ما (أكلوا)^(١) أمسهم وما طبخوا
وأمثال هذا كثيرة في كتابه ، وله من ذلك البديع النادر الذي تنقاصر دونه الفصحاء
كقوله :

ليل بلا نور أجن^(٢) بمهمه
وهي الحياة ؛ ففعة أو فتنه
وقال :

يلقاك بالماء النير الفتى
يعطيك لفظاً ليناً مشهُ
وقال أيضاً^(٣) :

تنازع في الدنيا سواك وماله
ولكنها ملك لربٍ مقدّر
ولم تحظ في ذاك النزاع بطائل
أيا نفس لا تعظم عليك خطوبها
تداعوا إلى النزر القليل فجالدوا
وما أمُّ صل أو حليلة ضيغم
تلاقي الوفود القادمية بفرحة
ولم يتوازن في القياس نعيمها
وما هي إلا شاكّة ليس عندها

ولا لك شيء في الحقيقة فيها^(٤)
يعير جنوب الأرض مرثد فيها^(٥)
من الأمر إلا أن تعد سفها
فتفقوها مثل مختلفيها
عليه وخلوها لغتريها
بأظلم من دنياك فأعترفها
وتبكي على آثار منصرفها
وسبيئة أودت بمقترفها
وجدك أرطابٌ لمخترفيها

(١) الزيادة من اللزوميات ص ٢٣٨ ج ١ (٢) في الأصل : « اجر » .

(٣) في الأصل « تعتقد » والتصحيح من اللزوميات ج ١ ص ٣٠٠ .

(٤) في اللزوميات : « بالحقيقة » ج ٢ ص ٤١٠ .

(٥) في الأصل : « بغير جنوب الأرض » والتصحيح من اللزوميات ج ٢ ص ١١٠ .

كما نبذت للطير والوحش رازم^(١) فالقت شروراً^(٢) بين مختطفها
تذاعت عن الانصاف من ضيم لم يجد سبيلاً الى غايات منتصفها
فأطبق فاءً عنها وكفّاً ومقلة وقل لغويّ الناس فاك لفها
كأن التي في الكأس يطفو حبابها سمامُ حباب عند مرثفها^(٣)
وله من جملة قصيدة :

أرى الدنيا وما وصفت ببرّ إذا أغنت فقيراً أوهقته
إذا خشيت لشر عجلته وإن رُجيت لخير عوقته
حياة كالحبالة ذات مكر ونفس المرء صيدٌ أعلقته
وأنظر سهمها قد أرسلته إليّ بنكبة أو فوقته
فلا يُخدع بحيلتها أديب وإن هي سورته ومنطقته^(٤)
أذاقته شيئاً من جناها وصرت^(٥) فاه عما ذوقته

وأمثال هذه كثيرة في شعره ، فاعرفها فإنها من محاسن لزوم ما لا يلزم .

وعليك أيها المنتصب لاستعمال هذا النوع من الكلام أن تسلك هذا المذهب القويم
وتتهج هذا اللقم^(٦) الواضح ، غير متصيد له ولا مكسر منه حتى تخلّ بالمعنى المندرج تحته ،
وتذهب برونقه وطلاوته . وقد ورد من هذا الباب قول طرفة بن العبد :

ألم تر أنّ المال يكسب أهله نضوحاً إذا لم تُعطَ منه نواسبه
أرى كلّ مال لا محالة ذاهباً وأفضله ما ورث الحمد كاسبه

(١) في الديوان : كما نبذت للوحش والطير رازم .. الزوميات ج ٢ ص ٤١١ .

(٢) في الأصل « سروراً » والتصحيح من الزوميات .

(٣) في الزوميات : « بين مرثفها » .

(٤) رواية الزوميات : « فلا يُخدع بحيلتها أديب وإن هي سورته ونطقته »

(٥) في الأصل « وصدت » ونرى أنّ الصواب « وصرت » وفي القاموس « وصرت
والناقة وبها بصرها صراً . شد ضرعها » .

(٦) اللقم ، محرّكة ، وكسر : معظم الطريق أو وسطه (القاموس) .

ألا ترى ما أحسن هذا الأسلوب ، وألطف مأخذه ، وعلى متنه ينبغي أن يكون الاستعمال فاعرفه .

النوع الخامس من الباب الثاني

في الموازنة

وهي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنشور متساوية في الوزن ، وذلك نوع من التأليف شريف المحل ، لطيف الموقع ، وللكلام به طلاوة ورونق ، وسبب ذلك الاعتدال ، لأنه مطلوب في جميع الأشياء . وحيث كانت مقاطع الكلام معتدلة في الوزن لذ بهما السمع ، ووقعت من القلب موقع الاستحسان ، وهذا لا مرء فيه بحال من الأحوال لبيانه ووضوحه . فما جاء من ذلك قوله تعالى : « وآتيناهم الكتاب المستبين ، وهديناها الصراط المستقيم ^(١) » وكذلك قوله تعالى : « قال ^(٢) يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألا تتبعن ، أفعصيت أمري قال يئنوّم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ، إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي » . وعلى نحو منه ورد قوله تعالى : « من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ، خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً ^(٣) » .

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى : « يومئذ يتبعون الدّاعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ^(٤) » .

وعلى هذا المنهج جاء قوله تعالى : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرّفنا فيه من الوعيد لعلمهم يتقون أو يُخَدِّث لهم ذِكْراً فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وَحْيُهُ وقل ربّ زدني علماً ^(٥) » . ومن ذلك قوله عز وجل : « فقلنا يا آدم

(١) السورة : الصفات الآية ١١٨ . (٢) السورة : طه الآية ٩٢ وما بعدها .

(٣) السورة « طه » الآية : ١٠٠ . (٤) السورة « طه » الآية : ١٠٧ وما بعدها .

(٥) السورة « طه » الآية : ١١٢ وما بعدها .

إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى إن لك ألاّ تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضجى ^(١) . وأمثال هذا في القرآن كثيرة ، فاعرفه .

النوع السادس من الباب الثانی

في اختلاف صيغ الألفاظ

وهو من صناعة التأليف بمنزلة عليّة ومكانة شريفة

اعلم أنّ الألفاظ اذا نقلت من أسلوب الى أسلوب كنفقلها من الواحد الى الجمع أو الى التثنية ، أو الى التأنيث أو الى غير ذلك انتقل حسنّها وصار قبحاً ، أو قبحها وصار حسناً . دليل ذلك ؛ أن التاء التي تزداد في آخر الاسم للفرق في الصفة نحو : مقعد ومقعدة . ألا ترى إلى لفظة « مقعد » الدالة على مكان الجلوس تجمع على مقاعد ، ولفظة « مقعدة » الدالة على المحل المخصوص من الحيوان تجمع على « مقاعد » أيضاً ؛ فاذا وردت هذه اللفظة أعني « مقاعد » في الكلام ، والمراد جمع « مقعد » استقبحت لمثلثتها لجمع « مقعدة » وذلك مما يكره ذكره ؛ وإذا وردت منفردة برأسها لم تستقبح ولا تستكره ، قال الله تعالى : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر ^(٢) . » ولأجل ذلك لما جاءت لفظة « مقاعد » في القرآن الكريم أضيفت الى ما لا يحتمل معه الاستقباح ، فقال جلّ وعلا : « واذا غدت ^(٣) من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال » ولولا إضافة مقاعد إلى القتال لاستقبح إيرادها هاهنا . وهذا لا يخفى على من له أدنى معرفة بهذه الصناعة ، إلا أن هذا المثل الذي مثلناه لا يطرد فيما هذا سبيله ، وإنما يقع في بعض الألفاظ دون بعض ، وقد نهينا عليه في كتابنا ليعرف محله من التأليف .

ومن ذلك أيضاً ما أشرنا اليه في صدر الكتاب في باب الألفاظ المركبة ^(٤) وهو أنك ترى

(١) السورة « طه » الآية : ١١٦ وما بعدها .

(٢) السورة « القمر » ، الآية : ٥٥ . (٣) السورة « آل عمران » ، الآية : ١٢١ .

(٤) انظر ص ٦٤ وما بعدها من هذا الكتاب ، وانظر الحديث عن هذا في كتاب « دلائل الإعجاز »

للإمام عبد القاهر الجرجاني ، ص ٣٥ وما بعدها من طبعة مطبعة النار سنة ١٣٣١ هـ .

بعض الألفاظ تروك في كلام ما ، وتزداد بها إعجاباً واستحساناً ، ثم تراها في كلام آخر فتثقل عليك وتستكرهها ؛ مثال ذلك : أن لفظة « الأخدع » قد وردت في بيتين من الشعر ، وهي في أحدهما لائقة حسنة ، وفي الآخر ثقيلة مستكرهة ، كقول الصمّة بن عبد^(١) الله :

تلفت نحو الحيّ حتى كأنني^(٢) ورجعت من الاصغاء (ليتنا) وأخدعنا
وكقول أبي تمام :

يادهر قوم من أخدعك فقد أضجبت هذا الأنام من خرقك
ألا ترى أنه قد وجد لهذه اللفظة في بيت أبي تمام من الثقل على النفس والكراهة أضعاف ما وجد لها في بيت الصمّة بن عبد الله من الروح والخفة واليناس والبهجة !! وهذا ما لا يمكن النزاع فيه لظهوره ، وليس سبب ذلك إلا ما أشرنا إليه من اختلاف الصيغة ؛ ألا ترى أن لفظة « الأخدع » قد جاءت هاهنا موحدة ومثناة ، وهي حسنة في حالة الانفراد ، مستكرهة في حالة التثنية .

وقد يكون ذلك لأمر يرجع الى التركيب لا الى الألفاظ ، وذلك أن يكون التركيب مختل النظام ، مضطرب الترتيب فتجبيء الفاظه عند ذلك مستكرهة ، مستثقلة ، لكونها واردة في غير أماكنها ، وإن كانت من حيث انفرادها حسنة لائقة . وقد تقدم الكلام على ذلك في باب تركيب الألفاظ ، فاعرفه^(٣) .

(١) هو الصمّة بن عبد الله بن الضفيل... شاعر بدوي مقل ، من شعراء الدولة الأموية ، هوي امرأة من قومه ، فأبى أبوها أن يزوجه إياها... وله فيها شعر رقيق يفنى به . انظر أخباره في « الأغاني » الجزء الخامس ص : ١٢٤ وما بعدها من طبعة السامي .

(٢) البيت من قصيدة أوردها أبو تمام في حماسته في باب النسيب ص ١٢١٥ القسم الثالث طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٧١ هـ ، ومطلعها :

حننت الى ريا وتفسك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معاً
وفي ديوان الحماسة : « وجدتني » بدلا من كأنني . والليت : صفحة العنق (القاموس) والأخدع : عرق في صفحة العنق .

(٣) أنظر ص ٦٤ وما بعدها من هذا الكتاب .

النوع السابع من الباب الثاني

في تكرير الحروف

اعلم أن هذا النوع لا يتعلق بتكرير الألفاظ ولا تكرير المعاني مما سبق ذكره في باب التكرير ، لأن تكرار الحروف هو أن يأتي حرف واحد أو حرفان في كل لفظة من ألفاظ الكلام أو في أكثرها ، فيثقل على اللسان النطق بها ، فمن ذلك ما أنشده الجاحظ :

وقبر حربٍ بمكانٍ قفرٍ وليس قُربَ قبرٍ حربٍ قبرٍ^(١)

ألا ترى الى هذه الراآت ، والقافات التي في هذا البيت من الشعر ؟ فأنها في تتابعها كالسلسلة ، ولا خفاء بما على الناطق بها من الكلفة ، وليس الكلام العاري من ذلك بمعوز ولا بعزير^(٢) ، ولا هو بالذي لا يستطيعه إلا الشاعر المبرز أو الكاتب المفلح بل هو مما يصعب النطق به . ولذلك كان كلام الناس في محاوراتهم ، ومكاتباتهم ، خالياً من هذا القبيل ، وذلك لأنه لا يحصل إلا بالتكاف والقصد للإتيان به ، فأمّا إذا أرسل الانسان نفسه على سجيته ، وختلّ بينها وبين طبعها فانه لا يعرض له ذلك . فليت شعري أيّ أمر يضطر مؤلف الكلام حتى يأتي به مستكراً ثقيلاً على اللسان ، ويترك ما هو أسهل عليه .

ألم تعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد عدلوا عن تكرار الحروف في كثير من كلامهم ؟ وذلك أنه إذا تكررت الحروف عندهم أدغموها استجساناً ، فقالوا : في جعل لك . « جعل لك » وفي تضربوني « تضربوني » . وكذلك « استعد فلان للأمر » اذا تأهب له والأصل فيه « استعدد » ، « واستتب الأمر » اذا تهيأ وكل (وأصله استتب^(٣)) وأشباه هذا كثيرة في كلام العرب ، حتى إنهم لشدة كراهتهم لتكرار الحروف أبدلوا احد الحرفين ، لما تكرر ، حرفاً آخر غيره فقالوا : أمليت الكتاب « والأصل من ذلك « أمليت » فابدلوا

(١) البيت مجهول القائل . أنظر البيان والتبيين ج ١ ص ٦٥ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة

١٩٤٨ بالقاهرة . وانظر الحيوان ج ٦ ص ٢٠٧ ومعاهد التنصيص ج ١ ص ١٢ .

(٢) أنظر دلائل الإعجاز ص ٤٨ طبعة المنار بمصر سنة ١٣٦٧ هـ .

(٣) زيادة استوجبها السياق والانساق .

« اللام » ياء طلبا للخفة على اللسان ، وفراراً من الثقل والاستكراه .
واعلم أن ورود الادغام في هذه اللغة أقوى دليل على كراهة العرب لتكرار الحروف وفيما
أشرنا اليه كفاية للمتأمل ، فاعرفه .

وحيث انتهى بنا الكلام الى هذا المقام ، وفرغنا من جميع الأنواع في علم البيان والأقسام ،
فلنَجْمَلْ خاتمته حمد الله على توفيقه ، والهداية الى أقوم طريقه ، ونزغب إليه في العصمة من
الزلل ، والارشاد في القول والعمل ، فان عثر الناظر في كتابنا هذا على سقطه ، أو وقع في أثنائه
على هفوة أو غلطة ، فليُغْفَرْ عنها إغضاء الصافح ، وليسترها ستر المتجاوز المسامح ، فان
الكریم من ستر العورة ، وأقال العثرة .

تم الكتاب بمِنَّه تعالى

وقد كتب في آخره :

وكان الفراغ من تحريره نهار الثلاثاء عشرين (كذا) من شهر شوال
سنة ألف وثلثمائة وأربعة عشر هجرية (كذا) ، على نبينا أفضل الصلاة والسلام وأزكى التحية
ونقل هذا الكتاب على ذمة الكتبخانة الخديوية ، بخط الفقير الحقير محمود صالح ،
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين ، والحمد لله رب
العالمين ، آمين .

فهارس الكتاب

- ١ — فهرست إجمالي لموضوعات الكتاب
- ٢ — فهرست تفصيلي لموضوعات الكتاب
- ٣ — فهرست الأعلام
- ٤ — فهرست المدن والأماكن
- ٥ — فهرست الكتب
- ٦ — فهرست الأشعار « الواردة في متن الكتاب »
- ٧ — فهرست الأشعار « الواردة في حواشي الكتاب »
- ٨ — فهرست الكلمات اللغوية المهمة الواردة في حواشي الكتاب
- ٩ — فهرست الخطأ والصواب

فهرست اجمالی موضوعات الكتاب

الصفحة

١	مقدمة المؤلف
					القطب الأول « الفن الأول »
					الباب الأول من الفن الأول من القطب الأول
٦	آلات التأليف
٧			القسم الأول [يشترك فيه النظم والنثر]
٢٠			القسم الثاني [وهو ما يخص الناظم دون النثر]
					الباب الثاني من الفن الأول من القطب الأول
٢١					في أدوات التأليف
					الباب الثالث من الفن الأول من القطب الأول
٢٦					في الطريق الى صناعة النظم والنثر
					الباب الرابع من الفن الأول من القطب الأول
٢٨					في الحقيقة والمجاز
					الفن الثاني من القطب الأول
٣٣					في الألفاظ والمعاني وتفضيل الكلام المنشور على المنظوم
					الباب الأول
٣٣	في الألفاظ المفردة

- النوع الأول : تباعد مخارج الحروف ... ٣٤
- النوع الثاني : أن لا تكون الكلمة وحشية ولا متوعدة ... ٤١
- النوع الثالث : أن لا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة ... ٤٩
- النوع الرابع : أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن معنى يكره ذكره ٥٢
- النوع الخامس : أن تكون الكلمة مصغرة ... ٥٤
- النوع السادس : أن تكون الكلمة مؤلفة من أقل الأوزان تركيباً ٥٧
- النوع السابع : أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة ... ٥٩
- القسم الثاني من الباب الأول
- ٦٤ في صناعة تركيب الألفاظ
- الباب الثاني من الفن الثاني من القطب الأول
- ٦٨ في الكلام على المعاني
- الباب الثالث من الفن الثاني من القطب الأول
- ٧٣ في تفضيل الكلام المنشور على المنظوم
- القطب الثاني
- ٧٦ في الأشياء الخاصة وهو فنان
- ٧٦ الفن الأول في الفصاحة والبلاغة
- الفن الثاني من القطب الثاني
- ٨٢ في ذكر أصناف علم البيان وأنقساماتها
- الباب الأول
- في الصناعة المعنوية —
- النوع الأول في الاستعارة ... ٨٢

٩٠	النوع الثاني من الفن الثاني : التشبيه
٩٢	١ - القسم الأول : تشبيه المفرد بالمفرد
٩٢	٢ - القسم الثاني : تشبيه المركب بالمركب
٩٦	٣ - القسم الثالث : تشبيه المفرد بالمركب
٩٨	النوع الثالث من الباب الأول : في شجاعة العربية
٩٨	القسم الأول : في الالتفات ...
١٠٢	القسم الثاني : في الإخبار عن الفعل الماضي بالمضارع وعن المضارع بالماضي
١٠٥	القسم الثالث : في عكس الظاهر ...
١٠٦	القسم الرابع : في الحمل على المعنى ...
١٠٨	القسم الخامس : في التقديم والتأخير ...
١١٨	القسم السادس : في الاعتراض ...
١٢٢	النوع الرابع في الإيجاز ...
١٢٤	القسم الأول : الإيجاز بالحذف ...
			الضرب الأول من القسم الأول من النوع الرابع :
١٢٤	الاكتفاء بالسبب عن المسبب وبالمسبب عن السبب ...
			الضرب الثاني من القسم الأول من النوع الرابع :
١٢٥	الإضمار على شريطة التفسير ...
			الضرب الثالث من القسم الأول من النوع الرابع :
١٢٧	حذف الفعل وجوابه ...
			الضرب الخامس من القسم الأول من النوع الرابع :
١٣٠	حذف المضاف والمضاف إليه وإقامة كل منهما مقام الآخر ...

- الضرب السادس من القسم الأول من النوع الرابع :
- ١٣١ ... حذف الموصوف والصفة وإقامة كل منهما مقام الآخر ...
- الضرب السابع من القسم الأول من النوع الرابع :
- ١٣٣ ... حذف الشرط وجوابه ...
- الضرب الثامن من القسم الأول من النوع الرابع :
- ١٣٤ ... حذف القسم وجوابه ...
- الضرب التاسع من القسم الأول من النوع الرابع :
- ١٣٥ ... حذف (لو) وجوابها ...
- الضرب العاشر من القسم الأول من النوع الرابع :
- ١٣٦ ... حذف جواب (لَمَّا) وجواب (أَمَّا) وجواب (إِذَا) ...
- الضرب الحادي عشر من القسم الأول من النوع الرابع :
- ١٣٧ ... حذف (لا) من الكلام وهي مرادة ...
- الضرب الثاني عشر من القسم الأول من النوع الرابع :
- ١٣٧ ... الاستثناء ...
- الضرب الثالث عشر من القسم الأول من النوع الرابع :
- ١٣٩ ... حذف الواو وإثباتها ...
- الضرب الرابع عشر من القسم الأول من النوع الرابع :
- ١٤١ ... الحذف الذي يوجب الاختلال في الكلام ...
- القسم الثاني من النوع الرابع : الایجاز من غير حذف ...
- ١٤٢ ...
- الضرب الأول من القسم الثاني من النوع الرابع :
- ١٤٢ ... ما يساوي لفظه معناه ويسمى (التقدير) ...

الضرب الثاني من القسم الثاني من النوع الرابع

١٤٣ فيما زاد معناه على لفظه

النوع الخامس من الباب الأول من الفن الثاني

١٤٦ الأطناب

النوع السادس من الباب الأول من الفن الثاني

١٥٢ في تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل

النوع السابع من الباب الأول من الفن الثاني

١٥٦ في الكناية والتعريض

١٥٧ الضرب الأول من الكناية (الذي يحسن استعماله)

١٥٧ ١ - القسم الأول : التمثيل

١٦٠ ٢ - القسم الثاني من الكناية في الإرداف

١٦٠ الفرع الأول من الإرداف

١٦١ الفرع الثاني من الإرداف

١٦٢ الفرع الثالث من الإرداف

١٦٢ الفرع الرابع من الإرداف

١٦٣ الفرع الخامس من الإرداف

النوع الثامن من الباب الأول من الصنف الثاني

١٦٩ في استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات

النوع التاسع من الباب الأول من الفن الثاني

١٧٢ في التفسير بعد الإبهام

النوع العاشر من الباب الأول من الفن الثاني

١٧٥ في التعقيب المصدري

- النوع الحادي عشر من الباب الأول من الفن الثاني
 ١٧٦ في التقديم والتأخير مما لا يتعلق بعلم النحو
- النوع الثاني عشر من الباب الأول من الفن الثاني
 ١٧٩ في عطف المظهر على ضميره والافصاح به بعده
- النوع الثالث عشر من الباب الأول من الفن الثاني
 ١٨١ في التخلص والاقتراب
- النوع الرابع عشر من الباب الأول من الفن الثاني
 ١٨٧ في المبادئ والافتتاحيات
- النوع الخامس عشر من الباب الأول من الفن الثاني
 ١٩٣ في قوة اللفظ لقوة المعنى
- النوع السادس عشر من الباب الأول من الفن الثاني
 ١٩٧ في خذلان المخاطب
- النوع السابع عشر من الباب الأول من الفن الثاني
 ١٩٨ في الاشتقاق
- النوع الثامن عشر من الباب الأول من الفن الثاني
 ٢٠١ في الحروف العاطفة والجارة
- النوع التاسع عشر من الباب الأول من الفن الثاني
 ٢٠٤ في التكرير
- القسم الأول : الذي يوجد في اللفظ والمعنى
 ٢٠٤
- الضرب الأول : المفيد
 ٢٠٤
- الضرب الثاني من التكرير في اللفظ والمعنى (غير المفيد) ...
 ٢٠٧

القسم الثاني من النوع الأول في التكرير : (الذي يوجد في المعنى دون اللفظ) ٢٠٩

الضرب الأول المفيد ٢٠٩

الضرب الثاني (غير المفيد) ٢١٠

النوع العشرون من الباب الأول من الفن الثاني

٣١١ في تناسب المعاني

الضرب الأول : المطابقة وهي المقابلة ٢١١

الضرب الثاني من النوع العشرين : في صحة التقسيم وفساده ... ٣١٨

الضرب الثالث من النوع العشرين : في التفسير وما يصح من ذلك ما يفسد ٢٢١

النوع الحادي والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

٢٢٤ في الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية

النوع الثاني والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

٢٢٥ في ورود لام التأكيذ في الكلام

النوع الثالث والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

٢٢٦ في الاقتصاد والافراط والتفريط

النوع الرابع والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

٢٣٠ في المعاظة

النوع الخامس والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

٢٣٢ في التضمين

النوع السادس والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

٢٣٥ في الاستدراج

النوع السابع والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

٢٣٨ في الارصاد

٢٨٣

النوع الثامن والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

٢٤٢

في التوشيح

النوع التاسع والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

٢٤٢

في الأخذ والسرقة

٢٤٣

القسم الأول : النسخ

القسم الثاني : وهو ضربان

٢٤٣

الضرب الأول : السلخ

٢٤٨

الضرب الثاني من القسم الثاني : المسخ

الباب الثاني

من الفن الثاني من القطب الثاني

— في الصناعة اللفظية —

النوع الأول من الباب الثاني

٢٥١

في السجع والازدواج

النوع الثاني من الباب الثاني

٢٥٦

في التجنيس

٢٥٦

القسم الأول من النوع الثاني في التجنيس

٢٥٩

القسم الثاني من النوع الثاني في التجنيس

٢٦٠

القسم الثالث من النوع الثاني في التجنيس

٢٦١

القسم الرابع من النوع الثاني في التجنيس

٢٦١

القسم الخامس من النوع الثاني في التجنيس

٢٦٣

القسم السادس من النوع الثاني في التجنيس

٢٦٣

...

القسم السابع من النوع الثاني في التجنيس

النوع الثالث من الباب الثاني

٢٦٣

في التصييع

النوع الرابع من الباب الثاني

٢٦٥

في لزوم ما لا يلزم

النوع الخامس من الباب الثاني

٢٧٠

في الموازنة

النوع السادس من الباب الثاني

٢٧١

في اختلاف صيغ الألفاظ

فهرست تفصیلی لموضوعات الكتاب

٥ - ١

مقدمة المؤلف :

منزلة علم البيان (١) . البحث عن تصانيفه وكتبه (١) . اطلاعه على معظم كتب
البيان (١) . استخراج منه القرآن ثلاثين ضرباً من علم البيان (٣) . شرحه جميع أنواع
البيان (٤) . تسمية الكتاب (٤) . مدار الكتاب وأبوابه (٤) .

(القطب الأول)

« الفن الأول »

الباب الأول

من الفن الأول من القطب الأول

٢٠ - ٦

آلات التأليف

الحاجة الى وجود الطبع في الانسان (٦) . آلات التأليف قسمان (٦) . الأول يشترك
فيه النظم والنثر (٧) . علم النحو (٧) . معرفة اللغة (١٣) . معرفة أمثال العرب وأيامهم
(١٥) . الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمثنوي (١٧) . معرفة الأحكام السلطانية
من الإمامة والإمارة (١٧) . حفظ القرآن الكريم (١٩) . حفظ أخبار الرسول (١٩) .
القسم الثاني : وهو ما يخص الناظم دون النثر (٢٠) . معرفة العروض والزحافات
(٢٠) . معرفة القوافي (٢٠) .

الباب الأول

٢٥ - ٢١

من الفن الأول من القطب الأول

في أدوات التأليف

تحذيره من التوسع (٢١) . المعنى هو عماد اللفظ واللفظ هو زينة المعنى (٢١) . عجز

المبرد عن التعبير بما يرتضيه (٢٢) . تجويد الالفاظ (٢٣) . مخاطبة كل فريق من الناس على قدر طبقتهم (٢٣) . كتاب الرسول لوائل بن حجر (٢٤) .

الباب الثالث

من الفن الأول من القطب الأول

٢٦ — ٢٧

في الطريق الى صناعة النظم والنثر

ممارسة ابن الاثير لصناعة الكتابة (٢٦) . طريقة كتابة الرسائل (٢٦) معارضة الرسائل (٢٧) . ومعارضة القصائد (٢٧) .

الباب الرابع

من الفن الأول من القطب الأول

٢٨ — ٣٢

في الحقيقة والمجاز

معنى الحقيقة (٢٨) . معنى المجاز (٢٨) . أقسام المجاز (٢٨) . كل مجاز له حقيقة وليس لكل حقيقة مجاز (٣٠) . يُمدل عن الحقيقة إلى المجاز لمعان ثلاثة : الانساع والتشبيه والتوكيد (٣٠) . المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة (٣١) .

الفن الثاني في القطب الأول

في الالفاظ والمعاني وتفضيل الكلام المنشور على المنظوم وهو ثلاثة أبواب

الباب الأول

٣٣ — ٦٨

القسم الأول : في الالفاظ المفردة

أوصاف اللفظة المفردة التي تستحق بها ميزة الحسن والجودة وهي سبعة أنواع (٣٣) .
النوع الأول : تباعد مخارج الحروف (٣٤) . ذكر الأصوات والحروف (٣٥) . خروج الصوت (٣٥) . تشبيه الحلق والفم بالزمارة (٣٥) . ترتيب الحروف على نسق المخارج (٣٦) . الحروف الستة المستحسنة (٣٧) . الحروف الثمانية غير المستحسنة (٣٧) . مخارج الحروف (٣٧) . تعريف ابن سنان للحروف (٣٨) . اعتراض ابن الاثير عليه (٣٨) .

النوع الثاني : وهو أن لا تكون الكلمة وحشية ولا متوعرة (٤١) . معنى الوحشي (٤١) . حديث طهفة بن أبي زهير (٤٢) . جواب الرسول له (٤٤) . كتاب الرسول إلى بني نهد (٤٥) . تعليق ابن الأثير عليه (٤٥) . الحضري يلام على استعمال الوحشي (٤٦) الانكار على الفائر في استعمال الوحشي من الكلام أكثر من الانكار على الناظم (٤٨) .

النوع الثالث : وهو أن لا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة (٤٩) . ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع في أصل اللغة فغيرته العامة (٤٩) . ما يكره ذكره (٤٩) . مما ابتذله العامة (٥١) .

النوع الرابع : وهو أن لا تكون الكلمة قد عُبرَ بها عن معنى يكره ذكره (٥٢) .

النوع الخامس : وهو أن تكون الكلمة مُصغرة في موضع يُعبرَ بها عن شيء خفي أو لطيف أو ضعيف (٥٤) . معاني التصغير (٥٤) . أبنية التصغير (٥٥) .

النوع السادس : وهو أن تكون الكلمة مؤلفة من أقل الأوزان تركيباً (٥٧) . سبب ذلك (٥٧) .

النوع السابع : وهو أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة (٥٩) . ابتكار له (٥٩) .

القسم الثاني من الباب الأول

٦٧ — ٦٤

في صناعة تركيب الألفاظ

حسن التأليف (٦٥) . القرآن يفوق جميع الكلام (٦٦) .

الباب الثاني

من الفن الثاني من القطب الأول

٧٢ — ٦٨

في الكلام على المعاني

ما يبتدعه صاحب الصناعة (٦٨) . ما يحتذيه على مثال تقدم (٦٨) . المعنى هو الذي يستخرج بالفكرة دون اللفظ (٦٨) . شرف المعنى ودلوّه وسقوطه واستغاله من نتائج دلو الهمة وسقوطها (٦٩) .

الباب الثالث

من الفن الثاني من القطب الأول

٧٣ — ٧٥

في تفضيلي الكلام المنثور على المنظوم

القرآن الكريم ورد نثراً (٧٣) . العرب كانوا أفصح الناس (٧٣) . جميع العرب كانوا يقولون النظم (٧٣) . النثر ينوب مناب النظم . ولا ينوب النظم مناب النثر (٧٥) . النثر لا ينال إلا بعد تحصيل آلاته (٧٥) . النثر تملو درجته حتى ينال الوزارة وأما الشعراء فلا تملو درجته عن رتبة المستعطين (٧٥) .

(القطب الثاني)

في الأشياء الخاصة وهو فن

٧٦ — ٨١

..... الفن الأول في الفصاحة والبلاغة

غموض هذا الباب (٧٦) . الفصاحة (٧٧) . البلاغة (٧٩) .

« الفن الثاني من القطب الأول »

.... في ذكر أصناف علم البيان وانقساماتها وهو بابان

« الباب الأول »

— في الصناعة المعنوية —

النوع الأول : في الاستعارة :

معنى الاستعارة (٨٢) . الاستعارة جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما (٨٣) . الاستعارة تنقسم قسمين : (٨٤) . الاستعارة البعيدة (٨٩) .

٩٠ — ٩٨

النوع الثاني : التشبيه

حد التشبيه (٩٠) . فائدة التشبيه (٩٠) تشبيه المفرد بالمفرد (٩٢) . تشبيه المركب بالمركب (٩٢) . تشبيه المفرد بالمركب (٩٦) .

٩٨ — ١٢٢

...

...

النوع الثالث : في شجاعة العربية

وهو ستة أقسام :

القسم الأول : في الالتفات ٩٨ — ١٠٢

معنى الالتفات (٩٨) . الرجوع من الخطاب الى الغيبة (١٠٠) الرجوع من الفعل المستقبل الى فعل الأمر (١٠١) . الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع (١٠١) .

القسم الثاني : في الاخبار عن الفعل الماضي بالمضارع وعن الفعل المضارع بالماضي ١٠٢-١٠٥

القسم الثالث : في عكس الظاهر : ١٠٥ — ١٠٦

تفرد ابن الأثير بذكره (١٠٥) .

القسم الرابع : في الحمل على المعنى : ١٠٦ — ١٠٨

دقة هذا النوع من التأليف (١٠٦) وروده في القرآن وفي فصيح الكلام (١٠٦) . تأنيث المذكر (١٠٦) تذكير المؤنث (١٠٧) . حمل الواحد على الجماعة (١٠٧) . حمل الجماعة على الواحد (١٠٨) .

القسم الخامس : في التقديم والتأخير ١٠٨—١١٨

ما كان التقديم هو الأولى به (١٠٩) . تقديم المفعول على الفعل (١٠٩) . تقديم خبر المبتدأ (١٠٩) تقديم الظرف في الإثبات (١١٠) . تأخير الظرف وتقديمه في النحو (١١١) تقديم الحال (١١٢) . تقديم ما الأولى به التأخير (١١٢) باب الاستفهام (١١٤) .

القسم السادس : في الاعتراض : ١١٨—١٢٢

ما يأتي في الكلام لفائدة (١١٨) . ما يأتي في الكلام لغير فائدة (١٢٠) .

النوع الرابع : في الإيجاز : ١٢٢—١٤٦

القسم الأول : الإيجاز بالحذف : وهو أربعة عشر باباً ١٢٤—١٤٢

الضرب الأول : الاكتفاء بالسبب عن المسبب (١٢٤) .

الضرب الثاني : الاضمار على شريطة التفسير : (١٢٥) .

الضرب الثالث : حذف الفعل وجوابه : (١٢٧) . إقامة المصدر مقام الفعل (١٢٨)

حذف جواب الفعل (١٢٩) .

الضرب الخامس : حذف المضاف والمضاف اليه وإقامة كل منهما مقام الآخر : (١٣٠) .

الضرب السادس : حذف الموصوف والصفة وإقامة كل منهما مقام الآخر : (١٣١) .

الضرب السابع : حذف الشرط وجوابه (١٣٣) .

الضرب الثامن : في حذف القسم وجوابه : (١٣٤) .

الضرب التاسع : في حذف (لو) وجوابها : (١٣٥) .

الضرب العاشر : حذف جواب (لَمَّا) وجواب (أَمَّا) وجواب (إِذَا) (١٣٦) .

الضرب الحادي عشر : في حذف (لا) من الكلام . (١٣٧) .

الضرب الثاني عشر : في الاستثناء : (١٣٧) . إعادة الأسماء والصفات (١٣٧) .

الاستثناء بغير إعادة الأسماء والصفات (١٣٨) .

الضرب الثالث عشر : في حذف الواو وإثباتها . (١٣٩) .

الضرب الرابع عشر : في الحذف الذي يوجب الاختلال في الكلام (١٤١) .

القسم الثاني : الإيجاز من غير حذف ١٤٢-١٤٦

الضرب الأول : ما يساوي لفظه معناه : ويسمى التقدير . (١٤٢) .

الضرب الثاني : فيما زاد معناه على لفظه وهو الإيجاز بالقصر (١٤٣) كثرت في القرآن

(١٤٣) . باب أفعل (١٤٥) .

النوع الخامس من الباب الأول من الفن الثاني

١٤٦-١٥٢ في الاطناب

التباس هذا النوع (١٤٦) . قول أبي هلال العسكري فيه (١٤٧) . ردّ ابن الأثير

عليه (١٤٨) معنى الاطناب (١٥١) .

النوع السادس من الباب الأول من الفن الثاني

١٥٢-١٥٦ في توكيد الضمير المتصل بالمنفصل

فوائد قوله تعالى « انك أنت الأعلى » (١٥٢) .

النوع السابع : في الكناية والتعريض
خلط القدماء بين الكناية والتعريض (١٥٦) . تعريف الكناية (١٥٦) . تعريف
التعريض (١٥٧) .

الضرب الأول من الكناية (الذي يحسن استعماله) (١٥٧) . وهو أربعة أقسام :
القسم الأول : التمثيل (١٥٧) . القسم الثاني : في الازداف (١٦٠) . والازداف
خمسة فروع :

الفرع الأول : فعل المبادهة (١٦٠) . الفرع الثاني : وهو باب مَثَل : (١٦١) .
الفرع الثالث من الازداف : وهو ما يأتي في جواب الشرط (١٦٢) . الفرع الرابع من
الأرداف وهو الاستثناء من غير موجب (١٦٢) . الفرع الخامس من الازداف : (١٦٣) .
القسم الثالث من الكناية : وهو المجاورة (١٦٤) . القسم الرابع من الكناية : ما ليس
بتمثيل ولا إزداف ولا مجاورة (١٦٥) .

التعريض : وجوازه في خطبة النساء (١٦٦) . من بديع التعريض (١٦٧) من
مشكلات التعريض (١٦٧) . من أحسن التعريضات ما كتبه عمرو بن مسعدة (١٦٩) .

النوع الثامن من الباب الأول من الفن الثاني :

١٦٩-١٧٢ في استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات

النوع التاسع : من الباب الأول من الفن الثاني :

١٧٢-١٧٥ في التفسير بعد الابهام

الابتداء بذكر الضمير (١٧٣) . الابهام من غير تفسير (١٧٤) . الاستثناء العددي (١٧٤)

النوع العاشر من الباب الأول من الفن الثاني :

١٧٥-١٧٦ في التعقيب المصدري

النوع الحادي عشر من الباب الأول من الفن الثاني :

١٧٦-١٧٩ في التقديم والتأخير مما لا يتعلق بعلم النحو

تقديم السبب على المسبب (١٧٦) . تقديم الأكثر على الأقل (١٧٧) .

النوع الثاني عشر من الباب الأول من الفن الثاني :

١٧٩-١٨١

في عطف المظهر على ضميره والافصح به بعده

فائدته (١٧٩) . ما يقصد به الذم (١٨٠) .

النوع الثالث عشر من الباب الأول من الفن الثاني :

١٨١-١٨٧

في التخلص والافتضاب

معنى التخلص (١٨١) معنى الافتضاب (١٨١) .

النوع الرابع عشر من الباب الأول من الفن الثاني :

١٨٧-١٩٣

في المبادئ والافتتاحات :

فوائد هذا الباب (١٨٧) . إسحق بن إبراهيم وقصر المعتمض (١٨٨) . الابتداءات في

القرآن (١٩١) الابتداء المستكره (١٩١) . الابتداء البديع البارع (١٩١) .

النوع الخامس عشر من الباب الأول من الفن الثاني :

١٩٣-١٩٧

في قوة اللفظ لقوة المعنى

« فاعل » و « فاعيل » وأيهما أبلغ (١٩٣) .

النوع السادس عشر من الباب الأول من الفن الثاني :

١٩٧-١٩٨

في خذلان المخاطب

النوع السابع عشر من الباب الأول من الفن الثاني :

١٩٨-٢٠١

في الاشتقاق

تفضيل بعضهم الاشتقاق على التجنيس (١٩٨) . الاشتقاق الصغير (١٩٩) — الاشتقاق

الكبير (٢٠٠) .

النوع الثامن عشر من الباب الأول من الفن الثاني :

٢٠١-٢٠٣

في الحروف العاطفة والجارة

النوع التاسع عشر من الباب الأول من الفن الثاني :

٢٠٤—٢١١

في التكرير

ما يوجد في اللفظ والمعنى (المفيد) (٢٠٤) . الضرب الثاني من التكرير في اللفظ والمعنى
(غير المفيد) (٢٠٧) . التكرير الذي يوجد في المعنى دون اللفظ (٢٠٩) . الضرب الأول
(المفيد) (٢٠٩) . الضرب الثاني (غير المفيد) (٢١٠) .

النوع العشرون من الباب الأول من الفن الثاني :

٢١١—٢٢٤

في تناسب المعاني : وهو ثلاثة أضرب :

الضرب الأول : المطابقة : وهي المقابلة (٢١١) . تسمية « قدامة » له بالتجنيس (٢٢١) .
مقابلة الشيء بضده (٢١٢) . مقابلة الشيء بغيره (٢١٣) . وهو ضربان :
الضرب الأول : ما كان بين المقابل والمقابل له مناسبة وتقابل (٢١٣) .
الضرب الثاني : أن يقابل الشيء بما يبينه ويبينه بعد (٢١٣) .
الضرب الثاني من النوع العشرين : في صحة التقسيم وفساده (٢١٨) .
الضرب الثالث من النوع العشرين : في التفسير وما يصح من ذلك ويفسد (٢٢١) .

النوع الحادي والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني :

٢٢٤—٢٢٥

في الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية

النوع الثاني والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني :

٢٢٥ —

في ورود (لام التأكيد) في الكلام

النوع الثالث والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني :

٢٢٦—٢٣٠

في الاقتصاد والافراط والتفريط

التفريط (٢٢٦) . الافراط (٢٢٨) . الاقتصاد (٢٢٩) .

النوع الرابع والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني

٢٣٠—٢٣١

في المعاظلة

قول « قدامة » فيه (٢٣٠) . مخالفة علماء البيان لقدامة (٢٣١) . المعاظة بابها التقديم والتأخير (٢٣١) .

النوع الخامس والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني :

٢٣٣ — ٢٣٥

في التضمين

تضمين الاسناد (٢٣٢) .

النوع السادس والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني :

٢٣٥ — ٢٣٨

في الاستدراج

النوع السابع والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني :

٢٣٨ — ٢٤١

في الارصاد

النوع الثامن والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني :

٢٤٢ —

في التوشيح

النوع التاسع والعشرون من الباب الأول من الفن الثاني :

٢٤٢ — ٢٥٠

في الأخذ والسرقة

النسخ (٢٤٣) . السلخ (٢٤٣) . المسخ (٢٤٨) .

الباب الثاني

من الفن الثاني من القطب الثاني

« في الصناعة اللفظية »

النوع الأول من الباب الثاني

٢٥١ — ٢٥٥

في السجع والازدواج

ذم جماعة للسجع (٢٥١) . رد ابن الأثير عليهم (٢٥١) . أقسام السجع (٢٥٣) .

النوع الثاني من الباب الثاني

٢٥٦ — ٢٦٣

في التجنيس

تسميته بذلك (٢٥٦) . وهو سبعة أقسام :

القسم الأول من النوع الثاني من التجنيس (٢٥٦) وهو التجنيس المطلق .

القسم الثاني من النوع الثاني من التجنيس (٢٥٩) . وهو أن تكون الألفاظ متساوية التراكيب مختلفة الوزن .

القسم الثالث من النوع الثاني من التجنيس (٢٦٠) أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة من التركيب .

القسم الرابع من النوع الثاني من التجنيس (٢٦١) أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد .

القسم الخامس من النوع الثاني من التجنيس (٢٦١) .

وهو المعكوس : وهو ضربان : الأول : عكس الألفاظ (٢٦١) . والضرب الثاني : عكس الحروف (٢٦٢) .

القسم السادس من النوع الثاني من التجنيس : وهو المجنَّب (٢٦٣) .

القسم السابع من النوع الثاني من التجنيس : وهو ما تساوي وزنه وتركيبه (٢٦٣) .

النوع الثالث من الباب الثاني :

٢٦٥ — ٢٦٣ في الترصيع

أصله (٢٦٣) . أقسامه : القسم الأول : وهو أن تكون ألفاظ الفصل الأول مساوية لألفاظ الفصل الثاني وزناً وقافية (٢٦٤) . القسم الثاني : ما كان أحد الفاظ الفصل الأول مخالفاً لما يوازيه من الفصل الثاني (٢٦٥) .

النوع الرابع من الباب الثاني

٢٦٥ — ٢٧٠ في لزوم ما لا يلزم

جمع أبي العلاء كتاباً في ذلك (٢٦٥) . حقيقة هذا النوع (٢٦٦) .

النوع الخامس من الباب الثاني :

٢٧٠ — ٢٧١

في الموازنة

النوع السادس من الباب الثاني :

٢٧١ —

في اختلاف صيغ الألفاظ

فهرست الأعلام

حرف الالف

ابن جني - ٢٩ و ٣٦ و ٣٧ و ٥٩ و ٩٨

و ٢٠٨

ابراهيم (السورة) ٥٧ و ١٠٨ و ١١٤

و ١٣٦ و ١٦٧ و ١٧٣ و ١٨٣ و ١٨٥ و ١٨٧

ابن الجوزي - ١٢٨

ابراهيم النعمة - ١٨٥

ابن الحاجب - ٩

ابراهيم بن المدبر - ٩٧

ابن حاجب - ١١

ابرويز - ٢٤

ابن خريم بن عمرو - ١٢٧

ابن بويه - ٢٩

ابن خلكان - ١٨٢

ابن الاثير - ٤٤ و ٥٨ و ٩٨ و ١٥٣

ابن الدمينه - ١٥٩

و ١٦٥ و ١٦٨

ابن رشيق - ٢٣ و ٢٧ و ١٨٨

ابن أبي الحديد المدائني - ١٤ و ١٥ و ٣٩

ابن الرومي - ٤٧

و ٤٠ و ١٧٠

ابن ربيعة الطائي - ٢٠٠

ابن أبي طالب (علي) - ٤٥

ابن الزمكدم - ١٨٥

ابن الاصبغ (عرام) - ٤٣

ابن السراج - ٢٩

ابن أبي عينية (عبد الله بن محمد المهلب) -

ابن سعد - ٢٤

١١٦

ابن سنان الخفاجي - ٣ و ٣٢ و ٣٥ و ٣٤

ابن برهان - ١٩٦

و ٣٨ و ٣٩ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٨ و ٧٧ و ٧٨

ابن بري - ٤٨

و ٧٩ و ٨٢ و ١٥٦ و ١٥٧

ابن تغري بردي - ١٨٦

ابن سينا - ٣٥

ابن جعفر - ١٦٠

ابن شاكر الكتبي - ٣

ابن صميع المرندي - ١٦٨

ابن طباطبا - ٨٧

ابن الطرية - ٧٠

ابن عباد - ٢٠٩

ابن عبد الحق - ١٦٧

ابن عدلان - ٢٠٨

ابن عصفور - ٤٨

ابن فارس - ١١ و ٢٦ و ١٦١ و ١٧٢

ابن قتيبة - ١٤٧ و ١٤١ و ١٤٢

ابن القوطية - ١٩٥

ابن كثير - ٢٢

ابن كمال - ٢٦

ابن مسعود - ٣٦

ابن مطعون (عثمان) - ١٦٧

ابن المعتز - ٢٢ و ٩٤ و ١٤٣ و ١٨٩

و ١٩٠

ابن نباتة - ١٨٢

ابن النديم الموصلي - ٢٩ و ١٨٦ و ١٩٠

ابن هانيء المغربي - ٤٦ و ٥٢ و ١٢٠

و ٣١٠

ابن هانيء الحكمي (أبو نواس) - ٤٦

أبو اسحاق ابراهيم بن هلال بن زهرون

الصابي - ١٨ و ٥٣

أبو أيوب (أحمد بن عمران) - ١٦٦

أبو أيوب المورياني - ١٦٩

٣٠٠

أبو البقاء العكبري - ٤٩ و ٥٠ و ٥١ و ١٦٦

أبو بكر الاسفزازي - ٢

أبو تمام - ٢ و ٦٧ و ٨٥ و ٨٨ و ٩٥

و ١٦٨ و ١٨٧ و ١٩٠

أبو جابر - ١٨٥

أبو جعفر المدني - ١١

أبو الحارث (غيلان بن عقبة) - ٩٧

أبو الحسن (أبو القاسم) - ٤٦

أبو الحسن الأخفش - ٢٩ و ٣٧ و ١٣٠

أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله

الرماني - ٣

أبو الحسن الوراق - ٢

أبو الحسن علي بن الجهم - ١٨٢

أبو حيان التوحيد - ٢٧

أبو دلف القاسم بن عيسى - ١٤٢

أبو دؤاد - ١٤١

أبو دؤاد الايادي - ١٤١

أبو زهير (طهفة) - ٤٢

أبو زيد الأنصاري - ٨٩

أبو سعيد الثغري - ٨٩

أبو الطيب (المتنبي) - ١٩ و ٤٩ و ٥١

و ٥٨ و ٩٤ و ١٦٦ و ٢٠٨ و ٢٠٩

أبو العباس المبرد - ٣٦

أبو عامر - ٩٦

أبو العباس - ٢٢

أبو عبدالله محمد بن الحسن المذحجي - ١٣

أبو عبيدة - ٤٤

أبو عثمان - ١٠

أبو عثمان المازني - ١٠

أبو عثمان الجاحظ = الجاحظ

أبو العلاء - ١٨٢

أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغاني - ٢

أبو علي الفارس - ٢٩ و ٤٨

أبو جعفر بن علي الأنداسي - ٤٦

أبو العميش - ١٩٠

أبو الفتح بن جني = ابن جني

أبو الفرج (قدامة بن جعفر) - ٢١١

أبو الفرج الشيباني - ٥٢

أبو الفضل (عمرو بن مسعدة بن سعد بن

صول) - ١٦٩

أبو القاسم الآمدي - ٢ و ٤ و ٤٦ و ٨٧ و ٧٨

أبو القاسم عبيدالله بن سليمان بن وهب - ٢٢

أبو المحاسن مسعود بن محمد بن غانم - ١

أبو محمد بن سنان الخفاجي = ابن سنان

أبو محمد (إسحاق بن إبراهيم بن ماهان)

- ١٨٦

أبو منصور الجواليقي - ٥١ و ٥٠

أبو منصور الثعالبي - ٢٠٨

أبو نواس - ٤٦ و ١٥٦ و ١٨٨ و ١٩٠

أبو نهشل (حميد) - ١٩٢

أبو هلال العسكري - ٢ و ٤٧ و ٨٢ و ١٥٥

و ٢٠٠

أبو الهيثام (بن عمار بن ضريم) - ١٢٧

أبو الوليد (معن بن زائدة) - ٩٥

أبو يحيى عبد الرحيم - ١٩

أبو يعقوب إسحاق بن حسان - ١٢٧

أبي بن كعب - ٣٦ و ٢٨

أحمد - ٩٩

أحمد بن طاهر - ١٨٦ و ١٨٩

أحمد بن عمران - ١٦٦

أحمد بن المدبر - ٩٧

أحمد بن هشام - ١٨٦

أحمد مصطفى المراغي - ٦٦

الأخطل - ١٩٠

الأخفش - ٢٩

الأرجاني - ١٨٦

الأزدي - ٩٥

الأزهري - ١٧٦

إسحاق - ١٨٦ و ١٨٧

إسحاق بن إبراهيم الموصلي - ١٨٦ و ١٨٩

و ١٩٠

أسد - ١١٣

الأسدي (الحسين بن مطير) - ٩٥

إسماعيل - ١٩ و ٥٧ و ١٧٣ و ١٨٧

أشجع بن عمرو - ١٨٩

الأصمعي - ١٠ و ١٣ و ١٤ و ١٤٣ و ١٩٥

الأعرج - ١١

أم جندب - ١٤١

الأمدي - ٣٤ و ١٦٨

أم زرع - ٦٤

امرؤ القيس - ١٧ و ٨٧ و ٨٧ و ١٠٦

و ١١٥ و ١١٦ و ١٣٧ و ١٤١ و ١٥٦ و ١٥٧

الأمين - ٩٢ و ١٨٦ و ١٩٠

الأندلسي (محمد بن هانيء) - ٤٦

أوس بن حجر - ١٠٦

حرف الباء

البابي (الحلبي) - ٤٢ و ١٦٩

البحثري - ٩٧ و ١٢٤ و ١٢٦ و ١٩٠

و ١٩٩ و ٢١٣

الباخرزي - ٢٠

البرقعدي - ١٨٥ و ١٨٦

البرقي - ١٦٧

البرامكة - ١٨٩

البغدادى - صاعد بن الحسن - ٩٦

بكر بن محمد البصري - ١١٠

بكر بن النطاح - ٩٢

بنت حكيم (خولة) - ١٦٧

بنو إسرائيل - ١١٩ و ١٣٤

بنو تميم - ١٨٠

٣٠٢

بنو العباس - ٤٥

بنو ثعلبة بن سعد بن ضبة - ١٥

بنو الحارث بن كعب - ١٦٨

بنو محارب بن حضفة - ١٤١

بنو معقل - ١٨٥

بنو سعد - ٤٥

بنو شهيد - ٤٥

بنو النجار - ١٢٨

حرف التاء

تأبط شراً - ٥٤ و ١٣٠

التبريزي - ٥٤ و ٨٥ و ٨٨ و ٩٥ و ١٢٧

و ١٦٨ و ٢٠٠

تميم - ١٤١

حرف الثاء

ثمود - ٢٠٦

ثعلب - ٢٧ و ٢٩

الثعالبي - ٢٠٩

حرف الجيم

الجاحظ - ٢ و ٣٤ و ٨٢ و ١٦٦

جارية بن الحجاج - ١٤١

الجرجاني (عبد القاهر) - ٦٤ و ٧٠ و ٣٣

جرير بن عطية - ٩٩

الجزري - ٣٦

جعفر - ٤٦

جعفر بن سليمان الهاشمي - ٩٠

جعفر بن علي الأندلسي - ٤٦

الجهشياري - ١٦٩

الجوهري - ١ و ١٠ و ١١ و ٢٦ و ٤٧

و ٦٢ و ٩٢ و ١٠٨ و ١٩٤

حرف الحاء

حاتم - ١٢٦

الحارثي - ١٦٨

حبيب النجار - ١٠٢

حجازي - ٢٣

الحريري - ٤٨

حسام الدين - ٢٠٨

الحسن بن بشر الأمدي - ٨٧

الحسن بن سهل - ١٤٢

الحسن بن عبد الله العسكري - ٢٠

حسن السندوبي - ١٣٧

الحسين بن إسحاق التنوخي - ٤٩ و ٥٠

الحسين بن مطير الأسدي - ٩٥

الحلي - ٥٠ و ٥٣ و ١٦٦

حميد بن عبد الحميد الطوسي - ١٤٢

حميد أبو نهشل - ٩٢

حنظلة بن الشرقي - ١٤١

الحيان - ٢٠٠

حرف الخاء

خالد - ١١٣ و ١١٦ و ١٢٦ و ١٦٩

خالد بن عبد الله القسري - ١١٣

خالد بن الوليد - ١١٣

خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني - ١١٦

الخريجي - ١٢٧ و ١٧٩

الخضر بن أحمد الثعلبي - ١٢٦

الخطيب - ٩٢ و ١٨٦ و ١٨٩

الخطيب البغدادي - ١٤٣

الخطيب التبريزي = التبريزي

الخطيب القزويني - ٦٩

الخفاجي - ٣

الخليل بن أحمد - ١١ و ٢٨ و ٣٦

خولة بنت حكيم - ١٦٧

حرف الدال

داود - ١٢٨

حرف الذال

ذو الرمة - ١ و ٩٧ و ١٠٧ و ١٨٨ و ٢١٤

ذو الكفل - ١٨٧

حرف الراء

رزق الله سر كيس - ٢١٣

الرشيد - ١٣٣ و ١٨٦ و ١٨٧ و ١٨٩

الرضي - ٥٣ و ٥٦ و ١٦٩

الرضي الاستراباذي - ١١

رضي - ١٤٠

الرماني أبو الحسن علي - ٢

رّيا - ٦٧

حرف الزاي

الزجاج ٢٩ و ١٩٥

الزركلي - ٢٢ و ٢٩ و ٤٦ و ١٢٨

الزنجشيري - ٢٤ و ٦٥ و ٨٩ و ١٤٠ و ١٥٣

و ١٦٧ و ١٦٨ و ٢٠٧

الزمكدم - ١٨٥

زهير - ١٢٠

حرف السين

الساسبي - ١٢٧ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٨٩

سماد - ١٩٠

سعد - ٧١

سعيد بن إياس بن هانيء - ١٩٠

السامي - ١٨٩

سامى - ٩٧

سليمان - ١٦٦

سليمان بن فهد الموصلبي - ١٨٥

سليمان بن عبد الملك - ١٦٥

السمعاني - ٢

سويد بن صميع - ١٦٨

سيبويه - ٢٨ و ٢٩ و ٣٧ و ١٣١

سيف الدولة - ٢٩

سيف الدولة بن حمدان ٥١ و ٩٤

السيوطي - ٢٨ و ١٠

حرف الشين

الشافعي - ١٩

الشريف الرضي ٣٢ و ٥٣ و ٥٤ و ١٦٦

و ١٦٧ و ١٦٨ و ٢١٢

شكيب أرسلان - ٨٨

الشمندر الحارثي - ١٦٨

شهاب الدين محمود الآلوسي - ٤٨

حرف الصاد

الصابي ١٨ و ١٩ و ٢١١

الصاحب - ٢٠٨

صاعد بن الحسن البغدادي - ٦٩

الصفدي - ١٤٣

الصمة بن عبد الله بن طفيل - ٦٦

حرف الطاء

الطائع - ١٨

طرفة بن العبد البكري - ١٧

طه - ٦٣ و ١٣٠ و ١٤٤ و ١٥٥

طهفة بن زهير ٤٢

حرف العين

عاد - ١٣٤ و ٢٠٦

العباس بن الاحنف - ١٣٣

عبد الرحيم بن نباته - ١٩

عبد العزيز بن مروان - ١٦٥

عبد القاهر الجرجاني - ٦٤ و ٧٦ و ٨٣

عبد الله ٢٢	علي بن محمد بن جعفر بن علي بن الحسين
عبد الله بن خليلد - ١٩٠	العلوي - ١١٧
عبد الله بن طاهر ١٢٠	علقمة - ١٤١
عبد الله بن مسعود - ٣٦ و ٥٥ و ١٢٨	علقمة بن عبدة - ١٤١
عبد المجيد الملا - ١٣٣	علي بن أبي طالب - ٤٥ و ١٠٥
عبد الله بن طاهر الخزاعي - ١٩٠	عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير - ١١٦
عبد الوهاب عزام - ٩٤	عمر بن أبي ربيعة - ١٠٨
عبد الله بن سليمان - ٢٢	عمر بن عبد العزيز - ١٦٧
عثمان بن جني = ابن جني	عمرو بن عثمان - ٦٨
عثمان بن مضعون - ١٦٧	عمران - ٥٧ و ١٣٦
عمرام بن الاصبغ - ٤٣	عمرو بن مسعدة - ١٦٩
عروة بن الورد - ٧٨	عنبرة - ١٦٤
عزة - ٧٠ و ١٦٤	عيسى البابي - ٢٤ و ١٥٤
عز الدين بن أبي الحديد = ابن أبي الحديد	حرف الغين
عز الدين بن الأثير - ٢	الغانمي - ٨٢ و ١٥٦ و ١٨٢
عز الدولة - ١٨	غيلان بن عقبة (أبو الحارث) - ٩٧
عضد الدولة - ٢٩	حرف الفاء
عفيف الدين علي بن عدلان = ابن عدلان	الفارسي - ٢٩
عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى - ٧٠	فخري - ٢٢
العكبري = أبو البقاء العكبري	فرعون - ١٣٤ و ١٤٤ و ١٧٣ و ٢٠٦
علي الأرمني - ١٢٤	الفرزدق - ١١٣ و ١١٤ و ١٩٩
علي بن جبلة ١٤٢	فريتس كرنكو - ١٩٠
علي بن عبد الله بن حمدان = سيف الدولة	الفضل بن يحيى - ١٨٨
٩٤	فوز - ١٩٠
	الفيومي - ١١ و ١٠٦
	علي بن الجهم - ١٨٢

حرف القاف

قدامة بن جعفر - ٢ و ٢٠ و ٣٤ و ٨٢
و ٨٧ و ١٦٠ و ٢١١ و ٢١٢

قدور - ١٩٠

قرواش - ١٨٥

قرواش بن القلند (امير بني عقيل) - ١٨٥

القزويني (الخطيب) - ٦٩

قس بن ساعدة - ٧٣

حرف الكاف

كثير عزة - ٧٠ و ١٢٠ و ١٦٤

الكسائي - ٢٨

كستاف - ١٧٧

كسرى - ٢٤

حرف اللام

لبيد - ٢٧ و ١٤١

لقمان - ١١٩

لوط - ٢٠٦

حرف الميم

المأمون - ١٤٢ و ١٦٩ و ١٨٦

المبارك (ابن الأثير) - ٤٣

المبرد - ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٩ و ٣٧ و ١١٦

المتنبي (أبو الطيب) - ٥٠ و ٥١ و ٥٨

و ٩٤

المتوكل (على الله العباس) - ٢١٣

محمد بن عبد الله النيري - ٢٢

محمد بن يزيد الأزدي (المبرد) - ٢٢

محمد (رسول الله ص) - ٢٤ و ٤٥

محمد محيي الدين عبد الحميد - ١٣

محمد بن هانئ - ٤٦

محمد بن الهيثم - ٦٧

محمد علي صبيح - ٨٥

محمد عبده عزام - ٨٥

محمود شكري الآلوسي - ٤٨ و ١٤١

المرزوقي - ٣٣

مرسيم (سورة) - ٧٥ و ١٢٦ و ١٥٤

المرزباني - ١٤١ و ١٦٩ و ١٨٨

مرغليوث - ١٦٩

مسلم - ٢٠٨

مسعدة - ١٦٩

مصطفى الباسي (الجلي) - ٤٩ و ١٣٠

و ١٦٧

مصطفى جواد (الدكتور) - ١٨

المطيع - ١٨

معاوية - ٢٤

المعتصم (الخليفة العباسي) - ١٨٦ و ١٨٨

و ١٨٩ و ١٩٠

المعتمد - ٢٢

معن بن زائدة - ٩٥

المغربي (ابن هانيء) - ٤٦

المغيث بن علي العجلي - ٢٠٤

المفضل بن محمد - ١٥

المفضل الضبي (أبو عبد الرحمان) - ١٥

المنصور (محمد بن أبي عامر) - ٨٦

المنصور - ٤٧ و ٩٥ و ١٦٩

المورياني (أبو أيوب) - ١٦٩

موسى - ١٠١ و ١٠٢ و ١٢٥ و ١٢٥

و ١٢٨ و ١٢٩ و ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٩

و ١٧٣

موهوب بن أحمد ابن الجوالقي -

٥١

حرف الهاء

الهادي - ١٨٦

هارون الرشيد - ٩٢ و ١٠١ و ١٢٨ و ١٢٩

هامان - ١٧٣

هود (السورة) - ٢٨ و ١٠١ و ١٠٥

و ١٣٦ و ١٣٩

حرف الواو

وائل بن حجر - ٢٤

وائل بن حجر بن ربيعة - ٢٤

الواحدي - ٢٠٨ و ٢٠٩

الوليد بن المغيرة المخزومي - ١٤٤

حرف الياء

ياسين - ١٣٧ و ١٣٨

ياقوت - ١٨ و ٢٩

ياقوت الجوي - ٢٢ و ٨٧ و ٩٦ و ١٣٢

و ١٨٥ و ١٨٨

يحيى البرمكي - ٢٨

يحيى بن خالد بن برمك - ١٨٩

اليسع - ١٨٧

يعقوب - ١٨٧

يوسف - ١٢٩ و ١٣٠ و ١٣٧ و ١٧٠

يونس ٩٣ و ١١٥ و ١٧٤

حرف النون

الناظمة - ١٢٠

نافع بن أبي نعيم - ١٠

نافع - ١١

نصر الله بن الأثير - ٣٩

نصيب بن رباح - ١٦٥

نظام الملك - ٢

نعمان - ٢

نعمان (الأعظمي) - ١٣٣

نوح - ١٧١ و ١٧٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦

فهرست المدن والأماكن

حرف الألف

الأبلة - ١٣٢

أبو الخصيب - ١٣٢

الأستانة - ١٥، ٤٧، ١٤٠

إسقاطبول - ١٥، ٤٧، ١٤٠

إشبيلية - ٤٦

أفريقية - ٤٦

أندلس - ٩٦

الأهواز - ٨٢

أوربا - ٢٢ و ١٤٢ و ١٦٧

حرف الباء

باريس - ١٨ و ١٩

باشري - ١٨٥

البصرة - ٢٢ و ٢٨ و ٨٧ و ١٣٢ و ١٨٩

بغداد - ٢٩ و ٤٧ و ٥٠ و ٥١ و ٨٢ و ٩٦

١٦٧ و ١٨٦ و ١٨٩

بلخ - ١٣٢

بيروت - ٤٦

البيضاء - ٢٨

حرف التاء

تهامة - ٤٢

حرف الحاء

حلب - ٢٩

حنين - ١٦٧ و ١٦٨ و

حرف الخاء

خراسان - ٩٥ و ١١٣ و ١٣٣ و ١٣٤ و

١٨٩ و

حرف الدال

دمشق - ٥١ و ١٨٢

حرف الزاء

الرقّة - ١٨٩

الري - ١٩٠

حرف الراء

الزاب - ٤٦

زرود - ١٩٠

حرف السين

سامرا = سر من رأى

سبأ - ٢١٤

سجستان — ٩٥

سر من رأى — ١٨٩

سامى — ١٩٩

سلوكة — ٥٢

حرف الشين

الشام — ١٨ و ٣٧

شيراز — ٢٨

حرف الطاء

الطائف — ١٦٧

طهران — ٣٥

حرف المين

العراق — ٥١ و ٥٢ و ٣٧

المقيق — ١٩٠

حرف الغين

غوطة دمشق — ١٣٢

الغويز — ١٩٠

حرف الفاء

فارس — ٢٨ و ٢٩ و ١٥٠

حرف القاف

القاهرة — ١٨ و ٤٢ و ٩٨ و ١٣٠ و ١٣٧

و ١٤٤ و ١٥٣ و ١٥٦ و ١٦٥ و ١٦٨

القسطنطينية — ١٥ ، ٤٧ ، ١٤٠

حرف الطاء

كاظمة — ٩٧ و ١٩٩

الكوفة — ٢٤

حرف اللام

لندن — ١٩٠

ليدن — ١٢٧ و ١٤١

حرف الميم

المدينة — ٦٣

مصر — ٢٢ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٣

و ٣٤ و ٣٥ و ٣٧ و ٣٨ و ٤٦ و ٥١ و ٥٢

و ٦٧ و ٩٢ و ٩٤ و ١٠١ و ١١٤ و ١٤٠

و ١٤١ و ١٤٧ و ١٩٠ و ١٨٩ و ١٩٩

و ٢٠٨

منى — ٧٠ و ٧١

الموصل — ١٨٥

مياقارقين — ١٩

حرف النون

نجد — ١٤١

نصيبين — ١٨٥

نيسابور — ٢٠

حرف الواو

وج — ١٦٧ و ١٦٨

ودان — ١٦٦

حرف الياء

اليمين — ٢٤ و ٥٠ و ٥٢

فهرست الكتب

حرف الألف

الأبيات السافرة - ١٩٠

أخبار بغداد - ١٨٦

أدب الكتّاب - ٥١

أساس البلاغة - ٢٦ و ٢٠٧

أسباب حدوث الحروف - ٣٥

أسد الغابة - ٣٦

أسرار البلاغة - ٧٠ و ٧٦

أسماء بقايا الأشياء - ٨٢

الاصابة - ٢٤ و ٣٦ و ٤٢

إعجاز القرآن - ٢

إعراب القرآن - ٢٢

الأعلام - ٢٢ و ٢٩ و ٤٦

الأغاني - ٢٢ و ١٠٣ و ١٢٧ و ١٦٥ و ١٦٦

و ١٨٢ و ١٨٦ و ١٨٩ و ١٩٠

الامتناع والمؤانسة - ٢٧

الأمثال - ١٥

الأنساب - ٢

الأنواء - ٢٩ و ٣٧

الأوائل - ٨٢

الايضاح - ٢٩ و ٦٩ و ١٠٦

حرف الباء

البداية والنهاية - ٢٢

بغية الوعاة - ٢ و ٢٢ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٧

و ٥١ و ٨٢ و ٨٧

حرف التاء

تاج العروس - ١٨٩

التاجي في أخبار بني بويه - ١٨

تاريخ بغداد - ٩٢ و ١٨٦ و ١٨٩

تأريخ الخطيب البغدادي - ١٤٣ و ١٨٢

تأريخ الطبري - ٢٤ و ١٥٠

تبيين غلط قدامة بن جعفر في نقد الشعر -

٢

التنبيه والجمع - ٢٩ و ٣٧

التفضيل بين بلاغتي العرب والمعجم - ٨٢

تحفظ أخبار الرسل - ١٩

تذكرة الكتّاب - ١٨٨

تراجم الصحابة - ٣٦

التشابه - ١٩٠

التصريف - ١٠

تفسير كتاب سيبويه - ٢٩

تفضيل شعر امرئ القيس على شعر
الجاهليين - ٢

التنبية على غلط الجاهل والنبية - ٢٦

حرف الجيم

جمهرة الأمثال - ٢ و ٨٢

جمهرة أشعار العرب - ٢١٤

حرف الحاء

الحماسة - ٦٦ و ٦٧ و ١٦٨ و ٢٠٠

حرف الخاء

الخاص والمشارك في معاني الشعر - ٨٧

الخراج وصناعة الكتابة - ٤

الخصائص - ٥٩ و ٩٨

حرف الدال

درة النواص - ٤٨

دلائل الاعجاز - ٦٤ و ٦٦ و ٦٧ و ٧٠

و ٧٣ و ٧٦ و ١١٤ و ١١٥ و ١١٦ و ١١٧

و ١٢٤ و ١٣٣ و ١٦٦

الدمية - ٢

ديوان أبي تمام - ٨٥ و ٨٨ و ٨٩

ديوان امرئ القيس - ١١٦

ديوان الحماسة - ١٦١

ديوان المتنبي - ٥٠

ديوان المعاني - ٢ و ٨٢

حرف الزاي

الرد على ابن المعتز - ٢

الرد على سيبويه - ٢٢

الروضة - ٢٢

حرف الزاي

الزخشي - ٤٤

زهر الآداب - ١٨٢

حرف السين

سر صناعة الاعراب - ٣٦ و ٣٧

سر الفصاحة - ٣ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ و ٣٨

و ٥٣ و ٥٨ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ و ٨٧

حرف الشين

الشافية - ٩

شرح الحماسة - ٢٣ و ٥٤ و ١٢٧

شرح سيبويه - ٢٩

الشعر والشعراء - ١٢٧ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٨٩

شرح الكافية - ١٤٠

حرف الصاد

الصحاح - ٦٧ و ١ و ١٠ و ١٩٤ و ٦٢

و ١٠٨ و ٢٠٣

صناعة الجدل - ٢

الصناعتين - ٢ و ٤٧ و ١٤٧ و ٢٠٠ و ٨٢

حرف الضاد

الضرائر - ١٤١

حرف الطاء

طبقات الجزري - ٣٦ و ٨٧

طبقات الشعراء - ٩٢ و ١٤١ و ١٤٣ و ١٨٩

حرف العين

عيون الأخبار - ٢٦٨

العمدة - ٢٣ و ٢٧ و ١٨٨

حرف الغين

غاية النهاية - ٣٦

غاية النهاية في طبقات القراء - ٣٦، ١٢٨

غلط قدامة بن جعفر في نقد الشعر - ٨٧

حرف الفاء

الفائق - ٢٤ و ٢٥ و ٤٢ و ٤٥ و ١٠٥

و ١٦٧ و ١٦٨ و ٢١٢

فرق ما بين الخاص والمشارك من معاني

الشعر - ٢

فقه اللغة - ١٦١

الفلك الدائر على المثل السائر - ١٤ و ١٥

و ٣٩ و ٤٠ و ١٧٠

الفهرست : - ٢٩ و ١٩٠

فهرس دار الكتب المصرية - ٨٢

فوات الوفيات - ٢ و ٣ و ٢٢ و ٩٥

حرف القاف

القاموس - ٣ و ٨ و ٢٦ و ٣٢ و ٤٣ و ٤٧

و ٤٨ و ٦٢ و ٨٥ و ١٦٢ و ٢٥٥

قاموس الأعلام - ١٢٨

القرآن الكريم - ٣

حرف الكاف

الكامل - ١ و ٢٢ و ١١٦ و ١٦٥ و ١٦٦

كتاب سبويه - ٣٧ و ٤٧ و ١٣١

الكتاب المأثور عن ابن العميش - ١٩٠

الكشاف - ١٥٣ و ١٦٥

كشف الطرة - ٤٨

الكشف عن مساوىء شعر المتنبي - ٢٠٨

حرف اللام

الباب - ٢

لسان العرب - ١٠ و ٢٦ و ٣٥ و ٣٦ و ٤١

حرف الميم

ما في عيار الشعر من الخطأ - ٢

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - ٢

و ٣ و ٧ و ٢٨ و ٣٥ و ٤٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٧

و ٥٨ و ٦٦ و ٧٠ و ٧١ و ٧٢ و ٨٩ و ٩٥

و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٣ و ١١٣ و ١٢٣ و ١١٤

و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٨ و ١٢٩ و ١٣٠ و ١٣١

و ١٣٢ و ١٣٤ و ١٣٥ و ١٣٦ و ١٣٨ و ١٣٩

و ١٤٠ و ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦١ و ١١٤ و ١٦٥

و ١٦٦ و ١٦٩ و ١٧٠ و ١٧٢ و ١٨٣ و ١٨٠

و ١٨١ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٢ و ٢٠٤ .

المجازات القرآنية - ٣١

المجازات النبوية - ١٦٧ و ٢١٢

المجموع اللافيف - ١٩٠

مختار الصحاح - ٦ و ٤١ و ٤٢ و ٤٣ و ٤٣ و ٥٥ و ١١٠

مختصر الأنساب - ٢

مراصد الاطلاع - ١٦٧

مصارع العشاق - ١٣

المصباح المنير - ١١ و ١٨ و ١٠٦ و ١٧٦

و ١٩٥ و ١٩٦

معاني الحروف - ٢

معاني شعر البحري - ٨٧

معاني الشعر - ١٩٠

معاني القرآن - ١١

معجم البلدان - ١٣٢ و ١٨٥ و ١٨٨

المعجم - ١٨٥

المعجم في بقية الأشياء - ٢

معجم الأدباء - ٢ و ١٨ و ٢٢ و ٣٧ و ٨٢

و ٧٧ و ٩٦ و ١٦٩

معجم في اللغة - ٨٢

معجم الشعراء - ١٦٩

المفصل - ١٤٠

المفضليات - ١٥

مقاييس اللغة - ١٠ و ٢٦

المقاييس - ١٧٢

متاهل الآداب - ٢

المهذب - ٣٩ و ٣٧

الموازنة بين البحري وأبي تمام - ٨٧ و ٣ و ٢

المؤتلف - ١٦٨

المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء - ٨٧

الموشح - ١٤١ و ١٨٨

حرف النون

نثر المنظوم - ٨٧

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة -

١٨٦

نزهة الألباء - ٢٩

نسب عدنان وقحطان - ٢٢

نقد الشعر - ٢ و ٨٧

نقد عيار الشعر - ٨٧

نكت الهميان في نكت العميان - ١٤٣

النهاية - ٢١٢

النوادر - ١٤٣

نوادير الأعراب - ١٤٣

حرف الواو

الوزراء والكتّاب - ١٦٩

وفيات الاعيان - ١٨ و ١٩ و ٢٩ و ٥١

و ٨٦ و ٩٥ و ٩٧ و ١٤٣ و ١٨٢ و ١٩٠

حرف الياء

يتيمة الدهر - ٢٠٨

فهرست الأسماء

« الواردة في متن الكتاب »

الصفحة

« حرف الهمزة » — أ —

وما العيش الا نومة وتشرق	وتمر على رأس النخيل وماء	٢٩
ومعمرس للغيث يخفق بينه	رايات كل دجينة وطفاء	٨٥
صعبت فراض الماء سييء خلقها	فتعلمت من حسن خلق الماء	٨٦
وكأنا فوق الأكف بوارق	وكأنا فوق المتون إضاء	٩٢
وله بلا حزن ولا بمسرة	ضحك يراوح بينه وبكاء	٢١٢
إسلم ودمت على الحوادث مارسا	ركنا ثبير أو هضاب حراء	٢٤٢
يسقط الطير حيث يلتقط الحب	وتغشى منازل الكرماء	٢٤٨
خرقاء يلعب بالعقول حبابها	كتلعب الأفعال بالأسماء	٢٤٩
قد ذبت غير حشاشة وذماء	ما بين حر هوى وحر هواء	٢٥٩

« حرف الباء » — ب —

هل ناشدلي بعقيق اللوى	غزيراً مرّ على الركب	٥٦
لكل دهر قد لبست أثوابا	٦٢
أثمرت أغصان راحته	لجنة الحسن عنبابا	٨٤

- يوم فتح سقى أسود الضواحي
أتهجر بيتاً بالحجاز تملّمت
ملوك يبتنون توارثوها
صدودكم والديار دانية
يُذرينَ جندل حائر لجنوبها
فعاجوا فائتوا بالذي أنت أهله
إليك جزعنا مغرب الشمس كلما
أهن عوادي يوسف وصواحيه
أم هل ضعائنُ بالعلماء رافعة
وصالكم هجرٌ وحبكم قلى
وليسكم عنف وقربكم نوى
شكوتُ فقالت : كل هذا تبرم
أنت دلو وذو السباح أبو مو
إذا ما غزا بالجيش حلق فوقه
وما مثله في الناس إلا مملكا
كأن عيون الوحش : حول خبائنا
فكل ذي غيبةٍ يؤوب
يمدون من أيدٍ عواصٍ عواصم
بيض الصفأخ لا سود الصفائف
كحلأ في برج صفراء في دعج
ألم تر أنّ المال يكسبُ أهله
- كشب الموت رائباً أو حليماً
به الخوف والأعداء من كل جانب
سراقتها المقاد والقبابا
أهدى لرأسي ومفرقي شيبا
فكأنما تذكي سنا بكها الحبا
ولو سكتوا أنتت عليك الحقائق
أجزنا ملاّ صلت عليك سبابه
.....
وإن تكامل فيها الدل والشب
وعطفكم صدّ وسلمكم حرب
وإعطاؤكم منع وصدقكم كذب
بجي أراح الله قلبك من حي
سى' قلب وأنت دلو القلب
عصائب طير تهتدي بمصائب ٢٢٩-٢٤٦
أبو أمه حيّ أبوه يقاربه
وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب
وغائب الموت لا يؤوب
تصُول بأسياف قواضٍ قواضب
متنوهن جلاء الشك والريب
كأنها فضة قد شابهها ذهب
نضوحاً إذا لم تعط منه نواسبه

« حرف التاء » — ت —

٢٢	به زينب في نسوة خفرات	تضوع مسكاً بطن نعمان إذ مشت
٥٨	مثل القلوب بلا سويداواتها	إن الكرام بلا كرام منهم
٩٥	والحمد في حياته	لم يكتسب غير الثنا
١٠٦	سائل بني أسدٍ ما هذه الصوت	يا أيها الراكب المزجي مطيته
٢٤٨—١٦٦	لأعف عماً في سراويلاتها	إنني على شغفي بما في خمرها
٢٢٢	يتعاقب الفصلان فيه إذا أتى	يوم المتيم فيك حولٌ كامل
٢٤٧	وجاز له الاعطاء من حسناته	فإن لم يجد في قسمة العمر حيلة
٢٦٧	فيها ولا عرسٌ ولا أختُ	رَبنتُ عن الدنيا ولا رَبتَ لي

« حرف الثاء » — ث —

٤٦	يحفُّ به أسدُ اللقاء الدلاهِث	وما راعهم إلا سرادق جعفر
----	-------------------------------	--------------------------

« حرف الجيم » — ج —

٩٤	عُريان يمشي في الدجى بسراج	والصبح يتلو المشتري فكأنه
٢٤٤	وفاز بالطيبات الفاتك الالهجُ	من راقب الناس لم يظفر بحاجته
٢٥٧	ويفتح باب الهوى المرتجا	لقاؤك يُدني من المرتجى

« حرف الحاء » — ح —

٦٠	ومن ذم الرجال بمنزّاح	فأنت من الغوائل حين تُرمى
٧٠	ومستح بالأركان من هو ماسح	ولما قضينا من منى كل حاجةٍ
٧٨	عشية بتنا عند ماوان رزح	وقلت لقومٍ في السكينف تروحوا

ملا حاجبيك الشعر حتى كأنه
ظباء جرت منها سنيح وبارح ٩٧
فقد والشك بين لي عناء
بوشك فراقهم صرّد يصيح ١١٢-١٢١

« حرف الخاء » — خ —

لا يفقدن خيركم مجانسكم
ولا تكونوا كأنكم سبخ ٢٦٧

« حرف الدال » — د —

وقوفاً بها صحي على مطيهم
يقولون لا تهلك أسمى وتجلد ١٧-٢٤٣
أعزز عليّ بأن أراك وقد خلا
عن جانبك مقاعد العواد ٥٣
وحدثني يا سعد عنها فزدني
جنونا فزدني من حديثك يا سعد ٧١
إلى ملكٍ في أيكّة المجد لم يزل
على كبد المعروف من نيله برد ٨٩
تبسمُ وقطوبُ في ندى ووغى
كالغيث والبرد تحت العارض البرد ٩٢
لو شئت لم تُفسد سماحة حاتم
كرماً ولم تهدم مآثر خالد ١٢٦
وليلة كحلت بالنفس مقلتها
ألقت قناع الدجى في كل أخذود ١٨٢
سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم
بني برمكٍ من رائجين وغادي ١٨٨
أربع البلى إن الخشوع لبادي
لقد علم القبائل أن قومي ١٨٨
كيف أسلو وأنت حقفٌ وغصنٌ
فيا أيها الحيران في ظلمة الدجى
ولما أتاني من حماك تحية
وإنَّ بقومٍ سودوك لحاجة
يلقاك بالماء النмир الفتى
ومن خاف أن يلقاه بغي من العدا ٢٢٤
تضوع من أثنائها المسكُ والندُ ٢٣٢
الى سيدٍ لو يظفرون بسيد ٢٤٨
وفي ضمير النفس نارٌ تقيد ٢٦٨

« حرف الراء » — ر —

٥٤	وطابي ويومي ضيق الجحر معور	أقول للحيان : وقد صفرت لهم
٨٦	يا بحر علم عمت في تياره	يا طود حلم ظلت ممتصماً به
٩٤	فعقرة في الدرع ذي القشير	يا طالباً عجائب الأمور
١٠٧	فقد برئت من الإحن الصدور	فقلنا أسلموا إنا أخوكم
١١٣	أبوه ولا كانت كليب تصاهره	الى ملك ما أمه من محارب
١١٣	بها أسد إذ كان سيفاً أميرها	ولست خراسان التي كان خالد
١١٦	أطنين أجنحة الذباب يضير	فدع الوعيد فما وعيدك ضائري
١٢١	حذر الموت وإني لغرور	ولقد أجمع رجلي بها
١٢٤	وما عليّ إذا لم تفهم البقر	عليّ نحت القوافي من معادنها
٤٣	قدر وأبعدها إذا لم تقدر	ما أقرب الأشياء حين يقودها
١٦٥	عزيز علينا أن نراك تسير	تقول التي من بيتها خف محلي
٢٤٧ و ١٦٦	وأصدف عما في ضمان المآزر	أحن الى ما تضر الخمر والحلى
١٨٩	وساعدك النضارة والجبور	ألا يا ديار دام لك السرور
١٩٢	ودونك أحوال الغرام المخامر	وراءك أقوال الوشاة الفواجر
١١٣	ولا البخل يُبقي المال والجد مدبر	فلا الجود يغني المال والجد مُقبل
٢٣٠	في وسمه لسمى' اليك المنبر	ولو أن مشتاقاً تكلف فوق ما
٢٤٢	دث مارسا ركننا ثبير	إسلم ودمت على الحوا
٢٤٤	وفاز باللذة الجسور	من راقب الناس مات هماً
١٤٦	رأي عين ثقة أن ستمار	وترى الطير على آثارنا
٢٥٨	ع ذكراً طيب النشر	ونشري بجميل الصنـ
٣١٩		

- من كل ساجي الطرف أعيد أجيد ومهفف الكشجين أحوى أحور ٢٦٠
 تقاصرت همم الأملك عن ملك أضحى الثناء عليه وهو مقصور ٢٦١
 إن الليالي للأنام مناهل تطوى وتنتشر دونها الأعمار ٢٦٢
 كم من حمار على جواد ومن جواد على حمار ٢٦٢
 أبا العباس لا تحسب لساني لشيء من حل الأشعار عاري ٢٦٣
 حامي الحقيقة محمود الخليفة مهـ دي الطريقة نفّاع وضار ١٦٥
 عزّ على ليلى بندي سدير سوء مبتي ليّلة الغمير ٢٦٦
 ليلٌ بلا نور أجنّ بهممه حبس الأدلة ليس فيه منار ٢٦٨

« حرف الزاي » — ز —

- وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يحن قتل المسلم المتحرز ٧١

« حرف السين » — س —

- ورمل كأوراق العذارى قطمته إذا ألبسته المظلمات الحنادس ٩٧
 وما زال معقولا عقّال عن الندى وما زال محبوسا عن الخير حابس ٢٠٠

« حرف الضاد » — ض —

- مودة ذهب أثمارها شبه وهمة جوهر معروفها عرض ٢٤٩
 يا بياضا أذرى دموعي حتى عاد منها سواد عيني بياضا ٢٥٨

« حرف العين » — ع —

- متنظمط غصب الوحوش مكانها تبارده فالضب جار الضفدع ٤٨

٢٧٢ و ٦٧	وَجَعْتُ مِنَ الْإِصْغَاءِ لَيْتًا وَأَخْذًا	تَلَفْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي
٩٥	كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعًا	فَتَى عَيْشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
١٢٠	لَقَدْ نَطَقْتُ بُطْلًا عَلَيَّ الْأَقَارِعُ	لِعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَيَّ بِهِيْنِ
١٢٧	عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ	وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ
١٤٣	وَلَوْ حَمَلْتُهُ فِي السَّمَاءِ الْمَطَالِعُ	وَمَا لَأَمْرِيءٍ حَاولَتْهُ عَنْكَ مَهْرَبُ
١٩٢	فَلَقَدْ سُنِنَ عَلَى الْكَرِيمِ الْأَرْوَعُ	خَلَعْتُ مِنَ الْحَدَثَانِ أَحْصَنَ أَدْرَعِي
٢٣٠	تَصَمْتُ بِالْمَاءِ ثَوْلِبًا جَدِعا	وَذَاتُ هَدْمٍ عَارٍ نَوَاسِرْهَا

« حرف الفاء » — ف —

٦٩	مَنْ الدَّمْعُ يَبْدُو كَمَا ذَرَفَتْ ذَرْفًا	كَأَنَّ السُّهَاءَ إِنْسَانَ عَيْنٍ غَرِيقَةً
٢٤٥	حَتَّى أَقُومَ بِيَعُضِ مَا سَلَفًا	لَا تَسْدِينَ إِلَيَّ عَارِفَةً

« حرف القاف » — ق —

٥٠	وَعَنْ ذِي الْمَهَارِيِّ أَيْنَ مِنْهَا النِّقَاقُ؟	سَلِيَ الْبَيْدَ أَيْنَ الْجَنُّ مِنَّا بِجَوْزِهَا
٥١	يَصْبِيحُ الْحَصَا فِيهَا صِيَاحُ اللَّقَاقِ	وَمَلْهُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رُبْعِيَّةٌ
٩٦	قَدَاحُ كَأَعْنَاقِ الظُّبَاءِ الْفَوَارِقِ	كَسَاهَا رَطِيبُ الْعَيْشِ فَاعْتَدَتْ لَهَا
٢٥٧	سَاقٌ يَجَازِبُ فَوْقَ سَاقٍ سَاقًا	وَمَرَى سَوَابِقَ دَمْعِهَا فَتَوَاكَفَتْ
٢٦٥	قَوَالٌ مُحْكَمَةٌ جَوَابُ آفَاقِ	حَمَلُ الْوَيْسَةِ شَهَادُ أُنْدِيَّةِ

« حرف الكاف » — ك —

٦٧	أَضْحَجْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ خَرْقِكَ	يَا دَهْرَ قَوْمٍ مِنْ أَخْذَعِيكَ فَقَدْ
١٥٩	فَأَفْرَحَ أُمَّ صَيِّرْتَنِي فِي شِمَالِكَ	أَبْيَنِي أَفِي يَمْنِي يَدِيكَ جَعَلْتَنِي

يا دار غَيْرِكَ البلى' ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك؟! ١٨٩
 هل لما فات من تلافٍ تلافٍ أو لشاكٍ من الصبابة شاكٍ ٢٥٧
 أهديت شيئاً يقلّ لولا أحدوثه الفأل والتبرك ٢٦٢

« حرف اللام » — ل —

وقوفاً بها هجي عليّ مطيئهم يقولون لا تهلك أسيّ وتجمّل ٢٤٣ و ٢٧
 فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلقل عيسى كلّهن قلقل ٢٠٨ و ٥١
 فقلت له لما تمطّى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكسل ٨٧
 كأن الجفون على مقلي ثياب شققن على ثاكل ٩٤
 وميّة أجل الثقلين وجهاً وسالفة وأحسنه قذالا ١٠٧
 أيقطني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال؟ ١١٦
 لو أن الباخلين وأنت منهم رأوك تعلموا منك المطالا ١٢٠
 يقول رجال يجهلون خليقتي لعل زياداً لا أبا لك غافل ١٢٠
 نظرتُ وشخصي مطلع الشمس ظلّه الى الغرب حتى ظلّه الشمس قد غفل ١٢١
 فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولوقطّعوا رأسي لديك وأوصالي ١٣٧
 فصرنا الى الحسنى ورقّ كلامها ورُضتُ فذلتُ صعبة أيّ إذلال ١٥٦
 أما وهوها عذرة وتنصّلا لقد نقل الواشي إليها فأعلا ١٩١
 وإذا البسابل أطربت بهديلهما فأنفِ البلابلَ باحتساء بلابلِ ٢٥ و ٢٠٨
 سارت به صيغ القصائد شرّدا فكأنما كانت صباً وقبولا ٢١٠
 كأنني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال ٢١٧
 لو أن في قلبي كقدر قلامه حُباً وصلتك أو أنتك رسائي ٢٢٠

- وأنا المنية في المواطن كلها
فداء لأمريء سارت إليه
قف العيس من أطلال مية فاسأل
فخيّ ذوي الأضغان تسب عقولهم
٢٢٨ والطمع مني سابقُ الآجالِ
٢٣٨ بعذرة ربّها عمي وخالي
٢٤٠ رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل
٢٤٥ تحيةً ذي الحسنى وقد يرفع النفل
٢٥٥ بسقطِ اللوى بين الدخول فخومل
٢٥٨ قد رحتُ منه على أغرّ محجلِ
٢٦١ وصبوبُ الحزنِ في راحِ شمول
٢٦٢ — إذا تأملتُه — مقلوب إقبال — كيف السرور بإقبال وآخره

« حرف الميم » — م —

- أذاق الغواني حسنه ما آذقني
بيضاء تسحب من قيام فرعها
أين الغزال المستعير من النقا
فأصبحت بعد خطّ بهجتِها
٤٩ وعفّ فجازهن عني بالصرم
٩٢ وتغيب فيه وهو جئلّ أسحُم
٩٧ كفلاً ومن نور الأفاحي مبسما ؟
١١٢ كأنّ قفراً رسوماً قلها
١١٦ زيارته إني إذاً للئيم ؟
١٢٠ ثمانين حولاً لا أبالك يسأم
١٢٠ ولو قطرت في ريق أرقط أرقم
١٤١ مفدّم بسبا الكتان ملثوم
١٦٤ بما في ضمير الحاجبية عالم
١٦٤ ليس الكريم على القنا بمحرّم
١٦٥ قرنت بأزهر في الشمال مفدّم
١٨٦ رهينة عام في الدنان وعام
أذاق الغواني حسنه ما آذقني
بيضاء تسحب من قيام فرعها
أين الغزال المستعير من النقا
فأصبحت بعد خطّ بهجتِها
أترك أن قلت دراهم خالد
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
فلا هجة في الأرض منك منيعة
كأن إبريقهم ظبي على شرف
وددت — وما تغني الودادة — أنني
وشككت بالرمح الأصمّ ثيابه
بزجاجة صفراء ذات أسرة
وصافية تغشى العيون بنورها

- قصر عليه نحية وسلام
يا دار ما فعلت بك الأيام
أحملتي سلمى بكاظمة أسلما
ولم أر مثل جيرانى ومثلى
وقفت وما فى الموت شك لواقف
غيث وليث فغيث حين تسأله
لقد خنت قوماً لو لجأت إليهم
وما مضرب من خليج الفرات
ما زال يهذى بالكارم والعُلا
وتلحقه عند الكارم هزّة
إذا ما غضبنا غضبة مُضربة
يكاد يمسكه عرفان راحته
قم فاسقنيها يا غلام وغنّني
أحلت دى من غير جرم وحرمت
قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت
فلو يعمتهم فى الحشر تجدو
يزدحم الناس على بابـه
أتعرف أطلالاً ونؤباً مهدّما
إلى حتفى مشى قديمى
سودّ ذوائبها ، بيض ترائبها
- نشرت عليه جمالها الأيام ١٨٩
لم يبق فيك بشاشة تستام ١٩٠
..... ١٩٩
لمثلى عند مثلهم مقام ٢٠٤ و ٢٠٨
كأنك فى جفن الردى وهو نائم ٢١٧
عرفاً وليث لدى الهيجاء ضرغام ٢٢١
طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم ٢٢٣
جوف غواربه تلتطم ٢٢٦
حتى ظننا أنه محموم ٢٢٧
كما انتفض المجهود من أم ملدم ٢٢٧
هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما ٢٢٨
ركن الحطيم إذا ما جاء يستسلم ٢٢٩
« ذهب الذين يعيش فى أكنافهم » ٢٣٣
— بلا سبب — يوم اللقاء كلايى ٢٣٩
ويبتلى الله بعض القوم بالنعيم ٢٤٧
لأعطوك الذى صلّوا وصاموا ٢٤٧
والمنهل العذب كثير الزحام ٢٤٨
كخطك فى رق كتاباً منمنا ٢٥٥
أرى قديمى أراق دمي ٢٥٨
محض ضرائبها ، صيغت من الكرم ٢٦٥

« حرف النون » — ن —

١٢	أنت مني في ذمة وأمان	أذهبي في كلاءة الرحمن
٤٧	جعضلفونـه في منبر	إسقي الأسكركة الصـنـة
٥٦	بقلي أم دانت غير مُدان	وهل لخشيف بالمعيق علاقة
١٠٣	بسهب كالصحيفة صححان	فاني قد لقيت الغول تهوي
١٢٠	قد أحوجت سمعي إلى ترجان	إن الثمانين — وبلغتها —
١٣٣	فقد جئنا خراسانا
١٤١	درَس المنا بمتالع فأبان
١٦٢	لسواهم منها سوى الحرمان	وتفرّدوا بالمكرمات فلم يكن
١٨٢	من النار في كل رأس لسانا	كأن الشموع وقد أطلعت
٢١٣	ومن إساءة أهلِ السوء إحسانا	يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة
٢٤٧	لله في طيِّ المكاره كامنـه	كم نعمة لا تستقل بشكرها
٢٥٧	فلا برحت لعين الدهر إنسانا	لم يبق غيرك إنسانٌ يلاذ به
٢٥٧	قال لي بائع الفراني فراني	قلت للقلب ما دهاك أجيني

« حرف الهاء » — ه —

٨٩	وذهبت أنت برأسه وسنامـه	وتقاسم الناس السخاء مجزأ
٩٦	تلذُّ النفوس بأنفاسها ..	أتتك أبا حسن وردة
٩٨	وللقضيب نصيب من نثنـها ..	في طلعة البدر شيء من ملاحظها
١٨٥	وبرد أغانيه وطول قرونـه	وليل كوجه البرقعـيدي ظلمة
٢١٤	دهراً فأصبح حسن العدل يرضيها	وأمة كان قبـح الجور يُسخطها

٢٢٩	يرى قائمٌ من دونها ما وراءها	ملكته بها كفي فأنهت فنتها
٢٣٢	سَ لها في الناس كُنه	ومن البلوى التي له
٢٣٨	صدورها عرفت منها قوافيها	خذها إذا أنشدت للقوم من طرب
٢٦٢	أم نُظِمَ العقد من ثناياها !	تلك الثنايا من عقدها نُظِمَت
٢٦٨	ولا لك شيء في الحقيقة فيها	تنازع في الدنيا سواك وماله
٢٦٩	إذا أغنت فقيراً أرهقته	أرى الدنيا وما وصفت ببر

« حرف الياء » — ي —

٣١	يظن أن كل الظن أن لا تلاقيا	وقد يجمع الله الشيتين بعدما
٥٢	من تبعي مفاض أو سلوكي	من ليس يرقل إلا في سوابغه
١٦٨	دفتنم بصحراء الغمير القوافيا	بني عمنا لا تذكروا الشعر بعدما

فهرست اشعار

« الواردة في حواشي الكتاب »

— حرف الهمزة —

الصفحة

٢٤٨	واخذوا طرف عينها الحوراء	حييا صاحبي أم العلاء
٢٤٨	سب وتغشى منازل الكرماء	يسقط الطير حيث ينتثر الخ
٢٤٩	ومصارع الادلاج والاسراء	يا موضع الشدنية الوجناء

— حرف الماء —

٨٨	فَصَوَابٌ مِنْ مَقْلَةٍ أَنْ تَصُوبُوا	مَنْ سَجَايَا الطُّلُولِ أَنْ لَا تُجَيِّبَا
١٦٦	قَفَا ذَاتَ أَوْشَالٍ وَمَوْلَاكَ قَارِبِ	أَقُولُ لِرَكْبٍ صَادِرِينَ لِقِيَتِهِمْ
٢١٤	وَفِي اللَّثَاثِ وَفِي أَتْيَابِهَا شَنَبِ	لِمَيْءٍ فِي شَفْتَيْهَا حَوَّةٌ لَعَسْ
٢٢٧	دَلُوِي فِي مَاءٍ ذَاكَ الْقَلِيبِ	لَمْ أَزِلْ بَارِدَ الْجَوَانِحِ مَذْخَضُخْتُ
٢٢٨	إِذَا مَا اتَّقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلَ غَالِبِ	جَوَانِحٍ قَدْ أُيْقِنَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ
٢٣٣	وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ	ذَهَبَ الَّذِينَ يَعَاشُ فِي أَكْمَافِهِمْ
٢٤٦	وَلَيْلِ أَقَاسِمِهِ بِطِيِّ الْكَوَاكِبِ	كَلِمَتِي لَهُمْ يَا أُمِيمَةَ نَاصِبِ
٢٥٥	فَالْقَطِيبِيُّـــاتِ فَالذَّنُوبِ	أَقْفَرُ مَنْ أَهْلُهُ مُلْحُوبِ
٢٦٠	أَذِيلَتِ صَوْنَاتُ الدَّمْعِ وَسَوَاكِبِ	عَلَى مَثَلِهَا مِنْ أَرْبَعٍ وَمَلَاعِبِ
٢٦٣	فِي حَدِّهِ الْحَدَّ بَيْنَ الْجُدِّ وَاللَّعِبِ	السَّيْفُ أَصْدُقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كل مفرية سرب ٢٦٤

— حرف الناء —

سرب محاسنه حرمت ذواتها داني الصفات بعيد موصوفاتها ١٦٦
أقول لمرتاد الندى عند مالك تعودُ بجدوى مالك وصلاته ٢٤٧

— حرف الثاء —

فجدّ لهم عن صهوة الطرف راكب وأظعنهم عن جانب الطود ما كث ٤٦

— حرف الجيم —

خشّاب هل لمحّب عندكم فرجُ أو لا فإنني بجبل الموت معتلج ٢٤٤

— حرف الحاء —

ذكرتك أن مرث بنا أم شادن أمام المطايا تشرّب وتسفح ١

— حرف الدال —

أعلمت من حملوا على الأعواد أرايت كيف خبا ضياء النادي ٥٣
إني تركت الصبا عمداً ولم أكدر من غير شيب ولا عدل ولا فند ١٩
عجباً لطيف خيالك المتعاهد ولوصلك التقارب المتباعد ١٢٦
إذا وجدت أوار الحب في كبدي أقبلت نحو سقاء القوم أبترد ٢٣٦

— حرف الراء —

يا ما أميلج غزلاناً شدن لنا من هؤلاء أكن الضال والسمر ١
لا يفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجحر ١٠٦
أعلي إنك جاهل مغرور لا ظلمة لك لا ولا لك نور ١١٧

١٢٤	وبالغ منه لو لا أنه حجر	في الشيب زجر له لو كان ينزجر
٢٤٨ و ١٢٤	وما علي لهم أن تفهم البقر	عليّ نحت القوافي من مقاطعها
١٦٦	أخو الجد لا مستنصراً بالمعاذر	بغير شفيح نال عفو المقادر
١٦٦	وأصبي إلى ثم الحدود النواظر	ولله قلبي ما أرق على الهوى
٢٥٨	على شاكلة النجر	ونجري في شـرى الحمد
٢٦٠	هيجن حر جوى وفرط تذكر	إنّ الظباء غداة سفتح محجر

— حرف السين —

١٩٩	بحيث تلاقى عازب فالأواعس	وما ذات أرواقٍ تصدّي لجؤذر
-----	--------------------------	----------------------------

— حرف الضاد —

٢٤٩	من دونه شرق من تحته جرض	ذل السؤال شجى في الحلق معترض
-----	-------------------------	------------------------------

— حرف العين —

٢٧٢ و ٦٧	مزارك من ريا وشعبا كما معا	حننت الى ريا ونفسك باعدت
٩٥	سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا	ألمّا على معنٍ وقولا لقبره
١٢٨	وصانعت أعدائي عليك لموجع	وإني وإن أظهرت صبراً وحسبة
١٢٧	وحل الذي لا يستطاع فيدفعُ	قضى وطراً منك الحبيب المودع
٢٣٠	إن الذي تحذرين قد وقعا	أيّتها النفس أجلي جزعاً

— حرف الفاء —

٢٤٥	حتى أقوم بشكر ما سلفا
٢٤٥	قوماً عدىً ومحلة قذفا	حلت سعاد وأهلها سرفا

— حرف القاف —

- هو البين حتى ما تأنى الحزائق ويا قلب حتى أنت ممن أفارق ٥٠
تذكرت ما بين العذيب وبارق مجرّ عوالينا ومجرى السوابق ٥١
وترى سوابق دمعها فتوا كفت ساق تجاوب فوق ساقٍ ساقا ٢٥٧

— حرف الكاف —

- ضياء الشمس جزء من جبينك وناصية الليالي في يمينك ١
قد مات محل الزمان من فرقك وأكثن أهل الاعدام في ورقك ٦٧
قفى يا أميم القلب نقض لبانة ونشك الهوى ثم أفعلي ما بدا لك ١٥٩
أبيت كأني بين شقين من عصا حذار الردى أو خيفة من زياك ١٥٩
فقلت أجزني أبا خالد وإلا فهمني امرأ هالكا ٢٣٦

— حرف اللام —

- لا تعمر الدنيا فليد س الى البقاء بها سبيل ٢٠
قفا تريا ودقي فهاتا الخايل ولا تحشيا خلفا لا أنا قائل ٥١ و ٢٠٨
الام طماعية العاذل ولا رأي في الحب للعاقل ٩٤
ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي

وهل يعمن من كان في العصر الحالي ١١٦ و ١٣٧ و ١٥٦

- وأنجع من فقدنا من وجدنا قبيل الفقد مفقود المثال ٢٠٨
أمن ظلامه الدمن البوالي بمرفض الحبي إلى وعال ٢٣٨
أهلاً بذلك الخيال المقبل فعل الذي نهواه أو لم يفعل ٢٥٨
أكنت معنفي يوم الرحيل وقد لجت دموعي في الهمول ٢٦١

— حرف الميم —

٢٧	أو يرتبط بعض النفوس حمامها	٢٧	تراك أمكنة إذا لم أرضها
٤٩	لعلّ بها مثل الذي بي من السقم	٤٩	ملام النوى في ظلمها غاية الظلم
٩٧	وتعلما أن الهوى ما هجما	٩٧	أحملتي سلمى بكاطمة اسلمها
١٤١	أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم	١٤١	أما علمت وما استودعت مكتوم
١٨٩	خلعت عليه جالها الأيام	١٨٩	قصر عليه تحية وسلام
٢٤٧ و ٢٠٤	وعمر مثل ما تهب اللثام	٢٤٧ و ٢٠٤	فؤاد ما تسليه المدام
٢١٧	وتأتي على قدر الكرام المكارم	٢١٧	على قدر أهل العزم تأتي العزائم
٢٢٢	لبئس المدى أجرى إليه ابن ضمضم	٢٢٢	وقائلة والدمع يحدر كحلها
٢٢٦	أم الحبل وإي بها منجذم	٢٢٦	أتهجر غانية أم تلم
٢٢٧	وغدت عليهم نضرة ونعيم	٢٢٧	أسقى طولهم أجش هزيم
٢٣٢	وما كاد مني ودهم يتصرّم	٢٣٢	تصرّم مني ود بكر بن وائل
٢٣٣	وتقبلوا الأخلاق من أسلافهم	٢٣٣	أصبحت بين معاشر هجروا الندى
٢٤٧	ذا مهجة عن ملات الردى حرم	٢٤٧	إلياس كن في ضمان الله والذمم
٢٥٥	شهوراً وأياماً وحولاً مجرّما	٢٥٥	أذاعت به الأرواح بعد أنيسها

— حرف النون —

١٠٤	بما لاقيت عند رحي بطان	١٠٤	ألا من مبلغ فتیان فهم
١٣٣	ثم القبول فقد جئنا خراسانا	١٣٣	قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا

— حرف الهاء —

١٨٥	أبو جابر في ضبطه وجنونه	١٨٥	على أولق فيه الهباب كأنه
-----	-------------------------	-----	--------------------------

ميلوا الى الدار من ليلي نحييها نعم ونسألها عن بعض أهلها ٢١٣
فلا يخدع بحيلها أديب وإن هي سورته ونطقته ٢٦٩

— حرف الياء —

قولا لمعتل الرمح الرديني والمرتدي بالرداء الهندواني

فهرست الألفاظ اللغوية المرحمة

الواردة في حواشي الكتاب

الصفحة		الصفحة	
١٧٦	عقيب (وأستعمله ظرفاً)	٧	تحفظ (ومعناه)
١٠ - ١١	العيش والمعيشة	٦٢	مدوف ومدووف
٢٣٨	فضلاً عن (وأستعمله)	١٩٦	ذات وذاتي
١٧	ما الموصولة (وضميرها)	١٨٠	ذهب به وأذهب
٥٠	النقائق	٢٦	ارتبط (وتعديته)
٢٣٦	هب أنه (وأستعملها)	٢٣٢	ضمن (وتعديته)
٢٢٥ و ٢٣	أودع (وتعديته)	١٧٧	بالإضافة (ومعناه)
١٧٧	توفر وتوافر	٣٢	الشياع والشيوع
		٤٨	انضاف (وأستعمله)

فهرست الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٩	السطر الأخير من الهامش	(لم يكتب شي)	(٣) الآية ٣٦ والسورة يوسف
٥١	٩	اللقاق	اللقاق (١٠)
٦٨	٩	ويكون فيه الى الى الدم أقرب	ويكون فيه الى الدم أقرب
٨١	١٦	تون	توفي
٩٣	١٥	بكم	بكم
٩٦	٥	يدها	يديها
٩٧	١٨، ١٧	من الجهة	الى الجهة
٩٩	١٤	تحسناً	تحسناً
١٠٠	١٨	ربي	وبي
١٠١	١	وبعد	وبعداً
١٠١	١٤	القسم الثالث	القسم الثاني
١٠٤	٧	وبالمضارع عن الماضي	وبالماضي عن المضارع
١٠٥	٣	الآية	لآية
١٠٨	١٦	عنوا	عنوا
١٠٨	١٧	عنو	عنوا
١٠٩	١٩	وأما تقدير خبر المبتدأ	وأما تقديم خبر المبتدأ
١٠٩	٣	الفائدة	لفائدة
١١٠	١٤	أنه	إن

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١١٠	١٦	وكلام	وكلا
١١٠	٢٠	وإن علنيا	ثم إن علينا
	٨	لا يغيره	بغيره
١١٢	١٠	سواءً كان بياناً أو نسقاً	سواءً أ كان بياناً أم نسقاً
١١٣	١	كان	كأن
١١٣	١	مهمتها	بمهمتها
١١٤	١٠	عجيباً المأخذ	عجيب المأخذ
١١٤	١١	المؤلف الكلام	المؤلف للكلام
١١٥	١٥	نريد	نريد
١١٧	٥	أأخذ غير غير الله	أأخذ غير الله
١١٨	١٦	يأتي في الكلام لفائدة	يأتي في الكلام لغير فائدة
١١٩	٢	السابع	السامع
١١٩	١٠	وفضاله	وفضاله
١٢٣	١٤	ومتناولها	ومتناولاً
١٣٠	٧	من كل حرب	من كل حذب ينسلون
٢٣٢	١٥	لا صلاةً	لا صلاة
١٣٦	٢	أنه	أن
١٣٦	١٥	وجوهم	وجوهم
١٣٧	١٥	المقدور	المقدّر .
١٤١	٧	الكتانة	الكتّان .
١٤١	١٨	وما يسوغ روى النائر	وما يسوغ دون النائر
١٤٢	١	وان كان كان جائزاً	وإن كان جائزاً
١٤٥	٥	اضاف المسكاره	أصناف المسكاره

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٥٠	١٥	البلاغة	بلاغة
١٥١	١٣	وإِما حقيقة	إِما حقيقة
١٥٢	٢٠	أَنَّ	إِنَّ
١٥٧	١٥	فتوضح	فتوضع
١٦٢	١١	ذو شك	ذو شك
١٦٥	١	برجاجة	بزجاجة
١٦٩	١٠	في استعمال العام والخاص في الاثبات	في استعمال العام في النفي والخاص في الاثبات
١٦٩	١٨	فان	كان
١٧١	٢١	مرغليون	مرغليوث
١٧١	٢	وكان يلزم وصف	وكان يلزم من وصف
١٧٩	١٢	كأن	كان
١٧٩	١	الآتي	اللاتي
١٨٢	١٢	بين	بينهما
١٨٥	٨	كمن	كأن
١٨٦	١٤	وجهه	وجه
١٨٦	١	حق	حتى
١٨٨	٨	عاصر	عام
١٩٧	١١	بني بربك	بني بربك
١٩٨	٥	يترد	يتردد
١٩٨	٣	تمتّع	تمتّع
٢٠١	١٠	لأن	لأنه
٢٠٤	١٠	بفخامة	بفخامته .

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٠٤	٢٠	المغيث بي علي العجلي	المغيث بن علي العجلي
٢٠١	٧	النوع الثالث من الباب الأول	النوع الثاني عشر من الباب الأول
٢٠٥	٣	أعبدَ	أعبدُ
٢٠٥	٧	له شئتم	ما شئتم
٢٠٥	١٠	إلهين	إلهي
٢٠٨	١١	واحداً	واحدٍ
٢٠١	١٢	يدل معنى	يدل على معنى
٢٢٠	٨	وهجركم	وحبكم
٢٢٤	٥	بآراء	بإزاء
٢٢٧	١٤	ومنها ما لا يحسن	ومنها ما يحسن
٢٢٩	١٢	ويؤثر	ويؤثره
٢٢٩	٢٤	شادة	شهادة
٢٣٦	١٥	أذنية	أذينة
٢٤٦	٢	المدكور	المذكور
١٤٦	٣	بينك	بينك
٢٥٤	٩	مدة	أمدَه